الدكتور
أحمد محمد الحوفى

أستاذ الأدب العربى
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الغزل فى العصر الجاهلى

الطبعة الثانية

معدلة ومزيدة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

مطبعة النهضة العربية
١٣ شارع كامل صدقى (القاهرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أما بعد ، فلست أشك فى أن الغزل أصدق فنون الشعر الجاهلى وأحراها بالدراسة ، لأنه بنوعيه : عُذْرِىٍّ وحِسِّىٍّ تعبير صادق عن عاطفة صادقة .

ذلك بأنه لم تبتعثه مطامع فى كسب من أمير أو زلفى إلى ملك ، ولم يدفع إليه تكاثر بالمحامد وتفاخر بالفضائل ، ولم يوح به تَشَفٍّ من خصم أو تنقص من قَدْرِ منافسٍ ، وإنما أزجته العاطفة الجيَّاشة ، والميل إلى الإفصاح عن التجربة الوجدانية التى جرَّبها الشاعر .

ثم إن الغزل يصور من أحوال النفوس مالا يصوره غيره ، لأنه يكشف عن دخيلة المحب ، ويكشف عن سريرة المحبوبة ، وينبع من عاطفة الحب ، ويدور حول المرأة ، والحب والمرأة ينبوع ثَرٌّ حارٌّ يتدفق بالشعر فى كل عصر وفى كل جيل ، والغزل — لهذا — لا يمثل عاطفة قائله وحده ، بل يمثل أيضاً العاطفة الإنسانية الخالدة ، فهو أصلح فنون الشعر لأن يكون عالميا ، يهز مشاعر القراء من كل جنس وقبيل . على أنه أقوى فنون الشعر العربى انطباعا بالبيئة ، وتأثراً بالعقلية ، وتمثيلا لأحوال المرأة ، كجمالها وتجملها واخلاقها ، مما لم تصوره بقية فنون الشعر إلا ناقصاً ناصلا .

وهو إلى ذلك كله أبرز فنون الشعر تأثيراً فيما بعد من العصور معنىً وخيالا وأسلوبا ، وأبعدها عن النَّحْل والوضع ، لأنه لا يؤيد عصبية قبلية ، ولا يعضُد نزعة حزبية ، ولا يتصل بشىء مما كان يدعو أحياناً إلى وضع الشعر ونحله .

ولا أعلم أن باحثاً قد خص هذا الموضوع بدراسة ، على حيويته وطرافته وعظم قيمته ، وجدارته بدراسة مفصلة مستقلة .

ولا أعلم أيضاً أن فناً من فنون الشعر الجاهلى قد نال حقه من الدراسة ، على ما للشعر الجاهلى من عظم القدر والأثر .

وإن الشعر الجاهلى — فى رأيى — لجدير بأن تستمد منه صور الحياة العربية ، لأنه مرآة العرب ، ومُجتَلى عواطفهم ، ومَعرِض أخلاقهم ، وديوان معتقداتهم وعاداتهم ، والمترجم عن مُثُلهم ، فهو الصدى القوى الصحيح لحياتهم .

ولا يَغُضُّ من شأنه أن قد نُحِلَ قليلٌ منه ، لأن هذا المنحول قد نبه العلماءُ عليه ، ولأن الشعراء الذين نحلوه كانوا ذوى خبرة ودراية بالحياة العربية فى العصر الجاهلى ، فشعرهم بالنسبة إلى هذه الحياة كالصورة المنعكسة فى المرآة[1] .

وليس من الصواب أن نعتمد فى دراسة الحياة العربية على التاريخ وحده ، بل الصواب أن نعتمد أولا على الشعر الذى صوّر هذه الحياة وأحسن تصويرها .

ولست أنكر أنه عرضة لأن يعتوره الكذب ، وتتطرق إليه المبالغة ، ولكنى أرى أن الكذب والمبالغة يتطرقان أيضاً إلى التاريخ المدوّن والآثار المكتوبة ، لأن التاريخ تسجيل فرد أو أفراد ، فهو عرضة لأن يتأثر بالرواية المنقولة ، ولقد تكون مدخولة ، وعرضة أيضاً لأن يميل مع الهوى والعاطفة ، ولذلك كثيراً ما تتعارض كتب التاريخ وتتناقض .

ولكن الشعر تسجيل آلاف من الشعراء من قبائل شتى فى زمن طويل ، فهو أوسع مجالا من التاريخ لاستنباط الحياة من سجلات متنوعة ، خلفها

---

(١) فصلت القول فى هذا بعض التفصيل فى (كتابى المرأة فى الشعر الجاهلى) و (أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى) .

شعراء عبروا عن عواطفهم صادقين ، وصوروا حياتهم العامة غير كاذبين . وإذا كان فى شعرهم ألوان من الخيال، فإن من مميزات الأدب هذا التخييل والتجميل الذى لا يخلو من تهويل .

على أن الشعر أدق تصويراً للحياة ؛ لأنه يتناول ما يهمله التاريخ مما لا يتصل بالأحداث والحروب والسياسة .

لهذا كانت إلياذة هوميروس وما زالت — على أنها حافلة بالأساطير — مَرَاداً للباحثين ، يستنتجون منها كثيراً مما يتصل بحياة اليونان .

ويسعدنى أنى قد بدأت هذه المحاولة ، وكان لهذه الرسالة الفضل ؛ لأنى كنت أقرأ لأخرج رسالة عن (المرأة فى الشعر الجاهلى) فتبين لى أن الشعر الجاهلى وثيق الصلة بالحياة العربية كلها ، فألفت كتاب (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) وهو المحاولة الأولى .

وأتبعته بهذه الرسالة ، وهى المحاولة الثانية . ثم ألفت (المرأة فى الشعر الجاهلى) وهى المحاولة الثالثة ، وكانت الرابعة (أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى) .

وقد رجعت فى إعداد هذه الرسالة إلى كل ما استطعت أن أرجع إليه من مصادر عربية وإفرنجية ، وحرصت على أن أعزُو كل نص أو فكرة إلى المصدر الذى استقيتُ منه ، لتكون الرسالة صورة للأمانة العلمية ، وللجهد الذى تطلبَتْه .

على أنى عدلت فى هذه الطبعة تعديلا كبيرا تناول المادة والمنهج والعرض .

وأرجو أن أكون بهذا قد أديت للأدب العربى بعض ماله فى قلبى من حب وإعزاز .

أحمد محمد الحوفى

جمادى الثانية ١٣٨١
نوفمبر ١٩٦١

الفصل الأول

الغزل

حقيقته :

دارت على الألسن والأقلام منذ عهد بعيد هذه الكلمات الثلاث : الغزل ، والنسيب ، والتشبيب ، واختلف فى مدلولها ، أهى مترادفات تؤدى معنى واحداً ؟ أم هى مختلفات الدلالة ؟

ويحسن بى أن ألم فى إيجاز بما أدلى به اللغويون والأدباء ، ثم أختار الرأى الذى أميل إليه .

١ — ابن سيده يقول إن الغزل تحديث الفتيان الجوارى ، والتغزل : تكلف ذلك ، والنسيب : التغزل بهن فى الشعر ، والتشبيب مثله (١) .

وابن منظور يقول إن الغزل حديث الفتيان والفتيات واللهو مع النساء ، ومغازلتهن : محادثتهن ومراودتهن ، والتغزل : التكلف لذلك ، وفى المثل هو أغزل من امرىء القيس (٢) . ويقول فى موضع آخر : نسب بالنساء ينسب نسباً ونسيبا ومنسبة : شبب بهن فى الشعر وتغزل (٣) ، وفى موضع ثالث : شبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب ، وهو يشبب بها أى ينسب بها (٤) . ويقول الزبيدى مثل ذلك ، وينقل عن غيره أن الكلمات الثلاث مترادفة ، ثم يحاول أن يفرق بينها (٥) .

---

(١) المخصص ٤/٥٤ — ٥٥ (٢) لسان العرب ٤/٤ (٣) لسان العرب ٢/٢٥٣
(٤) لسان العرب ٢/٤٦٣ (٥) تاج العروس مادة شبب ونسب وغزل .

وإذاً فالكلمات مترادفات فى رأى هؤلاء، وهم من أكبر علماء اللغة.

٢ — فما رأى الأدباء؟

ابن سلام — وهو أول من كتب فى تاريخ الأدب — يستعمل الكلمات الثلاث متحدة المعنى. يقول: «كان لكُثَيِّر فى التشبيب نصيب وافر، وجميل مقدم عليه فى النسيب»[١].

ويقول: «كان عبيدالله بن قيس الرقيات غزلا، وأغزل من شعره شعر عمر بن أبى ربيعة وكان عمر يصرح بالغزل ولا يهجو ولا يمدح، وكان عبيدالله يشبب ولا يصرح، ولم يكن له معقود شعر وغزل كغزل عمر»[٢].

ويقول: «سبق امرؤ القيس العرب إلى أشياء ابتدعها... منها رقة النسيب»[٣].

فهو فى العبارة الأولى يقول إن كُثَيِّراً ذو تشبيب، وفى العبارة الثانية يقول إن عبيد الله بن قيس كان غزلا، وإن غزل عمر أحسن من غزله، وإن عمر كان يصرح بغزله، ولكن ابن قيس كان يشبب ولا يصرح. وإذن فالغزل والتشبيب بمعنى واحد.

ونعود إلى عبارته الأولى فنجده يقرر أن كثيراً كان له نصيب وافر فى التشبيب، وأن جميلا مقدم عليه فى النسيب، ثم نقرأ العبارة الثالثة فنجده ينسب إلى امرىء القيس رقة النسيب. وإذن فالنسيب والتشبيب معناهما واحد. وتنتهى بنا هذه النصوص إلى أن الغزل والنسيب والتشبيب كلمات مترادفة فى رأى ابن سلام.

وقد عبر جرير عن شعر عمر بن أبى ربيعة بأنه نسيب فى قوله: «إنكم يا أهل المدينة يعجبكم النسيب، وإن أنسب الناس المخزومى»[٤].

وعبر عنه نوفل بن مساحق بأنه غزلى[٥].

واستعمل أبو الفرج الأصفهانى الغزل دالا على النسيب فى مواضع شتى،

(١) طبقات الشعراء ١٨٤ (٢) الطبقات ٢٠٣ (٣) الطبقات ٢٧
(٤) الأغانى ١/٧٦ (٥) الأغانى ١/١١٣

من ذلك قوله : «وكان العباس بن الأحنف شاعراً غزلا شريفاً مطبوعاً ، ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح أو هجاء »[1] .

ورأى ابن رشيق أن « التغزل والنسيب والتشبيب كلها بمعنى واحد ، وأن الغزل إلف النساء والتخلق بما يوافقهن ، وقد أوضح قدامة فى كتابه نقد الشعر أن الغزل غير التغزل »[2]

ولكنى لا أميل إلى التفرقة بين الغزل والتغزل ، لأن التغزل ليس تكلف الغزل كما قد يتبادر ، ذلك أن التاء هنا كالتاء فى مصادر أخرى مثل التقدم والترقى والتعلم ، والتوحد والتكبر[3] .

وكذلك جاء الغزل والتشبيب مترادفين فى قول الجاحظ :

« فأما الغناء المطرب فى الشعر الغزل فإنما ذ ٤ من حقوق النساء ، وإنما ينبغى أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتى فيهن نطقت تلك الأشعار ، وهن شبب الرجال[4] .

وأرى أن الغزل والنسيب بمعنى واحد فى رأى أبى تمام ، لأنه عقد فى الحماسة بابا للنسيب . اختار فيه قصائد تعبر عن أشواق المحب وأثر الحب فى نفسه ،وقصائد تصف جمال المرأة الجسدى،ولم يفرد بابا للغزل ولا للتشبيب . ومن أمثلة ذلك مقطوعة لعبد الله بن عجلان النهدى[5] وأخرى لعمر بن أبى ربيعة[6] وثالثة لبكر بن النطاح[7] . ولو انه رأى أن الغزل غير النسيب وغير التشبيب لأفرد لكل منها بابا .

كذلك لم يفرد البحترى لكل منها بابا فى حماسته ، على أنه أغرق فى تقسيمها فجعلها أربعة وسبعين ومائة باب .

٣ — ولست أنكر أن بعض القدماء والمحدثين حاولوا التفرقة بين

---

(١) الأغانى ٨/١٤ (٢) العمدة ٢/٩٤ (٣) هامش القاموس المحيط مادة رحم

(٤) رسالة العشق والنساء ١٦٥ من مجموعة رسائل الجاحظ .

(٥) شرح الحماسة للتبريزى ٣/١٢٩ (٦) المرجع السابق ٣/١٣٩ .

(٧) المرجع السابق ٣/١٤٠ .

الغزل والنسيب والتشبيب ، ولكنهم اعتمدوا فى تفرقتهم على ذوق شخصى ، وهم لهذا قد اختلفوا .

فمثلا حاول التبريزى أن يفرق بينهما ، فقال : «النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل ، وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن ، والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه»(١) ، فالغزل فى رأيه حب المرأة والميل إليها ، والنسيب هو التعبير عن هذا الحب ، وفى هذا الرأى مخالفة لما ذكره اللغويون والأدباء من قبل .

واعترف الأستاذ السباعى بيومى بأن الكلمات مترادفة ، وأن التفرقة بينهما متعذرة ، ثم حاول أن يخصص كلا منها بإطلاق فقال : «ويحسن أن نختص مطالع القصائد التى تعرض لذكر المرأة باسم التشبيب ، وهذا فرق ما بينه وبين الغزل والنسيب . أما الفرق بين هذين فعلى تعذر حده يمكن أن يقال إن الغزل ما عمد فيه الشاعر إلى وصف المرأة مدفوعاً إلى ذلك بعقيدة أو مسوقاً فيه بصناعة ، والنسيب ما توجه فيه إلى ذكر الصبابة والوجد وألم الهوى والفراق صادراً عن وجدان وشعور لا يكونان إلا للمحبين المغرمين»(٢) .

وهذا الرأى الشخصى يختلف ورأى التبريزى السابق ، ويختلف ورأى الأستاذ محمد هاشم عطية إذ يقول : «وقد يكون من الخير أن نذكر بقدر ما نستطيع شيئاً نجعله شبيها بالتحديد لهذه الكلمات العامة ، ويترجح عندنا أن الغزل هو الاشتهار بمودات النساء وتتبعهن والحديث إليهن والعبث بذلك فى الكلام ، وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبابة ، وأما التشبيب فهو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة فى مطالع الكلام ، وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال ، توخيا لتعليق القلوب وتقييد الأسماع قبل المفاجأة بالغرض من الكلام ، وأما النسيب فهو أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى وما يصفه من التجنى

---

(١) شرح ديوان الحماسة ٣/١١٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى ١١٠ — ١١١

وما يعرض له من ذكر محاسن النساء[١] » .

وهذان الرأيان يتفقان فى أن التشبيب هو الغزل التمهيدى ، ويختلفان فى غير ذلك ، فوصف جمال المرأة ومحاسنها وجاذبيتها نسيب عند الاستاذ هاشم ، وغزل عند الأستاذ السباعى .

٤ — لهذا رأيت أن آخذ برأى اللغويين والأدباء من القدماء ، فلا أفرق بين مدلولات هذه الكلمات .

وقد اخترت كلمة الغزل دلالة على الأنواع كلها ؛ لأنها أخف نطقاً وأكثر شيوعا . وإلى ذلك ذهب الدكتور طه حسين ، حيث يقول : « ينقسم الغزل أيام بنى أمية ثلاثة أقسام مستقلة : أحدها غزل العذريين الذين كانوا يتغنون فى شعرهم هذا الحب الأفلاطونى العفيف ، والثانى غزل الإباحيين الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية ، والثالث الغزل العادى الذى ليس هو فى حقيقة الأمر إلا استمراراً للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين[٢] » . ثم يقول فى موضع آخر : « نحسب أنا قد وصفنا مع ما تحتمله صحيفة سيارة من الوضوح نشأة النسيب أيام بنى أمية[٣] » ، وهو يشير بهذا إلى الغزل فى كلامه السابق .

بواعث الغزل :

لماذا يتغزل الشاعر ؟

(ا) يتغزل ليعبر عن عاطفة الحب المرأة التى اختارها قلبه ، وليعبر عن عاطفة إعجابه بجمال هذه المرأة كما يراها هو لا كما يراها غيره ، وهو فى الحالين يصور مشاعره ويصف آلامه وآماله ، ويكشف عما يختلج بقلبه ويعتلج بنفسه .

وسأفصل القول فى الحب وفى جمال المرأة ؛ لأنهما من بواعث الغزل ، ولأن جمال المرأة أيضاً — كما صورها الغزلون — ثمرة لهذا الغزل .

(ب) ويتغزل لأنه مدفوع بميله الفنى إلى التعبير عما بنفسه .

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١٠٧ (٢) حديث الأربعاء ١/٢٣٣
(٣) حديث الأربعاء ١/٢٣٩ .

ووسيلة الشاعر للتعبير عن عاطفته هذا الشعر الحار الصادق الرائع ، يصور به عاطفته كما يصور الرسام عاطفته بدهانه وألوانه ، وكما يصور الموسيقى عاطفته بأنغامه وألحانه ، وكما يصور النحّات المثّال عاطفته بإزميله وصوّانه .

الشاعر فنان ، لا بدّ له من أن يعبر عما يجيش بنفسه ، وهذا الميل الفنى باعث آخر من بواعث الغزل

ولو أن المحبين كلهم مفطورون على القريض لكان من الطبيعى أن يتغزلوا جميعاً ، ولكنهم ليسوا كذلك فقد يحب الرجل حباً حاراً عنيفاً ولكنه غير مفطور على الشاعرية ، فلا يتغزل ، وحينئذ ينفس عن عاطفته بشىء آخر ، كغناء أو نجوى لصديق ، أو يدع لأنامله أن تترجم عن مشاعره بموسيقى أو رسم أو نحت ، ولقد يجد برد الراحة فى بثه لمن أحبها بكلمات حلوة خلابة لها من الشعر روحه وإن لم يكن لها مظهره .

ولكن العرب أمة شاعرة[١]، والشعر هو الفن الجميل الذى صوروا به عواطفهم ، وقد بقى من شعرهم فيض غزير مختلف الألوان والخصائص ، والغزل جدول مترع من هذا الفيض .

وبحسب العربى المحب أن يحدث حبيبته ، أو يحن إليها ، أو يراها ، أو يتفجع لرحيلها ، لتجيش عاطفته فيهدر بالقريض .

وقد اتسم غزلهم بالرقة إذا ما قيس إلى أدبهم ، لأنه تصوير لعاطفة الحب ، « وهذه العاطفة ناشئة من عدة انفعالات هى الحنو ، والجنس ، والاحترام ، والعطف »[٢] .

فهى تلهم شعراً فيه ليونة ومرونة واستمالة ، وحتى الحب اليائس يلهم شعراً يستدر العطف والإشفاق .

قال الجاحظ : « ولو أن رجلا من أدمث الناس وأشدهم تلخيصاً لكلامه ، ومحاسبة لنفسه ، ثم جلس مع امرأة — وكان لا يُعرَفُ بحسن

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : أحمد الحوفى ١٠٦ — ١١٤ .
(٢) العقل الباطن تأليف سادلر ٧٨ .

الحديث – ثم كان يعشقها ، لتناتج بينهما من الأحاديث ، ولتلاقح بينهما من المعاني والألفاظ ما كان لا يجرى بين دغفل بن حنظلة وبين بشار بن الخرة ، وإنما هذا على قدر تمكن الغزل من الرجل (١).

قيمته الفنية :

الغزل وليد عاطفة الحب ، وتصوير لنفسية قائله ، فهو إذن يتسم بالصدق الشعورى ، ويمتاز من أبواب الشعر الأخرى كالمدح والوصف والهجاء والفخر ، لأن هذه الأغراض كثيراً ما كانت تنبعث عن ملق أو تَنفـُّج أو ادعاء ،فتُحرَم صِدْقَ الشعور وحرارة العاطفة ، فتجىء متكلفة فاترة ، غير مصورة لنفسية الشاعر . أما الغزل فقلما كان ينبعث عن محاكاة أو تكلف .

والغزل يتسم أيضاً بالصدق الفنى ، أريد القدرة على التعبير الصادق عن العاطفة ، والبراعة فى تصويرها ، حتى لكأن الشاعر يجسمها لقرائه وسامعيه ، فيشاركونه مشاركة وجدانية فى أفراحه وأتراحه ، ويشعر كل منهم أن هذا ليس تعبيراً عن عاطفة الشاعر وحده ، وإنما هو تعبير عن العاطفة الإنسانية الخالدة .

وإن الغزل الموسوم بالصدق الشعورى والصدق الفنى من أسمى أبواب الشعر العربى إن لم يكن أسماها ، وهو لهذا خليق بدراسة مفصلة وتحليل دقيق .

على أنه أيضاً الفن القولى الذى كان صادق التجاوب مع البيئة والعقلية والطبع ، كما سأوضح هذا فى فصل خاص ، وإن شئنا الموازنة بينه وبين الأبواب الأخرى قلنا إنه كان أصدق تصويرا واستمداداً وتأثراً بالبيئة والعقلية والطبع من بقية أبواب الشعر العربى .

---

(١) رسالة العشق والنساء من مجموعة رسائل للجاحظ ١٦٥ .

هـذا إلى أنه سجل خالد ضخم نستشف من صفحاته كثيراً من ألوان الحضارة والأخلاق والعادات ، وسنرى فى الفصول التالية ،أن الشعراء الغزلين وصفوا جمال المرأة جسداً ونفساً ، ووصفوا تجملها من ملابس وحلى وطيب وتزين ، وتحدثوا بأخلاقها ، وسـنرى وصف المحبين لمشاعرهم حين رحيل الحبيبة ، ووصفهم للظعائن والحدوج ، وحديثهم عن الوشـاة والعذال ، ووقوفهم بالأطلال الخ . وفى ذلك كله مدد لدراسة أحوال هذا المجتمع العربى تـكشف عن حضارة ومدنية ، وتـكشف عن العواطف الإنسانية الخالدة .

على أن الغزل فن قديم زاوله الشعراء جميعاً ، وجودوه ، وشققوا معانيه ، وسنرى فى دراسة أنواعه وخصائصه كيف قلد بعضهم ، وكيف ابتكر آخرون ، ونقف على أثر البيئة فى هـذا الفن من حيث التصوير والتعبير ومن حيث المعانى .

وشىء آخر يؤكد قيمة هذا الغزل ، أنه ظل قوياً حياً يؤثر فيما بعده من العصور تصويراً وتعبيراً إلى العصر الحديث .

ولست أبعد حين أستنبط من حب العرب للمرأة وغزلهم فيها أنهم لم يكونوا همجاً ، لأن العربى لم يسلك فى نيل المرأة ما كان يسلكه الإنسان الهمجى من اختطافها ليحوزها ، فلما ارتقى صار لا يخطفها لـكن يستميلها ويستهويها ، بل كان العربى يجتذبها إليه بأعماله ، أو بأقواله ، أى بشعره الغزل . وليس أدل على جدوى هذه الوسيلة فى استهواء المرأة من كثرة الغزل العربى فى العصر الجاهلى ، ومن غنى اللغة بكلمات تدل على الحب وآثاره ، وتتصل بكثير من شئون المرأة فى الجمال والتجمل .

وبعد فإن الحب عاطفة شائعة تعمر قلوب كثير من الناس ، ولا تختلف حقيقتها كثيراً باختلاف البيئات والأزمان ، لذا كان تعبير المحب عن عاطفته تعبيراً عن عواطف المحبين أيضاً إذا ما نبع من قلب صادق

الشعور، وخيال صادق التصوير بارعه، فنقرأ شعره الغزلي فيهز نا ويعجبنا، لأنا نلمس فيه الصدق الشعوري والصدق الفني، حتى ليخيل إلينا أنه تصوير لعواطفنا، ومن هنا كانت قيمة الغزل التي تكفل له الخلود.

صلته بالنفس والعاطفة:

سأفصل القول في بواعث الحب، وظروف العرب المواتية له، وأخلص من مناقشة آراء الأدباء والفلاسفة وعلماء النفس إلى أن الحب الروحي الصافي المنقى من جوعات الجسد لا يكون في حب رجل لامرأة، وهو الحب الذي ندرس نتاجه أعني الغزل.

وقد قسم ستندال Standhall الحب إلى أربعة أنواع:

١ — الحب العاطفي أو التأثري Passion ate Love ويمتاز بالقوة والعنف وشدة التعلق، والشوق الحاد الجارف.

٢ — والحب الاستلطافي أو المنبعث عن ميل وشفقة Sympathetic Love وهو ألفة وصداقة أساسهما خفة ظل الصديق وقربه إلى النفس.

٣ — والحب الجسدي أو الشهواني Sensual Love وهو الاشتهاء الجنسي، ولا يستحق أن يضاف إلى أنواع الحب، لأنه ضرب من الإيثار الجنسي لشخص دون غيره.

٤ — والحب الكمالي أو المنبعث عن عجب وخيلاء Vainy Love وهو ضرب من الترف، هو ولع بامرأة جميلة، كما يولع الرجل بالفرس الجميلة لأنها قنية كمالية لابد منها للمترف[1].

فما نوع الحب العربي من هذه الأنواع، أو بعبارة أوضح: ما نوع الحب الذي نستشفه من الغزل العربي؟ هل اجتمعت هذه الأنواع كلها عند العرب؟ ثم ما موقفنا من ستندال وهو يقرر أن الحب الحسي لا يصح أن يسمى حباً؟

---

(1) On Love Standhall : Translated by Holland P. 27.

أعتقد أن العرب أحبوا حباً عاطفياً ، وحباً جسدياً ، أما الحب الاستلطافى فلا نستطيع أن نطبقه على غزلهم ، لأنه كما يقول ستندال صداقة وألفة ، فهو إذاً من الهدوء بحيث لاتجيش له عاطفة بشعر ، وإن جاشت فهو عاطفى أو جسدى . وأما الحب العابث كما يسميه فما أحراه أن يكون حسيا ، ثم هو ليس منبعثاً عن عاطفة صادقة حتى يكون من أقسام الحب ، وإذاً فالحب الذى أوحى بالغزل الذى ندرسه إما عاطفى وإما حسى.

وقد حفلت كتب اللغة والأدب بالحب ، فذكرت أسماءه ومراتبه ، عايدل على أن العرب قدروه وخبروه ، فثلا يذكر الثعالبى أن أول مراتبه الهوى ، ثم العلاقة وهى الحب اللازم للقلب ، ثم الكلف وهو شدة الحب ثم العشق وهو فرط الحب . . . الخ[1] . ويذكر مثل ذلك داود الأنطاكى[2] ، وشهاب الدين بن أبى حجلة[3] ، وغيرهم .

ولكنى كما اخترت كلمة الغزل دون النسيب والتشبيب اخترت كلمة الحب للدلالة على هذه العاطفة فى جميع مراتبها .

والغزل على وثاقة صلته بالحب فيه تهذيب وصقل لعواطف المحبين الآخرين ، بل إن الشعراء الغزلين أنفسهم قد تخرجوا فى مدرسة الحب ، وتعلموا كثيراً من سابقيهم كما يقول هكسلى huxley وهو يبسط رأيه هذا فى عرض شائق أخاذ إذ يقول : « ترى لو لم يكن الأدب فكم يكون عدد المحبين ؟ أؤكد أنه سيكون أقل من القليل » .

ويستدل بدراسة العالم الألمانى زوخرمان للغريزة الجنسية عند حيوان ذكى هو القرد وحيوان غير ذكى وهو الفأر ، على أن الحيوان الذكى لا تهديه الغريزة وحدها ، ولكن الحيوان غير الذكى يهتدى بها وحدها ، ويقول : وهذا هو حكم الغريزة والذكاء ، فكلما ازداد ذكاؤك عميت غريزتك ،

---

(١) فقه اللغة للثعالبى ١١٦ (٢) تزيين الأسواق ١٥ — ١٧
(٣) ديوان الصبابة ٢٣ — ٣٠ .

والقرد ذكى ، ولذلك فإن غريزته لا تهديه إلا إلى القليل ، أما الفأر فينقصه الذكاء ، ولذا فإنه يهتدى بغريزته . ترى إذا كان هذا هو حال القرود فى أمر طبيعى يجرى فى دمها ، فما أكثر التعقيد إذاً فى النفس البشرية فى الرجال والنساء عند الإحساس بالحب والتعبير عنه ، إن معلمنا الأول هو الأدب ، وحتى أولئك المحبون الذين اشتهروا بغزارة العاطفة وتدفق المشاعر قد تخرجوا فى تلك المدرسة .

إن الفرق بين كبار العشاق — بين كليوباترة فى زينتها وامرأة الشارع فى تواضعها — هو الفرق بين الجاهل والمتعلم ، بين الذى قرأ والذى لم يقرأ ، إنه الفرق بين الذين استجابوا من أعماقهم للعشق فى مدرسة الأدب والذين فترت استجابتهم ، كما يحدث بين التلاميذ فى الفصل الواحد .

وقد أوضح كيلس أن الكثرة الغالبة من الطائفة الثانية ، على أنه يجب أن نتذكر أن قيساً وليلى ، وأنطونى وكيلوباترة موجودون بيننا بكثرة لاتخطر على بالنا ، ذلك أنه يصعب على عابر الطريق أن يقرأ على وجوه الناس مدى عمق عواطفهم ، وكل وسائله فى هذا أن يحدس ويستنتج من تصرفاتهم وكلامهم ، ولكن ألفاظهم فى الأكثر والأعم لاتسترعى الانتباه ؛ لأن التعبير الرائع موهبة لم يمنحها الخالق إلا لفئة نادرة من الناس — فليس ضعف التعبير دليلا على ضعف الشعور — بل من المؤكد أن عدد المعبرين فى جمال فنى أقل بكثير جداً من عدد المحبين (١) .

وبذلك يشترك الغزل مع الفنون الجميلة ، لأنها كلها تنبع من العاطفة ، وتترجم عن خلجات الفنان ، فالمحب يترجم عن عاطفته بغناء أو شعر أو موسيقى أو رسم أو نحت ، ولكن العربى كان يصور حبه فى الفن الجميل الذى يعرفه ، كان يصوره بكلمات ، ويتغنى أحياناً بهذه الكلمات ، ولكنها كلمات ذات ألوان وظلال وجرس وموسيقى .

---

(1) Texsts and Pretexts. Aldous Huxley P. 137 — 139

سلطان الغزل :

وإذا كان الحب قد نبت وامتدت جذوره وبسقت أغصانه فى هذه البيئة المجدبة كأنما يعوضهم خصباً فى القلوب والأرواح قد حُرِمته أرضهم ، فإن شعراء الغزل قد كثروا جداً ، حتى لنجد فيهم أمراء أبناء ملوك كامرئ القيس، وحكماء مجربين كزهير ، وأبطالا صناديد مثل عنترة وعمرو بن معد يكرب ، أو مُجَّاناً مثل الأعشى ، أو صعاليك مثل عروة بن الورد .

وكان الناس يحتفون بسماع الغزل ، ويحرصون على روايته ، وتهش له نفوسهم ، روى عن السيدة عائشة : « أهدينا يتيمة من الأنصار ، فلما رجعنا قال رسول الله ﷺ : ما قلتم ؟ قلنا . سلمنا وانصرفنا ، قال : إن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ، ألا قلت يا عائشة : أتيناكم أتيناكم ، فحيونا نحييكم (١) .

وكان المحب لايدع الغزل وإن أنزل به ما يكره ، لأنه غير مختار فى تنفيسه عن نفسه ، ينفجر إذا كتمَ حبه أو بثه . علم الإصبع بن محصن أن مالك بن الصمصامة يحب أخته جنوب ، فآلى يميناً ليقتلنه إن تعرض لها أو زارها ، وليأسرنه ثم لا يطلقه حتى يجز ناصيته فى نادى قومه إن ذكرها فى شعر ، ولكن مالكا لم يطق أن يحبس غزله ، فعرض نفسه للأسر وحلق الرأس ، ورأى ذلك أهون عليه من أن يُحرَم رؤيتها أو يدع الغزل فيها ، قال من قصيدة :

فما الحلق بعد الأسر شرٌّ بقيةً ... من الصد والهجران وهى قريب
أحقاً عباد الله أن لست خارجاً ... ولا والجاً إلا علىَّ رقيب
ولا زائراً وحدى ولا فى جماعة ... من الناس إلا قيل أنت مُريب
وهل ريبة فى أن تَحِنَّ نجيبةٌ ... إلى إلفها أو أن يحن نجيب (٢)

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨/١٥٥ (٢) الأغانى ١٩/٨٣ .

وأنذر عمر بن الخطاب الشعراء بأنه يجلد من يشبب بامرأة ، فلم يستطع حُميدُ بن ثور أن يدع الغزل ، وقال قصيدة منها :

نأتْ أم عمرو فالفؤاد مَشوقُ — يحن إليها والهاً ويَتُوقُ
أقول لعبـــد الله بيني وبينه — لك الخيرُ خبِّرني فأنت صديق
تراني إن عللتُ نفسي بسَرحةٍ — من السرح ، موجودٌ عليَّ طريق؟
أبى الله إلا أن سَرحَةَ مالك — على كل أفنان العضاه تروق
سقى السرحة المحلال والأبرقَ الذي — به السرح غيث دائم وبُرُوق (١)

فذكر أم عمرو ، ثم كنى عنها بالسرحة ، ولكنه في ذلك غير مستور الغرض ولا بنجوة من عقاب عمر . على أن الجلد الذي هدد به عمر ، والأسر والحلق في تهديد الإصبع بن محصن ليست شيئاً إذا قيست بعقوبة أخرى أشد بالمحب نكالا ، ولكنه كان ينزل هذه العقوبة بنفسه ، لأنه غير مختار فيما يعمل ، كان يتغزل فيمن أحبها ، وهو يعلم صرامة العقاب المعدّ له ، ولكنه يتغزل ليتخفف من الحب الذي يحمله ، تغزل ليُسرّ إلى صديقه ، أو ليناجي ليلاه ، وليس على ثقة من أن غزله يشيع ، ولكنه لابد أن يشيع ، وأنَّى لضوء الشمس أن يحجب؟ وأشذى الروضة أن يحبس ؟ يشيع غزله ويشتهر حبه فيرفض آل المحبوبة أن يزوجوه ، لأن العرب « كانت لا تنكح الرجل امرأة شبب بها قبل خطبته (٢) » ، وقد جروا على هذا في جاهليتهم وصدر الإسلام (٣) .

وهم في منعهم مدفوعون بغيرتهم على النساء(٤) ، وحسبهم من الثأر لشرفهم والقصاص من الشاعر أنهم حرموه ما أمَّل ، يدل على ذلك قول أبي ليلى وهو يعزى في قيس : « ما علمنا أن الأمر يبلغ كل هذا ، ولكني كنت امرأ أعرابياً أخاف من العار وقبح الأحدوثة ما يخافه مثلي ، فزوجتها

(١) الأغاني ٤/٣٥٦ ومعجم البلدان ٥/٦٥ . (٢) الأغاني ٢٠/١٨١
(٣) تزيين الأسواق ١٢٢ . (٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٢٨٢ — ٢٨٦ .

وخرجت من يدى ، ولو علمت أن أمره يجرى على هذا ما أخرجتها عن يده ، ولا احتملت ما كان علىّ فى ذلك[١] » .

لهذا حُرِم عنترة زواج عبلة ، لأنه صرح بحبها وتغزل بها[٢] .

على أن بعض العرب كانوا لا يحولون بين شاعر تغزل وبين حبيبته التى خطبها ، يدلنا على ذلك أن دريد بن الصمة رأى تماضر بنت عمرو — الخنساء — تهنأ ذَوْداً لها جربى ، فأحبها وقال :

حيوا تماضر واربعُوا صَحبى ... وقفوا فإن وقوفكم حسبى
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به ... كاليوم طَالِىَ أيْنُقٍ جُرْبِ
متبذلا تبدو محاسنه ... يضع الهناءَ مواضعَ النُّقْبِ
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم ... واعتاده داء من الحب[٣]

وخطبها إلى أبيها وقيل إلى أخيها معاوية وكان صديقه فرحب به ، ثم استشارها فرفضته لأنه شيخ كبير ، ولم يرفضه أبوها أو أخوها ، ولم ترفضه هى لأنه تغزل فيها قبل أن يخطبها .

بل حملهم الغزل على أن تغزل بعضهم فى زوجته ، وهو وإن خالف المتعارف المألوف بعيد عن العقاب ، وما حيلته إذا كان يحب زوجته حباً حاداً كما يحب حبيبته ؟

تغزل زهير بن أبى سلمى فى زوجته أم أوفى[٤] ، وبدأ معلقته بالغزل بها :

أمن أمِّ أوفى دِمْنةٌ لم تكلم ... بحومانة الدُّرَّاج فالمتثلم

وتغزل امرؤ القيس فى زوجته أم جُنْدُب :

خليلىَّ مرابى على أم جُنْدُبِ ... لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

---

(١) الأغانى ٢ / ٩٠ (٢) بلوغ الأرب للألوسى ١ / ١٤٢ .
(٣) الأمالى ٢ / ١٦١ والأغانى ٩ / ١١ .
(٤) الأغانى ٩ / ١٥٠

فإنكما إن تُنظِرانى ساعة من الدهر تنفعنى لدى أم جندب
ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيَّب
عقيلة أتراب لهـا ، لا دميمة ولا ذات َخلقٍ إن تأملت جانب[1]

وتغزل حسان بن ثابت بالشعثاء زوجته[2] .

ومثل ذلك حدث فيما بعد فى العصر الأموى من الحارث بن خالد المخزومى ، إذ شبب بزوجته أم عمران[3] .

(١) ديوان أمرئ القيس ٣١ جانب : ضخم قصير .
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨/١٠٢ (٣) الأغانى ٣/٣٣٠

الفصل الثاني

جمال المرأة

تمهيد

مظاهر الجمال :

فى الكون أفانين من الجمال مُتنضّر ، يتجلى فى السماء الصافية ونجومها المتلألئة ، وفى منظر الشروق والغروب ، وفى البحر الساجى ، والجدول الرقراق ، والمروج الخُضْر والحدائق النضْر ، وتتجلى فى الإنسان والحيوان ، وفى النغمات والألحان ، وفى الرائع البارع من فن القول ، والعبقرى الممتع من الصور والتماثيل وغيرها .

فى الطبيعة جمال ، وفى الإنسان جمال ، وفى إنتاج الإنسان نفسه جمال ، وهذا الجمال قد يكون فى الشكل، وقد يكون فى اللون أو الصوت أو المعنى .

ولع الإنسان به :

والإنسان بطبعه يدرك الجمال بصورة ما ، ولعل جميع بنى الإنسان لهم هذه المقدرة ، فإنا نرى الإعجاب بالروائع على اختلاف نوعها ومبعثها تبدو علاماته فى مظاهر الناس وانفعالاتهم ومباهج حياتهم، وما من إنسان إلا له نوع من الجمال يُطربه ويوقظ إعجابه ، لأنه قد خلق مزودا بعوامل الاستجابة لما هو منسجم متناسق ، والاندماج فيما يساير حسن التقسيم الذى أبدعه الله على غراره ، وجمال التكوين الذى أفاضه عليه ، وفيه عاطفة كالأوتار الحساسة تهتز لما يحفزها مما يموج فى عالم النفس ويسبح فى ميدان الحس ، وفيه ميل ونفور : ميل إلى الرائق الصافى ، ونفور من

الجهم المضطرب ، وفيه حب لما يبعث الرضا والاطمئنان ، وبغض لما يجلب الاشمئزاز والاضطراب . فى الإنسان كل ذلك ، وفيه أيضاً بواعث تحمله على التفكير فيما حوله مما يطرق سمعه ، ويقع عليه بصره ، ويجتذب انتباهه . ومن الواضح أن هذا يصل به إلى أن يفكر فى مظاهر الجمال فى شتى ألوانه ، على قدر ما له من استعداد نفسى وثقافى [1] » .

حقيقة الجمال :

هل يكون الجمال صفة فى الشىء نفسه ؟ أو هو شعور خارجى ينبع من المدرك ؟ أتتصف الروضة والقصيدة واللحن والمرأة بالجمال لأن فيها خصائص جعلتها جميلة حقا : أم تتصف بالجمال لأن المدرك لها أحس هذا الإحساس نحوها فوصفها بأنها جميلة ؟

للباحثين مذاهب فى هذا .

١ — « منهم من يرى أن سر الجمال وفلسفته الفنية إنما ترجع إلى روعة الشىء نفسه ، وهذا يستدعى وضع القوانين المرتبطة بقيم الأشياء والحكم عليها على أساس خصائصها الخارجية فماذا عسى أن تكون هذه الخصائص؟ أهى فى اللون ، أم فى الشكل الهندسى ، أم فى التناسب والتناسق ، أم فى وحدة التجانس أم فى النسب الرياضية بين الأجزاء ، أم فى شىء آخر تخفى علينا معالمه وحدوده ؟

٢ — ومنهم من يرى أن الجمال إنما ينبع من النفس ، ويرجع إلى الظروف النفسية التى تحيط بالإنسان ، وينكرون أن تكون هناك أحوال فنية موضوعية مستقلة عن رد الفعل من جانبنا ، وذلك لأن الأشياء التى تظهر جميلة فى رأى بعض الناس قد تظهر كئيبة فى نظر آخرين ، والجميل فى حالة طفولتنا ليس من الضرورى أن يكون جميلا فى نظرنا حين نكبر ، وكذلك فى حالة الشعوب المختلفة ، فإنها تتفاوت فى موازين الجمال ومعاييره ،

---

(١) الأصول الفنية للأدب ٩ عبد الحميد حسن .

وأصحاب هـذا الرأى لا يقولون إن الشىء جميل ، بل يقولون إنه من بعض نواحيه يثير فينا تجارب لها قيمة فى نظرنا ، لأنها تلائم حالنا وما نتطلب . والجمال بناء على هذا لا ينبع من الحقائق الخارجية بل ينبع من داخل نفوسنا ومن تجاربنا التى يحددها موقفنا إزاء الأشياء ، ووجهة نظرنا إليها ، وهو إذن فى الأثر النفسى الذى تحدثه فينا الأشياء ، وفى النشاط الروحى وما يتصل به من تجارب فى هذه الناحية [1] » .

والحق إن الإحساس بالجمال أمر يتوقف فى معظم الأحوال على طبيعة الشخص أكثر مما يتوقف على طبيعة الشىء ، ويضرب جاريت على ذلك مثالا فى قوله : والآن لنأخذ صورة مألوفة جداً ، صورة العذراء وطفلها فنجد أن من الواضح أن تأثير هـذه الصورة فى المسيحيين يختلف عن تأثيرها فى المسلمين أو البوذيين ، ولا أحسب كذلك أن المشاعر التى تثيرها صورة العذراء فى الرجل هى نفسها تثيره فى المرأة، أو أن تأثيرها فى المرأة الأم يساوى تأثيرها فيمن ليست أما ، كما أن الضوء والتلوين فى الصورة لا يحدثان نفس الأثر فى ساكن العروض العليا الذى تعود ضوءاً وألواناً معينة ، وساكن العروض الاستوائية الذى تعود ضوءاً وألوانا أخرى .

وكذلك يختلف تأثير أشكال الأشخاص وأحجامهم فى سكان بلد كل أهله طوال نحاف عنه فى سكان بلد آخر كلهم قصار سمان ، وبذا يختلف تأثير الصور دائماً فى الرجل الأبيض عنه فى الأسود ، وتبدو تماثيل الأجسام العارية التى رسمها تنتان وربنس ورنوار سمينة سمناً معيباً فى نظر المتشبعين بالذوق الإغريقى البحت [2] .

٣ — ويرى فريق ثالث أن الجمال صفة فى الأشياء ، ولكنه راجع إلى ما بينها وبين نفسية المدرك من تجاوب وتفاعل، وإذن فإن مجال البحث

---

(١) الأصول الفنية للأدب ١٤ — ١٥ عبد الحميد حسن .

(٢) فلسفة الجمال ٢٢ — ٢٤ . ف . جارت ترجمة عبد الحميد يونس وزملائه .

عن الجمال هو فى الصلة بين العقل والشيء الجميل . « فليس الجمال نابعاً من الشيء وحده ، ولا من النفس من غير مؤثرات مباشرة أو غير مباشرة ، وإنما ينبع من هاتين الناحيتين ومما بينهما من تجاوب .

وإذن فالجمال من الناحية الذاتية هو ما ينسجم مع الإحساس بالكمال العقلى ، ومن الناحية الموضوعية هو ما يتجلى فيه التناسق والتوازن[1] .

نعم ، إن الجمال يتطلب أن تكون فى الأشياء مزايا تكسبها جمالا ، ويتطلب أيضاً استجابة من المدرِك تشعره بهذا الجمال ، ومثل ذلك كالحلوى فيها صفة الحلاوة ، ولكن الإحساس بهذه الحلاوة متوقف إلى حد كبير على تذوق الشخص نفسه .

« ولماذا نظن أن إحساسنا الخاص — وهو أمر يرتبط بعقولنا — أقل شأناً أو قيمة أو صدقاً من صفات الجمال ؟[2] » .

وإذاً فالجمال الذى نصف به ما نحب هو فى الحقيقة إحساس ذهنى ، لأن هذه الأشياء التى نحبها ونصفها بالجمال قديرة على أن تبتعث فينا هذا الإحساس .

« ولا مراء أن ثمة أشياء طبيعية — بنوع خاص — خليقة بإثارة مثل هذه الإحساسات فى كل الجنس البشرى أو جُله ، وإن كان هذا النوع المعين من الجمال الذى نراه عاطفة معينة أو زهرة معينة أو ضوءاً معيناً يختلف بين الناس ، بل يختلف عند الشخص الواحد فى أوقات مختلفة[3] » .

إدراك العرب للجمال :

وقد أدرك العرب الجمال ، وتذوقوه ، أدركوه فى الطبيعة ، وأدركوه

(١) الأصول الفنية للأدب ١٥ عبد الحميد حسن .

(٢) فلسفة الجمال . جاريت ٨٩ . (٣) فلسفة الجمال . جاريت ٩٢ .

فى المرأة ، وأدركوه فى فن القول . وكان العربى شاعر طبيعة ، يتأمل فيها، ويبثها آلامه ، وينسى عندها أحزانه ، ويحبها ويُفتتَن بها ، ويصورها كما امتثلتها نفسه . تثير الأطلال شجونه ، وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده ، وتستهويه الصحراء بحيوانها ، ورمالها ، وآلها، وآبارها، وواحاتها ونجومها ، وبرقها ومطرها . فالشاعر الجاهلى إذا مثل الحياة البدوية أو الريفية فلأنه كان بدوياً أو راعياً ، كما صنع شعراء العصور الوسطى والقديمة الاوروبية . أما حين انتقل إلى بيئة أخرى غير بدوية وتحرر من قيود الماضى فإنه صور الطبيعة مثلما صورها الأوروبيون من بعدُ فى بيئة مشابهة .

وقد تناول شعر الطبيعة فى العربية كما تناول عند الغربيين الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة (١) .

وأدرك العرب الجمال فى فن القول ، فاحتفظوا بالشعر وطربوا له ، ورفعوا شعرائهم مكاناً علياً .

وأدركوا جمال المرأة الجسدى والنفسى فأحبوها وافتتنوا فى وصف جمالها كما سنرى .

جمال المرأة الجسدى

التجارب بينهم وبين جمال المرأة :

أدرك العرب جمال الجسد بحواسهم كلها عليا ودنيا ، وعلماء النفس يقسمون الإدراكات الحسية إلى هذين القسمين ، ويريدون بالعليا الإبصار والسمع ، وبالدنيا اللمس والذوق والشم ، واعتبروا الإبصار والسمع من الإدراكات العليا لأسباب ، منها أنهما الوسيلتان لإدراك الجمال ، فالعين تبصر الصورة الجميلة والتماثيل الأنيقة ، والمناظر الرائعة ،

(١) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ١٢ سيد نوفل .

والأذن تدرك النغمات الموسيقية والأغاني الحلوة والأصوات المنسجمة ، وليس بخاف ما لهذه وتلك من الآثار في غذاء الروح وترقية الشعور وتهذيب العواطف[١] .

وسنرى في وصفهم للجمال أن إدراكهم البصري غلاب ، وهذا طبيعي لأن العين هي الطريق الرئيسي للانفعالات العاطفية ، فالقوام والمشية والحركة والاشارة والملابس والرشاقة والسمنة إلخ كلها من مقاييس الجمال والجاذبية ، والعين مصدر الحكم عليها ، « ويعتبر بعض علماء النفس أن العين إحدى المناطق الشهوية في الإنسان ، وعن طريق العين يقدر الانسان قيمة الشخص الجنسية بطريقة لا شعورية[٢] » .

وكانت المرأة العربية جميلة كما سأبين ، فهي من هذه الوجهة ينطبق عليها المذهب الموضوعي Objective وهو قائم على أن منشأ الجمال الاتساق والانسجام في الألوان والأشكال والأساليب والنغمات ، وسواء أكان هذا الانسام طبيعياً أم صناعياً ، فهو صفة خارجية تتحقق في عالم المادة أو المعنى[٣] . كما ينطبق على الرجال الذين أدركوا جمالها وأعجبوا به المذهب الذاتي أو المذهب النفسي الشخصي Subjective الذي يرجع الجمال إلى حالة شعورية تحدث للإنسان عند اتصال عقله بالشيء الذي يعده جميلا .

والشعراء والمحبون عامة خير من يدرك هذا الجمال الجسدي ، ويدرك الجمال النفسي ، لأن « الجمال لا ينبع من الأشياء وحدها ولا من النفس من غير مؤثرات مباشرة أو غير مباشرة ، وإنما هو في هاتين الناحيتين وفيما بينهما من تجاوب[٤] » .

---

(١) في علم النفس . الابراشي وحامد عبد القادر ٢ / ١٠٠

(٢) الاضطرابات الجنسية عبد الرجل والمرأة ٦٣ الدكتور موريس الديك .

(٣) دراسات في علم النفس الأدبي حامد عبد القادر ١٠٣ .

(٤) الأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن ١٢ .

وبذا توافر الجمال فى المرأة ، وتوافر إدراكه وتذوقه فى الرجل ، وحدث تجاوب بين إدراك الرجل وجمال المرأة ، فنتج عنهما الحب من ناحية ، والغزل من ناحية ، وبعض هذا الغزل تصوير لمحاسن المرأة الجسدية والمعنوية كما سيتضح من دراسته .

ولا شك أن جمال المرأة أنفس ألوان الجمال وأغلاها وأشدها تأثيراً على النفوس .

ومن هنا هام الصوفية بجمال الحسان واتخذوه وسيلة لمعرفة الجمال المطلق وعونا لهم على المجاهدة والعبادة .

قال الحسن البصرى : النظر إلى الوجه الحسن عبادة .

معناه أن الرائى يقول سبحان خالقه ورُئى شريح واقفاً بالطريق فقيل له : ما وقوفك ؟ قال : عسى أن أنظر إلى وجه حسن أتقوى به على العبادة(١) .

وقال الجُنَيْد : كما أن النساء حبائل الشيطان فهن حبائل العرفان ؛ إذ قد يتوصل العاقل عن عشقهن إلى معرفة مبدعهن(٢) .

هل زين الشاعر جمال المرأة بخياله ؟

لقد يقال إن هذا الجمال الذى سأفصل القول فيه لم يكن واقعيا كله ، لأن الشعراء زينوه ووشوه ، ووصفوا الحبيبات بما ليس فيهن واست أدفع هذا كله ، ولست أقبله كله ، لأن هذه الصورة العامة للجمال ليست مستقاة من شاعر واحد ، بل هى مستقاة من الشعراء جميعاً ، فهى إذاً تمثل الذوق العربى أدق تمثيل . وعلى فرض أن فى بعضها تهويلا فإن هذا التهويل لا يبعدنا عن النموذج الذى يحبه العرب ، لأن من طبيعة الفن أن يصور الجميل صورة موشاة بعاطفة الأديب ، وخلاصة رأى شوبنهور

---

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهانى ٢/٢٥ (٢) تزيين الأسواق ١/٣٥ .

فى معنى الجمال الفنى أن مهمة الفن هى فصل الشكل (القالب) عن المادة ، لا أن يحكى لنا الشكل والمادة معا حكاية صحيحة محكمة ، لأن الفن موكل بالصور الباقية والنماذج الخالدة ، لا بالكائنات التى توجد فى الحياة مرة واحدة ثم تمضى ، فالذى يعنى الفنان من الجميل أنه قالب يصلح أن يكون نموذجا عاما لأفراد كثيرين أو للنوع كله »[1]

فليس غرض الفنان أن يحاكى الواقع محاكاة لا تصرف فيها ، فينقل صورة من الطبيعة أو من المرأة خلواً من عاطفته وخياله ، ولكنه يحاكى الطبيعة ويستمد منها ويضيف إليها ، هو كالرسام الذى يستوحى من الطبيعة منظراً ويشكله بألوانه ودهانه تشكيلا ينم على عبقريته .

والشاعر الذى يصف المرأة على حالها بغير أن يضفى عن وصفه من خياله وعاطفته مثله مثل المصور الذى يلقط بالمصوِّرة مناظر ، وشتان بين المصور اللاقط والمصور الرسام فى ميزان النقد والفن . يقول بندتوكروتشه :

« إن الأشياء الجميلة لا تؤثر تأثيرها إلا إذا أمكن أن تدرك بروح الفنان الذى أضفى عليها قيمتها ، وحدد جانب الجمال فيها ، والطبيعة خرساء مالم ينطقها الإنسان[2] » .

مقومات جمال المرأة :

تلتقى نظرة الشعراء إلى الجمال الجسدى عند معنى واحد : هو التناسب والتناسق والانسجام . وهذا ذوق الفطر السليمة التى لم يفسدها الترف ، ولم تطغ عليها بدع الحضارة .

فقد استحسنوا من المرأة الوضاحة والصباحة والهيَف والرشاقة والخفرَ ، وأحبوا أن تكون الرشيقة الهيفاء ضامرة الخصر ممتلئة الرِّدفين

(١) مراجعات فى الأدب والفنون ٧٣ العقاد .

(١) المجمل فى فلسفة الفن . كروتشة ٦٣ ترجمة الدوربى .

بارزة النهدين إلخ ، وهو ذوق لا يخرج بهم عن الفطرة كما يقرر علم جمال الأعضاء ، وهم فى ذلك أصح أذواقاً من أساتذة التجميل المعاصرين الذين أوشكوا أن يسووا بين قامة المرأة الجميلة وقامة الرجل الجميل فى استواء الأعضاء .

فما يعيب المرأة عضوياً — أو فزيولوجيا — أن تكون رَسحاء ضئيلة الردفين ، فإذا كانت صحيحة البنية سوية الخلق وجب أن تكتسى عظام فخذيها وعجيزتها ، وأن يمتلىء فيها هذا الجانب من جسمها ، وإلا أشار هزاله إلى آفة فى تكوين الجسم لا يوافق حاسة الجمال . وكذلك يستحسن الخصر الدقيق فى المرأة ، لأن ضخامة المعدة قد تؤذى الجنين وتضغط عليه فى الرحم ، وتشير إلى التزيد من الطعام فوق ما تستدعيه وظائف الحياة فى جسم الإنسان .

فالذوق العربى فى دقة الخصور وبروز الأرداف ذوق محمود يزكيه حب التنسيق ، كما يزكيه تكوين وظائف الأعضاء[١] » .

ومما يدل على نظرتهم الصائبة إلى جمال الجسد قول أعرابى لابن عمه: « اطلب لى امرأة بيضاء ، مديدة فرعاء ، جعدة ، تقوم فلا يصيب قميصها منها إلا مشاشة منكبيها ، وحلمتى ثدييها ، ورانفتى أليتيها ، ورضاف ركبتيها ، إذا استلقت فرميت تحتها بالأُتْرُجّة العظيمة نفذت من الجانب الآخر ، فقال له ابن عمه . « وأنى بمثل هذه إلا فى الجنان » ؟

ويشبه هذا قول أم زرع : خرج أبو زرع والأوطاب تُمخَض فلقى امرأة معها ولدان لها يلعبان تحت خصرها برمانتين ، فطلقنى ونكحها[٢] ،

(١) شاعر الغزل : عباس العقاد ٩٤ .

(٢) عيون الأخبار ٤ / ٥ — ٢ فرعاء : ذات هيئة حسنة . جعدة : محكمة الخلقة . المشاشة : رءوس العظام . الرانفتان : أسفل الألية . الرضاف : الجلد الذى على الركبة . الأترجة . ثمر كالليمون .

وسئل أعرابى عن النساء — وكان ذامَّ بهن — فقال : أفضل النساء أطولهن إذا قامت وأعظمهن إذا قعدت(١) .

والجميلة فى نظر أعرابى آخر هى التى « عـذبت ثناياها وسهل خداها ، ونهد ثدياها ، والتف فخذاها ، وعرض وركاها ، وجدل ساقاها ، فتلك هم النفس ومناها »(٢) .

وما من شك فى أنهم أدركوا جمال المرأة إدراكاً كلياً . وسأفصل القول فى جمالها عامة ، وفى جمالها تفصيلا . ولست أعنى أن الشاعر أدرك كل جزء على حدة ، ثم ضم هذه الأجزاء بعضها إلى بعض ليرى أهى جميلة أم لا ؟ لست أعنى ذلك لأن الجمال يدرك دفعة واحدة على أنه كلٌّ ، « فعندما نستمع إلى لحن موسيقى لا نستطيع أن نتريث حتى ندرس العلاقات بين كل صوت والذى بعده ، ومع ذلك فهذه العلاقات نفسها هى التى تخلق اللحن وتخلق جماله ، فنحن نفقه العلاقات فى طريقة لا شعورية أو ضمنية . فالإدراك الجمالى قائم على انتباهنا إلى النموذج العام نمسك به فى ومضة واحدة ، وإن كانت الأجزاء ملحوظة فى الذهن(٣) .

الجمال الجسدى عامة

المرأة الجميـــلة فى نظر امرىء القيس خفيفة اللحم ليست رَهْلة ولا ضخمة البطن مسترخيته . وصدرها صقيل كأنه المرآة . وإذا ما أعرضت أو نظرت بدا خدها الأسيل الذى لا كزة فيه ، وسحرت بعينها التى تشبه عين غزالة ترأم جآذرها وتحنو عليها وتميل بعنقها ميلاً لطيفاً . وجيدها طويل ملتف كجيد الظبى الخالص البياض ، ليس به قبح حين ترفعـه ، وليس عاطلا من الحلى ، ويزين ظهرها شعر أسود شديد السواد كثيف طويل كعذق النخلة المتراكب المتدلى ، وله ذوائب مجدولات مرتفعات

---

(١) أخبار النساء لابن القيم ٣ . (٢) المحاسن والأضداد للجاحظ ١٦٣ .
(٣) كيف يعمل العقل ٢/٢٤٧ — ٢٤٨ .

تـضل المـُشطُ فيما تثنى منها وتجعد ، وفيما أرسل ولم يتجعد . وخصرها صغير لطيف كأنه سير بجدول مستدير لين ، وساقها كعود البردى الريان بياضاً ولدونة واستدارة .

وهي مترفة منعمة ، وتتناول ما تريد ببنان لطيف منسرح غير كز ولا غليظ يشبه نوعاً من الدود يعيش فى الـكثيب ، ويشبه أيضاً الأغصان الدقيقة من شجر الإسحل ، ولونها يشبه أول بيضة للنعامة التى شربت من ماء نمير لم تـكدره السابلة ، ووجهها مشرق حتى ليضوء الظلمة ، فكأنه سراج راهب منقطع للعبادة فى الصحراء .

وهى فتانة ، لا يستطيع الحليم الرزين أن يصرف نظره عنهـا ، ولا يستطيع ألا يعشقها إذا ما رآها تخطر أمامه فى درعها ومِجْـولها :

إذا قلت هاتى نَوّلينى تمايلت   على هضيم الـكَشْح رَيَّا المُخلخَلِ
مُهفهفةٌ بيضاءُ غـيرُ مُفاضَةٍ   ترائبهـا مصقولةٌ كالسَّجنجل
تَصُدُّ وتُبْدِى عن أسِيلٍ وتتقى   بناظرة من وَحْشِ وَجْرَةَ مُطفِلِ
وجيد كَجيد الرِّئْمِ ليس بفاحش   إذا هى نَصَّتْـه ولا بمعَطَّل
وفرعٍ يَزِينُ المَتْنَ أسودَ فاحمٍ   أثيثٍ كقِنو النخلة المتَعَثْكِل
غدائره مُستَشزِراتٌ إلى العـلا   تَضِلُّ المدارَى فى مُثَنًّى ومُرْسَل
وكشحٍ لطيفٍ كالجَدِيل مُخَصَّرٍ   وساقٍ كأُنبوب السَّقِىِّ المذَلَّل
وتُضْحِى فتيتُ المسك فوق فراشها   نئومَ الضُّحا لم تَنْتطق عن تَفَضُّل

وتعطو برخصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنه أساريعُ ظبي أو مساويك إسحِل
كبِكر المقاناةِ البياضَ بصُفْرة غذاها نَميرُ الماء غيرُ المحلَّل
تضيء الظلامَ بالعشاء كأنها مَنَارَةُ مُمسى راهبٍ مُتَبتِّل
إلى مثلها يرنو الحليم صَبابة إذا ما اسبكَرَّت بين دِرْعٍ ومِجْوَل (١)

وهذه أوصاف لجسدٍ جميل متناسق حقاً . فهي طويلة ممشوقة ، وذلك يتطلب أن يكون خدها أسيلا ، وصدرها صقيلا ، وشعرها طويلا . وهي ذات خصر نحيل كالجديل ، وذلك يتناسب مع الساق الملتفة المنسرحة ، ومع الأصابع الطوال الملتفة ، وبياض لونها يتسق مع سواد شعرها وسواد عينيها .

وقد صورها قيس بن الخطيم تصويراً آخر لا يجافي ذوق امرىء القيس :

رَدَّ الخليطُ الجمال فانصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وقفوا ؟
فيهم لَعُوبُ العشاء آنسة الد ل عَرُوبٌ يسوءها الخُلفُ
بين شُكول النساء خِلقتُها قَصدٌ فلا جبلة ولا قَضَف
تَغْتَرِقُ الطرف وهي لاهيةٌ كأنما شَفَّ وجهها نُزُف
قضى الله حين صورها الـ خالق ألا يُكِنُّها سدَف
تنام عن كُبْر شأنها وإذا قامت رويداً تكاد تنغرف
حوراءُ جيداءُ يستضاء بها كأنها خوط بانةٍ قَصِف
تمشي كمشي الزهراء في دَمِث الر مل إلى السهل دونه الجُرُف
كأن لَبَّاتِها تضمَّنها هَزْلَى جرادٍ أجوازُه خلُف

(١) ديوان امرئ القيس ١٣٠ .

كأنها درة أحاط بها الـ ... غوّاص يجلو عن وجهها صدَف(١)

فهى وسط بين الهزال والضخامة ، ذات نظر آسر ، مخدومة منعمة ممتلئة العجيزة ، سوداء العين ، طويلة العنق ، مشرقة الوجه ، لدنة كأنها خوط بانة ، قطوف المشى كأنها مهاة تمشى فى رمل لين تغوص فيه أخفافها ، متجهة إلى سهل ملآى بالحفر ، ونحرها مستو مصقول كأنه أواسط الجراد ، وجهها مشرق كالدرة التى نزع عنها صدفها .

وقد حفل كعب بن زهير بنموذج الجمال لا ينافى هذا ، بل يوافقه فى بعض صفات ، ويزيد عليه بعضاً ، حفل بغنّة صوتها ، وكحل عينيها ، ووصف هيف خصرها وامتلاء عجزها ، وقال إنها وسط بين الطول والقصر ، ثم وصف ريقها وشبهه بالخمر الممزوجة بالماء ، ووصف هذا الماء بالبرودة والصفاء :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا	إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاءُ مقبلةً عجزاءُ مدبرةً	لا يشتكى قِصَرٌ منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظَلْم إذا ابتسمت	كأنه مَنهل بالراح مَعْلول
شُجَّت بذى شَبم من ماء محنيةٍ	صافٍ بأبطحَ أضحى وهو مشمول
تنفى الرياحُ القذى عنه وأفرطه	من صَوْب سارية بيضٌ يعاليل(٢)

وهذه النماذج تتفق مع نموذج طرفة ، فحبيبته تسارق النظر بعينين كعينى المها فى سعتهما وشدة سوادهما وبياضهما ، ولها خد أسيل كخد الغزال الصغير ، وخصر يشبه فى استوائه وطياته خصر المهاة المطفل التى

---

(١) الأصمعيات ١/٤٥ والأغانى ٣/٢٢ . جبلة : غليظة . قضف : نحافة . تتغرف : تتقصف من دقة خصرها . قصف : لين . الزهراء : البقرة الوحشية . دمث : لين . جرف : ج جرف وهو ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض . خلف : جمع خليف وهو السهم الحديد الطرير . أجوازه : أواسطه . يجلو : يعلو .

(٢) جمهرة أشعار العرب . القرشى ٣٠٨ محنية : منعرج الوادى . أفرطه : ملأه . يعاليل : ج يعلول وهو الغدير الأبيض .

تنفرد بوحيدها وتحنو عليه وتميل ، وهذا أبين لحسنها من أن تكون فى قطيع ، وهذه المهاة تنتقل بين الأفنان ترعى زهرها ، وتتورق ورقها ، وتجنى من أطرافها الغضة : فهى فى مرعى وخصب حسن ، تجتزىء به عن شرب الماء ، وذلك أهضم لكشحها وأتم لحسنها . ويتدلى على ظهر المحبوبة شعر منسدل طويل ملتف غزير ، وهى رقيقة جداً حتى لتحسب أنها تحتمل مشقة حين ترفع عينيها لتنظر . ثم وصفها بالبدانة ، ووصف أسنانها بأنها رقاق بيض كالأقاحى ، ووصف ريقها بالكثرة حتى لا تتغير رائحته ، وشبهه فى طيبه وبرده بالماء البارد المزوج برضاب المسك ، هبت عليه ريح من الشمال وهو فى مسيله فسكن واستقر ، وذلك أدعى لصفائه وبرودته ، ثم عاد إلى وصف عجزها فقال إنهـــا تقوم من مكانها فتشبه رملا ينهال من كثيب ، وهى لذلك تدفئ الضجيع شتاء وتبرده صيفاً . وهو غير ملوم فى حبها ، لأنها من نسوة جميلات منعمات مخدومات قليلات الأولاد ، لا يرضعن ، وذلك أصلح للاستمتاع بهن ، يتأودن كسحائب رقاق ، أو كنبات صغير لين اسمه العسلوج ، شـــديد الخضرة والتثنى :

تخلس الطرف بعينى بُرْغُزٍ	وبخدّى رشأ آدمَ غِرّ
ولهـا كَشحَا مهاةٍ مُطْفِلٍ	تَقْتَرِى بالرمل أفنان الزَّهَرِ
وعلى المتنَيْنِ منهـا واردٌ	حَسَنُ النَّبْت أثيثٌ مُسْبَكِرّ
تحسب الطرف عليها نجدةً	يا لَقَوْمِى للشباب المُسْبَكِرّ
بادنٌ تجلو إذا ما ابتسمتْ	عن شَتِيت كأقاحِى الرمل غُرّ
بَدَّلَتْهُ الشمسُ من منبتـه	بَرَدًا أبيض مصقول الأُشُر
وإذا تضحك تبدى حَبَبـاً	كرُضاب المسك بالماء الخَصِر
صادفتـه حَرْجَفٌ فى تَلْعَةٍ	فَسَجا وَسْطَ بَلَاطٍ مُسْبَطِرّ

وإذا قامت تداعَى قاصفٌ … مال من أعلى كثيب مُنْقَعِرْ
تطـرد القُرَّ بحَرٍّ صـادق … وعكيكَ القيظ إن جاء بقُرّ
لا تلمنى إنهـــا من نسوة … رُقَّدِ الصيف مقاليتَ نُزُرْ
كبنـات المَخْر يَمْأَدْنَ كما … أنبت الصيف عساليجَ الخضِرْ (١)

وليس يفترق هــــذا الذوق عن ذوق عمرو بن معد يكرب (٢)، والأعشى (٣)، وربيعة بن مقروم (٤)، وعبد الله بن عجلان (٥)، والمرقش الأكبر (٦)، والمزرِّد بن ضرار (٧)، وأبى الذَّيال (٨).

---

(١) ديوان طرفة ٤٧ . برغز : ولد البقرة . رشأ : ظبي قوى تمشى مع أمه . آدم : مشرب لونه سواداً أو بياضاً . تقترى : تتبع . وارد : شعر طويل مسترسل . أثيث : غزير ملتف . مسبكر : مسترسل. نجدة : شدة . الشباب المسبكر: التام . بادن. ضخمة كاملة البدن . تجلو : تكشف . شتيت : ثغر متفرق الأسنان . غر : بيض . بدلته الشمس . . . : كان الطفل إذا سقطت له سن قذف بها نحو الشمس وقال: يا شمس أعطيتك سناً من عظم فأعطنى سنا من فضة . برداً : ثغراً نقياً كالبرد . الأشر : تحزيز فى أطراف الأسنان . حببا : طرائق من ريقها ، يريد أن فمها كثير الريق وإذا قل ريق الفم تغيرت رائحته . رضاب المسك : قطعه . حرجف : ريح الشمال إذا عطفت أو الريح الشديدة الباردة . تلعة : مسيل الماء إلى الوادى . سجا : سكن واستقر . البلاط : أرض مستوية و صفاه . مسبطر : سهل ممتد . تداعى: مال لينهار . قاصف : ما مال من الرمل وانهار . منقعر : منقلع من أصله . عليك القيظ : شديد الحر مع سكون الريح . وهذا كقول الآخر :

سخنة فى الشتاء باردة فى الصيـ … ـف سراج فى الليلة الظلماء

مقاليت : جمع مقلات وهى التى لا يعيش لها ولد . نزر : قليلات الأولاد . بنات المخر : سحائب يأتين قبل الصيف منتصبات رقاق . يأدن : يتحركن ويتثنين . العساليج : جمع عسلوج وهو اللين الأخضر من الأغصان . الخضر : نبت أخضر .

(٢) الأصمعيات ١/٤٤ — (٣) الديوان ٣٢ ، ١١٩ ، ٦٧
(٤) الأغانى ١٩/١٩ — (٥) الحماسة لأبى تمام ٢/٧٥
(٦) المفضليات ٢/٤٤
(٧) المفضليات ١/٩٢
(٨) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٢

جمال الجسد تفصيلا

الطول :

أحبوا المرأة الطويلة ، ولا أقصد بالطول أن تفرع الرجال ، وإنما أقصد ألا تسمى قصيرة، وذلك أنسب لشكلها وقوامها الذى أغرموا به ، ومن شأن الطول أن يبرز محاسن الصدر والخصر والردفين ، ومن شأنه أن يتناسب مع طول العنق وطول الشعر وانسراح الساعدين والساقين ، ومن شأنه أن يساعد على مرونة الحركة والتثنى ، فهو إذن صفة لازمة للاتساق العام . قال كعب بن زهير:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول[1]

وقال سلامة بن جندل :

ليست من الزُّلِّ أردافاً إذا انصرفت
ولا القصار ولا السُّود العناكيب [2]

اللون والوجه :

وهم جميعاً كلفون باللون الأبيض ، ويتضح هذا من وصفهم للوجه، لأنه الجزء البارز الفاتن .

(أ) وصفوه بالبياض ، قال امرؤ القيس .

دخلت على بيضاء جُمٍّ عظامها تُعَفِّى بذيل المِرط إذ جئت مَوْدِقى [3]

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٠٨ .

(٢) ديوان سلامة بن جندل ٢٦ . الزل أردافاً : الناحلات أردافاً . العناكيب : جمع عنكب وهى القصيرة الضعيفة . نفى عنها هـــذه الصفات ، والمراد أنها من صميم العرب ، وليست أمة .

(٣) ديوان امرئ القيس ١١٩ . ولسان العرب ١٢/٢٠١ جم عظامها : يصفها باللين والبضاضة فكأن السمن قد أخفى عظامها ، فهى جماء لا عظم بها . مودق : موضعى أو آثار قدمى .

وقال :

ومثلك بيضاء العوارض طَفْلةٍ ... لعوبٍ تُنَسِّينى إذا قمت سِرْبالى
إذا ما استحمت كان فيض حميمها ... على مَتْنَتَيْهَا كالجُمان لَدَى الجالى [1]

وقال الأعشى :

والبيض قد عَنَسَتْ وطال جَرَاؤُها ... ونشأن فى قِنٍّ وفى أذواد [2]

وقال النابغة الذبيانى :

ليست من السوداء أعقاباً إذا انصرفت ... ولا تبيع بِجَنْبَىْ نخلة البُرَما [3]

وقال المزرد بن ضرار :

وبيضاء فيها للمُخَالِمِ صَبْوَة ... ولهوٌ لمن يرنو إلى اللهو شاغل [4]

وبالبياض وصف بشر بن أبى خازم [5] وحسان [6] وركاض [7] .

ولكنا نجدهم يصفونها أيضاً بالصفرة كقول قيس بن الخطيم :

صفراء أعْجَلَها الشبابُ لِداتِها ... موسومة بالحسن غيرُ قَطوب [8]

---

(١) ديوان امرئ القيس ١٤٠ الحميم : الماء الحار . متنتيها : جانبي ظهرها . الجمان : الفضة . الجالى : صيرف الدراهم .

(٢) ديوان الأعشى ٩٩ ولسان العرب ١٨ / ١٥٥ عنست : كبرت ولم تتزوج . جراؤها : بفتح الجيم وكسرها أى شبابها وفتاؤها . قن : ضرب بالعصا أو تفقد بالبصر وتتبع الأخبار ، يريد أنهن نشأن فى رعى . أذواد : جمع ذود وهو ثلاثة أبعر إلى عشرة أو خمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين أو ما بين الثنتين والتسع .

(٣) ديوان النابغة الذبيانى ٦٥ . نخلة : بستان عبد الله بن معمر . وذكر البكرى فى معجم ما استعجم فى كلامه على نخلة أن البرم بفتح الباء ثمر الأراك . وفى اللسان بضم الباء وفتح الراء على أنها قدور من حجارة . يريد النابغة أنهـا ليست سوداء الرجل إذا انفلتت وأظهرت قدميها بل هى بيضاء ناعمة رخصة القدم . وهى لا تبيع قدور النحاس لأنها مصونة عن الكسب مخدرة .

(٤) المفضليات ١ / ٩٢ المخالم : المنازل للصادق . صبوة : خفة إلى اللهو .

(٥) المفضليات ٢ / ١٣٤

(٦) ديوان حسان ١٠ .

(٧) البيان والتبيين ٢ / ٢٨١

(٨) ديوان قيس بن الخطيم .

وكقول الأعشى :

بيضـــاء ضَحْوَتَها وصفـ ـراء العشيـــة كالعَرارة[١]

وكقول النابغة الذبياني :

صفراء كالسِّيَراء أُكمِل خلقُها كالغصن في غُلوائِهِ المتـأوِّد[٢]

وكقول قيس بن الخطيم :

حَوْراء ممكورةٌ مُنَعَّمة كأنما شَفَّ وجهها نُزُف[٣]

فكيف تتفق الصفرة مع البياض ؟

ليس المقصود بالاصفرار ما ينشأ عن هزال ومرض وضعف ، إنما المقصود به صفرة ، تضرب في اللون من طول المكث في الكن والتضمخ بالطيب ، كما تضرب في بيضة الأدحى واللؤلؤة المكنونة ، وقد شبه الله عز وجل في كتابه ، فقال : «كأنهن بيض مكنون» ، وقال الشاعر :

كأن بيض النعام في ملاحفها ،[٤] .

ويعزز ذلك قول امرئ القيس :

كبكر المقاناة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل[٥]

وقول الأعشى إنها بيضاء في وقت الضحا وصفراء في العشي ، «لأن المرأة الرقيقة اللون يكون بياضها بالغداة يضرب إلى الحمرة وبالعشي يضرب إلى الصفرة »[٦] ولعل سبب ذلك أنها في وقت الضحا لا تتطيب ، وفي وقت العشاء تتطيب ، فيصفر لونها . ويعزز ذلك أيضاً قول ابن

---

(١) ديوان الأعشى ١١١ والبيان والتبيين ١/١٦٠ .

(٢) ديوان النابغة ٢٨ ، السيراء : ثوب من حرير فيه خطوط . غلوائه : علوه .

(٣) الأغاني ٣/١٨ نزف : بضم فسكون وحرك للضرورة ، خروج الدم ، أراد أن في لونها الأبيض صفرة (٤) العقد الفريد ٣/٣٢٢ (٥) ديوان امرئ القيس ١٣١ .

(٦) البيان والتبيين ١/١٦٠

منظور : « سميت المرأة عاتكة لصفائها وحمرتها ، وامرأة عاتكة مُحمَرّة من الطيب »[1] . ذلك أن الطيب هو الذى يضيف إلى البياض لوناً آخر أصفر أو أحمر حسب مادته ولونه .

(ب) ولم يكفهم أن نعتوا الوجوه بالبياض ، بل جروا مع الخيال فقالوا إنها مشرقة وضّاءة منيرة ، قال امرؤ القيس :

تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة مُمْسَى راهب متبتل[2]

وقال مرة أخرى :

يضىء الفراش وجهها لضجيعها كمصباح زيت فى قناديل ذُبّال[3]

(حـ) وشبهوها تشبيهات تدل على مقدار إشراقها ، كالشمس فى قول طرفة :

ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليه نقى اللون لم يتخدد[4]

وفى قول سويد بن أبى كاهل :

تمنح المرآة وجهاً صافياً مثل قرن الشمس فى الصحو ارتفع[5]

وشبهوها بالدنانير فى الإشراق ، قال المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نيرٌ وأطراف الأكُفِّ عَنَمْ[6]

وشبهوها بالصحيفة فى بياضها ، قال المخبّل السعدى :

وتريك وجهاً كالصحيفة لا ظمآن مُخْتَلِجٌ ولا جَهِمْ[7]

وشبهوها بالدرة النفيسة ، وهنا يَنْصرفون كعادتهم عن المشبه ، ويذهبون فى وصف المشبه به كل مذهب ، حتى ليخيل إلى القارىء أن المشبه به هو

---

(١) لسان العرب ١٢/ ٣٥٠ .
(٢) ديوان امرئ القيس ١٣١
(٣) الديوان ١٣٩ .
(٤) ديوان طرفة ٩
(٥) المفضليات ١/ ١٨٩ .
(٦) المفضليات ٢/ ٣٨
(٧) المفضليات ١/ ١١٣ .

الذى يعنون ، وهذا الجزء هو أقرب أجزاء القصيدة العربية إلى الذوق الغربى(١) .

قال المُسَيَّب بن علس :

كجُمانة البحرىّ جاء بهـا　غواصُها من لجـة البحر
صُلْب الفؤاد رئيس أربعـة　متخالفى الألوان والنَّجْر
فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا　ألقوا إليه مقالد الأمر
وعلت بهم سَجْحاءُ خارِمَةٌ　تَهْوِى بهم فى لجة البحر
حتى إذا ماساء ظنُّهُم　ومضى بهم شهر إلى شهر
ألقى مراسِيَهُ بتَهْلُكَةٍ　ثبتت مراسيها فما تجرى
فانصبّ أسقفُ رأسُهُ لَبِدٌ　نُزِعَتْ رُباعيتاه للصبر
أشفَى يمجُّ الزيتَ ملتمِسٌ　ظمآنُ ملتهبٌ من الفقر
قتلتَ أباه ، فقال أتبعها　أو أستفيد رغيبة الدهر
نَصَفَ النهارُ ، الماءُ غامِرُه　ورفيقُه بالغيب لا يَدْرى
فأصاب مُنْيَتَه فجاء بها　صَدَفيَّةً كمضيئةِ الجَمْر
يُعطَى بها ثمناً ويمنعها　ويقول صاحبه ألا تشرى ؟
وترى الصَّرارِي يسجدون لها　ويضمها بيديه للنَّحْر

---

(١) Arabic Literatura. Gibb P. 19

فتلك شبه المالكية إذ طلعَتْ ببهجتها من الخِدر[1]

ويتضح من قوله كيف أطال فى وصف الدرة والحصول عليها ، وكيف صور المشقات والجهود التى بذلت فى استخراجها من البحر المائج ، حتى لقد ترصدها الغواصون شهوراً ، ولم يقدر على صيدها إلا صياد فارع الطول صبور ضامر خفيف ، اطَّلَى بالزيت ليقى جسده من الماء الأجاج ، تدفعه الرغبة إلى أن ينال هذه الدرة ، لأنه شديد الحاجة والمسغبة ، وهو عاقد العزم على أن ينالها ، لأن أباه كان يبتغيها من قبل فغرق ، فلابد أن يثأر منها ، وقد قضى نصف النهار يفتش عنها ، والماء يغمره ، ولم ينثن حتى فاز بها ، فأخرجها متلألئة كالجمر ، وأغلى ثمنها لقاء نفاستها ولقاء ما احتمل فى الحصول عليها من أينٍ ومخاطر ، وإن الملاحين ليشاركونه فى إعجابه بها فيسجدون لها ، وإنه ليضمها إلى صدره إعزازاً لها ، ثم قال إن هذه الدرة النفيسة تشبه الحبيبة حين تشرق من خدرها .

وقد ترسم الأعشى خاله المسيب فى تخيله ، لأنه كان راويته وتلميذه ، ولكنه تصرف فى التصوير بعض التصرف ، فجعل مارداً من الجن يحرس هذه الدرة ، ولا يغفل عنها ليلا ولا نهاراً حتى لا يأخذها غواص ، وجعل هذا الغواص الذى ظفر بها مترقباً لها مذ كان شاباً :

كأنها درة زَهْراء أخرجها غواصُ دَارِينَ يخشى دونها الغرقا
قد رامها حججاً مُذ طرَّ شاربُه حتى تَسَعسَعَ يرجوها وقد خَفَقا
لا النفسُ تُؤيسه منها فيتركها وقد رأى الرُّغب رأى العين فاحترقا

(١) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٢ سجحاء : السجحاء الناقة التامة الطويلة الظهر والمراد هنا الموجة العالية أو السفينة الطويلة . خارمة : تهبط بهم فى وهاد البحر ، وفى الديوان خادمة . أسقف : طويل . تشرى : تبيع . جمانة : لؤلؤة . النجر : الأصل . الصبر : الزعامة والتقدمة أو ضد الجزع . أسفى : خفيف الناصية . ملتمس : طالب . لبد : متلبد . الصرارى : الملاحون مفرده صار (القاموس مادة صرى) وفى الديوان الصوارى .

ومارِدٌ من غواة الجن يحرسها ... ذو نِيقة ، مستعدٌّ دُونَهَا تَرَقا

ليست له غفلة عنها ، يُطِيفُ بها ... يخشى عليها سُرَى السارين والسَّرَقا

فى حَوْمِ لُجَّةِ آذِىٍّ له حَدَبٌ ... من رامها فارقته النفس فاعْتُلِقا

من نالها نال خُلْدًا لا انقطاع له ... وما تمنى فأضحى ناعماً أَنِقا

تلك التى كلفتك النفسُ تأمُلُها ... وما تعلّقتَ إلا الحينَ والحُرَقا (١)

وسلك هذا المسلك فى إيجاز المخبل السعدى فى قوله :

وتريك وجهاً كالصحيفة لا ... ظمآنُ مختلَجٌ ولا جَهَم

كعقيلة الدُّرِّ استضاء بها ... محرابَ عَرْشٍ عزيزها العُجم

أغلى بها ثمناً وجاء بها ... شَخَتُ العظام كأنه سهم

بلبانه زيتٌ وأخرجها ... من ذى غوارب وسْطه اللُّخُم (٢)

وشبهوها بالبرد ، قال حسان :

يحملن حوًّا حُور المدامع فى الرَّ ... يطِ وبيض الوجوه كالبرَد (٣)

وشبهوها بالمصباح فى البيعة أو الدير ، قال امرؤ القيس :

تضىء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة ممسَى راهب متبتل (٤)

---

(١) ديوان الأعشى ٢٣٠ تسعسع : هرم . حفق : ذهب أكثر عمره من خفق الليل إذا ذهب أكثره . الرغب: الرغبة . ذو نيقة : ذو كياسة وحيلة . مستعد دونها ترقا : معد ومحضر لأجلها سفيطا كالذى تدخر فيه المرأة طيبها وأداتها وهو المسمى أيضاً بالحفش، فكلمة مستعد هنا بمعنى معد ، وقد فسر ابن منظور البيت بذلك (راجع اللسان مادة ترق وعد) . السرق : السرقة . فى حوم لجة آذى : فى موضع الهياج من البحر المائج له حدب : ماؤه متراكب فى جريه . اعتلق : علقته المنية ثمات . أنقا : فرحاً مسروراً . الحين : الهلاك . الحرق : جمع حرقة : الحرارة .

(٢) المفضليات ١/١١٣ شخت : دقيق . اللخم : كبار السمك .

(٣) ديوان حسان ١٣ ... (٤) الديوان ١٣١

وقال :

يضىء الفراشَ وجهُها لضجيعها كمصباح زيت في قناديل ذُبّال(١)

العين :

هي النافذة التي يطل منها الشاعر على دِخلة محبوبته ، وتطل منها عليه ، هي منبع الجاذبية التي يستأسر لها الحبيب ويلتذ الأسر « وليس غريباً أن يقع الحب من أول نظرة ، لأن لشكل العين ولونها وبريقها دوراً هاماً في اختيار المحبوب ، وكثيراً ما تغنى الشعراء بما في العين من جاذبية وما لها من أثر ، ويتصل بحاسة النظر المعاني التي يسبغها الإنسان على أجزاء الجسم ومظاهره(٢) » .

وشكل العين المناسب لأعضاء المرأة العربية هو المتسع ، على أن تكون دعجاء كحلاء ، قال سويد بن أبي كاهل :

تمنح المرآة وجها واضحا مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع
صافيَ اللون وطرفا ساجيا أكحل العينين ما فيه قَمَع(٣)

وقال عمرو بن معد يكرب :

كأن الإثمد الحاريَّ فيها يُسَفُّ بحيث تبتدر الدموع(٤)

وشبهوا العين بأجمل عين يرونها ، وهي عين المهاة وعين الغزال ، قال امرؤ القيس :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرةَ مطفل(٥)

---

(١) الديوان ١٣٩ .
(٢) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة للدكتور موريس الديك ٦٣ .
(٣) المفضليات ١/١٨٩ . قمع : ضخامة وورم .
(٤) الأصمعيات ١/٤٣ الحارى : الحيرى والنسب إلى الحيرة حارى وحيرى .
(٥) الديوان ١٣٠ وجرة : موضع . مطفل : ذات أطفال .

وقال معن بن أوس :

سبتنى بعينَىْ جُؤْذرٍ بخميلة وجيد كجيد الرئم زيّنه النظم[١]

وشريك لها فى هذا علقمة[٢] والمزرد بن ضرار[٣] .

وقال الحادرة :

وتصدّفتْ حتى استبتك بواضح صَلْتٍ كمنتصب الغزال الأتلع

وبمقلتىْ حوراء تحسب طرفها وسنانَ، حُرّةِ مستهلّ الأدمع[٤]

أما جاذبية النظرات فسأتكلم عنها فى الجمال المعنوى .

الخد :

وصفوه بأنه أسيل ، والأسيل فى اللغة الأملس المستوى الطويل المسترسل[٥] وهو بشكله هذا منسق مع الجمال العام .

قال المرقش الأكبر :

ورُبَّ أسيلةِ الخدين بكر منعّمة لها فرعٌ وَجِيدُ

لهوتُ بها زماناً من شبابى وزارَتْها النجائبُ والقصيد[٦]

وقال امرؤ القيس :

تصد وتبدى عن أسيل وتتّقى بناظرة من وحش وجرة مُطفِل[٧]

وبذلك وصفه بشامة بن عمرو[٨] والمسيب بن علس[٩] .

---

(١) ديوان معن بن أوس ٣ (٢) شعراء النصرانية ٥٠٥ (٣) المفضليات ١/٩٢

(٤) ديوان الحادرة والمفضليات ١/٤٢ (٥) القاموس المحيط مادة أسل .

(٦) المفضليات ٢/٢٤ النجائب : النوق الجياد .

(٧) الديوان ١٣٠ مطفل : لها طفل تنعطف إليه (٨) المفضليات ٢/٥٤ .

(٩) المفضليات ٢/٥٩

الفم (الشفتان والأسنان والريق) :

غشاء الشفتين ذو حاسية جنسية كبيرة تجعل القبلة مثلا أعلى لحاسة اللمس من الناحية الجنسية ، وبسبب تلامس الشفاه انطلاق تيار قوى من التهييج لا يدانيه إلا تلامس المباشرة ، والقبلة هى الرسول الروحى لعاطفة الحب ، وعندما يستسلم شخصان لحرارة القبلة تمتزج نفساهما امتزاجاً تاماً[١] .

ومن آثار الحب تعمد مس اليد ، وما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء[٢] .

وأرجح أن الشعراء أكثروا من الحديث عن الفم ، لأنه ينبوع متعة ، حتى العذريون أولوه اهتمامهم ، ولاشك أن من جمال المرأة طيب فمها ، فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سليم لتنظر امرأة فقال لها : « شمى عوارضها وانظرى إلى عقبيها[٣] » ، وهو فى ذلك جارٍ على فطرة سليمة .

(ا) وقد افتن الشعراء فى وصف حلاوة الريق وتشبيهه ، فهو خمر وشهد فى ذوق المرار القعمسى ، حتى إنه ليهنىء السواك الذى تستاك به :

هنيئاً لُخوطٍ من بَشَامٍ تَرَفُّه   إلى بَرَدٍ شُهْدٌ بهنّ مَشُوبُ
بما قد تَسَقّى من سُلافٍ وضمه   بنانٌ كهداب الدمقس خصيبُ[٤]

وليست بأطيب منه الخمر الطيبة الرائحة المعتقة التى ثوت فى دنها

---

(١) الاضطرابات الجنسية الدكتور مرويس الديك ٩٥ .

(٢) طوق الحمامة لابن حزم ١٢ .

(٣) النهاية لابن الأثير . مادة عرض ، العوارض : الأسنان التى بين الثنايا والأضراس

(٤) لسان العرب ١٩/١١٦ الخوط : الغصن . البشام : شجر عطر الرائحة يستاك بقضبه . ترفه : تقبله بأطراف شفتيها . برد : يريد به الأسنان . سلاف : خمر .

عشرين عاما محبوسة لا يتسرب إليها الهواء ، اشتراها خِيِّرون من تاجر يغالى فى ثمنها ؛ ليست هذه الخمر بأطيب من ريقها ليلا حيث تتغير طعوم الأفواه ، ذلك فى قول المرقش الأكبر :

وما قهوةٌ صَهْباء كالمسك ريحُها　　تُعَلَّى على النَّاجُود طَوْراً وتُقْدَح
ثَوَتْ فى سِبَاء الدَّنِّ عشرين حِجَّة　　يُطانُ عليها قَرْمَدٌ وتُرَوَّح
سباها رجال من يهودَ تواعدوا　　لِجِيلانَ يُدْنيها إلى السوق مُرْبِح
بأطيبَ من فيها إذا جئتُ طارقاً　　من الليل بل فوها ألذ وأنصح[(١)]

ويشبه تصوير الأسود بن يعفر[(٢)] تصوير المرقش .

وشبه زهير ريقتها بعد نومها بخمر جيدة من عانة بالجزيرة :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقَتْ　　من خمر عانةَ لما يَعْدُ أنْ عَتَقا[(٣)]

وشبهها عبيد بن الأبرص بالخمر المختومة بالمسك ، التى يُغالى بها التجار ، لأن الذى عتقها فارسى أو رومى خبير بتعتيقها :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتَبَقَتْ　　صهباء صافيةً بالمسك مختومه
مما يغالى بها البياع عتّقها　　ذو شارب أصهب يُغْلى بها السِّيمه[(٤)]

وقال إن ريقها خمر مشعشة ممزوجة بماء صاف فى أباريق من فضة .

---

(١) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٢١١ والمفضليات ٢/٤٢ صهباء : شقراء أو حمراء . تعلى : ترفع . الناجود : المصفاة . تقدح : تغرف بالقدح . سباء الدن : أسره وحبسه . يطان : يجعل على دنها الطين . قرمد : طين يطلى به رأس الدن . تروح : تعرض للريح وتبرد . سباها : اشتراها . جيلان بلد من بلاد العجم . أنصح : أخلص وأطيب .

(٢) المفضليات ٢/٢١٨

(٣) لسان العرب ١٧/١٧٥ عانة : بلد على الفرات ينسب إليه الخمر العافية .

(٤) ديوان عبيد القصيدة ٢١ اغتبقت : شربت ليلا . صهباء : خمر أو هى المعصورة من عنب أبيض . شارب أصهب : محمر ، والمراد أنه عجمى . السيمة : المساومة والثمن .

إذا ذقت فاها قلت طعم مُدامةٍ … مشعشعة تُرْخي الإزار قَدِيحِ
بماء سحاب فى أباريق فضة … لهــا ثمن فى البائعين ربيح[١]

وقال المسيب بن علس : إن ريقها خمر من عانة خالطها ماء من جدول تمعَّنٍ نبت على حوافه القصب :

ومهًا يرِفُّ كأنه إذ ذقتــه … عانيّةٌ شُجّت بمـــاء يراع
أو صوبُ غاديةٍ أدرَّتْهُ الصَّبا … بِبَزِيل أزهرَ مُدمَجٍ بِسِيَاعِ[٢]

وجعل امرؤ القيس ريقها مشوباً بالخمر والماء الصافى وريح الخزامى والشهد :

كأَن المدام وصَوْبَ الغمام … وريح الخُزامى وذَوْبَ العسل
يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابهـــا … إذا النّجم وسط السماء استقل[٣]

وجعله عنترة خمراً ممزوجة بالعسل :

وبين ثنـاياها إذا ما ابتسمت … مُدِيرُ مُدامٍ يمزج الراح بالشهد[٤]

وريقها فى مذاق أوس بن حجر خمر ورمان وتفاح :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت … من ماء أدكن فى الحانوت نضّاح

---

(١) ديوان عبيد القصيدة ٨ مشعشعة : ممزوجة بغيرها . ترخى الإزار: تعد لى أسباب اللهو . قديح : ما يبقى فى أسفل الدن ، يريد أنها خمر مركزة ، أو قديح بمعنى مغروفة بالقدح

(٢) ديوان المسيب الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤ والمفضليات ١/٥٩ مها : بلور ، شبه ثغرها به لصفائه . يرف: يلمع . عانية خمر منسوبة إلى عانة بلد على الفرات . شجت : مزجت. يراع : قصب . صوب غادية : ماء سحابة . أدرته : استخرجت ماءه الصبا لأنها لينة تمر بسهولة وذلك لأنها أصفى لماء السحابة . أزهر : إبريق أبيض . بزيل : مثقوب والمراد أنها خمر من دن أبيض . السياع : الطين .

(٣) ديوان امرئ القيس ١٧١ (٤) ديوان عنترة ٧٣

أو من مُعَتَّقة ورهَاء نَشوتُها   أو من أنابيب رمان وتفاح [١]

وكذلك حسان بن ثابت [٢] وعدى بن زيد [٣]

وشبه امرؤ القيس بالشهد المذوب فى الماء النمير .

ومُؤَشَّرٍ عـــذب ، مذاقتُه   بِرَدُ القِلال بذائب النحل [٤]

وجعله طرفة ماء بارداً ممزوجاً بالمسك .

وإذا تضحك تبـــدى حَبَباً   كرُضاب المسك بالماء الخصر [٥]

والريق فى مـــذاق المرقش الأصغر ماء السحاب [٦] ، وفى مذاق ربيعة بن مقروم شهد [٧] ، وفى مذاق أبى الذيال خمر ممزوجة بالماء والمسك والزنجبيل [٨] .

(ب) أما الأسنان فقد راقهم بياضها واستواؤها وانسجامها فشبهوها بالأقحوان ، قال طرفة :

بادنٌ تجلو إذا ما ابتسمت   عن شتيت كأقاحى الرمل غُرّ [٩]

وقال عبيد إن أسنانها كالأقحوان الندىّ النابت فى الربوة :

وتبسم عن عذب اللِّثات كأنه   أقاحى الرُّبا أضحى وظاهره ندِى [١٠]

وشبهها المسيب بن علس بالبلور :

إذ تستبيك بأصْلَتىّ ناعم   قامت لتفتنه بغير قنـــاع

(١) ديوان أوس بن حجر ٣ ورهاء : حمقاء النشوة أو فى نشوتها عجرفة .

(٢) ديوان حسان ٨   (٣) الأغانى ٢/١٥٤ .

(٤) ديوان امرئ القيس ١٤٩ مؤشر : ثغر ذو أسنان محززة . برد القلال : الماء البارد المنحدر من أعلى الجبال . ذائب النحل : الشهد   (٥) ديوان طرفة ٥١ .

(٦) المفضليات ٢/٤٥   (٧) المفضليات ٢/٦٣

(٨) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٢   (٩) ديوان طرفة ٥١

(١٠) ديوان عبيد القصيدة ٣٠

ومِهاً كأنه إذ ذقته عانيَّةٌ شُجَّت بماء يراع
أو صوب غادية أدرته الصَّبا بمزيل أزهر مدمَج بسَياع[1]

والمرأة لا تهمل أسنانها، بل تنظفها، وتَسُوكها كما تنظف وتسوك المرأة المعاصرة، قال الأعشى إنها تجلو أسنانها بريشتى حمامة:

تجلو بقادمَتَىْ حمامةِ أيكةٍ بَرَداً أُسِفَ لِثاتُه بالإِثْمِد[2]

وقال سويد بن أبى كاهل:

حُرَّةٌ تجلو شتيتاً واضحاً كشعاع الشمس فى الغيم سطع
صَقَلته بقضيب ناضر من أراكٍ طيب حتى نصع[3]

والأسنان الجميلة هى المؤشرة المحززة، لأن ذلك دليل صغر السن، قال امرؤ القيس:

ومُؤَشَّرٍ عذبٍ، مذاقته بَرَد القِلال بذائب النحل[4]

وقال:

. . . . وذى أُشُرٍ تَشُوفه وتَشُوص[5]

وقال طرفة إنها لم تقضم بأسنانها ما يذهب بتحزيزها:

سقته إياةُ الشمس إلا لِثاتِه أُسِفَّ ـ ولم تَكْدِم عليه ـ بإثمد[6]

---

(١) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤، والمفضليات ١/٥٩، المها: البلور. اليراع: القصب أى ماء جدول على حوافه القصب. صوب غادية: ماء سحابة. بزيل أزهر: دن أبيض. سياع: طين وما يشبهه مما يختم به الشىء.

(٢) ديوان الأعشى ٩٧ أسف لثاته بالإثمد: ذر الإثمد على اللثة لتسود.

(٣) المفضليات ١/١٨٩ (٤) الديوان ١٤٩ (٥) الديوان ١٠٤. تشوص: تغسل

(٦) ديوان طرفة ٩. إياة الشمس: شعاعها وضوؤها. أسف عليه بإثمد: ذر على لثته الإثمد. لم تكدم عليه: لم تعض عظما فيؤثر فى ثغرها ويذهب بحزيز أسنانها.

(ﺣ) والذى يناسب هذه الأسنان البيض أن تكون الشفة لمياء لعساء ليبدو بريق الأسنان وضاحاً ، قال امرؤ القيس إن لثتها سوداء مثل النيلج :

مَنابِتُه مثلُ السَّدوسِ ، ولونه كشَوْكِ السَّيالِ فهو عَذْبٌ يَفِيصُ (١)

وقال الأعشى إن لثتها سوداء كأنما ذر عليها إثمد :

تجلو بقادِمَتَىْ حمامة أيكة بَرَداً أُسِفَّ لِثاتُه بالإِثمِدِ (٢)

وقال طرفة :

وتَبسِم عن ألْمَى كأن منوّرا تخلّل حُرَّ الرمل دِعصٌ له نَدى
سقته إياة الشمس إلا لثاته أُسِفَّ ولم تَكدِم عليه بإثمد (٣)

ومن جمال اللثة أن تكون قليلة اللحم ، قال قيس بن الخطيم .

تَنكَلُ عن خَمَشِ اللِّثات كأنه بَرَدٌ جَلَتْهُ الشمسُ فى شُؤبوب (٤)

العنق والنحر :

مما يشاكل الجمال العام للمرأة العربية أن يكون عنقها طويلاً كفيلاً بإبراز مفاتن وجهها ، ومحاسن نحرها وصدرها ، ومنسجما مع أسل خديها ، واسترخاء شعرها على متنيها ، وأن يكون إلى طوله لدناً مدمجاً سهل التثنى والانعطاف ، قال المرقش الأكبر :

---

(١) الديوان ١٠٤ منابته : الهاء عائدة على الفم . السدوس: النيلج الأسود . السيال: ما طال من شجر السمر . يفيص : يسيل على الأرض (٢) ديوان الأعشى ٩٧ .

(٣) ديوان طرفة ٨ . ألمى : أسمر اللثة . منوراً : يريد به الأقحوان . تخلل حر الرمل : توسطه ونبت بينه وذلك أنعم لنبته ونوره . حر الرمل : أكرمه وأحسنه لونا . الدعص : كثيب من الرمل ليس بكبير . له : الهاء للمنور .

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ٦ . لثة خمشة : قليلة اللحم . تنكل : تبسم . شؤبوب : دفعة من المطر أو شدة حرارة الشمس .

نواعم أبكار سرائر بُدَّنٌ حسان الوجوه لينات السوالف(١)

وقد شبهوا الجيد الجميل بجيد الظبية، قال علقمة :

وجيد غزال شادن فَرَدَت له من الحَلْيِ سِمْطَى لؤلؤ وزبرجد(٢)

وكذلك شبهه امرؤ القيس :

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هى نَصَّته ولا بمعطَّل(٣)

وقال الحادرة إن عنقها ناصع صقيل أملس طويل كعنق الغزال الطويل العنق :

وتصدَّفت حتى استبتك بواضح صَلتٍ كمنتصب الغزال الأتلع(٤)

وهذا الجيد الطويل الصقيل اللدن قائم على نحر مشرق صقيل حالٍ، قال امرؤ القيس إن منحرها كالمرآة :

مُهَفْهَفَةٌ بيضاء غير مُفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل(٥)

وقال حاتم إن نحرها مشرق كجبينها :

ونحراً كفى نورَ الجبين يزينُه تَوَقُّدُ ياقوت وشَذْرٌ مُنَظَّما(٦)

الصدر :

ليس فى الحب ما يجتذب خيال الرجل أكثر من صدر المرأة، يجتذب الفتى بما لا يستطيع مقاومته، ولذلك تجد يد الفنان تعمد إلى إبرازه فى النحت والتصوير(٧)، وقد شبه عمرو بن كلثوم الثدى بحق من عاج،

---

(١) المفضليات ٢/٣١ سرائر : صفوة النساء لأن السر والسريرة لب كل شىء وأفضله (القاموس المحيط)
(٢) شعراء النصرانية ٥٠٥
(٣) ديوان امرئ القيس ١٣٠
(٤) ديوان الحادرة ٥ الأتلع : الطويل العنق.
(٥) ديوان امرئ القيس ١٣٠
(٦) شعراء النصرانية ١١٨
(٧) الحياة والحب لإميل لودفيج ٢٢

وراعى فى تصويره هذا ما بين الثدى الجميل وحق العاج من استدارة ولون وصلابة وصفاء :

وثديا مثل حق العاج رَخصًا حَصَاناً من أكُفّ اللامسينا[1]

ووصفه المنخل اليشكرى بالبروز :

الكاعب الحسنا ترفل فى الدِّمَقس وفى الحرير

ووصفه النابغة الذبيانى بالثبات والبروز :

والبطن ذو عُكَنٍ لطيفٌ طيُّه والنحر تَنْفُجُهُ بثدى مُقْعَد[2]

الشعر :

ما لون الشعر الذى يوائم البشرة البيضاء والعين السوداء والشفة اللعساء والثنايا البيض ؟ لاشك أنه اللون الأسود وحده . وكذلك كانت المرأة العربية ، وكان تذوق العربى للجمال .

ومن تمام الانسجام أن يكون هذا الشعر الأسود طويلا متسقاً مع القوام الفارع ، والقد الأهيف ، والجيد التالع . وكذلك كانت المرأة وكان ذوق الرجل .

قال المرقش الأصغر إن شعرها أسود فاحم طويل كالجبال :

ألا حبذا وجهٌ ترينا بياضه ومُنسَدِلاتٌ كالمثانى فواحما[3]

وقال عنترة إن الليل استمد ظلامه من شعرها :

خَطَفَ الظلامُ كسارقٍ من شعرها فكأنما قَرَنَ الدُّجى بدياجى[4]

(١) المعلقات العشر ٩٨ .

(٢) ديوان النابغة ٢٨ وأساس البلاغة مادة قعد . عكن : جمع عكنة وهى ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . تنفجه : ترفعه . ثدى مقعد : ملء الكف ناهد لا ينكسر .

(٣) المفضليات ٢/٥٤ . المثانى : الحبال (٤) ديوان عنترة ٣٩ .

وتمدحوا طول الشعر واسترساله . قال المثقب العبدى :

وهُنَّ على الظَّلام مُطَلَّباتٌ طويلاتُ الذوائبِ والقرون[1]

كما مدحوا غزارته وكثافته . قال امرؤ القيس .

وفرع يزين المتن أسودَ فاحمٍ أثيث كقِنوِ النخلة المتعثكل[2]

وقال طرفة :

وعلى المتنَيْنِ منهـــا وارد حسن النبت أثيثٌ مُسْبَكِرّ[3]

وبعضهم استملح الشعر الجعد المتثنى المتكسر المتموج ، قال عنترة :

ويطلع ضوء الصبح تحت جبينها فيغشاه ليلٌ من دجى شعرها الجعد[4]

وقال المخبل السعدى :

وتُضِلُّ مِدْراها المواشطُ فى جَعْد أغَمَّ كأَنه كَرْمُ[5]

وشبه بعضهم الشعر الكثيف المتدلى بعناقيد الكرم ، كما فى قول المخبل السعدى السابق ، وكما فى قول النابغة الذبيانى إن شعرَها طويل غزير كالعناقيد المدلاة على الدعائم المغطية لها :

وبفاحمٍ رَجْلٍ أَثيثٍ نبتُه كالكرم مال على الدعام المسند[6]

واتفق معه فى هذا التشبيه معن بن أوس[7] وربيعة بن مقروم[8] والمخبل السعدى[9] .

---

(١) شعراء النصرانية ٤٠٦ . الظلام : ظلمهن الرجال وفى لسان العرب ١٧/٣٤٥ (وهن على الرجائز واكنات) والقائل الممزق العبدى .

(٢) ديوان امرئ القيس ١٣٠ . متعثكل : متداخل كثيف أو متدل .

(٣) ديوان طرفة ٤٨ .

(٤) ديوان عنترة ٧٢ (٥) المفضليات ١/١١٤ . أغم : كثيف .

(٦) ديوان النابغة ٣١ . رجل : مسرح مرجل .

(٧) ديوان معن بن أوس ٤ (٨) المفضليات ٢/١٣ (٩) المفضليات ١/١١٤ -

وشبه آخرون تشبيها متأثراً بالبيئة أيضاً ربما لا نستملحه اليوم، شبهوا الضفائر بالحيات ناظرين إلى الليونة والطول والضخامة والشكل والملاسة. قال المنخل:

يَعْكُفْنَ مثل أساود التنو م لم تُعْكَف لِزُور (١)

وقال المزرد بن ضرار:

وأسحَمَ ريانَ القُرونِ كأنه أساود رُمّانَ السِّباطُ الأَطاول (٢)

وطبيعي أن تعنى المرأة بشعرها كما تعنى بغيره من محاسنها فتطيله إن كان قصيراً، روى عن السيدة عائشة: «وما بأس إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها». وفى رواية ابن الأثير فى النهاية: «ولا بأس أن تتعرى المرأة عن الشعر فتصل قرناً من قرونها بصوف أسود» (٣). وهذه الإباحة من السيدة عائشة دليل على أن العربيات كن يزاولن ذلك.

ومن ضروب العناية أن تمشطه وتسرحه، قال امرؤ القيس إن مشطها يضل فى شعرها المسترسل والمثنى:

غدائره مستشزرات إلى العلا تَضِلُّ المدارى فى مُثَنًّى ومُرْسَل (٤)

وقال المخبل السعدى إن المواشط يسرحنها فتغوص الأمشاط فى شعرها الكثيف:

وتُضِل مدراها المواشط فى جَعْدٍ أغمَّ كأنه كرم (٥)

وقال الأعشى إنها تسرح شعرها اللين لترده عن وجهها (٦).

ومن ضروب العناية بشعرها أن تطيبه، قال سويد بن أبى كاهل:

---

(١) الأغانى ١٨/ ١٥٥. يعكفن: يضفرن ويعقصن. التنوم: نوع من الشجر.
(٢) المفضليات ١/ ٩٢. رمان: موضع ببلاد طيئ. السبط: اللينة.
(٣) عيون الأخبار ٤/ ١٠٢
(٤) ديوان امرئ القيس ١٣٠.
(٥) المفضليات ١/ ١١٤
(٦) ديوان الأعشى.

وقرونا سابغاً أطـــرافها غللتها ريحُ مسك ذى فَنَع (١)

المعصم والأصابع :

وصفوا المعصم بأنه ملآن ريان ، قال بشر بن أبى خازم :

دارٌ لبيضاء العوارضِ طَفْلَةٍ مهضومةِ الكشحين رَيَّا المعصم (٢)

ووصفوا الأصابع بالطول والانسراح واللين ، حتى لقد شبهها امرؤ القيس بدود أبيض رءوسه حمر يرى فى كثيب اسمه ظَبْي ، وبخُوط من شجر الإسحل :

وتَعْطُو برَخْصٍ غير شَثْنٍ كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحِل (٣)

وشبهها المرقش الأكبر بثمر العنم ، وهو أحمر طويل يشبه به البنان المخضوب :

النشر مسك والوجوه دنا نيرٌ وأطراف الأكف عَنَم

الساق :

والانسجام العام يقتضى أن تكون الساق ريا مدمجة ملتفة بيضاء لدنة .

لذلك شبهها امرؤ القيس بعود من البَرْدِيّ نابت على مجرى الماء ، وقد شذب وسوى :

وكشح لطيف كالجديل مُخَصَّر وساق كأنبوب السَّقِيِّ المذلَّل (٤)

---

(١) المفضليات ١/١٨٩ غللتها : دخلت فيها . فنع : قوة وسطوع .
(٢) المفضليات ٢/١٤٦ العوارض : جانبا الفم من أسنانها . طفلة : رخصة لينة .
(٣) ديوان امرئ القيس ١٣١ . تعطو برخص : تتناول ببنان لطيف . غير شثن : ليس بكز ولا غليظ . أساريع ظبي : دود بيض حمراء الرءوس ترى فى الكثيب المسمى بظبي . إسحل : شجر كالأراك تتخذ من فروعه مساويك .
(٤) ديوان امرئ القيس ١٣٠ . السقى : البردى . المذلل : المسوى .

وجعل المزرّد بن ضِرار ساقيها عودين من البردى رويا من ماء صاف :

وتخطو على بَرْدِيَّتين غذاهما نميرُ المياه والعيون الغَلاغل (١)

وأشبهه قيس بن الخطيم فى التصوير وشطر التعبير :

تخطو على برديتين غذاهما غَدِقٌ بساحةِ حائر يعبوب (٢)

وقد شبه المخبل السعدى حبيبته بالبردى فى بياضها وصفائها واستوائها :

بَرْدِيَّةٌ سَبق النعيمُ بها أقرانَها وغلا بها عَظْمُ (٣)

الوسط (الخصر ، الردف ، البطن) :

نظر الشعراء إلى نواح من جمال الوسط ، تجعله منسجما مع المنظر العام للجسد .

(ا) فالخصر نحيل هضيم فى جسم ممتلىء عَبْل ، قال علقمة :

صِفرُ الوِشاحين ملء الدرع خَرْعَبَةٌ كأنها رشأٌ فى البيت مَلْذُوم (٤)

وهو يشبه سيراً من الجلد اللين المجدول ، فى ذوق امرىء القيس :

وكَشحٍ لطيف كالجَديل مُخَصَّرٍ وساقٍ كأنبوب السقيِّ المذلَّل (٥)

(ب) وتحت الخصر كفل ممتلىء ينوء خصرها بشده ، قال الأعشى .

يكاد يصرعها لولا تشددها إذا تقوم إلى جاراتها الكسل

---

(١) المفضليات ١/٩٢ . الغلاغل : ج غلغل وهو الماء الذى يجرى بين الشجر .
(٢) ديوان قيس بن الخطيم . غدق : كثير . حائر يعبوب : بستان بروبه جدول كثير الماء
(٣) المفضليات ١/١١٢ . غلا : ارتفع يعنى أن النعيم زاد فى شبابها حتى ارتفعت على لداتها وكبرت قبلهن .
(٤) ديوان علقمة ١٣ . خرعبة : لينة رخصة لحيمة رقيقة العظم . ملذوم : ملثوم .
(٥) ديوان امرئ القيس ١٣٠ .

صفر الوشاح وملء الدرع بَهْكَنَةٌ   إذا تَأَتَّى يكاد الخصر يَنْخَزِلُ (١)

وهى كذلك فى رأى قيس بن الخطيم (٢) .

وكفلها الريان تحت خصرها الضامر يشبه الكثيب، قال طرفة :

وإذا قامت تداعى قاصف   مال من أعلى كثيب منقعر (٣)

وما أجمل منظرها وهى تقبل هيفاء البطن والخصر، وتدبر ريا الروادف والعجز ، قال كعب بن زهير :

هَيْفَاءُ مقبلةً عَجْزاء مدبرةً   لا يُشتكى قصرٌ منها ولا طول (٤)

وكذلك صورها النابغة الذبيانى (٥) وأبو الذيال (٦) .

(ح) والبطن ضامر أيضاً بضمور الخصر ، قال بشر بن أبى خازم :

نبِيلَةُ موضع الحِجلَين خَوْدٌ   وفى الكَشْحَين والبطن اضطِمار (٧)

وهو ذو ثنيات تزيده جمالا ، قال النابغة :

والبطن ذو عُكَنٍ لطيف طيه   والنحر تَنْفُجُهُ بثدى مُقْعَدِ (٨)

وشبه عنترة هذه العكن بالثوب الرقيق المطوى طيات لطيفة ، ولكن البطن مع تثنيه أملس :

وبطنٌ كطى السابريَّة لينٌ   أقبُّ لطيف ضامر الكشح مدمج (٩)

---

(١) ديوان الأعشى ٤٢ بهكنة : ضخمة الخلق. ينخزل : ينقطع .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٧ .

(٣) ديوان طرفه ٥٢ . قاصف : منهال من الرمل . منقعر : منقلع من أصله .

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٣٠٨

(٥) ديوان للنابغة الذبيانى ١٤ ، والأمالى ١/١٧ .

(٦) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٢ .

(٧) المفضليات ٢/١٣٩ . نبيلة موضع الحجلين:جبلة الساقين. الحجل:الخلخال. خود: شابة .

(٨) ديوان النابغة ٢٨ . عكن : طيات . تنفجه : ترفعه : مقعد : ناهد ملء الكف.

(٩) ديوان عنترة ٣٤ . السابرية : الثياب الرقاق وهى بينة التثنى لطيفة . أقب : ضامر . مدمج . أملس متماسك

جمالها الجسدى فى نظر المرأة

هذا هو النموذج الحبيب إلى الرجال، لأنه يمثل أنواع الجمال الجسدى، وأرى أن أستعرض شيات الجسد الجميل فى ذوق المرأة لأتبين أكان ذوق الرجال متفقاً مع ذوق النساء أم لا ، وإن كنت أرجح أن الرجل أخبر بجمال المرأة من المرأة نفسها ، ولعل سبب ذلك أنها ليست فى حاجة مثله إلى إدراك الجمال ، لأنه يجتذبها برجولته ومكانته لا بوسامته وقسامته ، وأما هى فتجتذبه بجمالها ودلها وخفة روحها ، وهو ينظر إلى الجميل جملة لا تفصيلا ، وهى تنظر إليه تفصيلا لا جملة .

١ — بعث الحارث بن عمرو الكندى ملك كندة امرأة عاقلة فصيحة اسمها عصام لترى جمال بنت عوف بن محلم الشيبانى وكمالها وعقلها ، فرأتها ، ثم وصفتها له بقولها :

« رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن عقصته قلت عناقيد جلاها الوابل ، وحاجبين كأنما خطا بقلم أو سودا بحمم (١) ، تقوسا على مثل عين ظبية عبهرة (٢) ، بينهما أنف كحد السيف ، حفت به وجنتان كالأرجوان فى بياض كالجمان ، شق فيه كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ذات أشر (٣) ، تقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان ، بعقل وافر وجواب حاضر ، تلتقى فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقاً كالشهد ، فى رقبة بيضاء كالفضة ، ركبت فى صدر كالدمية ، وعضدان مدمجان يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يمس ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما ، تعقد إن شئت فيهما الأنامل ، نتأ فى ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طوى طى القباطى المدمجة ، كسر عكناً

---

(١) حمم : فحم .
(٢) عبهرة جامعة للحسن
(٣) أشر : تحزيز .

كالقراطيس المدرّجة ، تحيط بتلك البطن سُرة كالمدهُن المجلو ، خلف ذلك ظهر كالجدول ، ينتهى إلى خصر يكاد ينبتر ، وكفل يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت ، يحمله فخذان لُفّا ، وتحتهما ساقان خدلتان [1] وُشّيتا بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قدمان كحذو اللسان [2] » .

فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها منه وتزوجها [3] .

وهذه الأوصاف التى بسطتها عصام لا تجافى ولا تنافى فى كثير ولا قليل الأوصاف التى بسطها الشعراء . أما شعر الساقين فسيأتى شبيه له فى وصف حواء لعائشة بنت طلحة ، وكذلك وصفت بلقيس حين قدمت على سليمان [4] ، وهو دليل على تصون الفتاة وأنها لا تزاول ما يزاول النساء ، أو هو وصف للواقع ، وأن بعض الناس يميل إلى هذا الزغب على ساق المرأة . ولعل بعضهم كانوا يستحسنون هذا الشعر على سيقان النساء .

من ذلك ما حكى ابن شرف القيروانى أن المعز بن باديس الصنهاجى خلا به وبابن رشيق وقال لهما : أريد أن تصنعا شعراً تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذى يكون على سوق بعض النساء ، فإنى أستحسنه ، وقد عاب بعض الضرائر بعضاً به ، وكلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن هذا ، وأدعى أنه قديم لأحتج به على من عابه ، وأواسى به من عيب عليه ، فانفرد كل منا وصنع فى الوقت .

فكان الذى قلته ... وكان الذى قاله ابن رشيق [5] ...

---

(١) خدلتان : ممتلئتان (٢) حذو اللسان : مثله .

(٣) مجمع الأمثال الميدانى ٢ ١٩٢ ، وجمهرة الأمثال لأبى هلال ٢٩ ، والعقد الفريد ٣ ٢٢١ ، وأعلام النساء لعمر رضا كحالة ٢ / ١٠٢٠

(٤) تاريخ الطبرى ١ / ٥٦

(٥) رسائل البلغاء كرد على ٢٣٤ .

٢ — ليس هذا الوصف النسوي حادثة فردية ، فقد وصفت امرأة خبيرة بالنساء مثل هذا الوصف ، تلك هي حواء ، وهي امرأة مخضرمة كانت تعيش بالمدينة وتعلم النساء (أشياء) ، وكانت لها سقيفة يجتمع فيها رجالات قريش ، ولم يكن بالمدينة شريف ممن يجلس في سقيفتها إلا أهدى إليها . جاءها ذات يوم مصعب بن الزبير وعمرو بن سعيد بن العاص وابن لعبد الرحمن بن أبي بكر ، فقالوا لها : ياخالة ، قد خطبنا نساء من قريش ، ولسنا ننتفع إلا بنظرك إليهن ، فأرشدينا بفضل علمك فيهن . فقالت لمصعب : من خطبت ؟ قال : عائشة بنت طلحة . قالت : وأنت يابن الصديق ؟ قال : أم القاسم بنت زكرياء بن طلحة . قالت : فأنت يابن أبي أحيحة ؟ قال : زينب بنت عمرو بن عثمان فخرجت إلى عائشة بنت طلحة ، واحتالت عليها حتى جردتها من ثيابها ، نظرت إليها وهي تمشي أمامها ، فارتجّ كل شيء منها ، ثم أقبلت على مثل ذلك ، فقالت : فداك أبي وأمي ، خذي ثوبيك ، ثم أتت الآخريين على مثل ذلك ، ثم رجعت إلى السقيفة فقالت : يابن أبي عبدالله ، ما رأيت مثل عائشة بنت طلحة قط ، ممتلئة الترائب ، زجّاء العينين ، هَدِبَة الأشفار (١) ، مَمْحطوطة المتنين (٢) ، ضخمة العجيزة ، لفاء الفخذين ، مُسَرْوَلة الساقين (٣) ، واضحة الثغر ، نقية الوجه ، فرعاء الشعر ، إلا أنني رأيت خلّتين هما أعيب ما رأيت فيها : أما إحداهما فيواريها الخُلُف وهي عِظَمُ القدم ، والأخرى يواريها الخمار وهي عِظَم الأذن .

وأما أنت يابن أبي أحيحة فما رأيت مثل زينب بنت عمرو فراهة قط ، إلا أن في الوجه رِدَّةً (٤) ، ولكني مشيرة عليك بأمر تستأنس إليه ، وهي مَلاحَةٌ تعتز بها .

---

(١) هدبة الأشفار : طويلة شعر أشفار العين .

(٢) محطوطة المتنين : ظهرها مصقول ممدود جبل وكأن ظهرها وجنبيها دالكت وصقلت بالمحط الذي يدلك به الجلد ويصقل . (٣) مسرولة الساقين : مكسوة الساقين بالشعر .

(٤) ردة بكسر الراء معناها الامتلاء

وأما أنت يابن الصديق فوالله مثل أم القاسم ، ما شبهتها إلا بخوط بانة تنثني ، أو خشف(١) يتقلب على رمل ، ولو شئت أن تعقد أطرافها لفعلت ولكنها شنجة الصدر وأنت عريض الصدر ، فإذا كان ذلك كان قبيحاً ، ألا والله حتى يملأ كل شيء مثله . فوصلها الرجال والنساء وتزوجوهن»(٢)

وهذا الوصف كسابقه مساير لأوصاف الرجال ، وصاحبته امرأة ذات بصر بالجمال ، ولم تخف على باعثيها العيوب التي رأتها ، وأشارت عليهم بما يواريها ويلطفها .

جمالهـــا النفسي والخلقي

لم يقتصر الغزلون على الاحتفاء بجمال المرأة الجسدي ، بل احتفوا أيضاً بجمالها النفسي، وليس جمال النفس بأقل تأثيراً في نفس الرجل من جمال الجسد ، بل لعله أعمق منه أثراً وأبعد غوراً وأقوى اجتذاباً .

يقول إميل لودفيج : « الرجل العاشق لا يرى الجمال بل يبصر السحر وحده ، والأختان إذا ما عرضتا على رجال الخيال فضلوا أكثرهما سحراً على أكثرهما جمالا ، وفي الآداب لا يُسبَغ الجمال الكامل على البطلة ، وفي الحقيقة إن هيلانة الباهرة الجمال كانت امرأة روح (٣) » .

وهذا الجمال الروحي والجاذبية الروحية سلطان غلاب ذو عدة قوى، قد تجتمع كلها في امرأة فتصير المثل الأعلى في الجاذبية، وقد يجتمع بعضها ويتخلف بعضها ، ولكن هذا لا يفقد المرأة سحرها وجاذبيتها .

ولم ينحصر الغزلون في دائرة التعبير عن مشاعر الحب ، ووصف

---

(١) خشف : ولد الظبي .

(٢) المحاسن والأضداد . ١٧٠ — ١٧٢ والأغاني ١٠ / ٥٢ ساسي . وسمى المرأة عزة . شنجة : المراد ضيقة

(٣) الحياة والحب ٥٠ .

جمال المرأة وأثرها فى خلق الرجل ونفسيته وغير ذلك ، بل جالوا فى دائرة أخرى صوروا فيها بعض نواح من نفسيه المرأة وأخلاقها .

ولست أزعم أنهم تحدثوا عن نفسية المرأة وأخلاقها حديثاً مستوعباً مفصلا كأنهم من علماء النفس التحليليين ، لأن هذا التحليل المستوعب يبعد بهم عن دائرة الغزل ، ولأنه لم يكن فى مقدورهم ، ولأنهم كانوا منصرفين إلى أنفسهم أكثر من انصرافهم إلى نفسية المرأة .

وإذا كان المحدثون ما زالوا يدينون بأن المرأة (لغز) عسير الحل بعيد الغور ، فقد كان أحرى بها أن تكون فى نظر الجاهليين أعسر حلا وأبعد غورا .

وقد كان العذريون أحفل بتصوير نفسية المرأة وأخلاقها من الحسيين ، لأن هؤلاء كانوا عاكفين على لذاتهم ، منصرفين إلى تصوير الجمال الجسدى أولا وقبل كل شيء . وقد يشتركون مع العذريين فى الحديث عن الأخلاق والنفسية حين يزهدون فى اللذة والمتعة .

وأستطيع أن أحصر هذا الجمال المعنوى فى عدة مظاهر :

١ — جاذبيتها العامة :

ذلك أن المرأة ذات طابع عام يجتذب قلب الشاعر ، فيخضع له ، ويسميه رُقىً ، كأنها فى نظره ساحرة تهوم بجمالها الروحى عليه فتنومه تنويماً (مغناطيسيا) . قال سويد بن أبى كاهل إنها تيمته وخبلت عقله ، واجتذبته إلى حبها بسحرها الذى يشبه الرقى ، ولم يستطع أن يقاومه لأنه كفيل باجتذاب الوعول من قمم الجبال . فالسحر الذى يختلب الوعول أحرى بأن يختلب الإنسان :

خبَّلتنى ثم لما تَشْفِنِى ففؤادى كلَّ أوبٍ مُنْتَزَعْ
ودَعتنى برُقاها إنها تُنْزِلُ الأعصَمَ من رأس اليَفَعْ (١)

(١) المفضليات ١ / ١٩٠ الأعصم : الوعل . اليفع : المرتفع .

وقد صور ربيعة بن مقروم سحر المرأة تصويراً آخر ، إذ جعلها قديرة على أن تُصبي الراهب الأشيب الذى صبغته الرهبانية ، وباعد الشيب بينه وبين الصبوات ، فهو يعيش فى ديره دائم الضراعة لربه فى جنح الظلام والناس نيام ، حتى أضنته العبادة وأطلحه السحر فاغضوضن وجهه وتخدد لحمه ، فهو عزوف عن الدنيا عيوف للذاتها ومباهجها ، ولكنها لو عرضت له وتصدت لتسحره ، لصبا ، ولكاد يهجر ديره ورهبانيته :

لو أنها عرضت لأشمَطَ راهبٍ ... فى رأس مُشْرِفة الذُّرى مُتَبتِّل
جأّرٍ ساعاتِ النيـــام لربه ... حتى تَخدَّد لحمه مُسْتَعمل
لصبا لبهجتها وحُسْنِ حديثها ... ولهَمَّ من ناموسه بتنزل [1]

ويشترك معه النابغة الذبيانى فى هذا التصوير [2] .

ومن الجاذبية العامة دلال المرأة وغرارتها ، أو تظاهرها بالغرارة ، قال قيس بن الخطيم :

فيهم لعوب العِشاء آنسة الدَّ ... ل عَرُوبٌ يسوءها الخُلُف
تَغْترِق الطرفَ وهى لاهية ... كأنما شَفَّ وجهَها نُزُف [3]

٢ — نظراتها :

سبق وصف العيون فى (الجمال الجسدى) ولكن النظرة الجاذبة الخالية من الجمال المعنوى لا الجسدى ، فقد تكون المرأة جميلة العين ولكنها غير جاذبة النظرات . وقد صور عنترة تأثير النظرات بأن العيون مكحولة بالسحر لا بالكحل :

---

(١) الأغانى ٢٠/٩٢ مستعمل يصح أن يكون معناها أنه مسرع . ولعل الصواب متعمل أى مجتهد فى عبادته

(٢) ديوان النابغة الذبيانى ٣٠ .

(٣) الأغانى ٣/٢٢ . عروب : ضاحكة عاشقة حريصة على اللهو . نزف : نزيف . تغترق الطرف : تشغل الناس بالنظر إلى حسنها

واستوكفوا ماء العيون بأعين مكحولة بالسحر لا بالإثمد[1]

ومن أسلحة النظرة أن تكون العين ناعسة كأن النوم يهوّم عليها فتغالبه، فهى مفتّحة مغمضة، وهذا أجمع لفتونها، كما قال عدى بن الرقاع العاملى — من بعد — :

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحورُ من جآذر جاسم
وَسْنان أقصده النعاس فرنّقت فى عينه سِنَةٌ وليس بنائم[2]

وهذا هو النظر بالعين المطروفة فى قول طرفة :

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رِسْلها مطروفة لم تَشَدَّد[3]

وفيما رواه الأصمعى :

ومطروفةِ العينين خفّاقة الحشا منعمةٍ كالريم طابت فَطُلَّت[4]

ولقد يعبّر عن العين آنئذ بأنها ميتة، قال المنخل :

ديار للتى قتلتك غَصْباً بلا سيف يُعَدُّ ولا نبال
بطَرْفٍ ميّتٍ فى عَيْنِ حَىٍّ له خَبَلٌ يزيد على الخبال[5]

أو بأنها نظرة المريض والضعيف، قال النابغة :

نظرتْ إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العُوَّد

ويصور امرؤ القيس أثر النظرة بأنه يريع قلبه :

إذا نال منها نظرة ريع قلبه كما ذَعَرَتْ كأسُ الصبوح المخمَّرا[6]

---

(١) ديوان عنترة ٦٩ (٢) معجم البلدان ٣ ٣٧ . جاسم قرية بين دمشق وطبرية .
(٣) لسان العرب ١١ ١١٨ وديوان طرفة ٢٦ .
(٤) لسان العرب ١١ ١١٨ (٥) الأغانى ١٨ ١٥٤ :
(٦) ديوان امرئ القيس ٦٩ .

ويتأثر عنترة بفروسيته ومكابدته الحرب وخبرته بأدواتها ، فيصور أثر النظرة فى قلبه بوقع النبل :

يا من رمت مهجتى من نبل مقلتها　　بأسهم قاتلات بُرْؤُها عَسِر (١)

ويصوره مرة أخرى بوقع السهم العميق الأثر الذى لا يخطىء :

رمَتْ عبيلة قلبى من لواحظها　　بكل سهم غريق النّزع فى الحَوَر
فاعجَبْ لهن سهاما غير طائشة　　من الجفون بلا قوس ووتر (٢)

٣ — حركتها :

سبق الإعجاب بالحركة فى وصف بعض أعضاء الجسد كالعنق والخصر . والحركة ذات أثر بالغ فى الجمال الروحى ، لأنها مرتبطة بالخفة واللياقة والرشاقة والتثنى ، فهى تضيف إلى جمال الأعضاء حياة . وللحركة أهمية بالغة ، فالشخص النائم يوحى بالإجلال كالشخص الميت ، والحب عند الحركة يلوح صراعاً . وإذ أن كل حركة تثير أعصاب المشتهى فإن السكون يبطل هذه الإثارة ، وعن الحركة يصـــدر أقسى ما يُحدِّق وأسرعه »(٣) .

والشعراء يشيدون بالحركة الهينة التى يميد لها الجسم أو العضو كأنه غصن بان ، قال امرؤ القيس :

إذا ما الضّجيع ابتزّها من ثيابها　　تميل عليه هَوْنةً غير مِجْبال
كحِقف النّقا يمشى الوليدان فوقه　　بما احتسبا من لين مَسّ وتَسهال (٤)

---

(١) ديوان عنترة ٨٠　　(٢) ديوان عنترة ٨٥ .
(٣) الحياة والحب لأميل لودفيج ١٩ .
(٤) ديوان امرىء القيس: ١٤ . ابتزها : جردها . هونة : لينة . مجبال : غليظة فظة . حقف النقا : كثيب مستدير من الرمل .

وتعجبهم المشية المتمهلة البطيئة الخطا ، لأنها أدل على الرزانة ، وأنسب بالمرأة المنعمة ، وأكشف عن جمالها ، ولأنها دليل على ثقل ردفيها ، قال الأعشى إنها تمشى متأنية كما يمشى فى الوحل مجروح الرجل ، وإنها تنتقل من بيت جارتها إلى بيتها فى تؤدة كتؤدة السحابة لا الرياح تزجيها ولا ركود الهواء يوقفها :

غراءُ فرعاء مصقول عوارضها   تمشى الهوينا كما يمشى الوجِى الوحِل
كأن مشيتها من بيت جارتها   مر السحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَل (١)

ويشبه قيس بن الخطيم مشيتها المتمهلة الرزينة بمشية مهاة فى رمل ناعم إلى سهل ذى حفر ، فهى تتأنى ، وتقدر لكل خطوة موضعها :

تمشى كمشى الزَّهراء فى دَمِث الر   مل إلى السَّهل دونه الجُرُف (٢)

ويشبهها امرؤ القيس بمشية من أضعفه النزف ، فى كثيب غير ممهد فينقطع مشيه :

وإذا هى تمشى كمشى النزيف   يَصرَعُه بالكثيب البَهَر (٣)

وقد بقى هذا الإعجاب بالمشية المتمهلة إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فعمر بن أبى ربيعة يشبه مشيتها بسير البقرة :

بيضاً حساناً خرائداً قُطُفا   يمشين هَوْناً كمشية البقر (٤)

والمرار بن منقذ يشبه مشيتها بسير الغمامة والقطاة :

قُطُف المشى قريبات الخطا   بُدَّنا مثل الغمام المزجَرّ

(١) ديوان الأعشى ٤٢ وشعراء النصرانية ٣٦٦

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٧ . الزهراء: البقرة الوحشية البيضاء . الجرف: ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض .

(٣) ديوان امرىء القيس ٦٨ .

(٤) الأغانى ١/١٠٣ .

يتزاورن كتقطاء القطا وطعمن العيش حلوا غير مر[1]

وسيأتي تفصيل ذلك .

٤ — صوتها وحديثها :

والصوت والحديث من ينابيع الجاذبية ، ولقد يستهوى الصوت ويجتذب كما تجتذب النضارة والحركة والجمال ، لذلك يرى العالم اللغوى سبربر Sperber أن الغريزة الجنسية كانت مصدر الكلام والتخاطب(٢)

وفى الحياة البدائية صرختان تستجيب لهما الأنثى بفطرتها : صرخة الطفل الجائع لتطعمه ، وصوت الرجل الذى ثارت رغبته الجنسية لتستجيب له ، وللموسيقى تأثير كبير على الجهد العضلى لا ينكر ، كما ثبت أن لها تأثيراً على الجهاز التنفسى والدورة الدموية عند الإنسان والحيوان ، وكثير من الرجال والنساء أحبوا مغنيات أو مغنين مع أن هؤلاء لا يمتازون بجمال . وكما ينتج الحب والجاذبية عن الصوت يصح أن ينتج عنه النفور والكراهية(٣) .

لا عجب إذاً فى أن تأثر الغزلون بصوت الحبيبة والمرأة عامة ، وسباهم حديثها ، وسيأتى وصفهم لصوت القيان وتأثيره فى نفوسهم .

(ا) وهم جميعا يحبون الصوت الأغن الذى يشبه بغام الظباء ، قال عنترة :

فياطالما مازحت فيها عُبَيْلَةَ ومازحنى فيها الغزال المُقَنَّعُ
أغنُّ مليح الدَّلِّ أحور أكحل أزجُّ نقى الخد أبلج أدعج[4]

---

(١) المفضليات ١ /٨٧ . المزمخر : المرتفع وهو دائماً رقيق صاف . القطا : طائر معروف سمى بذلك لثقل مشيه .

(٢) Psychology of Sex. P. 58 Havelock. Bllis

(٣) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة للدكتور موريس الديك ٦٢ .

(٤) ديوان عنترة ٣٣

وقال كعب بن زهير .

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول(١)

ويحبون أن يكون الصوت رخيما ، قال طرفة :

فحيّونى يوم زمّوا عيرهم برخيم الصوت ملثوم عَطِر(٢)

وقد صرح معن بن أوس بأثر الصوت المنغّم الرخيم فى الحب :

تصيد ألباب الرجال بأنسها ويقتلهم منها التدلل والنّغَم(٣)

(ب) ويستطيبون حلاوة حديث المرأة ويلتذونه ، فهو فى سمع قيس بن الخطيم عذب شهى لذيذ مستطرف ، ولكنها لا تسترسل ، بل تصمت أحيانا فتخزن هذا الحديث المشتهى ، وكل حديثها جديد شائق :

ولا يَغُثّ الحديث ما نطقت وهو بفيها ذو لذة طَرِفُ
تخزنه وهو مشتهًى حَسَنٌ وهو إذا ما تكلمت أُنُفُ(٤)

وهذا الحديث المشتهى لا مجافاة فيه للعفة . فالمرأة تجود على سُمّاعها بحديثها الحلو البرىء ولا تفوه بفهره ، قال سويد بن أبى كاهل :

تُسمِع الحُدّاثَ قولا حسنا لو أرادوا غيره لم يُستمَع(٥)

ولقد يجمع الشاعر إعجابه بالحديث إلى إعجابه بالفم والبسمات ، قال الحادرة :

وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسنا تبسمها لذيذ المكرَع(٦)

(١) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٣٠٨ (٢) ديوان طرفة ٥٣ .
(٣) ديوان معن بن أوس ٤ .
(٤) ديوان قيس بن الخطيم ١٧ والأغانى ٣/٢٢ والأصمعيات ١/٤٥ . أنف . جديد شهى
(٥) المفضليات ١/١٩٠ (٦) ديوان الحادرة ٥ المكرع : المقبل والمراد الفم

وكذلك جمع المزرد بن ضرار إعجابه باللهو إلى إعجابه بالحديث(١) وأعجبهم من الحديث أن يكون بصوت خفيض ، قال الأسود بن يعفر النهشلى :

ينطقن معروفا وهن نواعم　　بيض الوجوه رقيقة الأكباد
ينطقن مخفوض الحديث تهامساً　　فبلغن ما حاولن غير تناد(٢)

أما أثره فى نفوسهم فإنه قوى عميق ، صور لبيد حديثها بأنه خمر مزج بها عصير رمان طازج :

كأن الشَّمول خالطت فى كلامها　　جَنِيًّا من الرمان لدنا وذابلا
لذيذا ومنقوفا بصافى مُخِيلَةٍ　　من الناصع المختوم من خمر بابلا(٣)

وصوره الحكم بن ريحان بأنه عسل :

كأنما عسل رُجْعَانُ منطقها　　إن كان رَجْعُ الكلام يشبه العسلا(٤)

وظل ولع الشعراء بحلاوة حديث المرأة إلى ما بعد العصر الجاهلى ، بل ظل التصوير نفسه ، كقول عمر بن أبى ربيعة :

وحديث بمـــنزلة تنزل العصـ　　ـم رخيم يشوب ذلك حلم(٥)

وظلَّت المرأة العربية توصف بأنها حلوة الحديث ظريفة ، يدل على ذلك قول أبى الغصن الأعرابى : خرجت حاجا فلما مررت بقباء تداعى أهله وقالوا : « الصَّقِيل ، الصَّقيل » فنظرت وإذا جارية كأن وجهها سيف صقيل ، فلما رميناها بالحَدَق ألقت البرقع على وجهها ، فقلنا إنا سَفْر ، وفينا أجر ، فانصاعت ، وأنا أعرف الضحك فى وجهها وهى تقول :

---

(١) المفضليات ١/٩٢　　(٢) المفضليات ١/١٩ .

(٣) ديوان لبيد ٢٦ الشمول : الخمر أو الباردة منها . منقوف : مصفى ممزوج . مخيلة : سحابة ممطرة .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٢٩　　(٥) الأغانى ١/١٢٥ .

وكنتَ متى أرسلتَ طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيتَ الذى لا كلُّه أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر (1)

وقال أبو حازم المدنى : بينا أنا أرمى الجمار رأيت امرأة سافرة من أحسن الناس وجهاً ترمى الجمار ، فقلت : يا أمة الله ، أما تتقين الله ؟ تسفرين فى هذا الموضع فتفتنين الناس؟ قالت : أنا والله ياشيخ من اللواتى قال فيهن الشاعر — العَرْجىّ — :

من اللاء لم يحججن يبغين حِسْبَةً ولكن ليقتلن البرىء المغفَّلا

فقلت : فإنى أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار (2) .

٥ — ابتسامها :

بسمة المرأة من أنواع مفاتنها وعوامل إغرائها ، وقد سبق وصف الشعراء لها ولأثرها فى الكلام على (الفم والأسنان) ، ولكن ذلك لا يمنع من إفرادها بكلمة هنا .

فالنابغة الذبيانى يصور ضحكها شركا قديراً على قنص الوعول ، لأنه جاذب خالب ، ويصور ابتسامها مغريا للسحاب على الإبراق .

وإن ضحكت للعُصْمِ ظلت روانيا إليها وإن تبسم إلى المزن يَبرُقِ (3)

والحادرة يصف تبسمها بالحسن ، والإغراء له على أن يشتار رحيق الفم :

وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسنا تبسمها لذيذ المَكْرَعِ (4)

---

(1) عيون الأخبار ٤ / ٢٢ .

(2) الأغانى ١ / ٤٠٤ ، وعيون الأخبار ٤/ ٢٩ . وأبو حازم المدنى هو ابن دينار ، من وجوه التابعين روى عن سهيل بن سعد وأبى هريرة ، وروى عنه مالك وابن أبى ذئب ونظراؤهما .

(3) ديوان النابغة الذبيانى ٢٩ (4) المفضليات ١ / ٤٢ .

٦ — عفتها :

كانت المرأة العفيفة الممنعة العسيرة المنال هى المثل الأعلى فى نظر الرجال. قال على بن أبى طالب « خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل ، فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شىء يعرض لها[1] .

وقد صرح سليك بن السلكة بأن قلبه يعاف المرأة التى تجود بوصلها، ويعلق بالممنعة التى لا تأتى ريبة :

من الخفرات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها شنارا
يعاف وصالَ ذاتِ البذل قلبى وأتَّبع الممنَّعة النَّوارا[2]

وللعفة مظاهر شتى ؛ فقد تكون فى خلاط المرأة الرجال وتحديثهم على أن تخالطهم وتحدثهم فى تصون ، فلا يسمعون منها غير الجد العف من القول ، قال سويد بن أبى كاهل :

تسمع الحداث قولا حسنا لو أرادوا غيره لم يستمع[3]

وقال كعب بن رواع :

ويخالها المرِحُ السفيه تحبه ونَوَالُها غَيْرَ الحديث بعيد[4]

وقد تضرب عفتها وهيبتها حجاباً بينها وبين الناس ، فلا يجرؤ أحد أن يكلمها ، وإذا غاب زوجها حفظت غيبته ، وأرضت أوبته ، قال علقمة ابن عبدة بن النعمان بن قيس :

منعمة ما يستطاع كلامها على بابها من أن تُزار رقيب

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٤/٣٤٦ (٢) الأغانى ٤/٣٦٤ . النوار : التى تنفر من الريبة (٣) المفضليات ١/١٩٠ (٤) المؤلف والمختلف ١٢٨ .

إذا غاب عنها البعل لم تُفشِ سره ... وتُرضى إياب البعل حين يئوب[1]

وقد يجاورها المحب شهوراً كثيرة، ولكنه لا ينال شيئاً، قال قيس ابن الحُدادية:

أَجِدَّكَ إن نُعْمٌ نأت أنت جازع ... قد اقتربت لوَان ذلك نافع
قد اقتربت لو أن فى قرب دارها ... نوالا ولكن كل من ضن مانع
وقد جاورتنا فى شهور كثيرة ... فما نولت والله راء وسامع[2]

ويشبه هذا قول الشاعر:

فكيف صبرت أو ترجو مهاة ... منعمــــة تزار ولا تزور
جَلَتْ بَرَداً نهِّش له فؤادى ... فكدت إليه من شوق أطير
بَرَهْرَهَةٌ يحار الطرف فيهــا ... وليس يُنال من خَوْلَ اليسير[3]

وقد صور رجل من بنى أسد تصون محبوبته بأنها تبخل حتى بما لا يُطالب ولا يحتفظ به، ولا يمس عفتها فى شىء:

وإنى لأرجو الوصل منك كما رجا ... صدى الجوف مرتاداً كُداه صَلُود
وكيف طلابى وصل من لو سألته ... قذى العين لم يُطلِبْ وذاك زهيد
ومن لو رأى نفسى تسيل لقال لى ... أراك صحيحاً والفؤاد جليد[4]

وقد استهوى الخلق الطاهر الأعشى ـ وهو صاحب خمر ولذة حسية ـ:

---

(١) المفضليات ٢/١٩١ (٢) الأغانى ١٣/٦ .

(٣) برهرهة: بيضاء ناعمة شابة .

(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٣/١٩٠ ومعجم البلدان ٦/٢٩٦ الجوف: المطمئن من الأرض. كداه: جمع كدية الأرض الغليظة. مرتاداً: طالباً منصوب على الحال. صلود: قليلة الماء أى أرجو وصلك رجاء العطشان الطالب للماء من أرض لا ماء فيها .

ليست بسوداء ولا عِنْفصٍ داعرةٍ تدنو إلى الداعر
عَبْهَرَةُ الخلق بُلاخيّة تَشوبه بالخلق الطاهر (١)

وهي لذلك طيبة السمعة لا تتناولها الألسن ، قال الشنفرى :

فيا جارتي وأنت غير مُليمة إذا ذُكرتْ ولا بذات تَقَلَّت
أميمة لا يُخزِي نَثَاهَا حليلَها إذا ذُكر النسوانُ عَفّت وجَلَّت
إذا هو أمسَى آب قرة عينه مآب السعيد لم يَسَل أين ظلت
تحل بمنجاة من اللوم بيتَها إذا ما بيوت بالملامة حُلت
فقد أعجبتني لا سقوط قناعها إذا ما مشت ولا بذات تَلَفَّت
كأن لها في الأرض نِسْياً تقصه إذا ما مشت وإن تحدثك تبلَت (٢)

* * *

وقد اشتهرت المرأة العربية بالعفة منذ القدم ، وكانت نعمة على قومها ، لأنها أنقذتهم من خزى ومعرة ، وذلك أن الفطيون اليهودى ملك على المدينة ، وكان الأنصار — الأوس والخزرج — قد نزلوا بها من قبل ، وكان الفطيون ملك سوء فاجراً ، وكانت اليهود تدين بألا تزوج امرأة منهم إلا دخلت عليه قبل زواجها ، وقيل إنه كان يفعل ذلك بالأوس والخزرج أيضاً ، ثم إن أختاً لمالك بن العجلان الخزرجى تزوجت . فلما كان زفافها خرجت إلى مجلس قومها وفيه أخوها مالك ، وقد كشفت عن

(١) ديوان الأعشى ١٠٤ عنفص : بذيئة قليلة الحياء أو داعرة . عبهرة : عظيمة حسنة الخلقة . بلاخية : طويلة لينة .

(٢) الأغانى ٢١/٩١ والمفضليات ١/١٠٦ تقلت : لايقال إنها تبغضت . تبلت : تنقطع في كلامها لا تطيله .

ساقيها ، فقال لها : « لقد جئت بسوء » فقالت : « الذى يراد بى الليلة أشد من هذا ، أدخل على غير زوجى !؟» . ثم عادت فدخل عليها أخوها، فأشارت عليه أن يدخل مع النساء ، فإذا خرجن ودخل الفطيون قتله ، فذهب مع النساء فى زى امرأة ومعه سيفه ، فلما خرجن قتله مالك وفر هارباً ، فقال بعضهم فى ذلك :

هل كان للفطيون عَقرُ نسائكم   حكم النصيب فبئس حكم الحاكم

حتى حبـــاه مالك بِمُرَشَّةٍ   حمراء تضحك عن نجيع قاتم[(١)]

واستنجد مالك بأبى جبيلة عظيم غسَّان ، فأباد كثيراً من اليهود الذين بالمدينة وصار العز بها للأوس والخزرج[(٢)] . وقد سبق فى مقدمة الغزل الحسى ما يزيد عفة المرأة العربية وضوحاً .

٧ — حياؤها :

حياء المرأة من الرجل وثيق الصلة بعفتها وتصونها ، بل إن الحيـاء يتناول مالا تتناوله العفة ، فهو أعم منها ، فقد تكون المرأة عفيفة ولـكنها تبدى محاسنها للرجال ، وتبتسم لهم ، ولـكن المرأة الحيية لا تفعل ذلك ، وقد ذهب شوبنهور إلى أن المرأة أقل حياء من الرجل « لأنها لا تعرف الحياء بمعزل عن غريزة الاحتجاز الجنسى ، ولأن الرجال يستحون حيث لا تستحى النساء ، فيستترون فى الحمامات العامة ، ولـكن المرأة لا تستتر مع المرأة إلا لعيب جسدى تواريه ،(٣) ولـكن ذلك غير صحيح ؛ لأن المرأة تستحى حيث لا احتجاز ، ولأن النساء تعودن ألا يستحى بعضهن من بعض فى كثير من الأحيان ، كما أن بعض الرجال لا يستحى بعضهم من بعض ، ولـكن النساء يستحين من الرجال .

---

(١) طعنة مرشة : واسعة ذات رشاش من الدم .

(٢) الـكامل فى التاريخ لابن الأثير ١ / ٢٤١ ومعجم البلدان ٣ : ٢٠٢ .

(٣) هذه الشجرة ١٢١ العقاد .

وحياء المرأة من مكملاتها فى نظر الرجل ، لأنه دليل على تصونها وعفتها وتمنعها وأنوثتها ، وقد أعجب به العرب لأن أخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة والإشادة بالمرأة المستكملة لصفات الأنوثة .

قال أوس بن حجر إن ضحكهن تبسم ، وهن فى بيوتهن مستورات .

نواعم ما يضحكن إلا تبسما ... إلى اللهو قد مالت بهن السوالف (١)

وقال حاتم :

يضيء لها البيتَ الظليلَ خَصاصُه ... إذا هى يوماً حاولت أن تَبسَّما (٢)

وأعجب الشنفرى بها وهى تمشى مُقَنَّعة لا تتلفت ، وعيناها إلى الأرض كأنها تبحث عن شيء :

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها ... إذا ما مشت ولا بذات تَلَفت

كأن لها فى الأرض نِسياً تقصه ... على أَمِّها وإن تكلمك تَبلَت (٣)

ومن حيائها أن تقل زوراتها لجاراتها ، فيعذرنها ويزرنها ، وليست مستهينة بهن ولكنها ذات حياء وخفر ، قال قيس بن الأسلت :

وتكرمها جاراتها فيزرنها ... وتَعتَلُّ عن إتيانهن فتُعذَر

وليس لها أن تستهين بجارة ... ولكنها منهن تحيا وتَخْفَر (٤)

ومن يحببنها لأنها حيية لا تتسقط أخبارهن ، ولا تتجسس على دخائلهن ، قال الأعشى :

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ... ولا تراها لسر الجار تختتل (٥)

(١) ديوان أوس بن حجر ١٤ (٢) الأغانى ١٥/١٥٩ .

(٣) الأغانى ٢١/٩١ والمفضليات ١/١٠٧ ومحاضرات الأدباء ٢/١٣٦ النسى : الشيء المفقود : تقصه : تبحث عنه . أمها : قصدها الذى تريده . تبلت : تقطع كلامها لا تطيله .

(٤) الأغانى ١٥/١٥٩ (٥) شعراء النصرانية ٣٦٧ .

وقال عنترة إنها غضيضة الطرف[1] .

وقد نشأ عن العفة والحياء أن أقل الشعراء من تصوير الحبيبات يبادلنهم حباً بحب ، وأرى أن الذوق العربى كان لا يرتضى ذلك ، لأن العرب أميل إلى المرأة المتصونة البعيدة المنال التى تلهب القلب حباً فى عزة وشمم وتسام ، أما المرأة الجريئة المتهالكة على الرجل فإنها لا تثير إلا طلاب الجسد ، وهى فى نظرهم لا توحى ولا تحيي القلب بالحب ، وسنرى أنهم عابوا فى العصر الإسلامى عمر بن أبى ربيعة لأنه صور بعض النساء مشغوفات به طالبات له ، فى مثل قوله :

قالت الصغرى وقد تيمتها   قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟

فقال له ابن أبى عتيق : أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك ، كان ينبغى أن تقول : قلت لها فقالت لى ، فوضعت خدى فوطئت عليه[2] .

٨ — تقلبها :

وقد وصفوا المرأة بالتقلب والغدر والتلون ، وقالوا إنها تمنى وتخلف ، وتملى للرجل حتى يستوثق من وفائها له وانحصارها فيه ، وإذا بها تنكث عهدها ، وتهدم ما بنى .

وقد يكون مردُّ ذلك إلى العفة والحياء . ذلك أن الرجل يفهم من كلمة أو إشارة أو حركة أن المرأة راضية بأن تواصله ، ثم لا تحقق ما فهمه أو توهمه ، فيتهمها بالنكول والغدر والتقلب .

وقد يكون مرده إلى أنها تعد فى لحظة غفل فيها ضميرها ، فإذا ما استيقظ برئت مما وعدت ، واحتجزها حياؤها وعفتها من أن تنيل شيئاً ، فيصفها الرجل بالتلون والإخلاف .

---

(١) ديوان عنترة ١٤٣ .

(٢) الأغانى ١/١١٩ .

ولقد يكون مرجع هذا إلى أنها مسوقة بالفطرة الجنسية التى خلقت فيها قبل أن تنشأ الآداب الاجتماعية والدينية ، فقدأغرتها الفطرة الجنسية بالميل إلى الأقدر الأكمل من الرجال لتنجب للعالم أحسن الأبناء من أحسن الآباء . فلم يكن مما يوافق هذه الفطرة فى العصور السحيقة أن تحفظ العهد لرجل واحد ، ومن حولها رجال كثيرون يتقاتلون عليها ، وقد يغلب أحدهم رجلها الذى تحفظ له العهد أو يطالبها بحفظه .

وكانت الحرب فى بداية الحياة الإنسانية مقياس القدرة والرجحان بين الرجال ، فكان من شأن المرأة أن تسلم اظافر بعد ظافر وشجاع بعد شجاع كلما دارت رحى الحرب بين غالب ومغلوب ، وبين شجاع قوى وشجاع أقوى منه[1] » .

لهذا وصفها شعراء العصر الجاهلى بالتلون،ثم وصفها المتنبى بقوله : « ومن عهدها ألا يدوم لها عهد » وأبغضها المعرى ، وذمها ، ورأى السلامة فى الابتعاد عنها ، واتفق معه فى نظرته السوداء إليها شوبنهور .

ويقول المثل اللاتينى : « يجب أن يكتب على الهواء أو الماء ما تقوله المرأة لحبيبها[2] » .

ولكنها فى الحقيقة وإن تقلبت وتلونت فى حبها للفرد فإنها تثبت على حبها للنوع ، فهى « وفية للحياة لا لهذا الرجل أو ذاك ، وصادقة فى الحب لا فى إرضاء أهواء من تحب . فهى وفية بالفطرة رضيت أم لم ترض ، وهى صادقة بالإلهام حيث أرادت وحيث لا تريد[3] » .

وليس معنى هذا أن للمرأة أن تتحلل من خلق الوفاء والثبات ، وأن تستسلم لدواعى هذه الفطرة التى كانت لها منذ فجر الحياة، فإن وسيلة نيل المرأة قد تبدلت،وصارت الأحوال الاجتماعية الدينية هادياً إلى سواء السبيل ،

---

(١) هذه الشجرة ١٢٦ عباس العقاد .

(٢) Benham's. New Bok of Quotations P. 581.

(٣) مطالعات فى الأدب والحياة . العقاد .

ومن شأن هذه الآداب أنها تهذب الفطرة ، وتصفيها من عيوبها ، فعلى المرأة أن تستجيب للأخلاق الاجتماعية والدينية فتصدق فى حبها إن أحبت ، وتفى .

ولكن المرأة كانت عفيفة حيية أو كانت أكثر خضوعا لفطرتها الأصيلة ، فخاتلت وراوغت وتلونت .

قال الأعشى إنها تمنى بالقرب ثم تبتلى بالبعد ، فمن الطيش أن يحبها :

أرى سفهاً بالمرء تعليق قلبه بغانية خَوْدٍ متى تَدْنُ تَبْعُدِ[1]

وطالبها المثقب العبدى ألا تعد موعداً مكذوباً :

ولا تعدى مواعد كاذبات تمرُّ بها رياح الصيف دونى[2]

واحترق ثعلبة بن صُعير بإخلافها وعودَها ، فراض نفسه على ألا يرجو تحقيق مواعيد من هذه الحبيبة البخيلة المخلافة وإن أقسمت على الدم الذى يتحالفون عليه ، لأن الغوانى لا يثبتن على ودهن لفقير ولا لغنى :

سئم الإقامةَ بعد طول ثوائه وقضى لبانته فليس بناظر

لِعدات ذى أَرَبٍ ولا لمواعدٍ خُلُفٍ ولو حلفت بأسحَم مائر

وعدتك ثُمّتَ أخلفت موعودها ولعل ما منعتك ليس بضائر

وأرى الغوانى لا يدوم وصالها أبداً على عُسُر ولا لمياسر[3]

ولهم تصاوير شتى لهذه الحبيبة المخلفة ، فهى فى نظر كعب بن زهير كالغربال لا يمسك الماء ، وكعرقوب الذى ضرب مثلا فى الغدر بأخيه :

وما تدوم على العهد الذى عَهِدت إلا كما تمسك الماء الغرابيل

---

(١) شعراء النصرانية ٣٨١ . (٢) شعراء النصرانية ٤٠٥ .

(٣) المفضليات ١/١٢٦ . ذى أرب : الأرب بكسر الهمزة وفتحها وسكون الراء الدهاء والمكر .

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا   وما مواعيدها إلا الأباطيل[1]

وهى كذلك فى رأى علقمة :

وقد وعدتك موعداً لو وفت به   كوعود عرقوب أخاه بيثرب

وقالت : متى يُبْخَلْ عيك ويُعْتَلَلْ

تَشَكّ وإن يُكشف غرامك تدرَب[2]

وعهدها مثل كلام الحداد الذى يتنقل بالبادية فيقيم بالموضع أياماً فيكسد عمله فيشيع أنه مرتحل الليلة وإن لم يرد أن يرحل ، ليستعمله من يريد ، ولذلك قالوا فى أمثالهم : إذا سمعت بسرى القين فاعلم أنه مصبح[3] .

فالعلاقة بين وعد المرأة ووعد القين الكذب المتعمد والعزم على عدم الإنجاز ، ويذكر أبو هلال تعليلا آخر لوعد القين أنه إذا أتى قوماً حسّن لهم عمله أول الأمر حتى يثقوا به ثم يفسده بعد ذلك[4] ، والعلاقة هنا واضحة أيضاً لأن المرأة تمنى وتعد فيثق بها الرجل ثم لا تنيله شيئاً مما وعدت .

قال نهشل بن حَرِى :

وعهد الغانيات كعهد قين   ونَتْ عنه الجعائلُ مستذاق

كبرق لاح يعجب من بعيد   ولا يَشْفِى الحوائمَ من لَمَاقَ[5]

وشبه طفيل الغنوى النساء بشجر مرّ ولكنه لاغنى للناس عن أكله :

إن النساء كأشجار نبتن لنا   منها المرار وبعض المر مأكول

---

(١) حماسة البحترى ٨٣   (٢) ديوان علقمة ٦ .

(٣) لسان العرب ١٧/٢٣١ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٣٦ .

(٤) جمهرة الأمثال لأبى هلال ٦

(٥) جمهرة الأمثال لأبى هلال ٦ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٣٦ ولسان العرب ١١/٤٠١ .
ونت عنه الجعائل : قصرت عنه الاجور . مستذاق : مجرب . الحوائم : العطاش . لماق : شيء

إن النساء متى يُنْهَين عن خلق ... فإنه واجب لا بد مفعـــول

فالمرأة فى نظره قد تكون كالشجرة المرة ولكنها تغرى الرجل بأكلها ، وهى فى نظره مولعة بأن تفعل ما أمرت بتركه .

٩ — ليست ثرثارة :

ووصفوا المرأة بأنها نزرة المقال ، غير ثرثارة ، والحق إن هذه صفة مستحبة فى النساء على ندرتها فيهن ، لأن من طبعهن أن يفضن فى المقال ، ويشققن الحديث طرائق وألواناً .

قال النابغة إنها كتوم لغضبها وأسبابه ، فلا تذيعه ولا تذيعها ، وإنها نزرة الحديث بمسراتها وأسبابها ، وهذا غريب عجيب من المرأة لأنها إذا غضبت أو ابتهجت اندفعت فى حديثها اندفاعاً :

إذا غضبت لم يَشعُر الحىّ أنها
أُرِيبَتْ وإن نالت رِضاً لم تُدَهْدِق[1]

وقال أوس بن حجر إنهن لا يتخطفن الحديث ويتناهبنه ، ولسن يتكلمن معاً فى آن واحد كما تفعل النساء ، وإذا حُدِّثن بسر فإنهن لا يذعنه :

ليس الحديث بنُهْبَى بينهن ولا ... سر يحدَّثنه فى الحى منشور[2]

١٠ — بم تستمال ؟

(ا) وقد اختلفوا فى وسيلة استمالة المرأة ونيل إعجابها ورضاها ، أيستميلها الشباب والمال ؟ أم المداهنة والملاينة ومعسول القول ؟ أم البطولة والشجاعة والكرم والجد ؟ وأكثر الشعراء على أن المرأة يستهويها الشباب — لأنه مجال البطولة والقوة — ويستهويها المال — لأنه وسيلة الكرم والزعامة — فليس الشباب هو المقصود وحده وإن كان حبيباً

---

(١) ديوان النابغة ٣٩ تدهدق ضحكا يخرجها عن وقارها .

(٢) ديوان أوس بن حجر ٩

إلى المرأة ، وليس المال هو المقصود وحده وإن كان من مغرياتها ، وإنما هما مقصودان لذاتهما ، ولما يحققان من سؤدد وزعامة وعظمة . وليس من شك فى أن البيئة العربية كانت تقيم صرح الأخلاق على دعائم أقواها وأعظمها الكرم والشجاعة ، فهما الأساس وهما المقياس ، فلا عجب أن تقدر النساء الرجال على قياسهما ، وقد سبق فى آثار الحب والحبيبة فى نفس الشاعر أن الحب كان يدفعه إلى البطولة والمجد دفعاً .

من رأى المرار الفقعسى أن المرأة لا تستمال بجفاء المعاملة ولا بالانشغال عنها بأعمال أخرى ، ولا بالثراء ، وإنما تستمال بالكلام المعسول والوعود الكاذبة وإظهار الحب لها والوجد بها :

وليس الغوانى للجُفاة ولا الذى　　له عن تقاضى دَيْنهن هموم
ولكنما يَسْتَنْجِزُ الوعد تابعٌ　　مُناهُنَّ خلافٌ لهن أثيم
وما جُعِلَتْ البابهن لذى الغِنَى　　فييأس من ألبابهن عديم(1)

ويرى علقمة بن عبدة ، وامرؤ القيس ، والأعشى ، وعنترة ، وعبيد ابن الأبرص ، والأسود بن يعفر ، وغيرهم من شعراء العصر الجاهلى ، ثم جران العود النميرى وعمر بن أبى ربيعة وغيرهما من شعراء العصر الإسلامى ، يرون أن الشباب والمال — وما يستتبعان من محامد طبعا — هما وسيلة اجتذاب المرأة ونيل إعجابها .

قال علقمة إنه بصير بوسائل النساء عليم بنفسيتهن ، وإنه يرى أنهن لا يقبلن على أشيب أو معدم ، وإنما يقبلن على الثرى وعلى الشاب الفتى :

فإن تسألونى بالنساء فإننى　　بَصيرٌ بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله　　فليس له من ودهن نصيب

---

(1) عيون الأخبار ٤ / ٤٥ .

يُرِدْن ثراء المال حيث علمنه   وشَرْخُ الشباب عندهن عجيب[1]

وقد أعجب هذا القول أبا عمرو بن العلاء فقال : أعلم الناس بالنساء عبدة بن الطبيب حيث يقول (الأبيات)[2] .

وقال امرؤ القيس :

ويارب يوم قد أروح مُرَجَّلا   حبيباً إلى البيض الكواعب أملَسَا
يَرُعْن إلى صوتى إذا ما سمعنه   كما ترعوى عِيطٌ إلى صوت أعيَسَا
أراهن لا يحببن من قل له   ولا من رأين الشيب فيه وقُوِّسا[3]

وقال الأعشى :

وأرى الغوانى حيث شبت هجرننى   ألا أكون لهن مثلى أمردا
إن الغوانى لا يواصلن امرأً   فقد الشباب وقد يصلن الأمردا[4]

وعتب عنترة على عبلة لأنها هجرته ونكثت عهودها وهو لا يزال شاباً فى نعمة :

ألا يا عبل ضيعت العهودا   وأمسى حبلك الماضى صدودا
وما زال الشباب ولا اكتهلنا   ولا أبلى الزمانُ لنا جديدا[5]

وقال عبيد :

وقد علا لمتى شيب فودعنى   منها الغوانى وداع الصارم القالى[6]

(١) ديوان علقمة ٣ وحماسة البحترى ٢٨٩ وعيون الاخبار ٤/٤٥ والعقد الفريد ٣/٢٨١ والمفضليات ٢/١١٩ والشعر والشعراء ٥٩ .

(٢) العقد الفريد ٣/٢١٨ .

(٣) ديوان امرىء القيس ٩٨ أملس : لم ينبت شعر لحيته . عيط : نوق فتية شابة لم تحمل . أعيس : فحل قوى على الضراب .

(٤) ديوان الأعشى ١٥١ ومعجم البلدان ٢/١٣٨ .

(٥) ديوان عنترة ٥٦ .

(٦) ديوان عبيد القصيدة ٥ .

وتحدث عن تبرم زوجته بشيبه فقال :

ألا عتبت علىّ اليوم عِرسى وقد هبّت بليل تشتكينى
فقالتْ لى كبرت ، فقلت هَنّا لقد أخلفتُ حينا بعد حين
تُرِينى آية الإعراض عنها وفظْتْ فى المقالة بعد لين
ومطت حاجبيها أن رأتنى كبرت وأن قد ابيضت قرونى
فقلت لها رويدك بعض عتبى فإنى لا أرى أن تزدهينى
فإن يكُ فاتنى أسَفًا شبابى وأضحى الرأس منى كاللَّجين
فقد ألج الخباء على العذارى كأن عيونهن عيون عين(١)

وقال الأسود بن يعفر :

لما رأت أن شيب المرء شامله بعد الشباب وكان الشيب مسئوما
صدّت وقالت: أرى شيباً تفرّعه إن الشباب الذى يعلو الجراثيما(٢)

* * *

(ب) الشيب والحب :

١ — وإذ كان من خلق المرأة — وما زال — أن تحب الشباب لأنه قوة وفتوة وحيوية ومجلى للبطولة، فقد تفجع الشيب على شبابهم المنصرم وتحسروا على فتوته ، وأسفوا لحرمانهم لذاته .

قال سلامة بن جندل :

أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب

(١) ديوان عبيد القصيدة ١٣ عرسى : زوجى . هنا : تنحى وابعــدى . اللجين : بفتح اللام زبد أفواه الإبل . العين : البقر الوحشى .
(٢) المفضليات ٢/٢١٨ تفرعه : صار فى فروعه أى شعره . الجراثيم : ج جرثومة . وهى أصل الشجرة تجمع الرياح التراب إليه ، فالشباب يعلو ويرتفع ما لا يقدر عليه الشيوخ .

ولى حثيثاً وهذا الشيب يطلبه   لو كان يدركه ركض اليعاقيب
أودى الشباب الذى مجدٌ عواقبه   فيه نَلَذُّ ولا لذات للشيب(١)

وقال علقمة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب   بُعَيْدَ الشباب عصر حان مشيب(٢)

٢ — وصرح بعضهم بأن الشيب لا يلائم الحب . فقد عجب النابغة من أن يعلق بحب وقد وخط الشيب رأسه :

علقتَ بذكر المالكية بعد ما   علاك مشيب فى قذالٍ ومفرقِ(٣)

وقال عبدة بن الطبيب :

فعدِّ عنها ولا تشغلك عن عمل   إن الصبابة بعد الشيب تضليل(٤)

وقال الأعشى :

وإن أخاك الذى تعلمين   ليالينا إذ نحل الجفارا
تبدل بعد الصبا حلمه   وقنعه الشيب منه خمارا(٥)

وقال أوس بن حجر :

صَبَوْتَ وهل تصبو ورأسك أشيب
وفاتتك بالرهن المُرَامِقُ زينب(٦)

وقال الشمردل بن ضرار الضبي :

الآن لمّا علاك المشيب   وأبصرت فى العارضَيْنِ القَتِيرا

(١) ديوان سلامة بن جندل ٧ وشعراء النصرانية ٤٨٧ : اليعاقيب ذكر القبج وقيل ذوات العقب والبقاء من الخيل .
(٢) العمدة ١ / ٣١ والمفضليات ١ / ١٩٢ .
(٣) ديوان النابغة ٣٩   (٤) حماسة البحترى ٣١٣ والمفضليات ١ / ١٣٤ .
(٥) معجم البلدان ٣ / ١١٢ وشعراء النصرانية ٣٨١ . الجفار : موضع بنجد .
(٦) ديوان أوس بن حجر ١

وبان الشبـــاب بلذاته فولى وأصبحت شيخاً كبيرا
تطرَّبْتَ واحتجت للغانيات هيهات حاولت أمراً عسيراً[١]

وقال النابغة الذبيانى :

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألما أصح والشيب وازع[٢]

وقال حسان :

وكيف لا ينسى التصابى بعد ما تجاوز رأس الأربعين وجرَّبا
وقد بان ما يأتى من الأمر واكتست مفارقه لوناً من الشيب مُغْرِبا[٣]

٣ — ولكن الشعراء عوضوا هذا الحرمان بشيئين : حديث عن صبواتهم فى شبابهم ، ودفاع عن شيبهم .

يمثل النوع الأول عروة بن الورد فى قوله :

ويدعوننى كهلا وقد عشت حقبة وهن عن الأزواج نحوى نوازع[٤]

وامرؤ القيس فى قوله :

ألا زعمتْ بَسْبَاسَةُ اليوم أننى كبرت وألا يحسن السرَّ أمثالى
كذبتِ لقد أُصبِي على المرء عِرسَه وأمنع عرسى أن يُزَنَّ بها الخالى[٥]

ويمثل النوع الثانى شعراء اعتذروا عن شبابهم بأن تتابع الأيام لا بد أن يشيب ، وكأنهم ينذرون الحسان بأنهن سيشبن أيضا وييبس عودهن فلا يستبين رجلا ، أو بأن حوادث الأيام والمخاطرات والمغامرات هى التى شيبت رءوسهم على صغر أسنانهم ، فهذا فخار لهم .

---

(١) حماسة البحترى ٣١٥ (٢) ديوان النابغة ٤٩ .
(٣) ديوان حسان ١٢ .
(٤) ديوان عروة ٢١ وشعراء النصرانية ٩١٣ وفى حماسة البحترى ٣٠٨ أن القائل مسعود بن مصاد الكلبى .
(٥) ديوان امرئ القيس ١٣٩ يزن بها : يتهم .

قال الأعشى :

وقد قالت قُتَيلة إذ رأتنى — وقد لا تعدم الحسناء ذاما
أراك كبرت واستحدثت خلقا — وودّعتَ الكواعب والمداما
فإن تكُ لِمّتى يا قَتْلُ أضحت — كأن على مفارقها ثغاما
وأقصر باطلى وصحوت حتى — كأن لم أجر فى دَدَن فلاما
فإن دوائر الأيام يفنى — تتابع وقعها الذَّكَر الحُساما(١)

وقال عروة بن الورد :

ويدعوننى كهلا وقد عشت حقبة — وهن عن الأزواج نحوى نوازع
فما شاب رأسى من سنين تتابعت — طوال ولكن شيبته الوقائع(٢)

وقال يزيد بن عبد المدان :

فإن تك صدت عن هواها فراعها — نوازل أحداث وشيب مجلل
فيارب خيل قد هديت بشطبة — يعارضها عَبْلُ الجرادة هيكل(٣)

نموذج الجمال بعد العصر الجاهلى

صورت نماذج الجمال من شعر العصر الجاهلى ، وأرى أن أعقبه بتصوير نموذج الجمال من شعر العصر الإسلامى ، وسيتبين أن النموذج لم يتغير ، وأن النظرة التى رسمت النموذج الأول هى النظرة نفسها التى رسمت الثانى ، وسيتبين أيضا أن المرأة الجميلة فى الإسلام — وقد تحضرت — لم تزد على المرأة فى الجاهلية ، وقد آثرت أن أكثر من الاستدلال بشعر عمر بن أبى ربيعة لأنه أستاذ عصره فى البصر بجمال النساء ، قال فيه

(١) ديوان الأعشى ١٣٤ وشعراء النصرانية ٣٨٦ الثغام : شجر له نور أبيض . ددن : لهو .
(٢) ديوان عروة ٢١ وشعراء النصرانية ٩١٣ .
(٣) شعراء النصرانية ٨٧ شطبة : سيف . عبل : هيكل : ضخم .

النّصيب : «عمر بن أبى ربيعة أوصفنا لربات الحجال» [١]، وقال فيه جرير :«إن أنسب الناس المخزومى ، يعنى عمر بن أبى ربيعة» [٢] وقال فى غزله «إن هذا الذى كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشى» [٣] وقال فيه عبد الله بن مصعب : «إن لشعره موقعا من القلب ومدخلا لطيفاً ، ولو كان شعر يسحر لكان هو» [٤]. وشهد له الفرزدق بالتفوق فى الغزل «هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته ، وبكت الديار، ووقع هذا عليه» [٥]، وشهد له جميل [٦].

الجسم عامة :

ممتلىء ريان ، نحيل العظام ، ضامر الخصر ، قال عمر :

مَمْكُورَةٌ رَدْعُ العبير بها ... جَمُّ العظام لطيفة الخصر [٧]

وقال :

خَدَلَّجَـةٌ إذا انصرفت ... رأيت وشاحها قَلِقا [٨]

ومثله فى ذلك المرار بن منقذ :

فهى هيفاء هضيم كشحها ... فخمة حيث يُشد المؤتَزَرْ

وإذا تمشى إلى جاراتها ... لم تكد تبلغ حتى تنبهر

دفعت رَبْلَتُها رَبْلَتَها ... وتهادت مثل ميل المنقعر

وهى بَدّاء إذا ما أقبلت ... ضخمةُ الجسم رَداحٌ هَيْدَكُرْ [٩]

---

(١) الأغانى ١/٧٤ (٢) الأغانى ١/٧٦ (٣) الأغانى ١/١٠٦ .

(٤) الأغانى ١/٧٨ (٥) الأغانى ١/٧٥ (٦) الأغانى ١/١١٦ .

(٧) الأغانى ١/١٩٤ ممكورة : ممتلئة الساقين مدمجة الخلق . ردع : أثر . جم : قل أصلها جاء (٨) الأغانى ١/١٠٤ .

(٩) المفضليات ١/٨٨ الربلة : اللحمة فى باطن الفخذ . المنقعر : المنقلع وبريد النخلة . بداء : بعيدة ما بين الفخذين مع كثرة لحم . رداح : عظيمة . هيدكر : شابة ممتلئة حسنة الدل

وساقها ممتلئة ، قال عمر :

وساقا تملأ الخلخا ل فيه تراه مختنقا (١)

وقال المرار بن منقذ :

يضرب السبعون فى خلخالها فإذا ما أكرهته ينكسر (٢)

والتفت معن بن أوس إلى كفلها وكعبها وساقها أيضا :

لها كفل رابٍ وساق عميمة وكعب علاه اللحم ليس له حجم (٣)

وجمع ذو الرمة كثيراً من أوصاف جسدها التى تتفق مع ذوق من قبله فى قوله :

عجزاء ممكورة خمصانةٌ قلقٌ عنها الوشاح وتم الجسم والقصب (٤)

والتفت نابغة بنى شيبان إلى عكن بطنها :

وأعظمها مبتّـلة رِوَاءٌ وذو عكن - وإن طَعِمَتْ - خضيد (٥)

وصور المتنبى قوامها بأنه غصن ، وكفلها بأنه كثيب :

أذا الغصن أم ذا الدعصُ ، أم أنت فتنة
وذيا الذى قَبلْتُهُ البرق أم ثغر ؟ (٦)

هـذه اللمحة إلى الجسد عامة توضح أن نموذج الجمال الذى رسمه شعراء الجاهلية ما زال حياً جذابا .

وسيزداد هذا وضوحا من لمحة إلى الأعضاء تفصيلا .

(١) الأغانى ١/١٠٤ (٢) المفضليات ١/٨٩ السبعون : المراد سبعون مثقالا .
(٣) ديوان معن بن أوس ٣ (٤) ديوان ذو الرمة ٤
(٥) ديوان نابغة بنى شيبان ٣٢
(٦) ديوان المتنبى ١/٣٣٤ .

الشعر :

أعجبوا بالشعر الكثيف الأسود الطويل ، قال عمر بن أبي ربيعة وهو يوازن بين حبيبته والغزال :

وأنك غير أفرعَ وهى تُدْلى على المتنين أسحم قد كساها[1]

وقال المرار بن منقذ :

راقه منها بياض ناصع يُؤْنق العين ، وصافٍ مسبكر
تُهلك المدراة فى أفنانه فإذا ما أرسلته ينعفر[2]

وشبه معن بن أوس شعرها بالكرم :

ووحفٍ يُثْنَى فى العقاص كأنه عليها إذا دَنَّت غدائرها كَرْم[3]

العين :

ما زال إعجابهم بالحور ، قال عمر :

أحور المقلة كالبدر إذا قُلِّد الدُّرَّ فقلبى مُمْتَحَن[4]

وشبه المرار بن منقذ عينها بعين الغزال :

ولها عينا خَذُولٍ مُخْرِفٍ تَعْلَقُ الضالَ وأفنانَ السُّمُر[5]

وشبهها معن بن أوس بعين البقرة :

سَبَتْنى بعينَىْ جُؤذر بخميلة وجيدٍ كجيد الرئم زَيَّنه النظم[6]

---

(١) الأغانى ١/١٩٩ (٢) المفضليات ١/٨٨ .
(٣) ديوان معن بن أوس ٣ (٤) الأغانى ١/٥٧ .
(٥) المفضليات ١/٨٨ خذول : تترك القطيع وتتخلف على ولدها . مخرف : دخلت فى الخريف . تعلق : تأخذ .
(٦) ديوان معن بن أوس ٤ .

وشبه المتنبى أثر النظرة بالسيف :

رأين التى للسحر فى لحظاتها   سيوفٌ ظُباها من دمًا أبدا حمر[1]

وما زال كلفهم بالنظر الفاتر الآسر ، قال ابن دريد :

نظرت ولا وسَنٌ يخالط عينها   نظر المريض بسورة الإغماء

وقال ابن المعتز :

وتجرح أحشائى بعين مريضة   كما لان متن السيف والحدّ قاطع

وقال أبو نواس :

ضعيفة كر الطرف تحسب أنها   قريبة عهد بالإفاقة من سُقم

العنق :

استملحوا طوله وامتلاءه فى استدارة ، وقد عبر عمر عن طوله بكناية لطيفة هى أن مسقط قرطها طويل :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل   أبوها وإما عبدُ شمس وهاشم[2]

ووصفه المرار بن منقذ بالطول :

صلْتَةُ الخد طويل جيدها   ناهد الثدى ولما ينكسر[3]

ووصفه معن بن أوس بالطول والاستدارة والامتلاء[4] .

الأسنان :

بيض غر تشبه الأقحوان ، قال نابغة بنى شيبان :

وتبسم عن غر رِواء كأنها   أقاحٍ بريّانٍ من الروض مشرق[5]

(١) ديوان المتنبى ١ / ٣٣٤ .
(٢) الأغانى ١ / ١٢٧ .
(٣) المفضليات ٨٨ / ١ .
(٤) ديوان معن بن أوس ١٧ .
(٥) ديوان نابغة بنى شيبان ٢

وكذلك شبهها عمر :

وتبـــدت ثم أبدت واضح اللون نَحِيضا
وعِذابَ الطعـــم غراً كأقاحى الرمل بيضـــا[١]

ووصفها المرار بن منقذ بأنها مؤشرة :

وإذا تضحك أبدى ضحكها أقحواناً قيدته ذا أُشُر[٢]

الريق :

قالوا إنه كالعسل المبرد بالثلج ، قال المرار بن منقذ :

وإذا تضحك أبدى ضحكها أقحواناً قيـــدته ذا أُشُر
لو تطعّمت به شـــبهته عسلاً شِيب به ثلج خِصر[٣]

وهو فى ذوق عمر مشوب بالخمر :

وكأن فاها بعد ما رقدت تجرى عليه سلافة الخمر[٤]

أو مشوب بمسك وماء بارد :

من يُسقَ بعد المنام ريقتها يسق بماء مسك وبارد خصر[٥]

وهو فى مذاق النابغه الشيبانى مشوب برضاب المسك والكافور والراح :

كأن رضاب المسك فوق لثاتها كافور دارى وراح تُصَفّق
تَمَتّهُ من الصادى فليس تنيله وإن مات ماغنّى الحمام المطوّق[٦]

وفى مذاق جران العود مشوب بخمر قوية التأثير :

كأن ثناياها العذاب وريقها ونشوة فيها خالطتهن قَرْقف[٧]

---

(١) الأغانى ١/١٧٨ نحيص : بض ممتلىء .
(٢) المفضليات ١/٨٧ قيدته ضربت فيه بإبرة ثم أسفته دخان شحم .
(٣) المفضليات ١/٨٨ (٤) الأغانى ١/١٩٤ (٥) الأغانى ١/١٧٠ .
(٦) ديوان نابغة بنى شيبان ٢ (٧) ديوان جران العود ١٥ قرقف: خمر شديدة التأثير

وكذلك فى ذوق المتنبي :

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر بِفِيَّ بَرُودٌ وهو فى كبدى جمر [1]

الثدى :

وصفه المرار بن منقذ بأنه ناهد ، قاعد غير متدلّ ، وغير محدد الطرف ، فهو يشبه أنف الظبي الأخنس ، وهو يرفع درعها عن صدرها الريان :

صلتةُ الخد طويل جيدها ناهد الثدى ولما ينكسر
مثل أنف الرئم يُنْبِي درعَها فى لَبانٍ بادن غير قَفِر [2]

وبرع عمر غاية البراعة فى تصوير هذا المنظر الفاتن ، منظر الثديين الناهدين يرفعان القميص من الأمام عن الصدر فلا يمسه ، بينا يرفع الردفان القميص عن الظهر فلا يلمسه :

أبتِ الروادف والثُدِىُّ لقُمصها مس البطون وأن تمس ظهورا

اللون :

وصفه الإسلاميون كما وصفه الجاهليون بالبياض ، وبأنه مشوب بصفرة ، قال ذو الرمة :

كحلاء فى بَرَج صفراء فى نَعَج كأنها فضة قد مسها ذهب [3]

وقال الفرزدق :

خرجن إلىَّ لم يُطْمَثْنَ قبلى وهن أصح من بيض النعام [4]

---

(١) ديوان المتنبي ١ / ٣٣٤ .
(٢) المفضليات ١ / ٨٨ ينبي : يرفع . قفر : قليل اللحم .
(٣) ديوان ذى الرمة ٥ .
(٤) ديون الفرزدق ٢ / ٨٣٦ وشرح المعلقات السبع للزوزنى ١٥

الحديث :

راقتهم حلاوته ، فشبهوه كسابقيهم بالعسل وبالعذب ، قال جران العود النميري :

ينازعننا لذاً رخيما كأنه عوائرُ من قَطْر حَداهن صَيِّف
رقيق الحواشي لو تسمّع راهب ببطْنَانَ قولا مثله ظل يرجف (١)

وقال الفرزدق :

إذا هن ساقطن الحديث كأنه جَنَى النحل أو أبكار كرم يقطَّف (٢)

المشية :

أعجبوا بالمشية المتأنية المتبخترة ، فشبهها عمر بن أبي ربيعة بمشية المهاة :

بيضاً حساناً خرائداً قُطُفا يمشين هَوْناً كمشية البقر (٣)

وشبه المرار بن منقذ مشيتها بمشية القطاة :

قُطُف المشي قريبات الخطى بُدَّنا مثل الغمام المزخر
يتزاورن كتَقَطاء القطا وطعمن العيش حلواً غير مر (٤)

بغض الشيب :

وصوروها مبغضة للشيب أيضاً ، وليسوا مقلدين لسابقيهم وإنما هم يقررون حقيقة واقعة ، قال المرار بن منقذ :

---

(١) ديوان جران العود ٢١
(٢) ديوان الفرزدق ٢/٥٥٢ (٣) الأغاني ١/١٠٣ .
(٤) المفضليات ١/٨٧ تقطاء : من القطو وهو تقارب الخطو .

عجبٌ خولة إذ تنكرني ⠀⠀ أم رأت خولة شيخاً قد كبر
وكساه الدهر سِبًا ناصعا ⠀⠀ وتحنّى الظهر منه فأُطرْ
إن ترى شيباً فإني ماجد ⠀⠀ ذو بلاء حسن غير غُمُرْ
ما أنا اليوم على شيء مضى ⠀⠀ يا بنة القوم تولى بِحَسِرْ

ثم أخذ يعدد مفاخره ولذاته الماضية (١) .

وقال عمر بن أبي ربيعة :

صرمت حبلك البغومُ وصدت ⠀⠀ عنك في غير ريبة أسماء
والغواني إذا رأينك كهلا ⠀⠀ كان فيهن عن هواك التواء(٢)

التقلب :

وصوروها ملولا متقلبة كما صورها الجاهليون ، قال عمر :

أسكينُ ما ماء الفرات وطيبه ⠀⠀ مني على ظمأ وفقد شراب
بألذ منك وإن نأيتِ وقلما ⠀⠀ ترعى النساء أمانة الغُيَّاب(٣)

وقال مجنون ليلى :

ومَنَّيتني حتى إذا ما رأيتني ⠀⠀ على شرف للناظرين يُريب
صددت وأشمت العدو بصَرْمنا ⠀⠀ أثابك ياليل الجزاء مثيب(٤)

وقال :

وتحسب ليلى أنني إذ هجرتها ⠀⠀ حِذار الأعادي إنما بي هُونها
ولكنّ ليلى لا تفي بأمانة ⠀⠀ فتحسب ليلى أنني سأخونها(٥)

---

(١) المفضليات ١ /٨٠ سبا : خارا وعمامة والمراد شيبا . أطر : انحنى . غمر : غير مجرب
(٢) الأغاني ١ /١٦٤ ⠀⠀ (٣) الأغاني ١ /١٦٢ .
(٤) الأغاني ٢ /٦٤ . ⠀⠀ (٥) جمهرة الأمثال لأبي هلال ١١٦

الإعجاب بالعظم :

وصوروها معجبة بالبطل العظيم ، الماجد الكريم، عزوفاً عن الثقيل الأحمق البخيل قال جران العود :

ولن يستهيم الخُرَّدَ البيض كالدمى ... هِدَانٌ ولا هلْبَاجة الليل مُقْرِف
ولا جَبِلٌ تِرْعِيَّةٌ أَخْبَنُ النّسا ... أغم القفا ضخم الهراوة أغضَف
حليفٌ لوَطْبَىْ عُلْبَة بِقَرِيَّةٍ ... عظيم سواد الشخص والود أجوف
ولكن رفيق بالصبا مُتَبَطرِقٌ
خفيف ذَفِيفٌ سابغ الذيل أهيف[1]

العفة :

وصوروها بخيلة ممنعة ، قال جميل :

ويقلن إنك يا بثين بخيلة ... نفسى فداؤك من ضنين باخل[2]

ومخلفة للوعد ، قال جميل :

ما أنت والوعد الذى تعديننى ... إلا كبرق سحابة لم تمطر[3]

وقال ابن الرومى :

يا سائلى بالغوانى من صبابته ... سائلْ بهن فقد صادفت وصّافا
هن اللواتى إذا لاقيتهن ضحى ... لاقيت صدًّا وإسراواً و إخطافا
أرضيننا حُسْن قدٌّ زانه بَشَرٌ ... صافٍ وأسخطننا مَطْلا و إخلافا[4]

(١) ديوان جران العود ٢٣ هدان : ثقيل أحمق . جبل : غليظ . ترعية : منصرف إلى المـــال والنعام . النسا : عرق فى الفخذ . أخبن : مصاب بداء الخبن يكبر منه البطن . أغضف : طويل الأذن فى استرخاء . متبطرق : ليست فى المعاجم ولعلها من بطريق وهو الوضىء المعجب . ذفيف : سريع : أهيف : خمصان البطن ليس بثقيل الجسم .

(٢) الأغانى ٨/١٠١ (٣) الأغانى ٨/١٠٢ .

(٤) ديوان ابن الرومى ٢١٥ .

الفصل الثالث

تجمل المرأة

هل من الطبيعي أن تستغنى المرأة الحسناء بجمالها الموهوب فلا تزينه وتنمقه بجمال آخر مجلوب ؟

وهل من الطبيعي أن ترضى بحظها المرأة التي حُرِمَتْ بعض الصباحة والملاحة ، فلا تَزَيَّنُ وتتجمل لتستعيض ما فقدته ؟

ليس هذا ولا ذاك بطبيعي ؛ لأن التجمل يكاد يكون طبيعة من طبائع المرأة ، سواء في ذلك الحسناء وغير الحسناء ، وسواء في ذلك المتحضرة والمتبدية .

وسنرى أن هدف المرأة من تجملها أن تحقق نموذج الجمال الذى صوره الشعراء ، في نطاق الاتساق والانسجام والتآلف ، حتى ليلتبس الجمال المطبوع بالتجمل المصنوع .

ويحسن أن أمهد للتجمل بكلمة في ملابس المرأة ، لأنها المظهر العام لها ، ولأنها نوع من التجمل أيضاً .

ملابسها

الحجاب :

كانت بعض النساء محجبات ، وليس من موضوعي هذا أن أفصل القول في السفور والحجاب ، وحسبي أن أشير إليه بلمحة ، لأنه وثيق الصلة بالحلى والملابس وغيرهما مما تجملت به المرأة لتفتن الرجال .

ومما يدل على تحجب بعضهن قول عدى بن زيد :

يسارقن م الأســـتار طَرْفاً مُفَتَّرا
ويُبرِزنَ من فَتْقِ الخـدور الأصابعا[١]

وقول المهلهل فى رثاء أخيه كليب :

على أن ليس عدلا من كليب إذا برزت مخبـــأة الخدور[٢]

ولقد يكتفين بالقناع ، يدل على ذلك قو ل الشنفرى :

فقد أعجبتنى لا سقوط قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت[٣]

وقولهم فى أمثالهم « إن العَوَان لا تُعَلَّم الِخمرة» أى لا تحتاج إلى تعليم الاختمار ، يضربون ذلك للرجل المجرب [٤] .

وقد روى فى سبيل اعتلاق عبد الله بن علقمة بصاحبته حبيش أنه نزل ضيفاً عند آلها فأجلسوه فى متحدثهم ،فخرجت حبيش وعلى وجهها سِبٌ أخضر ، فوقفت تحلب ناقة وهو ينظر ، فضرب الهواء السب فكشف عن وجهها ويديها[٥] . وقد أتت هند بنت عتبة إلى النبى ﷺ بالأبطح متنقبة وأعلنت إسلامها ، ثم كشفت عن نقابها ، وقالت أنا هند بنت عتبة ، فقال الرسول مرحبا بك[٦] .

ويدل على ذلك أيضاً قول أم عود بنت وقدان تحرض على الثأر :

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم فذروا السلاح ووحّشوا بالأبرَق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نُقُبَ النساء فبئس رَهطُ المرْهَق[٧]

وكان هذا شائعاً عند الأثينيين القدماء ، ثم انتشر فى الدولة البيزنطية

---

(١) الأغانى ٢/١٥٠ (٢) الأمالى ٢/١٣٢ (٣) الأغانى ٢١/٩٠
(٤) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١٣٩ ومجمع الأمثال ١/١٧ العوان : الثيب أو بنت الثلاثين
(٥) تزيين الأسواق ٨١ (٦) السيرة الحلبية ٣/١١٠و١١١ .
(٧) شرح ديوان الحماسه للتبريزى ٤/٥٥ وحشوا بالأبرق : كونوا مع الوحوش بالأرض التى بها حجارة ورمل . المرهق : المضيق عليه .

وكان شائعاً أيضاً عند الفرس القدماء وعند الهندوس حتى فى عصر المهابراتا[١]، وقدأشار إليه هوميروس بقوله على لسان هكطور : « لست أرى المـــار إذا اشتجرت النصول بين الطرواديين والطرواديات الطويلات النقاب » . ومن هذا ومن ذكر قناع إيقاب وبرقع هيلانة ، وبراقع النساء والربات نرى أن اليونانيات استعملن النقاب[٢] .

فهو — على معنى أنه ستر للعورة ، أو أنه كالخمار ونحوه — قديم ، شاع قبل النصرانية ولم تغير منه شيئا ، وظل معروفاً فى أوروبا إلى القرون الوسطى وما بعدها ، ولا تزال آثاره باقية هناك ، أما المبالغة فيه وحبس النساء ، فقد نشأ من سوء الظن المتبادل بعد الترف وكثرة الجوارى وفساد الأخلاق[٣] .

السفور :

وكان بعضهن لا يختمرن ، فمثلا نساء الأنصار لم يتخذن الخمر إلا لما نزل قوله تعالى : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن[٤] » وقد نزلت الآية الكريمة « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً رحيما » ، وأورد الطبرى فى تفسيرها : قل لهن لا تتشبهن بالإماء فى لباسهن إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن فكشفن شعورهن ووجوههن ، ولكن ليدنين عليهن من جلابيبهن ، لئلا يعرض لهن فاسق إذا علم أنهن حرائر بأذى من قول . واختلف فى الإدناء الذى أمر الله به ، فقال بعضهم هو أن يغطين رءوسهن ووجوههن فلا يبدين إلا عينا واحدة ، وقال بعضهم كانت تلبس لباس الأمة فأمر الله نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من

(١) مركز المرأة فى الإسلام للسيد الأمير على الهندى ٢٤ .
(٢) الإلياذة ترجمة البستانى ٤٧٥ .
(٣) تاريخ التمدن الإسلامى جرجى زيدان ٥/٧٧ .
(٤) المرأة العربية — عبد الله عفيفى ٢/٦٩ .

. وإدناء الجلباب أن تتقنع وتشد جبينها ، وروى عن مجاهد .ن المراد أن يتجلببن فيعلم أنهن حرائر وعن قتادة أن المراد أن يقنعن على الحواجب ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يُؤْذَيْنَ ، لأن المملوكة كانت إذا مرّت تناولوها بالإيذاء ، فنهى الله الحرائر أن يتشبهن بالإماء[1] .

والذى أستنتجه من ذلك أن بعض العربيات كن قبل نزول الآية الكريمة ، سوافر على أى نوع من أنواع السفور .

وقد نهى الله تعالى نساء النبى عن تبرج الجاهلية الأولى « يا نساء النبى لسن كأحد من النساء إن اتقين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً ، وقَرْنَ فى بيوتكن ولا تبرّجْنَ تبرج الجاهلية الأولى » واختلف فى الجاهلية الأولى ، فقيل ما بين عيسى ومحمد ، وقيل ما قبل الإسلام ، وقيل غير ذلك[2] ، وقيل ليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى وجاهلية أولى بل هى أولى بالنسبة إلى ما كن عليه ، والمراد تبرج الجاهلية القديمة[3] .

وقد فهمتْ بعض المسلمات أن الأمر خاص بنساء النبى ﷺ ، فظللن على سفورهن كسكينة بنت الحسين[4] .

ولم يكن السفور عاماً كما لم يكن الحجاب عاماً ، يدل على ذلك أن السفور كان فى بعض الأحوال مقصوراً على حالات الحزن والرعب .

يقول مهلهل فى رثاء كليب :

كنا نَغَارُ على العواتق أن تَرَى ... بالامس خارجةً من الأوطان

يخرجن حين ثوى كليب حُسَّراً ... مستيقنات بعــــده بهوان

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢ / ٣٣ وتفسير النيسابورى ٢ / ٣٢ وتفسير الرازى ٥ / ٢٤٩ .
(٢) تفسير الطبرى ٢٢ / ٤ وتفسير النيسابورى ٢٢ / ١٠ .
(٣) النيسابورى ٢٢ / ١٠ وبلوغ الأرب ١ / ١٩ — ٢٠ .
(٤) الأغانى ١٤ / ١٥٩ و ١٠ / ٥١ .

فترى الكواعب كالظباء عواطلا إذ حان مصرعه من الأكفان
يخمشن من أدم الوجوه حواسرا من بعده ويعدن بالأزمان(١)

وقال أيضاً :

وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً وذراعَ باكيـة عليها بُرْنُس
تبكى عليك ولستُ بلائم حُرّةً تأسَى عليك بعَبْرة وتَنَفُّسُ(٢)

ويذكر الربيع بن زياد مثل ذلك(٣) .

ويشير طرفة إلى الكشف عن السوق حين الهول والفزع من الحرب والتأهب من الفرار ، وهن يفعلن ذلك خشية السَّبي فيسفرن ليُظَنَّ أنهن إماء :

يوم تُبْدِى البيض عن أسْوُقها وتَلُفُّ الخيل أعْراج النَّعَم(٤)

وقال عوف بن عطية بن الخرع التيمى :

ولنعم فتيـان الصباح لقيتم وإذا النساءُ حواسرٌ كالعُنْقُر
من كل واضحةِ الخمارِ وأختُها تَسْعَى ومِنْطَقها مكان المئْزَر(٥)

وأشار إلى ذلك الحارث بن عباد فى قوله :

قرّبا مربط النعـــامة منى سوف تبدو لنا ذوات الحجال

ولقد تسفر المرأة فى الأعياد والأفراح والمناسبات البهجة ، كأن

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ١/١٨٩ . العواتق : ج عاتق وهى الفتاة أول إدراكها أو التى لم تتزوج .
(٢) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٣/١٩٧ وأخبار المراقسة السندوبى ٥٦ .
(٣) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٣/٢٦ .
(٤) ديوان طرفة ١٠٤ والأغانى ٥/٤٤ . وشعراء النصرانية ٣١٤ — أعراج : جمع عرج ما بين الخمسين والمائة إلى المائتين من الإبل .
(٥) المفضليات ٢/١٢٧ . العنقر : أصول القصب والبقل والبردى مادام أبيض .

تحتفل قبيلة بنبوغ شاعر أو قدوم قائد ، وقد راب عنترة أن احتجبت منه عبلة يوم مآبه من حرب داحس والغبراء ، فقال :

إن تُغْدِفى دونى القناع فإننى　　طَبٌّ بأخذ الفارس المستَلْئِمِ[(١)]

ولقد تسفر الحسان إدلالا بحسنهن، أو جرياً على عرف فى قبائلهن، قال المسيب بن علس :

أرَحَلْتَ من سلمى بغير متاع　　قبل الْعُطَاسِ ورُعْتَها بوداع

إذ تستبيك بأصْلَتِيٍّ ناعم　　قامت لتفتنه بغير قناع[(٢)]

وقال الشنفرى :

عُفَاهِيَةٌ لا تقصر الستر دونها　　ولا ترتجى للبيت إن لم يبيت[(٣)]

وقد ذكر الأصمعى أن المرأة قد تلقى خمارها لحسنها وهى على عفة ، وأنشد بيتاً لأبى النجم[(٤)] .

وذكر الجاحظ أن الحجاب لم يكن فى الجاهلية ، وأن شريفات النساء خالطن الرجال فى الجاهلية والإسلام[(٥)]

ولم يكن حرج فى أن تغشى المرأة مجامع الرجال وتخطب أو تشعر ، أو تحرض على القتال ، أو تقاتل ، والأمثلة على ذلك كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها ، فأدعها إلى فرصة أخرى .

وبحسبى أن حليمة ضمخت مائة من فرسان أبيها لتحمسهم على الاستبسال[(٦)] . وأن الخنساء أنشدت النابغة شعراً فى سوق عكاظ[(٧)] ،

---

(١) ديوان عنترة ١٤٨ .

(٢) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤ والمفضليات ١/٥٨ . العطاس: الصبح

(٣) الأغانى ٢١/٩١ عفاهية : ضخمة .

(٤) شرح المفضليات لابن الأنبارى ١/١٢٠

(٥) رسالة القيان للجاحظ من مجموعة رسائل الجاحظ ٥٦ .

(٦) مجمع الأمثال ٢/١٥٠ وخزانة الأدب للبغدادى ٢/١١ .

(٧) مقدمة أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء الأب لويس شيخو .

وأنها هى وهند بنت عتبة تعاظمتا فى عكاظ بمصيبتهما (١)

وجاء الإسلام فأبقى على نوع من السفور الذى لا تظهر فيه مواضع الزينة «ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها» والمراد بما ظهر منها مالاسبيل إلى إخفائه عند معاناة العمل ،كالخواتم والثياب وكمحاسن الوجه، وجمال الشكل ، فإن فى سَـتر كل ذلك حرجاً (٢)

أنواع ملابسها

لبست المرأة العربية ضروباً من الثياب مختلفة فنونها وألوانها مما أخرجته مناسج اليمن وعُمان والبحرين والشام والعراق ، وما اجتلبته من بلاد فارس والهند (٣)، ومصر .

وتنوعت مادتها. فكان منها الحرير بأصنافه :ديباج ودمقس وسندس وإستبرق ، وكان منها الخز ،والقطن،والصوف ،والكتان ،وأشباهها (٤). وأنواعها عدة ، يهمنا منها ما أكثر الشعراء من ذكره

غطاء الرأس والوجه :

١ — الخمار:

هو كالقناع ، كل منهما شقة على الرأس تلف على جزء من الوجه ، ويظهر أن الأصل أن يكون على الرأس . ثم تسدل المرأة بعضه على جزء من الوجه ، إذا احتاجت إلى ذلك ، قال البحترى :

عجِلَتْ إلى فضل القناع فأثرت   عذَباتُه بموضـــع التقبيل

---

(١) الأغانى ٤ ٣٤   (٢) تفسير البيضاوى ٤٦٧ طبعة الآستانة .

(٣) المرأة العربية لعبد الله عفيفى ١ ١١٠ .

(٤) الدمقس : الديباج أو القز . السندس : ضرب من الديباج الرقيق . الإستبرق : الديباج الغليظ أو ديباج يعمل بالذهب أو ثياب صفاق من حرير . الخز : وبر دابة كالأرنب تسمى بذلك ، ووبر من الأرانب يجتلب من شمالى العراق .

وقد ذكره عنترة فى قوله لعبلة :

إن تُغْدِ فى دونى القناع فإننى طَبٌّ بأخذ الفارس المستلئم [١]

وذكره عروة بن الورد :

فراشى فراش الضيف والبيت بيته ولم يُلْهنى عنه غزال مُقَنَّع [٢]

ومن أسمائه النصيف [٣] قال النابغة :

سقط النَّصِيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد [٤]

وقال ثعلبة بن صُعَيْر فى وصف النعامة :

فَبَنَتْ عليه مع الظلام خباءها كالأَحْمَسِيَّة فى النصيف الحاسر [٥]

ومن أسمائه النقاب ، ويسمى الجزء الذى يستر الفم منه اللثام ، والجزء الذى على الأنف اللفام [٦] قال قيس بن الحدادية :

نشرت على فيها اللثامَ وأعرضت
وأمعَنَ بالكحل السَّحِيق المدامع [٧]

٢ — والبُخْنُقُ : البرقع الصغير أو قطعة من نسيج توضع تحت الخمار لتقيه من الدهن ولتقى الدهن من الغبار [٨] ، قال عنترة :

فخر الرجال سلاسل وقيود وكذا النساء بَخَانِقٌ وعقود [٩]

---

(١) ديوان عنترة ١٤٨ (٢) شعراء النصرانية ٩١٣ .
(٣) النصيف : الخمار (القاموس المحيط) (٤) ديوان النابغة ٢٩ .
(٥) المفضليات ١/١٢٨ حضنت بيضها بجناحيها كالمرأة من الحمس وهم قريش وخزاعة وبنو عامر وكنانة .
(٦) القاموس المحيط مادة لثم ولفم والأمالى ١/٤٢
(٧) الأغانى ٧/١٣ .
(٨) القاموس مادة بخنق
(٩) ديوان عنترة ٦٤ .

ما على الجسم :

١ — الرَّيطة :

هى كل ملاءمة غير ذات لِفْقَين كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، وكل ثوب لين رقيق [١] قال سلمى بن ربيعة يذكر لذاته :

والبِيضَ يرفُلن كالدُّمَى في الرَّيْطِ والمُذْهَبِ المصون [٢]

وقال الأعشى :

والساحبات ذيول الريط آونة والرافلات على أعجازها العِجَلُ [٣]

وذكر الرمق — عبيد بن سالم الخزرجى — الريطة وغيرها فى مدحه لأبى جبيلة الغسانى :

أمثال غزلان الصَّرا ئمِ يأتزِرن ويرتدينا
الرَّيطَ والديباج والزَّ رَدَ المضاعفَ والبُرِينا [٤]

وذكرها حسان فى قوله :

يحملن حُوًّا حورَ المدامع فى الر يط وبيض الوجوه كالبَرَد [٥]

٢ — المِرط : كساء من صوف أو خزّ [٦] ولابد أنه كان طويل الذيل ينجر على الأرض ، قال امرؤ القيس :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مِرط مُرَحَّل [٧]

(١) القاموس المحيط مادة ريط (٢) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٨٣ .
(٣) شعراء النصرانية ٣٦٨ . العجل جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهى دولاب السق ، يصف الشاعر أعجازهن بالضخامة .
(٤) الأغانى ١٩/٩٦ الصرائم : جمع صريمة وهى القطعة من معظم الرمل . الزرد الدرع المزرودة . البرين : جمع برة وهى الخلخال .
(٥) ديوان حسان ٣٢ حو : جمع حواء ذوات شفاه حمر ضاربات إلى السواد .
(٦) القاموس المحيط مادة مرط .
(٧) ديوان امرئ القيس ١٢٩ مرحل : فيه صور الرحال .

ويظهر من هذا النص أنه كان مزيناً بصور الرحال ، وينص على ذلك الفيروزابادى فى قوله : المرحَّل بُرْدٌ فيه تصاوير رَحل ، والمرجَّل إزار من خز فيه عَلم (١) .

وكرر امرؤ القيس هذا فى قوله :

دخلت على بيضاء جُمٍّ عظامها تُعَفِّى بذيل المِرط إذ جئت مَوْدِقى (٢)

٣ — والوصائل ثياب يمنية مخططة (٣) قال لبيد :

غرائر أبكار عليهـــا مهابة وعُونٌ كرامٌ يرتدين الوصائلا (٤)

٤ — البُرْد : ثوب موشى ، والمجسد : ثوب مصبوغ بالجساد وهو الزعفران ، قال طرفة فى وصف القينة .

نداماى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومُجْسَد

رحيبٌ قطاب الجيب فيها رفيقة بجَسِّ الندامى بَضَّةُ المتجرَّد (٥)

٥ — الصدار : شىء تلبسه على صدرها ، قال عروة بن الورد يفخر بسباياهم من طيِّئ :

ترى كل بيضاء العوارض طَفْلَةً تُفَرَّى إذا شال السماكُ صِدارها (٦)

وكانت الحزينة تتخذ من الشعر صدارها كما فعلت الخنساء (٧) .

٦ — الوِشاح : أديم عريض مرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها ، قال عنترة (٨) :

---

(١) القاموس المحيط مادة رحل .
(٢) ديوان امرئ القيس ١١٩ ولسان العرب ١٢/٢٥١ .
(٣) القاموس المحيط مادة وصل (٤) ديوان لبيد ٢٢ .
(٥) ديوان طرفة ٢٦ .
(٦) شعراء النصرانية ٩١١ تفرى : تشق .
(٧) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨/٦٧ والمحاسن والأضداد ١٤٣ .
(٨) القاموس المحيط مادة وشح .

والشمس بين مُضَرَّج ومُبَلَّج ... والغصنُ بين مُوَشَّح ومُقَلَّد [١]

وقال أبو على : لا يكون الوشاح وشاحاً حتى يكون منظوما بلؤلؤ أو ودع ، وأنشد :

وتكسو الوشاح الرَّخو خَصراً كأنه ... إهانٌ ذَوَى عن صُفْرَة فهو أخلق [٢]

٧ — السابرى : ثوب رقيق جيد ، قال امرؤ القيس :

تَصُدُّ عن المأثور بينى وبينها ... وتدنى علىَّ السابرىَّ المضَلَّعا [٣]

٨ — المُذهَب : ما جعل نسجه بخيوط من ذهب ، يقول سلمى بن ربيعة :

والبيضُ يَرْفُلن كالدُّمَى ... فى الرَّيْط والمُذَهب المصُون [٤]

٩ — الخال : ضرب من ضروب اليمن الموشاة ، وهو أيضا الثوب الناعم [٥] .

١٠ — المراجل ، ويقال لها المراحل أيضاً ، وفى الحديث : « حتى يبنى الناس بيوتاً يوشونها وشى المراحل » [٦] . والبرد المرجَّل ما فيه صور كصور الرجال (٧) .

١١ — المطَيَّر : ضروب من البرود [٨] واحلها سميت بذلك لأن بها صور بعض الطيور .

لون الملابس :

أكثر الألوان شيوعا فى وصف الشعراء اللون الأحمر ، وسيأتى فى وصف الحدوج أن ستائرها حمر كالدم ، يمثل ذلك قول علقمة إن الجمال قد احتملت :

---

(١) ديوان عنترة ٦٩ الشمس : وجوه الجوارى مضرج : محمر . مبلج : نقى . الغصن : القد . مقلد : عليه قلادة وهى للعنق

(٢) المخصص ٤/٩٨ .

(٣) ديوان امرئ القيس ١١٣

(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٨٣ .

(٥) لسان العرب ١٣/٢٤٢

(٦) لسان العرب ١٣/٢٩١ .

(٧) اللسان ١٣/٢٨٣

(٨) اللسان ٦/١٨٦ والقاموس المحيط مادة (طير) .

عَقْلاً ورَقْمًا تظل الطير تتبعه　　　كأنه من دم الأجواف مَدْمُوم (١)

وبمثل ذلك شبهها الحطيئة (٢) .

كذلك كان اللون الغالب على الملابس اللون الأحمر ، قال ركاض :

وَأَيْنَ السُّبُوبَ خُمْرَةً قُرَشيةً　　　زُبَيْرِيَّةً يَعْلَمْنَ فى لونها عَلْما (٣)

وقال أوس بن حجر إن ملابسهن منوعة الألوان ، وواسعة :

يَلْبِسْنَ رَيْطا وديباجا وأكسيةً　　　شتى بها اللون إلا أنها فُورُ (٤)

وقد بقى هذا اللون مفضلا عند العرب إلى العصر العباسى ، يدل على ذلك قول المتنبى :

مَنِ الجآذرُ فى زى الأعاريب　　　حُمْرَ الحُلَى والمطايا والجلابيب (٥)

حليهـــا

غرام النساء بالحلى :

حلى المرأة من أخص خصائصها فى كل عصر ، وفى كل شعب ، تضيف به إلى جمالها جمالا . وتزهى به وتفاخر وتكاثر ، وتختلب ألباب الرجال ، وقلما تبدو المرأة عاطلا من حلى ، وإن قيل إنها غنيت بجمالها عن حليها ، لهذا لم يذكر إلا قلة من الشعراء أن المرأة عاطل ، قال الشماخ :

---

(١) شعراء النصرانية ٤٩٩ العقل : ثوب أحمر يجلل الهودج ، أو ضرب من الوشى. الرقم . ضرب مخطط من الوشى أو الخز أو البرود . مدموم : مطلى .

(٢) ديوان الحطيئة ٣٧ .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٢٨١ السبوب : شقق رقاق تتخذ منها الخمر .

(٤) ديوان أوس بن حجر ٩ قور : جمع قوراء وهى الواسعة .

(٥) ديوان المتنبى شرح البرقوقى ١ / ١١٤ الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . لأعارب : جمع أعراب وهم سكان الخيام والوبر . يقول : إنهن متحليات بالذهب الأحمر وممتطيات [illegible] ولابسات ثيابا حمرا ، يريد أنهن من نساء الأشراف والملوك لأن لون ملابسهم ، والنياق الحمر أكرم النياق عند العرب .

دار الفتاة التى كنا نقول لها   ياظبيةً عُطُلاً حُسَّانةَ الجيد[١]

والزينة من شيات الأنثى من بنى الإنسان ، ولكنها من شيات الذكر فى الحيوان ، لأن الطبيعة تزين الذكر من الطيور وغيرها بما يغرى الأنثى ويجتذبها ، أما فى عالم البشر فإن الأنثى تتزين لتجتلب الذكر . « وإذا كانت أزياء النبلاء السابقين الحريرية الملونة تبهرنا اليوم على المسرح ، فإن هؤلاء النبلاء كانوا يرون حولهم نساء كثيرات لابسات ثياباً يتفق لهن بها من الفتنة مالا نبصر نظيره فى عصرنا[٢] » .

شيوعه فى الأمم القديمة :

وكان الحلى شائعاً فى العصور القديمة عند الأمم التى اتصل بها العرب ، فالإسرائيليات كن يتأنقن بالخلاخيل والأهداب والأهلة والنُّطف والأساور والرُّعَل والعصائب والمصاعيد والمناطق وأوانى الطيب والخواتم والأحراز وأخراص الأنوف والخلع والمعاطف والأحزمة والمرايا والأقمصة والتيجان والأزُر[٣] .

وأسرفت المرأة الرومانية فى زينتها إسرافاً حمل كاتو على أن يسن قانوناً يحد من ملكيتها لتقتصد فى نفقات زينتها ، واحتدت المناقشة بين كاتو فى التريبيون وبين أحد الأعضاء من الموافقين على أن تطلق للمرأة حريتها فى زينتها ، وجاء فى رد العضو المعارض أن النساء لا يستطعن أن يلتحقن بالوظائف العامة ، ولا أن يكن كاهنات ولا جنديات يحرزن النصر ، وليس لهن أشغال عامة ، فما الذى يستطعن عمله إن لم يخصصن أوقاتهن للزينة والملبس[٤] ؟

وكانت المرأة المصرية تتزين بالعصائب والخواتم والأساور والخلاخيل والعقود والأحراز الثمينة والأحزمة المحلاة بالأحجار

---

(١) معجم البلدان ٨/٥٢٥ .   (٢) الحياة والحب لأميل لوفيج ٢٢ .

(٣) سفر أشعيا ٣/١٨ — ٢٣ النطف : الأقراط . الرعل : جمع رعلة وهى الإكليل من ريحان وآس   (٤) المرأة فى مختلف العصور ٢٧/٢٩ .

واللآلىء ، والأقراط ، وكان خضاب الأظفار شائماً والكحل بالإثمد كذلك .

وغلا المصريون والمصريات فى استعمال الشعر المستعار فجعلوه كثيفاً ثقيلاً مقصوصاً مضمخاً بالطيب ، معقوداً بأشرطة من لآلىء(١).

وكذلك كانت المرأة العربية حالية محتفية بحلاها ، وقد كنى القرآن الكريم عن الإناث بأنهن منشآت فى الحلية : « أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » .

أصناف الحلى :

تنوعت الحلى ، وتعددت أصنافها لكل عضو من أعضاء الزينة ، فهنالك التاج والقرط والشّنف والحب والخرص والقلادة والوشاح والسوار والمعضد والدُّملج والخاتم والخلخال الخ (٢).

وقد ساعد على كثرة الحلى أن اللؤلؤ فى خليج فارس ، والمرجان فى البحار المحيطة ببلاد العرب ، والتجار يفدون إلى الجزيرة يقايضون اللؤلؤ والمرجان بالذهب والفضة والزمرد والزبرجد والياقوت وغيرها مما فى الجزيرة .

١ — فكانت حلى العنق قلائد من ذهب ، قال المثقب العبدى :

أرين محاسنا وكنَنَّ أخرى من الأجياد والبَشَر المصون
ومن ذهب يَلُوحُ على تَرِيبٍ كلون العاج ليس بذى غضون(٣)

وقلائد من ياقوت وشذر وجزع من اليمن ولؤلؤ ، قال المرقش الأصغر :

---

(١) الحضارة المصرية القديمة جوستاف لوبون ٧٥
(٢) المرأة العربية ١/١١٤ — ١١٦
(٣) المفضليات ٢/٨٩

تحملن ياقوتا وشَذْراً وصيغَةً وجَزْعاً ظَفَارِيًّا ودُرًّا توائما[١]

وقد يكون العقد من لؤلؤ وزبرجد ، قال طرفة :

وفى الحىّ أحوَى يَنفُضُ المَرْدَ شادِنٌ
مُظاهِـــر سِمطَىْ لؤلؤ وزَبَرْجد[٢]

وقد يصاغ اليـــاقوت دقيقاً على شكل فقرات الجرادة ، قال امرؤ القيس :

غرائر فى كِنٍّ وصَوْنٍ ونعمة يُحَلَّيْنَ ياقوتا وشذراً مُفَقَّرا[٣]

وقد أشار إلى العقد المَنظوم من لؤلؤ وزبرجد كثير من الشعراء مثل قيس بن الخطيم[٤] وعلقمة[٥] والمثقب العبدى[٦] وعنترة[٧] .

وللحلى وسوسة حلوة ، لم ينسها الأعشى :

تسمع للحَلْى وَسْوَاساً إذا انْصَرَفَتْ كما استعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِل[٨]

ووصفوا الحلى بالإشراق لأنه كسب لمعانه من بريق ترائبها ، قال النابغة الذبيانى :

ترائبُ يستضىء الحَلْىُ منها كجمر النار يُذْرَى بالظلام[٩]

---

(١) المفضليات ٢/٤٥ . تحلين : لبسن الحلى . وليس فى المعاجم تعدية هذه الفعل . الشذر : اللؤلؤ أو قطع صغار من الذهب . صيغة : ما يصنع من الذهب ، وليست هذه الصيغة فى المعاجم . الجزع : بفتح الجيم وكسرها الخرز اليمانى ، وهو من أنفس الجواهر . ظفار : بلد اليمن . توائم : اثنين اثنين .

(٢) ديوان طرفة ٧ أحوى : شبه المرأة بالظبى الأحوى الذى فيه سواد وبياض . المرد : ثمر الأراك المدرك ، أراد أنه فى خصب . شادن : تحرك وقوى وكاد يستغنى عن أمه . مظاهر : لابس ثوبا فوق آخر . سمط : خيط من لؤلؤ . شبه المرأة بالظبى فى طول العنق وطى الكشح وجمال العينين .

(٣) ديوان امرئ القيس ٦٨ غرائر : غوافل غير مجربات : مفقر : مصوغ على شكل فقار الجرادة (٤) طبقات الشعراء لابن سلام ٩٠ وديوان قيس بن الخطيم ٢١ .

(٥) ديوان علقمة ٩ (٦) شعراء النصرانية ٤٠٦ (٧) ديوان عنترة ٧٠ .

(٨) ديوان الأعشى ٤٢ عشرق . نبت له ورق يطير إذا يبس . زجل : يصوت فيه الريح

(٩) ديوان النابغة ٧٣ .

٢ — أما الأذن فإنها أقراط من ذهب أو من لؤلؤ أو غيرهما ، قال المرقش الأكبر : إن أقرطها ذلاذل جميلة :

يُهَدِّلْنَ فى الآذان من كل مُذْهَبٍ له رَبَذٌ يعيا به كلُّ واصف[(١)]

وقد كنوا عن طول العنق بطول مهوى القرط ، قال عبيد :

بان الخَليطُ الأُلَى شاقوك إذا شَحَطوا
وفى الحـــدوج مهاً أعناقُهـا عِيطُ
ناطـــوا الرِّعَاثَ لِمَهْوًى لو يَزِلُّ به
لانْدَقَّ دون تلاقى اللَّبَّة القُرُط[(٢)]

وقال النابغة :

إذا ارتعَشَتْ خاف الجبانُ رِعاثَها ومن يتعلقْ حيثُ عُلِّقَ يَفْرِقِ[(٣)]

وقال سيَّار الأبانى إن حلقة قرطها المشدود بأذنها حتى لا يسقط مشدودة على قرط يشبه فقر الجرادة أو فقر أمير النحل :

كأن خُوقَ قُرْطِها المعْقُوب على دَبَاةٍ أو على يَعْسُوب[(٤)]

٣ — ومن حلى الساعد السوار وهو من ذهب ، قال النابغة :

وأبدَتْ سوارا من وُشُومٍ كأنها بقيةُ ألواح عليهن مُذْهَبُ[(٥)]

والدُّمْلُج ما يلبس فى العضد ، قال :

وتحتى منها ساعد فيه دُمْلُجٌ مضىء وفوقى آخر فيه دملج[(٦)]

---

(١) المفضليات ٢/٣١ . ربذ : عذبة .
(٢) ديوان عبيد بن الأبرص القصيدة ٢٢ : العيط طول العنق وهو أعيط وهى عيطاء . والجمع عيط بكسر العين وسكون الياء وحركة الياء هنا ضرورة . ناطوا : علقوا .
(٣) ديوان النابغة ٣٩ .
(٤) الأمالى ١/١٨٤ . الخوق : حلقة القرط . معقوب : مشدود بالعقب لئلا يزيغ .
(٥) ديوان النابغة ٢٨ (٦) ديوان عنترة ٣٥ .

وقد يكون فى الساعد حلى من مرجان ، قال لبيد :

وعا لَيْنَ مَضعُوفاً وفَرْداً سُمُوطه جُمَانٌ ،ومرجان يشد المفاصلا (١)

وفى الساق الخلخال ، قال تعالى : «ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن»قال الزجاج : كانت المرأة ربما اجتازت ، وفى رجلها الخلخال وربما كان فيه الجلاجل ، فإذا ضربت برجلها علم أنها ذات خلخال وزينة فنهين عنه لما فيه من تحريك الشهوة ، كما أمرن ألا يبدين ذلك لأن إسماع صوته بمنزلة إبدائه (٢) .

قال الأعشى :

وساقان مَارَ اللحم مَوْراً عليهما إلى منتهى خلخالها المتصَلْصِلِ (٣)

وقال طفيل الغنوى :

وفى الظاعنين القلبُ قد ذهبت به أسيلةُ مجرى الدمع ريّا المخدم (٤)

وبعد فقد وصف القرآن الكريم الحور العين فى سُوَرٍ شتى (٥) ، وأستطيع أن أستنتج من وصفهن ووصف حليهن أن العرب كانوا يعرفون ذلك ويألفونه .

طيبهـــا

أثر العطور فى الجاذبية :

أغرمت المرأة العربية كما أغرمت النساء الأخر بالطيب ، لأنه نوع من التجمل وضرب من الجاذبية ، فالروائح مثيرة للجهاز العصبى ومنبهة

(١) ديوان لبيد ٢٢ . مضعوفاً : ثياباً مضعفة .
(٢) لسان العرب ٤١٣/٢٨ .
(٣) ديوان الأعشى ٢٢٥ . مار : اضطرب وتحرك .
(٤) ديوان طفيل الغنوى ٣٣ نشره F. Krenkow المخدم : موضع الخدمة وهو الخلخال
(٥) سورة الرحمن وسورة الدهر وسورة الواقعة .

له . وهى ، ذات أثر عظيم فى العاطفة ، فن المعروف أن بعض الروائح لها تأثير سحرى لا يقاوم ، فهناك حالة شاب اعترف أنه كثيراً ما أغرى الفتيات اللائى يراقصهن بمسح وجوههن بمنديل كان قد مسح به عرق إبطه . وقد سجل التاريخ أن الملك هنرى الرابع ملك إنجلترا هام عشقاً بفتاة تدعى جهريل لما أن مسح وجهه بمنديلها حين كان يراقصها فى إحدى الحفلات .

وهكذا تظهر بوضوح تلك العلاقة التى لا أشك فيها بين الغشاء المخاطى الشمى للأنف وبين الجهاز التناسلى للرجل والمرأة ، وما يترتب على هذه العلاقة من إيقاظ المشاعر وإلهاب العواطف ، أو إثارة شعور الاشمئزاز كما فى حالات بخر الفم . ومن الطبيعى أن ينشأ من اختلاف الأمزجة والميول آثار مختلفة للروائح المنبعثة من الأشخاص ، فليس غريباً أن تتضارب أحكام الناس على الرائحة المنبعثة من شخص واحد ، فبينما نرى شاباً يصد عن فتاة ، لأنه لا يطيق رائحتها إذا بنا نجد آخر يرى أن أشد ما يجذبه نحوها رائحتها ، وما يقال عن الرائحة المنبعثة من الجسم يقال عن تأثير الروائح العطرية . فهناك تشابه كيماوى بين الروائح المنبعثة من مصادر مختلفة تنتج نفس التأثير الجنسى الذى ينتج من رائحة الجسم[١] » .

كان طبيعياً إذاً أن عنيت المرأة العربية بعطرها عناية كبرى . ولم تنفرد بهذه العناية ، ولم يكن الجو الحار هو الدافع إليها ، فإن الأمم الأخرى لم تقل عنايتها بالعطور عن الأمة العربية .

عناية الأمم القديمة بالعطور :

فالفرس أغرموا بالورد، وتغنوا به فى أشعارهم . وكان المترفون منهم يستحمون بالماء المعطر[٢] . والبابليون عنوا بالعطور وحفظوها فى

---

(١) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة للدكتور موريس الديك ٦٠ .

(٢) سحر العطور للدكتور الشحات ١٥ .

أوان من زجاج من أوعية (الألباستر) . وكانت بابل سوقاً رئيسية للاتجار في المواد العطرية(١) .

وقد أكثر المصريون من صناعة العطور والروائح الذكية والمراهم والكحل والأطليــة للحواجب والأهداب والشفاه ، ووضعوها في قوارير صغيرة من المينا الملونة ، فافتتنت بها النساء واستعملنها وأتقنّ استعمالها أمام المرايا المعدنية ذوات الأيدى البديعة الصنعة(٢) . وعرفوا من الأعشاب العطرة أنواعاً كثيرة ، منها خشب الصندل والكافور والكندر والسكبينج والعرعر وغيرها ، واستخرجوا منها عطوراً (٣) . وبلغ من عنايتهم بها أن حفظوها في أوعية نفيسة من (الألباستر) و (الديوريت) وغيرها من الأحجار القيمة (٤).

وسجل الفراعنة عنايتهم بالعطور على آثارهم ، ومن أمثلة ذلك رسم على جدران الكرنك يبين رمسيس الثانى يتضرع إلى الإله آمون أن يمنحه النصر ، لأنه قدم إليه ثلاثين ألفاً من الثيران وجميع ماطابت رائحته من الأعشاب الزكية قربانا(٥) .

وكانت النساء المصريات يستحممن بالماء العطر(٦) . وعن قدماء المصريين نقل اليهود صناعة العطور إلى البلاد الشرقية الأخرى (٧)، ولعل العرب قد عرفوها عن هذا الطريق .

وكان للعطور هذا الشأن عند الإغريق ، فكانوا يستحمون بها كما كانوا يعطرون كل جزء من الجسم بعطر خاص به . وقد طلب منهم سقراط أن يخففوا من هذا الولع فلم يستمعوا إليه . وحاكاهم الرومان في الولع بالعطور ، حتى هال الأمر قيصر ، فصرخ يوماً في بعض رجاله

(١) سحر العطور ١٥ .
(٢) الحضارة المصرية القديمة : جوستاف لوبون ١٠٦
(٣) سحر العطور ١٣ — (٤) سحر العطور ١١
(٥) سحر العطور ٩ — (٦) سحر العطور ١٠
(٧) سحر العطور ١٣

وقد قدموا إليه وروائح العطور تفوح منهم ، تعالوا إلىّ ورائحتكم الثوم (١) » .

وكان العرب على صلة بالرومان عن طريق الغساسنة ، فلعلهم تأثروا بهم . واشتهر الهنود باستعمال العطور فى حفلاتهم الدينية والخاصة ، بل استعملوها فى غسل معبوداتهم من الحيوان ، وأرّثوا النار المقدسة التى كانوا يوقدونها فى حفلات الزواج بزيوت وأعواد عطرة كخشب الصندل (٢) .

وقد كان العرب على صلة تجارية بالهند منذ العصر الجاهلى ، فلعلهم تأثروا بهم أيضاً . وكذلك فعل الصينيون ، وأفضل الروائح عندهم المسك ، ولعل سبب ذلك كثرة الغزلان المسكيّة هناك (٣) .

عناية المرأة الحديثة بالعطور :

ولم يكن الغرام بالعطور دَيدَن الأمم القديمة وحدها ، فإن عناية المرأة الحديثة بعطرها ليست أقل شأناً فقد أغرمت الفرنسيات بالعطور حتى قيل إن ثمن العطور التى كانت تبتاعها مدام لامباردو سنويا بلغ مليوناً ونصف مليون جنيه وكانت مدام تالين تستحم بخلاصة النباتات العطرية وتدلك جسمها بعد ذلك باللبن المعطر (٤)

وأولعت السيدات فى إنجلترا بالعطور ولعاً كان من نتائجه أن شكا الرجال فى القرن الثامن عشر من أنهم انخدعوا فى بعض النساء بتأثير عطورهن ، فتم زواج ما كان يمكن أن يتم . لذلك أصدر البرلمان سنة ١٧٧٠م هذا القرار : « جميع النساء من مختلف الأعمار والرتب والمهن سواء كن عذارى أو متزوجات أو أرامل يعرضن أنفسهن للعقاب إن أغوين أحداً

(١) سحر العطور ١٣

(٢) سحر العطور ١٦ .

(٣) سحر العطور ١٧

(٤) سحر العطور ٢٣ .

من رعايا جلالة الملك بالعطور أو الدهان ، لأنهن استخدمن وسائل خداعة ويعتبر الزواج باطلا[١] .

أنواع طيبها

بعض الطيب أعواد تتبخر بها كالصندل والساج واللُّبْنَى والعود والنَّد والرَّند[٢] .

وبعضه دهن تدّهن به كالعنبر والمسك الغالية والبان[٣] .

١ — المسك :

دهن يتخذ من نوع من الغزلان ، يقطن فى مناطق عدة كجبال الهند الشمالية ووسط آسيا فيما بين خطى طول ٧٠° و ١٧٠° وفيما بين خطى عرض ١٥° و٦٥° ويكثر فى الصين[٤] والمسك شهرة وقيمة عند العرب لانه هو والعنبر قويا الرائحة . وأهل الشرق أميل إلى استعمال العطور القوية لأنها هى التى تلائم الجو الحار ، والرجال يستطيبون رائحة المسك فى المرأة ، ويمدحونها بأنها مُمَسَّكة ، لأن هذا دليل النظافة والتجمل والثراء ، قال امرؤ القيس :

إذا قامتا تضوَّعَ المسك منهما ... نسيمَ الصَّبا جاءت بريَّا القرنفل
وتُضحِي فتيت المسك فوق فراشها ... نئومَ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ[٥]

---

(١) سحر العطور ٢٢

(٢) اللبنى شجرة لها عسل ينضج فيها يتبخر به والعامة تقول حص لبان (القاموس مادة لبن وعسل) الرند : شجر طيب الرائحة . الند : المسك يعجن بالورد .

(٣) الغالية : أزكى أنواع الطيب عندهن وتتخذ من المسك المعجون بالعنبر والبان . البان : شجر يطول فى استواء وورقه كورق الأثل وثمرته كقرن اللوبياء ولها حب يعتصر فيخرج دهناً .

(٤) سحر العطور ٨٨ (٥) ديوان امرئ القيس ١٢٥ و ١٣١ .

فهى تنثر المسك على فراشها كما تذره على جسمها . ولقد تمسك فاها ووجهها ، يدل على ذلك قول عنترة :

تبيت فتاتُ المسك تحت لثامها ... فيزداد من أنفاسها أرَجُ النَّدِّ[١]

ولقد تغلّل به شعرها كما تطيب جسمها وفراشها ، فتسطع رائحته ، قال سويد بن أبى كاهل :

وقروناً سابغاً أطرافُها ... غَلَّلَتْها ريح مسك ذى فَنَعٍ[٢]

وقال علقمة إن مسك مفرقها قوى يشمه المزكوم :

كأن فارةَ مسك فى مفارقها ... للباسط المتعاطى وهو مزكوم[٣]

٢ — الزنبق :

هو دهن الياسمين ، ونوع من الورد[٤] له نور أصفر حسن الرائحة ، وكانت المرأة تطيب به كما تطيب بالمسك ، وقد تجمعهما معاً ، قال امرؤ القيس :

وفوق الحوايا غِزْلة وجآذرٌ

تضمّخنَ من مسك ذكى وزنبق[٥]

وأعجب الأعشى برائحة المسك والزنبق فى محبوبته ، فعبر عن إعجابه بهذه الصورة المليحة : إذا تحركت المحبوبة سطع مسكها وزنبقها ، وليست الروضة المعشبة العالية المخضرة التى يجودها الغيث ، وتضاحك الشمس

---

(١) ديوان عنترة ٧٢ ، الند : طيب معروف أو العنبر (القاموس المحيط) .

(٢) المفضليات ١/١٨٩ . فنع : قوة .

(٣) ديوان علقمة ١٣ وشعراء النصرانية ٤٩٩ ، والمفضليات ٢/١٩٧ الباسط : الذى يبسط يده إليها .

(٤) القاموس المحيط مادة زنبق

(٥) ديوان امرئ القيس ١١٧

أزاهيرها النامية المحفوفة بالنبات الكثيف ، ليست هذه الروضة الفواحة بالشذى — وإن هبت عليها نسمات الأصيل فعطرت الجو بشذاها — بأطيب من رائحة المحبوبة :

إذا تقوم يَضُوعُ المسكُ أصوِرَةً والزنبق الورد من أردانها شَمِلِ
ماروضة من رياض الحَزنِ مُعشِبةٌ خضراء جاد عليها مُسبِلٌ هَطِلِ
يضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشرَ رائحةٍ ولا بأحسن منها إذ دنا الاصُلُ (١)

٣ — وقد يُخلَط بالمسك سَناً ، قال امرؤ القيس إنهن تحلين ياقوتاً وشذرا ، وعطراً من السنا المخلوط بالمسك الجيد القوى الرائحة موضوعاً فى حُقة مما يصنع لملوك حِمْيَر باليمن :

وريح سَناً فى حُقَّة حِميرية تُخَصُّ بمَفرُوكٍ من المسك أذفرا (٢)

٤ — وقد ذكر امرؤ القيس أنواعاً أخر من العطور والبخور هى البان والألوِى (العود) المجلوب من الهند ، والرند ، واللبنَى ، والكباء (عود البخور) .

وباناً وألويًّا من الهند ذاكيا ورَنداً ولُبنَى والكِباءَ المقتَّرا (٣)

٥ — وذكر المرقش الأصغر أنها تتبخر ليلا بالكباء :

فى كل مُمسًى لها مِقطرة فيها كِباءٌ مُعَدٌّ وحميم (٤)

---

(١) ديوان الأعشى ٤٣ وشعراء النصرانية ٣٦٧ . أصورة : جمع صور : الرائحة الطيبة . كوكب : نور . مكتهل : يانع .
(٢) ديوان امرئ القيس ٦٨ . السنا : نبت ذكى الرائحة .
(٣) الديوان ٦٩ . المقتر : الساطع الرائحة .
(٤) المفضليات ٤٨/٢ . مقطرة : مجمرة . كباء : عود البخور . حميم : ماء حار تستحم به

٦ — العنبر :

دهن يخرجه نوع من الحوت ، وهو ذو ألوان عدة ، أحصى منها العالم باوتشر عشرة ألوان : فمثلا فى الخليج الفارسى العنبر الرمادى الغامق ، وفى ساحل إفريقية الشمالى العنبر ذو اللون الذهبى ، وفى مدغشقر العنبر البنى الضارب إلى الحمرة[١] ، وأرجح أن الادّهان بالعنبر كان السبب فى تلك الصفرة التى وصف الشعراء بها الحسان كما سبق ؛ لأن العنبر الذى يستخرج من شاطىء إفريقية الشمالى ذو لون ذهبى ، قال المرار بن منقذ :

عَبِقَ العنبرُ والمسك بها فهى صفراءُ كعُرْجُون العُمُر

وهى لو يُعْصَرُ من أردانها عَبَقُ المسكِ لكادت تنعصر[٢]

٧ — الكافور والزعفران ، قال النمر بن تولب :

أَنَاةٌ عليها لؤلؤ وزبرجد ونظم كأجواز الجراد مفصَّل

يُرَبِّبُها التَّرْعِيبُ والمحضُ خلفة ومسك وكافور ولُبْنَى توكَّل

يُشَنُّ عليها الزعفران كأنه دمٌ قارتٌ تُعْلَى به ثم تُغْسل[٣]

* * *

ولقد يذكر الشاعر إعجابه بالرائحة ولا يسميها ، كما فعل حسان فى قوله :

هَمُّها العطر والفراش ويعلو ها لجين ولؤلؤ منظوم

---

(١) سحر العطور ٨٢ .

(٢) المفضليات ١ / ٩٠ : العمر : نخلة السكر وهو تمر جيد .

(٣) جمهرة أشعار العرب ١٩٦ . أناة : متأنية فى مشيتها لثقل ردفيها . أجواز الجراد : أوساطه . يربها : يغذوها . الترعيب : قطع السنام . المحض : اللبن الخالص . يشن : يصب . قارت : متجمد .

لو يدبّ الحولىُّ من وَلَدِ الذّرِّ عليهـا لأندَبَتْها الـكلُومُ (١)

وكما فعل الشنفرى فى قوله إنه بات فى بيت معطر كأنما أحيط بريحان ندىٍّ مرت عليه ريح فحملت رائحته ، وهذا الريحان نابت فى مرتفع من وادى حَلْيَة بتهامة ، ومعلوم أن نبات الحزن أطيب ريحاً وأسير عطراً من نبات الوهاد :

فبتنا كأن البيت حُجِّر حولنا بريحانة رِيحَتْ عشاءً وطُلَّت

بريحانة من بَطْنِ حَلْيَةَ نَوّرت لها أَرَجٌ ماحولها غيرُ مُسْنِتِ (٢)

وحار قيس بن الخطيم فى نوع الرائحة التى تضوع من جلبابها فقال :

كأن القرنفـل والزنجبيل وذاكى العَبير بجلبابهـا (٣)

وقد يشم الرجل رائحة المرأة التى لم تتطيب فيستطيبها . قال امرؤ القيس :

ألم تريانى كلمـا جئتُ طارقاً وجدت بها طيبا وإن لم تَطَيَّبِ (٤)

ولقد يصفها بأن القليل من الطيب يغنيها ، لأن بشرتها صقيلة ملساء ، لا تتشربه . أنشد ابن الأعرابى :

خَوْدٌ يكون بهـا القليل تمسه من طيبها عَبَقاً يطيب ويكثر

شكَرَ الكرامةَ جلدُها فصفا لها إن اليتيمة جلدها لا ينـكر (٥)

---

(١) ديوان حسان ٩٩ . الحولى : ما أتى عليه حول . الذرة : صغار النمل . أندبتها : أثرت فيها .

(٢) الأغانى ٢١/٩١ والمفضليات ١/١٠٨ حجر : أحيط . ريحت : مرت بها ريح فحملت عطرها . حلية : واد بتهامة وبطن حلية فى أرض غليظة . مسنت : مجدب .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٢٣ ولسان العرب ١٨/٣١٤

(٤) ديوان امرئ القيس ٣١ .

(٥) شكر : نضر . اليتيمة : التى لا نظير لها .

ترف الحبيبة :

وبعد : فهذا التطيب والتحلي والتجمل يسهل علينا أن نصدق تصوير بعض الشعراء لترف الحبيبات ونعمتهن . فهن مكفيات العمل مخدومات ، ينمن إلى الضحا ، وينمن في الصيف ، وهن منعمات رقيقات لو دب النمل على قميص إحداهن لأثر في جسدها البض .

قال طرفه :

لا تلهى إنهـــا من نسوة رُقدِ الصيف مَقَالِيتَ نُزُر[1]

وقال امرؤ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب مُحْوِلُ
من الذَّر فوق الإتب منهـا لأثَّرا[2]

وقال المرار بن منقذ :

قد نرى البيض بها مثل الدُّمَى لم يَخُنْهُنَّ زمان مُقْشَعِرّ
يَتَلَهَّيْنَ بنـــومات الضحا راجحات الحلم والأنس خُفُر[3]

غرام الرجال بالطيب :

أولع العرب بالطيب ، وأولع المصريون القدماء بالأدهنة والعطور المختلفة[4] ، كما أولع غيرهم ، وقد روت السيدة عائشة أن النبي ﷺ كان « يصبح مُحْرِماً ينضح طيباً » ، وقالت « كأني أنظر إلى وبيص الطيب في

---

(١) ديوان طرفة ٥٣ .
(٢) ديوان امرئ القيس ٧٤
(٣) المفضليات ١ / ٧٨
(٤) سحر العطور ١٠

مفرق النبي ﷺ وهو محرم(١) وعنها : كنت أطيب رسول الله ﷺ بأطيب ما يجد حتى أجد وبيص الطيب في رأسه ولحيته(٢) وكان ابن عباس يطلي جسده بالمسك .

ومدح كعب بن زهير قوماً بقوله :

المطعمون إذا أزمـة أزمت والطيبون ثياباً كلما عَرِقوا

وكان ابن مسعود إذا خرج إلى المسجد عرف جيرانه ذاك بطيب رائحته . وقال أبو الضحا : رأيت على رأس ابن الزبير من المسك مالو كان لي لكان رأس مال . وأحرم ابن عباس والغالية على صلعته كأنها الرُّب (٣) .

ويقول الأعشى إن الثلاثة الحمر قد استنفدت ماله : الخمر واللحم والتطيب بالزعفران وما زال بها مولعاً :

إن الأحامرة الثلاثة أهلكَتْ مالي وكنتُ بها قديما مولَعاً

الخمرَ واللحمَ السمينَ وأَطَّلي بالزعفران ، فلن أزال مُوَلَّعا(٤)

ومدح المسيب بن علس بني شيبان بأنهم يطيبون(٥) وكذلك مدح ابن عنقاء الجهني بني غطفان (٦) .

فإذا كان الرجال مولعين بالطيب يضمخون به جسومهم ، فمن الطبيعي أن تكون النساء أكثر ولوعاً ؛ لأنه ضرب من التجمل والتزين والنعمة ، ولأنه يروق الرجال ويجتذبهم كما سبق .

على أن بعض الآباء أوصوا بناتهم بالماء ولم يوصوهن بالطيب ،

---

(١) الزبيدي ١/١٦١ ، ١٦٢ وبيض : بريق .
(٢) فتح المبدي ٣/٢٩٩ (٣) عيون الأخبار ١/٣٠٣.
(٤) شعراء النصرانية ٣٩٨ .
(٥) عيون الأخبار ١/٣٠٤ والشعر والشعراء ٦٠ .
(٦) المؤتلف والمختلف للآمدي ١٥٩ .

ولم أجد فى وصية أم لابنتها هذه النزعة ، مما يدل على أن الرجال يحفلون فى وصياتهم ابناتهم يوم الزفاف بالماء ، لأنهم على علم أن المرأة تحفل بالطيب من تلقاء نفسها . بذلك أوصى عامر بن الظرب ابنته(١) وقيس ابن خالد(٢) وبذلك أوصى فى الإسلام الفَرافصةُ الكلبي ابنته نائلة يوم زفافها إلى سيدنا عثمان(٣) وأوصى أسماء بن خارجة بنته هنداً لما زفها إلى الحجاج بن يوسف (٤) .

ولا يمكن أن يكون المراد بهذه الوصاةُ أن تحفل البنت بالماء وحده وتهمل الطيب ، لأن الطيب مفضل عند العرب رجالا ونساء كما سبق ، ولأن وصايا الأمهات خاليات من هذا .

خضابها

سبق أن اللون الأحمر محبوب عند النساء والرجال ، كسوا به الحدوج واتخذوا منه ملابس ، وصنعوا حلياً من المرجان والجزع والذهب ، ومن تتمة التجميل أن تختضب النساء باللون الأحمر فتبدو أكفهن حمراً ، وأناملهن حمراً ، وكان الخضاب مستحسناً عند الرجال والنساء ، وأصله هندى أخذه الفرس عن الهنود (٥) ، ثم انتقل من الفرس إلى بلاد العرب قبل الإسلام ويقال إن أول من خضب من أهل مكة عبد المطلب (٦)، وقيل بل المغيرة بن شعبة . ولما اتسع الإسلام وانساح العرب فى الأرض تعلموا فنون الخضاب ، فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة ، وبالزعفران للصفرة فضلا عن الخضاب الأسود (٧) ، وكان حسان يخضب

---

(١) عيون الأخبار ٤/٦٧ والأغانى ١٥/٧٠ .

(٢) الأغانى ١٩/١٣١ وجمهرة الأمثال ١٨٥ والعقد الفريد ٣/٢١١ ومجمع الأمثال ٢/١٥٣

(٣) الأغانى ١٥/٧٠ وعيون الأخبار ٤/٧٦ وشرح نهج البلاغة ٤/٣٠٨ .

(٤) الأغانى ١٨/١٢٨ وعيون الأخبار ٤/٧٧ وإحياء علوم الدين للغزالى ٢/٤١ .

(٥) مروج الذهب للمسعودى ١/١١٥ (٦) لطائف المعارف لابن قتيبة ٨

(٧) ألف باء للبلوى ٢/٣٤٤ .

لحيته على أسلوب خاص ، فيلون شاربيه وعنقه بالحناء دون سائر لحيته فيبدو كأنه أسد والغ فى دم (١) .

فلا عجب أن اختضبت النساء وأن نوه الرجال بخضابهن . قال النابغة فى وصف المتجردة :

سقط النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطه فتناولته واتَّقَتْنَا باليد
بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأن بنانه عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعقد (٢)

وقال الأعشى :

وأرتك كفاً فى الخضا ب وساعداً مثل الجِبَاره (٣)

وأكثر ما يكون الخضاب بالحناء فى الأيدى والأرجل ، وبالكَتَم (٤) الممزوج بالحناء فى رءوسهن ، لأنه يكسب الشعر نعومة ونحومة .

أنواع أخرى من تجملها وتجميلها

تبين من وصف جمال المرأة أنها ممتلئة ، كحلاء ، عيناء ، زجاء ، بلجاء ، بيضاء ، شماء ، مأشورة ، فلجاء ، لمياء ، جيداء ، غيداء ، أثيثة الشعر ، مشرقة النحر ، مهضومة الخصر (٥) ، طويلة ، ملتفة الساقين والساعدين . . . الخ ، ويندر أن تستكمل امرأة هذا الجمال طبيعة ، فلا بد لها من أن تتجمل بما يحقق هذا المثال أو يدانيه ، على ألا يستعلن بأنه

---

(١) الأغانى ٤/٣ (٢) ديوان النابغة ٢٩ .
(٣) ديوان الأعشى ١١٢ الجبارة : السوار أو الدملج .
(٤) الكتم : نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فيبقى لونه .
(٥) عيناء : واسعة العين فى سواد . زجاء : دقيقة الحاجبين فى طول . بلجاء : بعيدة ما بين الحاجبين ولا شعر بينهما . شماء : دقيقة الأنف مستوية القصبة : مأشورة : ذات أسنان محززة مدببة الأطراف . فلجاء : متباعدة ما بين الثنايا والرباعيات . لمياء : سمراء اللثة والشفة . غيداء : يتثنى عنقها وأعطافها لينا .

متكلف ، لأن الطبع العربى يمج التكلف . وكانت هنالك بجمِّلات كاللواتى يجلون العروس ، منهن النامصات، والفالجات ، والواشرات، والواصلات ، والواشمات [١] يحترفن بذلك .

ومن أنواع التجمل والتجميل : التنميص ، والتزجيج ، والتفليج ، والتلمية والوَشْر ، والوشم ، والوَصْل [٢] . وأكثر من وصلن شعورهن يهوديات العرب ، وآية ذلك ما حدث البخارى ، أن معاوية خطب عام حجه — وقد تناول قصة من شعر كانت بيد حرَسِىٍّ — وقال : ما كنت أرى يفعل ذلك إلا اليهود . أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله صلى عليه وسلم ينهى عن مثل ذلك [٣] . ولكن قد مرّ بنا أن السيدة عائشة لم ترفيه ما يحرم ، وفسرت الواصلة بأنها البغى فى شبابها القوَّادة فى كبرها .

---

(١) النامصات نازعات الشعر (القاموس المحيط مادة نمص) الواصلة : المرأة التى تصل شعرها بشعر غيرها .

(٢) التنميص : نزع مابين الحاجبين من شعر حتى يصيرا كأنهما أبلجان ، التزجيج : حف الحاجبين واضافتهما بالإثمد . التفليج تفريق مابين الثنايا والرباعيات . التلمية . خضاب الشفة واللثة معروف ، وأكثر ما يكون بالذراع والشفة واللثة . الوصل : إطالة الشعر بشعر معار .

(٣) إرشاد السارى ٨/٤٥٧ والمرأة العربية ١/١٤٧ .

الفصل الرابع

الحب

صلة الغزل بالحب :

الغزل هو الحديث إلى المرأة ، والحديث عن المرأة ، هو الحديث الذى يستميل المرأة بالتنويه بجمالها وسحرها وتفوقها على لداتها ، ويستميلها بوصف حب الرجل لها أو قصر قلبه عليها، وما يلقى فى حبه من وجد وأرق وشوق ، وما يصطرع فى حبه من ألم وأمل .

وسواء أكان الغزل عذرياً أم حسياً فإنه تعبير عن حب الرجل للمرأة. وبديهى أنى أقصد الغزل الصادق الذى تزجيه عاطفة ، لأن الغزل الصناعى ليس له من الغزل إلا اسمه .

وإذاً فبين الحب والغزل وشائج قوية ، بل الصلة بينهما أقوى من أن تكون وشائج ؛ لأن الحب عاطفة والغزل إحدى الوسائل للتعبير عن هذه العاطفة ، هو وسيلة الشاعر لإبراز ما يختلج فى نفسه .

سلطان الحب :

شغل الناس بالحب منذ القدم ، وصور الشعراء جحيمه ونعيمه منذ كان الشعر ، وتملى الناس تصوير الشعراء طويلا ، وأصغوا إلى حديثهم ملياً ، لا لأن الحب ترف أو كمالى ، بل لأنه فى طبيعة الإنسان .

وإذا كان التاريخ قد أفرد بعض المتيمين بالذكر كعروة ، وعبد الله ابن العجلان ، وقيس بن الملوح ، وجميل بن معمر ، وجيته ، ولامرتين ،

وروميو ؛ فإن لهم أنداداً عاشوا ، وأنداداً يعيشون فى كل زمان ومكان وإن لم يشتهر أمرهم ، أو يسجل تاريخهم .

والحب ديمقراطى لا يختص بسهامه قبيلا دون قبيل ، بل يصهر بحرارته الملك المتوج كما يصهر راعى الإبل ، ويتسلل إلى قلب العبقرى كما يتسلل إلى قلب الرجل العادى ، ويقتحم على السياسى والقائد والثرى ، كما يقتحم على المملق والفارغ والجندى : فالحياة كلها ميدانه ، والناس كلهم فرسانه ، فلا حرم يتحصن منه ، ولا طائفة من الناس تختص به ، يغزو بسلطانه الرجال والنساء ، والفتيان والفتيات بله بعض الطير والحيوان.

« هو العمل الفنى الوحيد الذى يسهم فيه أكثر الناس تجرداً من الذوق الفنى ولو مرة واحدة فى الخيال (١) » .

لهذا كان الحب محور كثير من القصص ليثير الشوق ويمتلك الانتباه ، ولهـــذا حفل به علماء النفس يدرسونه ويحللونه ، واحتفى به الأدباء يعرضون من صوره ، ويكشفون عن سره ، ويؤرخون لأبطاله .

لماذا نحب :

وقد حار العلماء فى أمره ، وتباينوا فى منشئه والغاية منه ، ودار بعضهم حوله دوران المتهيب أن يلج بابه أو العاجز عن اقتحامه ليستكنه سره . يقول ابن حزم : « الحب أوله هزل وآخره جد ، رقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، وليس بمنكر فى الديانة ولا بمحظور فى الشريعة (٢) » .

ويحاول فى موضع آخر أن يتعرف سببه ، فيرده إلى تعارف بين الأرواح فى عالمها الأول « الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى

---

(١) الحياة والحب . إميل لودفيج ٢٤ .

(٢) طوق الحمامة ٤ .

هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع . يقول الله تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحد وجعل منها زوجها ليسكن إليها » . فجعل علة السكون أنها منه . ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب أن يُستحسن الأنقص من الصورة . ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره . ولا يجد محيداً لقلبه عنه . ولو كان للموافقة فى الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه ، فعلمنا أنه شيء فى ذات النفس » (١) .

فهو لا يعزو الحب إلى جمال المحبوب جسداً ولا خُلُقاً ، وإنما يعزوه إلى ما سماه اتصالا بين أجزاء النفوس فى عالمها الأول الرفيع ، وهو بتغاضيه عن جمال المحبوب وأثره فى الحب واستدلاله بأن الجمال لو كان هو السبب فى الحب لما رأينا من يحب امرأة أقل جمالا من غيرها ، هو بهذا لا يجحد أثر الجمال الجسدى والجمال النفسى فحسب ، بل يريد الناس أن يحبوا كلهم طرازاً واحداً من النساء ، ويغفل تأثير ذوق الشخص وميوله فى حبه ، فلقد يجد هذا من الحسن والملاحة والجاذبية فى امرأة ما لا يجده ذاك .

ولعل ابن حزم متأثر فى رأيه هذا بأفلاطون ، فقد ذهب إلى مايصح أن نعده أصلا وتفصيلا لما أجمله ابن حزم ، وذكر رأيه هذا فى كتيب ضمنه محاورات أجراها على ألسنة جماعة من الفلاسفة تخيل أنهم اجتمعوا فى وليمة ، دعاهم إليها صديقه الشاعر أجاتون ، ودار فيها حوار فى الحب بين المدعوين ، ويعرف هذا الكتاب فى اليونانية باسم سمبوزيوم Sumposium واشتهر باسم الوليمة أو المائدة الأفلاطونية Banquet جاء فيها على لسان أرستوفانس Aristophanes أن الناس فى ماضيهم السحيق كانوا ثلاثة أجناس : الذكر ، والأنثى ، والخنثى ، فالذكر صدر

---

(١) طوق الحمامة ٦ .

عن الشمس ، والأنثى عن الأرض ، والخنثى عن القمر ، وكان الفرد بوجهين وأربع آذان وأربع عيون الخ ...

وكان عظيم القوة ، حتى لم يتورع أن يستخدمها فى معصية الآلهة وتحديهم ، وضاق الآلهة بتطاوله ، فتداولوا فيما يعملون لكفه عن هذا التطاول ، وتحيروا ، لأنهم ما كانوا يريدون للإنسان الفناء ، ثم أشار عليهم زيوس بوسيلة تحد من قوة هذا الإنسان ولكن لا تفنيه ، وهى أن يجزأ كل إنسان إلى نصفين ، كل منهما يمشى على رجلين ، ووافق الآلهة على ذلك ، وعهدوا إلى زيوس أن ينفذه ، ففعل وقطعهم أنصافاً بالمدية ، وطلب إلى أبولو أن يدير وجه كل نصف إلى قسيمه حتى يروا عمل المدية فيهم فيكونوا أكثر طاعة ... ثم شفاهم ، وبعد هذا صار كل منهم يحن إلى حاله الأول ، فيبحث عن نصفه ويشتاق إليه ، فتراه إذا وجده ضمه إليه وطوقه بذراعيه ، وعانقه ، فعز عليه أن يفارقه ، وهكذا المحبون كل يبحث عن قسيمه ، ويجرى وراء نصفه ، فالذى يحب النساء هو الذى انشق من الخنثى ، والذى يحب الذكور هو الذى انشق من الذكر ، وما الحب إلا الحنين إلى عهد الاتحاد .

وفى الختام يقول باوسانياس : وإذا اتخذنا الآلهة أولياء وأطعناهم وأرضيناهم فسيظفر كل منا بنصفه الذى انفصل عنه ، وطريق السعادة فى الحياة أن نمكن للحب فى حياتنا فيجد كل منا محبوبه الحقيق ، ويرجع إلى حياته الأولى حياة الاتحاد والشمل المجتمع (١) » .

ومامن شك فى أن هذا رأى خيالى ، ولا جدوى من ورائه إلا أن الحب صلة بين روحين أو بين قلبين لا نستطيع أن نعرف كنهها . ولم يتأثر بهذا الرأى ابن حزم وحده ، بل كان له صدى عند غيره ، وإن لم

---

(١) Plato's : Lysis Sumposium Gorgias, edited by Lamb, pp. 135-147 . Platon : le Ban Quet. trdad. Meunier. P. 82-87.

يوردوه على حقيقته ، ولعله قد وصل إليهم مقتضباً أو محرفاً ، فمثلا يذكر أبو القاسم الأصبهانى أن بعض المتفلسفين زعموا أن الله تعالى خلق الأرواح كلها كهيئة كرة ، ثم قطعها أنصافاً ، فجعل فى كل جسد نصفاً ، فكل جسد لقى الجسد الذى فيه نصفه حصل بينهما عشق ، وتفاوت حالها فى القوة والضعف على حسب رقة الطبائع[1] .

ويبدى بعض علماء النفس الحديث رأياً فى الحب جديراً بالملاحظة ، فيقرر أدلر Adler أننا نحب لنكمل ما ينقصنا ، فيحب الرجل امرأة فيها قدر من الأنوثة يكمل ماينقصه ، وتحب المرأة رجلا فيه قدر من الرجولة هو الذى ينقصها ، وذلك أن أدلر يؤمن إيماناً كبيراً بخنوثة الناس Hermaphrodisme وكثيراً مايذكرها ويدلل عليها فى مؤلفاته ، ولعله على صواب فى ذلك ، إذ أن كثيراً من البحوث البيولوجية الحديثة تؤيد وجود الخصائص التشريحية والعضوية للتذكير والتأنيث فى الكائن الحى الواحد . وقد قال فرويد من قبله أدلر بذلك الرأى ، فذكر أن من الطبيعى أن توجد بالمرء درجة معينة من الخنوثة التشريحية ، إذ أنه فى كل فرد سواء أكان ذكراً أم أنثى بقايا لعضو التناسل عند الجنس الآخر ، بحالة أولية ، وهى عاجزة عن أداء أية وظيفة ، وقد تقوم بأداء بعض الوظائف التى تخالف وظائفها الأصيلة ، وقد استحدث من تلك الحقائق الفكرة القائلة بأن الكائن الحى كان مخنثاً فى الأصل ، وأنه اتخذ خلال عملية التطور وجهة التوحيد الجنسى ، مع احتفاظه ببعض البقايا المشوهة من خصائص الجنس المقابل .

ويرى أدلر أن الازدوج الجنسى فى الناس كافة ، ويذكر أن (لاكير) كشف أن هرمونات الجنس الآخر توجد فى بول الناس جميعاً وأن (بران) استوثق من دراسته لحالات تسعة من اللواطيين من صحة ذلك الكشف

---

(١) محاضرات الأدباء ٢/ ٢٣

أى من وجود هرمونات الأنثى فى بول الذكر و وجود هرمونات الذكر فى بول الأنثى ، وذكر أن دراسة التوائم قد تؤدى يوماً إلى التثبت من الخنوثة التى فى الأفراد ، وتعين على فهم تلك الحقيقة [١] .

الغاية من الحب :

وقد كان — وما زال — الغرض من الحب مثار نزاع كما كان سبب الحب مثار نزاع .

١ — فقد جاء فى المائدة الأفلاطونية على لسان سقراط أن الحب ليس هو البحث عن القسيم مطلقاً — كما قال أرستوفانس — بل البحث عن القسيم الخيِّر الجميل ، لأن العضو السقيم يُبتر إذا أيس من شفائه ، والوسيلة التى يسلكها الحب هى السعى للاتصال بالجميل الخير والاتحاد به عن طريق الجسم والروح معاً ، ففى سن معينة يظهر فينا هذا الميل للاتصال والاتحاد ، وهو ميل مقدس ، لأنه سبيل الخلود للمخلوق الفانى . وهذا الاتصال لا يكون مع البغيض المنفور منه — والقبيح بغيض والجميل محبوب — وحين ينضج فى الفرد هـذا الدافع يشعر بالميل إلى الاتحاد بالجميل ليتخفف من وزر يشعر بثقله ، فالحب إذاً ليس للجميل ولكنه للاتحاد به ، وهذا الاتحاد المقدس يحفظنا من الفناء والناس فى الحب فريقان : فريق لا يعبأ بغير المادة ، ولا يرغب إلا فى الجسد ، وهؤلاء يحبون النساء وينشدون الخلود بالنسل . وفريق ينشد الفضائل والحكمة والعدل والأفكار السامية وهؤلاء يطلبون الجمال والأشياء الجميلة [٢] .

يقسم أفلاطون الحب — على لسان أحد المتحدثين فى المأدبة وهو بوسانياس Pausanias إلى حسن وسيئ طبقاً للغاية منه ، فالحب الحسن هو الذى يدفعنا إلى حب الجمـال ، والحب السيئ هو حب العامة الذين

---

(١) علم النفس الفردى ٩٤ .

(٢) Plato'e : lysis Sum Posium. P. 257.

لا يحفلون بالروح وإنما يحفلون بالجسد، ويتوخون المتعة ، ولا يصطفون أحباءهم من أصحاب السمو الروحى . وحبهم مؤقت سرعان ما يذهب لأنه متصل بجمال الجسد ، والجمال سريع الذبول . أما حب الروح فإنه راسخ دائم لأن المحب لاينفك متعلقا بحبه ، وفيا لحبيبه طوال حياته (١)

من أغراض الحب عند أفلاطون التحلى بالفضيلة والعلم والرياضة ، وهذا النوع من الحب ينشأ بين المعلم وتلميذه حينما يجد المعلم المحب قدرة من نفسه على غرس الفضيلة والعلم ، ويجد التلميذ المحبوب حاجة للتزود من علم الأستاذ وتجربته .

ويحض أفلاطون على اتخاذ الحب معراجا إلى كسب الفضائل ، وعلى أن يكون المحبوب نبيل النفس فاضلا وإن كان قبيح الصورة (٢) .

ومن أغراضه الخلود . ذلك أن الحب بالمعنى العام طبيعى فى كل مخلوق لأنه يتوهم فيه وسيلة إلى الخلود ، فالحيوانات تتوالد لتخلد ، وكذلك الإنسان يتصل بمن يراه جميلا من الأناسى ليتوالد ويخلد ، لكن هذا الحب حيوانى هابط .

أما المثاليون أصحاب النفوس السامية فإنهم يتوسلون إلى الخلود بطريقة أسمى ، لأنهم يخلدون أنفسهم بالعلوم وبالفضائل وحب الخير والحق ، والوصول إلى الكمال .

وهؤلاء يصعدون إلى الكمال بطريق الحب (٣) .

ويذكر أفلاطون — على لسان سقراط — أن الحب يتدرج ، فهو فى أول أمره شوق إلى الاتصال بالأشكال المادية ، إذ يحصر المحب فى فى شكل جميل واحد حبه . ثم يجد أن لهذا الجميل أشباها ، فينقل حبه من شكل واحد إلى أشكال عدة ، ومن شخص إلى أشخاص ، لأنه يلحظ

---

(١) P. 60-64

(٢) P. 57-58

(٣) P. 140.

فيها صورة الجمال نفسه . ثم يتجاوز حبه الأشكال المادية الحسية الجميلة إلى النفوس الجميلة ، لأن جمال النفس الوضيئة أرقى من جمال الأجسام ، وجمال الأرواح السامية أسمى من الجمال المحسوس . ثم ينقل من هذا الطور إلى حب الشرائع والمؤسسات ، فيؤثر بحبه المؤسسة على رئيسها ، ويختص الأسرة بحبه أكثر من الزوجة .

وما يزال يرقى حتى يعشق العلوم والحقائق والفلسفة ، ثم ينتهي به المطاف إلى إدراك الجمال الأسمى الخالد الأزلى الذى لايشبهه شيء ، ولا يشبه شيئاً ، جمال واجب الوجود ... (١)

ومن هذا يتضح أن الحب فى رأى أفلاطون يترقى من جمال إلى جمال ومن درجة إلى درجة :

فهو حب الجمال فى شخص جميل واحد .
ثم حب للجمال فى كل شخص جميل .
ثم حب للجمال النفسى ، وإيثاره على الجمال الجسدى .
ثم حب للجمال فى الشرائع والمؤسسات .
ثم حب للجمال فى العلوم .
ثم حب للجمال فى الْمُثُل التى تهدى الفلسفة إليها .
ثم حب للجمال الخالد الأسمى واجب الوجود المنزه عن المشابهة .

الغرض من الحب إذا يختلف باختلاف المحبين ، فالراغبون فى المتعة الجسدية يتوقون إلى الاتحاد بالجميل ، ليستمتعوا وينسلوا ويخلدوا ، والطامحون إلى الروحانية يتوقون إلى الاتحاد بالجميل لأنهم ينشدون الجمال والكمال .

٢ — ولهذا الرأى صداه فى قول ابن سينا : « القوة الحيوانية تهدف إلى التوليد والتكاثر ، وكل قوة نفسية تستفيد من انضمامها إلى قوة أعلى منها

---

(١) P. 139.

رتبة ، فتنظم الأفعال الصادرة عنها فى كمها وكيفها بحسن الإتقان ولطف المأخذ ، فإذا جاوزت القوة الشهوانية وانضمت إليها ، استعانت بها على حفظ النوع وبقائه ، ونشأ من تجاورهما عشق حسن النظام واعتدال التركيب »(١) .

وكذلك نجد ابن حزم جانحا إلى النوع الثانى من الحب الذى ذكره سقراط ، لأن الحب فى رأيه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، فلابد أن يكون بعيداً من الغاية ، لأن الاتصال هو الذى يوجبه على المتحابين (٢)

وبهذا يقول بما قاله أبو بكر محمد بن داود الظاهرى من قبله ، وما قاله الغزالى وبويس جبون من بعده ، من أن الحب سرور بالمحبوب لذاته ، لا لأنه يقضى شهوة أو يحقق رغبة .

لكن هذا الرأى أقرب إلى الخيال ، أو هو رأى محب حرم الحلوة والاتصال والوصال ، وأحرى به ألا ينطبق على حب الرجل للمرأة ، بل ينطبق على الصداقة العالية كما سنبين . لذلك مال إخوان الصفاء إلى أن الحب شدة شوق إلى الاتحاد (٣) ، كما قال أرسقوفانس فى المائدة الأفلاطونية ، وذهب ابن سينا إلى أن غاية هذا الاتحاد بقاء النوع الإنسانى « لما اقتضت العناية الإلهية استبقاء الحرث والنسل ، وامتنع المراد فى مدة البقاء فى الشخص الكائن أوجبت الحكمة صرف العناية إلى الأنواع والأجناس ، فطبعت فى كل واحد من الأشخاص شوقا إلى تأثير ملازمة توليد المثل ، وهيأت لذلك فيه آلات موافقة (٤) » .

على أنه يذكر فى موضع آخر أن الحب الذى يهدف إلى متعة حيوانية جدير بالمنقصة ومضر بالنفس الناطقة ، وليس من خصائصها ، وأن حب

---

(١) رسالة العشق لابن سينا من جامع البدائع ٧٧/١٨٠ .

(٢) طوق الحمامة ٦ (٣) رسائل إخوان الصفا ٣/٦٥ .

(٤) رسالة العشق من جامع البدائع ٧٧ .

الجميل باعتبار عقلىّ وسيلةً إلى الرفعة ، أولوعه بما هو أقرب فى تأثيره من المؤثر الأول والمعشوق المحض، ولذلك لا يكاد أهل الفطنة من الظرفاء والحكماء ممن لا يسلك طريق المتعشقين يخلو من شغل قلبه بصورة حسنة إنسانية (١) .

فنحن أمام رأيين : رأى يرى أن الحب شوق إلى الاتحاد للإنسال والخلود ، ورأى يجعله روحانيا صرفا لا صلة له بالمتعة الجسدية . ونريد أن نصطفى لأنفسنا رأياً منهما ، لأن له صلة وثيقة بالغزل وأنواعه كما سندرسه .

٣ — ويحسن بنا أن نعرج على المحدثين لنبلو ما عندهم ، فهذا ماكس توردو يرى أن الحب شوق إلى الاستمتاع الجسدى ، كل أثر ينبه فى الدماغ — بأى شكل من الأشكال — مركز التناسل سواء أكان هذا التنبيه مباشراً أم آتياً من تداعى الفكر وتساوق الخواطر فهو الأثر الجميل ، وصورة الجمال الأول فى نظر الرجل هى المرأة فى سن النضج الجنسى والاستعداد لتجديد النسل، أى المرأة فى عنفوان الشباب والصحة، ففى محضر هذه المرأة يختلج مركز الغريزة الجنسية من نفس الرجل بأقوى الإحساسات وأشد الخواطر ، وتثير رؤية (الظاهرة) وتصورها عنده أقوى بواعث السرور التى يمكن أن تستفاد من مجرد النظر أو التصور (٢) » .

وقد عزا فرويد إلى الغريزة الجنسية الحب وغيره ، وتعسف فى نظريته وعممها ، لأنه نسب الحب — على أشكاله وضروبه — إلى الغريزة الجنسية . لكن الحب عاطفة معقدة ، وهى لا تشمل الميول الانفعالية النزوعية الجنسية والوالدية فحسب ، بل تتصل بها كل الغرائز تقريبا وبخاصة غريزتا الزهو والخشوع ، وقد أدى الخلط بين الغريزة الجنسية

---

(١) رسالة العشق ٨١ .

(٢) مراجعات فى الآداب والفنون . عباس العقاد ٨٠ .

وعاطفة الحب إلى كثير من النقاش والجدل ، « لإسراف فرويد فى توسيع نطاق الميول الجنسية وأثرها فى الحياة الإنسانية ، وفى تعيين أصل جنسى لكل الاضطرابات العقلية والعصبية والأحلام ولضروب النشاط المختلفة التى ليست لها علاقة واضحة بالجنس (١) » .

ولم يطمئن بعض تلاميذ فرويد إلى تعميمه هذا ، فاعتزلوا مذهبه ، واصطنعوا لأنفسهم مذهبا جديدا ، فمثلا أدلر Adler خالف أستاذه فى اعتباره الغريزة الجنسية أقوى الغرائز فى الإنسان ، وأشدها تحكما فى مصائره ، وذهب إلى أن الإنسان محكوم فى جميع أعماله وتصرفاته بغريزة أخرى هى حب السيطرة ، فهو سعيد مادامت هذه الغريزة راضية ، وشقى مادام غير قادر على إرضائها ، ويذهب أدلر إلى أبعد من ذلك ، فيعد الغريزة الجنسية نفسها مظهراً من مظاهر حب السيطرة ، وينظر إلى الحب على أنه مظهر من مظاهر هذه الغريزة (٢) .

من التعسف إذاً أن يرد فرويد وأنصاره سلوك الإنسان إلى الغريزة الجنسية ، ولا يعفون من هذا رغبة أو خالجة ، وكثيراً ما توجد غريزة التناسل بمعزل عن حب الجمال ، وكثيراً ما يُحَب الجمال بمعزل عن غريزة التناسل ، وأقوى الناس شغفا بالجمال هم أرقاهم فى مدارك الإدراك ومراتب الذوق ، وأشدهم شوقا إلى المتع الروحية ، ولقد تكون الغريزة الجنسية ذات عُرام فيمن يهبطون فى مدارك الإدراك والذوق ولا يحفلون بمتع الروح » ولا معنى لأن يقال إننا نستجمل المرأة لأن غريزة التناسل تسوقنا إليها ، وتضطرنا إلى حبها ، إذ لو كان الأمر كذلك لأغنتنا تلك الغريزة عن الجمال ، ولأصبحت كلمة المرأة مرادفة لكلمة المرأة الجميلة . وأصبح وصف الجمال فضولا لا يضيف إلى الأنوثة شيئاً من عنده ، وإنما الأولى أن يقال إن غريزة التناسل تعجز بمفردها عن سوق الأحياء

(١) علم النفس الفردى إسحاق رمزى ٤٨ .
(٢) الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة . الدكتور موريس الديك ٤٠ .

إليها ، فتتخذ من الجمال شركا توقعهم به فى أمرها . فكأنه الحلوى التى يكسَى بهــــا الدواء لتشتهيه النفس إذا عجزت المنفعة البحتة عن الترغيب فيه (١) » .

٤ — وبعد : فما أعزو إلى الغريزة الجنسية والرغبة فى النسل والخلود كل أنواع الحب ، وما أنحيها بعيداً من الحب ، لأن الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز تغلغلا فى النفس وتسرباً فى مناحى الإدراك والوجدان والنزوع ، وهى على صلة قوية بتذوق الجمال ومطالب الفنون ، يتأثر بها الشعراء فيما ينظمون ، والمصورون والنحاتون فيما يصورون وينحتون ، والمغنون فيما يغنون وينشدون .

فبعضُ الحب بل أكثره جاذبيةٌ بين رجل وامرأة ، تبدأ مستورة الغرض روحانية الغاية ، ثم تنكشف عن الغرض رويداً رويداً .

والحب الذى يحرم فيه المحب متعته هو الحب الحار الموحى بالغزل الحار . يقول هكسلى : « حينما وجدت القيود وضيقت على المحب وجد الحب الحقيق ، لأنه قائم على الحرمان ، وحيثما كان الوصل خفت حدة الحب(٢) » .

وبعضه مازال الروحانية تظلله ، لأن ثمة ما يمد ظلها من حرمان ، أو يأس ، أو حواجز وعجز .

وإلا ففيم كانت لهفة العشاق على الزواج من حبيباتهم ؟

ولم ماتوا من الكمد أو جُنوا عندما حيل بينهم وبين هذا الزواج الذى ارتبط بحبهم ؟ وهم كثير فى العصر الجاهلى والإسلامى ، فقد مات مسافر بن عمرو لما حرم زواج هند بنت عتبة التى أحبها (٣) . وكذلك

---

(١) مراجعات فى الآداب والفنون . العقاد ٨٦ .
(٢) Huxley. P. 120.
(٣) الأغانى ٨/٤٨ .

مات عبد الله بن العجلان[١] والصِّمة بن عبد الله[٢]، وعروة بن حزام[٣] والمرقش الأكبر[٤]، وجن بعضهم من حبه اليائس، كما جن قيس ابن الملوّح[٥]، وقطع المرقش الأصغر إبهامه وَجداً على فاطمة بنت المنذر[٦].

فلو أن حبهم روحانى صرف ما اشتهوا هذا الزواج، بل لنفروا منه إن عرض عليهم.

ثم إن بعض هؤلاء العشاق قد تصدروا الحب العذرى، ووسموا بأنهم أبطاله، فإذا استطعت أن أعثر فى شعرهم على تعابير دالة على الإعجاب بالجسد الجميل، وعلى الشوق إلى الاستمتاع به، فقد اهتديت إلى تأكيد أنه لا يوجد حب أفلاطونى روحى صرف. والحق إن فى شعرهم هذا وذاك، فلم يستطع أبطال الحب العذرى أن يتحللوا من الإعجاب بالجمال الجسدى، بل إنهم أعجبوا به، وشادوا بحسنه، فعروة بن حزام يصف جسد عفراء بقوله:

كأن وِشاحَيْها إذا ما ارتدتهما ... وقامتْ عِنانا مُهْرَةٍ سَلِسانِ

يَعَضُّ بأبْدانٍ لهـا ملتقاهما ... ومَتْناهما رِخْوانِ يَضطربانِ

وتحتهما حِقْفانِ — قد ضَرَبَتْهُما ... قِطَارٌ من الجوزاءِ — مُلْتَبِدانِ[٧]

---

(١) الأغانى ١٩/١٠٢ — ١٠٥ والشعر والشعراء ٢٧٤ ومصارع العشاق ٨.

(٢) تزيين الأسواق. الأنطاكى ٩١.

(٣) الأغانى ٢٠/١٥٢ والشعر والشعراء ٢٢٧ والأمالى ٣/١٥٧ والنوادر ١٥٧ والدر المنثور ٣٤٦.

(٤) الشعر والشعراء ٥٤ وتزيين الأسواق ٨٨.

(٥) الأغانى ٢/١٤، ٣٧ والشعر والشعراء ٢٢١ والكامل للمبرد ١/٢٥٠_٢٥٢

(٦) مجمع الأمثال ١/١٣٤

(٧) النوادر لأبى على القالى ١٦١ وتزيين الأسواق للأنطاكى ٧٨ الوشاح: أديم عريض مرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها. الحقف: أصل الجبل شبه ردفيها به. قطار: بضم القاف سحابة عظيمة غزيرة المطر. وبكسرها جمع قطرة والمراد المطر. الجوزاء: برج فى السماء والمراد هنا السماء: ملتبدان: متداخلان.

وقيس بن ذَريح وصف جسد لبنى بقوله :

إذا ما مشت شبرا من الأرض أرجَفَتْ
من البُهر حتى ما تزيدُ على شبر
لهـا كفل يرتجُّ منها إذا مشت
ومَتْنٌ كغصن البان مُضطَمِرِ الخَصر (١)

ويصف قيس بن الملوح ريق ليلى بقوله .

كأن على أنيابها الخمرَ شجَّها بماء الندى من آخر الليل عاتق

وإن زعم أنه لم يذقه إلا توهما :

وما ذقتـه إلا بعيني تفرسا كما شيم فى أعلى السحابة بارق (٢)

ويصف جسدها بقوله :

أبى القلب أن ينفك عن ذكر نسوة رقاق ولم يُخلَقنَ شؤما ولا نُكدا
إذا رحن يسحبن الذيول عَشيةً ويقتلن بالألحاظ أنفسنا عمـدا
مَشَى عَيطَلَاتٌ رُجَّحٌ بخصورها روادفُ وَعثَاتٌ تردُّ الخطا ردًّا
وتهتزُّ ليـلى العامرية فوقها ولاثت بسبٍّ القزّ ذا غُدُر جَعْدا
إذا حرَّك المِدرَى ضفائرها العُـلا
مَجَجنَ نَدَى الريحان والعنبرَ الوردا (٣)

ويقول أيضاً :

بيضاء خالصة البياض كأنهـا قمر توسطَ جُنحَ ليـل مُبرَد

---

(١) الأغانى ٨/١١٦ .

(٢) الأغانى ٢/٣٢ عاتق : خمر معتقة . شيم : انتظر ونظر .

(٣) الأغانى ٢/٨١ عيطلات : حسنات الجسم طويلات العنق . روادف : كبيرات الأرداف . وعثات : سمينات . سب القز : خمار الحرير .

موسومة بالحسن ذات حواسد ... إن الجمال مظنة للحسدْ
وتَرَى مدامعُها تُرَقرِقُ مُقلَةً ... سوداءَ ترغب عن سواد الإثمد[١]

وكذلك يصف جميل بثينة وصفاً جسدياً فى قوله :

قناة من المُرّان ما فوق حَقوِها ... وما تحته منها نَقاً يتقَصَّف
لها مُقلَتا ريم وجِيدُ جَدايةٍ ... وكشحٌ كطَيِّ السابرِيّةِ أهيَف[٢]

ولم يقتصر هؤلاء الذين تزعموا الحب العذرى على وصف الجسد ، بل تعدوا ذلك إلى التصريح بالمتعة الجسدية ، فالمجنون يطلب من الله أن يتيح له قبلة من ليلى :

دعوت إلهى دعوةً ما جهلتها ... وربى بما تخفى الصدور بصير
لئن كنت تهدى بَرْدَ أنيابها العلا ... لأفقَرَ منى إنى لفقير[٣]

وجميل يتحدث عن العناق :

كأن فَتِيتَ المسك خالط نشرها ... تُعَلُّ به أرادنُها والمرافق
تقوم إذا قامت به عن فراشها ... ويغدو به من حِضنها من تعانق[٤]

ويتحدث عن حلاوة الريق وحاجات النفس :

ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى ... أظل إذا لم ألق وجهك صادياً
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة ... وفى النفس حاجات إليك كما هيا[٥]

---

(١) الأغانى ٢/٨٣ مبرد : بارد .
(٢) الأغانى ٧/٨٦ . المران : الرماح الصلبة اللدنة . الحقو : الكشح والإزار أو معقدها . النقا : القطعة من الرمل . جداية : غزال . السابرى : ثوب رقيق جيد .
(٣) الأغانى ٢/٤٧ ... (٤) الأغانى ٧/٨٩ .
(٥) الأغانى ٧/٩٠ وراجع أيضا ١٠٠ و ١٠١ .

ويقول إنها كانت تجود مرة بحديثها ومرة بريقها :

تجود علينا بالحديث وتارة ... تجود علينا بالرُّضاب من الثغر

ثم هو يقسم لها يميناً صادقة ، ويدعو على نفسه بالعمى إن كان قد مسه جلد غير جلدها :

حلفت يميناً يا بثينة صادقاً ... فإن كنت فيها كاذباً فعميت
إذا كان جلد غير جلدك مسّنى ... وباشرنى دون الشعار شَرِبت(١)

ويقول قيس بن ذريح إن لبنى أجمل النساء كاسية وعريانة ، وإنها أجمل ضجيع نائمة ويقظى :

يا أكمل الناس من قَرْنٍ إلى قدم ... وأحسن الناس ذا ثوب وعريانا
نِعمَ الضجيع بُعَيْدَ النوم تجلبه ... إليك ممتلئاً نوماً ويقظانا(٢)

وقد روى أن توبة بن الحُمَيِّر كان عفيفاً فى حبه ، ولم ينل من ليلى منالا ، لكن فى قول ليلى ما ينبىء بأنه قد صبا إلى متعة جسدية أياً كانت هذه المتعة، ولم يكف عما اشتهى إلا باحتجازها هى وامتناعها، قالت ليلى:

وذى حاجة قلنا له : لا تَبُحْ بها ... فليس إليها ما حييتَ سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه ... وأنت لأخرى فارغ وخليل(٣)

وتوبة هذا كان أحيى من الفتاة كما تقول ليلى :

وتوبة أحيى من فتاة حيية ... وأجرأ من ليث بِخَفّانَ خادر(٤)

لا أستطيع أن أتصور إذاً حباً روحانياً صرفاً مبرأ من نزوات

---

(١) شربت : أصيب جلدى بقروح لاذعة .
(٢) الأغانى ٨/١١٨ .
(٣) الأغانى ١٠/٦٥ .
(٤) الأغانى ١٠/٧١ خادر : مقيم فى أجمته .

الجسد ما دام طلقاً من حواجز وأرصاد ، وكيف أتصوره وحياة أبطال الحب العذرى تنطبق به ؟

يقول إميل لدفيج فى هذا المعنى : « ثبت أن الحب فى كل دور وتحت كل سماء ولدى كل جيل حادث جثمانى ، وقد يكون الحب غير ذى نتائج روحية ، والحب قد حدث على هذا الوجه فى ألوف المرات ، ولكن الحب لم يحدث قط بلا نتائج جثمانية ، حتى إن بطلة أشد ما وجد من الحب الروحانى — بياتريس — تم لها الفوز بمنظرها الجثمانى حينما رآها الشاب دانتى على الجسر ، فسحر بمظهر هذه المرأة المجهولة[1] » .

وكأنما أحس أفلاطون بأن حب المرأة لابد أن تشوبه المتعة الجسدية ضئيلة أو غير ضئيلة ، ففضّل حب الذكور على حب الإناث ، إذ قسم الحب إلى سماوى علوى وأرضى عامى ، وميز السماوى بأن محوره حب الذكور لا النساء ، وجعله متعلقاً بالروح ، فلا يعبأ بالجسد ولا يحتفل بلذاته ، لأنه حب عقلى ينشد الأرواح الصافية والنفوس العالية والعقول الراجحة ، وغايته تحرر العقل وتبادل النفع الفكرى ، وهو وسيلة إلى الخلود ، والناس مختلفون فى فهم الخلود ، فمنهم من يسعى إليه عن طريق النسل ، ومنهم من ينشده بالروح والعقل ، وهؤلاء هم الخالدون حقاً .

فى رأيه أن حب الفتيان أفضل من حب النساء ، وإن كان كل منهما حبا للجمال ، لأن حب الفتيان أكثر تجرداً من أوهاق الحس ، وأهدى إلى الفضائل ، إذا سلك المحب الجادّة . وليس أدل على ذلك من أن التعلق بالعلم والحكمة — وهذا التعلق هو الطريق إلى الحب المتبادل بين المعلم وتلميذه كما سبق — ومن أن عرفان الجمال والخير — وهما الغرض من الحب — ندر أن يحدث إلا بين أستاذ وتلميذه من المتعلقين بالفلسفة .

---

(١) الحياة والحب : لميل لو ١٦ فيج .

ثم إن الرجل أدنى من المرأة إلى الكمال ، والفتى أدنى من الفتاة ، فحب الرجل للرجل أجدر بأن يقربه إلى الكمال [١] .

كان أفلاطون ينظر إلى الحب هذه النظرة ، وهو مايسميه علم النفس الحديث Homosexual love .

أما الحب الجنسى — وهو العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة — فقد اعتبره حاجة جسمية ،لا تختلف عن الحاجات الجسمية الأخر، مثل الطعام والشراب [٢] .

وقد ذهب فى (الجمهورية) إلى أن « من طبع الحب المشروع الرغبة فى الجمال المتزن بطبع رزين متزن ، فلا يصح أن يلامسه جنون ولا دعارة ، لأن اللذة لا تدانى الحب ، ولا يأتى المحب وحبيبه شيئا من هذا النوع ، ومع أن المحب يلاصق محبوبه ، ويرافقه ويقبله قبلة الأب ابنه بسبب جماله — إذا ارتضى المحبوب منه ذلك — يجب أن ينظم علاقاته به على وجه لا يأذن بتجاوز هذا الحد إلى ما وراءه ، وإلا عُذل لفظاظته وعدم ذوقه [٣] » .

---

(١) P. 47-53.

(٢) Greek love in the Encyclopaedia of Religion and Ethics.

(٣) جمهورية أفلاطون ٧٩ ترجمة حنا خباز .

الفصل الخامس

أنواع الغزل

أولا : الغزل العذرى

تمهيد :

انتهيت فى فصل (الغزل) وفصل (الحب) إلى أن الغزل ينبعث عن عاطفة الحب ، وأن هذا الحب إما أن يصطبغ بصبغة روحانية عفيفة فيوحى بالغزل العذرى ، وإما أن يصطبغ بميل حسى شهوى فيوحى بالغزل الحسى ، وإذا فالغزل الصادق الصادر عن العاطفة المصور لها لا يعدو هذين القسمين .

على أن هنالك نوعين آخرين من الغزل هما الغزل التمهيدى ، والغزل الكيدى ، وسيتضح من دراسة التمهيدى أنه أحياناً يصور عاطفة فيكون عذرياً أو حسياً ، وأحياناً لا تبعثه عاطفة فيكون هو والكيدى غزلا فى شكله لا فى حقيقته ، وباسمه لا بمعناه .

حقيقة الغزل العذرى :

١ — أريد بالغزل العذرى هذا الضرب من الغزل الذى تشيع فيه حرارة العاطفة ، وتَـدِـعُ منه الأشواق ، ويصور خلجات النفس وفرحات اللقاء وآلام الفراق ، ولا يحفل بجمال المحبوبة الجسدى بقدر ما يحفل بجاذبيتها وسحر نظرتها وقوة أسرها ، ثم يقتصر فيه الشاعر على محبوبة واحدة طيلة حياته أو رَدَحاً طويلا من حياته .

ولست أجارى القائلين بأنه غزل روحى خالص لا تخالطه نوازع جسدية وإن ضؤلت ، فقد انتهيت فيما سبق إلى أن هذا الحب ليس مما يقع بين الرجل والمرأة . فهذا الغزل عذرى إذا قيس إلى الغزل المكشوف أو الحسى ؛ لأن نصيب الجسد منه قليل وضئيل ، ونصيب الروح منه غلاب على الجوع الجسدى .

٢ — وقد اشتهر بالحب العذرى والغزل العذرى بنو عذرة ، حتى نسب إليهم ، قال عروة بن الزبير لعذرى : « إنكم أرق الناس قلوباً — يريد أصبابهم إلى الحب — فقال : نعم لقد تركت ثلاثين شابا خامرهم السل ما بهم داء إلا الحب(١) . وقال فزارىٌّ يوما لعذرى : « أتَـعُدُّون موتكم فى الحب مزية ، وهو من ضعف اليقين ووَهن العقيدة وضيق الروية ؟ فقال : « أما والله لو رأيتم المحاجر البُـلـْج ترشق بالعيون الدعج من تحت الحواجب الزج ، والشفاه السمر تبسم عن الثنايا الغُـرّ كأنها شـَذَر الدر لجعلتموها اللات والعُـزّى وتركتم الإسلام وراء ظهوركم »(٢) .

وقيل لأعرابى من بنى عذرة : « ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تنماث كما ينماث الملح فى الماء ؟ أما تتجلدون ؟ فقال : إنا ننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها »(٣) .

وسأل سعيد بن عقبة الهمدانى أعرابيا : ممن الفتى ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا . قال : عذرى ورب الكعبة . فم ذاك ؟ قال الأعرابى : فى نسائنا صباحة وفى فتياننا عفة(٤) .

وذكر إبراهيم بن سعد الزهرى أنه جاءه رجل من بنى عذرة لحاجة ،

(١) تزيين الأسواق ٩ ومصارع العشاق ٢٠ .
(٢) تزيين الأسواق ٩ ومصارع العشاق ٢٠ .
(٣) وفيات الأعيان ١/٢٠٣ وعيون الأخبار ٤/١٣١ .
(٤) مصارع العشاق ٣١٥ وتزيين الأسواق ١/١٠ .

لجرى ذكر العشق والعشاق ، فقال إبراهيم : أأنتم أرق قلوبا أم بنو عامر؟ قال : إنا لأرق الناس قلوبا ، ولكن غلبتنا بنو عامر بمجنونها [١] .

والذى يظهر من هذا ومن أشباهه أن بنى عذرة كانوا مشهورين بالحس المرهف وتذوق الجمال والعفة ، وأن نساءهم كن على قسط من الجمال والجاذبية لم يكن فى نساء غيرهم .

لهذا كثر عشاقهم ، واشتهر أمرهم ، وكثر موتاهم ومرضاهم من الحب.

قيل لأعرابى : ممن أنت ؟ فقال : من قوم إذا أحبوا ماتوا . فقالت جارية سمعته : عذرى ورب الكعبة [٢] . فلا عجب أن ترددت أخبار عشقهم وعشاقهم ، فوصفوا بأنهم أشد خلق الله عشقا [٣] ، وبأنهم أشد الناس غراما ، وأعظمهم هياما وأكثرهم قتلى من الحب [٤] ، وبأنهم مضرب الأمثال فى عنف الحب وصدقه وقوته [٥] ، وبأنهم جمعوا إلى رقة القلوب وعنف العشق عفافا وتحرجا من المآثم [٦] .

لكن الموت من الحب لم يكن مقصورا على بنى عذرة ، فقد قيل لرجل من بنى عامر : هل تعرفون فيكم المجنون الذى قتله العشق ؟ فقال : هيهات ، بنو عامر أغلظ أكبادا من ذاك ، إنما يكون هذا فى اليمانية الضعاف قلوبها ، السخيفة عقولها ، الصلعة رءوسها ، فأما نزار فلا [٧] .

فمن بنو عذرة هؤلاء ؟

ومن بنو عامر ؟

أما بنو عذرة فقبيلة مختلف فى نسبها ، والراجح أنهم يمنيون ، لأنهم

---

(١) الأغانى ١/١٧٣ .
(٢) وفيات الأعيان ١/٢٠٣ وعيون الأخبار ٤/١٣١ .
(٣) ديوان الصبابة ٢/٥٥ (٤) ديوان الصبابة ٢/٥٤ .
(٥) تزيين الأسواق ١/١٠ (٦) مصارع العشاق ١٣٤ .
(٧) الأغانى ١/١٦١ .

فرع من قضاعة ، ينتسبون إلى عُذرة بن سعد هُذَيم بن زيد بن ليث ابن أسلم بن الحاف بن قضاعة[١] . وقد اشتهروا بالعشق والعفة ، ومنهم جميل وصاحبته بثينة[٢] .

وكانت مواطنهم بوادى القرى وتبوك ، ثم امتدت حتى قربت من أيلة ، وشملت شرقى حرة ليلى بديار قيس بالقرب من الحِجر ، وكانت بجوارهم ديار لقبائل أخرى من قضاعة مثل جهينة وكلب وبلىّ ونَهد[٣]

أما بنو عامر بن صعصعة فهم من نزار ، وقد اشتهروا بالحب المفضى إلى الجنون أحياناً[٤] ، ومنهم قيس بن الملوّح ، — مجنون ليلى — وليلى ، وإن كان بعض العامريين يبرأون من هذا العشق ، ويعزونه إلى اليمانية ، ويصفونها بضعف القلوب[٥] .

٣ — والعفة — ناشئة عن حرمان أو عوائق — سمةٌ من سمات هذا الغزل العذرى ، وقد امتدحها النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : « من عشق فعف فمات مات شهيداً »[٦] .

وفى رواية أخرى « من عشق فعف فكتمه فمات فهو شهيد »[٧] .

وفى رواية ثالثة « من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة »[٨] .

---

(١) النسابون مختلفون فى نسب قضاعة ، بعضهم ردها إلى حمير ، وبعضهم رجعها إلى معد ، والراجح أنها يمنية تمعدد بعضها فى العصر الأموى أيام عبد الملك بن مروان ، ورفض أكثرها أن يتمعدد ويترك أصله (جمهرة الأنساب لابن حزم ٤١١ والعبر لابن خلدون ٢/٢٤٧ ولسان العرب وتاج العروس مادة قضع) .

(٢) تاج العروس مادة عذر .

(٣) معجم ما استعجم للبكرى ١٧ ، ٢٥ — ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٠ .

(٤) الأغانى ١/١٦١ — ١٦٢ (٥) لأغانى ١/١٦١ ، ١٦٣ .

(٦) محاضرات الأدباء . الراغب الأصبهانى ٢/٦٢ وكنوز الحقائق للمناوى ١٥٥ .

(٧) الزهرة لابن داود الظاهرى ٦٦ .

(٨) مصارع العشاق لأبى جعفر السراج ٤ .

وامتدحها الأدباء ، فعقد لها أبو بكر الظاهرى فصلا عنوانه : « من كان ظريفاً فليكن عفيفاً » استدل فيه بالحديث السابق ، ورأى أنها مع أمر الدين بها وحرص الناس عليها تبقى الحب وتصونه من الدنس ، «ولو لم تكن الفاحشة منكرة فى الشرائع لوجب على كل من المتحابين أن يتركها إبقاء لوده عند صاحبه وإبقاء على ود صاحبه عنده » (١) . ويظهر أن ابن سينا وجد أن الحب العذرى لا يبرأ من قبلة وعناق ، فحاول أن يفلسف هذه النزعة الجسدية فقال : « وأما المعانقة والتقبيل فإذا كان الغرض منهما هو التقارب والاتحاد — لأن النفس تود أن تنال معشوقها بحسها المسى بعد نيلها له بحسها البصرى فتشتاق إلى معانقته وتشتاق إلى تقبيله — فليسا بمنكرين فى ذاتهما ، لكن استتباعهما بالعَرَض أموراً شهوانية يوجب التوقى عنهما » (٢) .

نشأة الغزل العذرى

هل نستطيع أن نؤرخ لنشأة هذا الغزل ؟

وهل نستطيع أن نعلل لنشأته فى العصر الذى نشأ فيه ؟

سنعرض آراء بعض الدارسين ، ونعقب عليها ، ثم ندلى بالرأى الذى نرتضيه .

١ — رأى الأستاذ ماسنيون

رأى الأستاذ ماسنيون أن الحب العذرى مقتبس من الحب الأفلاطونى عند اليونان ، ومتأثر به .

---

(١) الزهرة ٦٦

(٢) رسالة العشق ٨٣ .

مناقشة هذا الرأى :

لا نرتضى هذا الرأى ، لعدة أسباب :

١ — لأن المسلمين فى صدر الإسلام وأوائل العصر الأموى — على فرض أنهم لم يعرفوا الحب العذرى إلا حينئذ — لم يكونوا قد عرفوا شيئا من فلسفة اليونان ونظرية أفلاطون .

٢ — ثم إن هذا الحب نشأ فى البادية ، فعلى فرض أن العرب كانت لهم صلة بالفلسفة اليونانية ونظرية أفلاطون فى الحب ، فليس من الطبيعى أن تتأثر البادية بما لم تتأثر به الحاضرة ، وأهل الحواضر أرقى مدنية وعقلية ، وأكثر تجارة وأسفارا ومخالطة .

٣ — على أن الغزل العذرى تصوير لعواطف سامية فى شعر ، والشعر ليس من طبيعته أن يجنح إلى الأفكار الفلسفية ، وبخاصة فى العصور القديمة .

٤ — ثم إن الحب العذرى يغاير الحب الأفلاطونى مغايرة كاملة[1] .

فالحب الأفلاطونى قائم على نظريات فلسفية عقلية ، وعلى دراسة لبواعث الحب للجميل وللخيّر ، ودراسة لأنواع الحب والمفاضلة بينها ، ولنتائج كل منها ، وبيان محاسنه ومساوئه ، أما الحب العذرى فقائم على العاطفة المشتعلة التى منيت بالحرمان .

والحب الأفلاطونى يبدأ مراحله وأطواره بحب الجسد الجميل ، ثم يترقى إلى حب النفس الجميلة ، ثم يترقى فيتغاضى عن الجسد والروح معا ، ويعلق بمعنويات أخر لا صلة لها بالمرأة . أما الحب العذرى فمحصور فى دائرة من جمال المرأة جسدا وروحا .

والحب الأفلاطونى وسيلة إلى أغراض سامية لا علاقة لها بجمال

---

(١) راجع ماسبق فى فصل (الحب) من آراء أفلاطون فى كتابه المائدة المستديرة .

المرأة ، أما الحب العذرى فيتبين من دراسته أنه كان وسـيلة للزواج أو الوصل البرىء ، ثم حالت عوائق دون ذلك ، فصار غاية ونهاية ، أى أن الهدف من الحب الأفلاطونى حب الجمال المطلق والتفانى فى الخالق، على حين أن الهدف من الحب العذرى هو المرأة المحبوبة .

بقى أن الحب الأفلاطونى أساسه حب الذكر للذكر ، لا حب الذكر للأنثى ، لأن حب الفتيان — فى رأى أفلاطون — أكثر تجردا من أوهاق الحس ، وأهدى إلى الفضائل ، ولأن الرجل أدنى إلى الكمال من المرأة ، والفتى أدنى إلى الكمال من الفتاة ، فحب الرجل للرجل أجدر بأن يقربه إلى الكمال . وقد كان اليونان فى عهد أفلاطون يقيمون صلة الرجل بالمرأة على أساس مادى جسدى ، الغرض منه قضاء الحاجة الجسدية والإنسال وأما الحب العذرى فهو حب الرجل للمرأة، ولم يعرف العرب فى جاهليتهم شيئا مما أراد أفلاطون .

٥ — على أن القصص اليونانية القديمة لم تصور الحب كما صوره العرب ، ذلك أن التغنى بمباهج الحب واستطابة آلامه لم تظهر إلا بين الأرقاء ، كما يبدو فى الملاحم والمسرحيات القديمة .

أما الأحرار فكان حبهم قائما على أنواع من الخيانة الزوجية ، والغرض منه الفوز بالمتعة الجسدية ، ولهذا لم تحفل قصص الإغريق ومسرحياتهم إلا بهذا اللون من الحب القائم على الخداع والحيلة والمكيدة ، أو على العلاقة الزوجية المفروضة على الزوجين معا .

فهو حب جسدى قائم على الخيانة ، أو على إراقة الدماء ، أو حب قسرى مفروض .

أما الحب العفيف الطاهر الذى يصح أن نسميه عذريا فلم يعرفه اليونان ، ولم تعرفه أوروبا إلا فيما بعد

وإذاً فلم ينشأ الحب العذرى متأثرا بالفلسفة الأفلاطونية ، كما ذهب الأستاذ ماسينيون .

٢ — رأى الدكتور طه حسين

يرى الدكتور طه حسين أن الغزل — بقسميه حسى وعذرى — نشأ فى العصر الإسلامى ، إذ طرأت على المجتمع الإسلامى فى الحجاز عوامل اجتماعية وسياسية « فكان أهل مكة والمدينة يائسين ، ولكنهم كانوا أغنياء ، فلهوا كما يلهو كل يائس ، وكان أهل البادية الحجازية يائسين ، ولكنهم كانوا فقراء ، فلم يتح لهم اللهو . وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية ، وقد تأثروا بالإسلام وبالقرآن خاصة ، فنشأ فى نفوسهم شىء من التقوى ليس بالحضرى الخالص ، وليس بالبدوى الخالص ، ولكن فيه سذاجة بدوية ، وفيه رقة إسلامية ، وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب لهوهم الجاهلى ، كما انصرفوا عن الحياة العملية فى الإسلام إلى أنفسهم ، فانكبوا عليها ، واستخلصوا منها نغمة لا تخلو من حزن ، ولكنها نغمة زهد وتصوف . وأنا أعلم أن لفظ التصوف هنا لا يؤدى معناه الذى أريده ، فقل إنهم انصرفوا إلى شىء من المثل الأعلى فى الحياة الخلقية ، وظهر هذا الزهد وهذا الميل إلى المثل الأعلى مظهرين مختلفين اختلافا شديدا : أحدهما الزهد الدينى الخالص . . . والثانى هذا الغزل العفيف الذى هو فى حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح هذه البادية إلى المثل الأعلى فى الحب ، وابراءتها من ألوان الفساد التى كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى[1] » .

ويقول فى موضع آخر[2] :

نشأ عند العرب فى عصر بنى أمية نوعان من الشعر ، لم يكن قد ألفهما الجاهليون ، أو على أقل تقدير لم يكن هؤلاء الجاهليون قد أحسنوا فهمهما والعناية بهما :

---

(١) حديث الأربعاء ١/١٨٥ .

(٢) حديث الأربعاء ٢/١٥ — ١٨ .

الأول(١) نشأ عن حياة الترف والغنى والثروة ، وهو الغزل . وليس ينبغي أن يقال إن الغزل فن قديم عند العرب ، فنحن نعلم ذلك ولا نشك فى أن الشعراء الجاهليين جميعاً قد تغزلوا وشببوا ووصفوا النساء ، وإنما نريد أن فنا جديداً قد نشأ فى هذا العصر لم يكن موجوداً من قبل ، وهذا الفن هو الغزل يقصد لنفسه ، لا ليتخذ وسيلة لشيء آخر . هو الفن الذى يعنى به شاعر قد فرغ من كل شيء ، لحياته المادية ميسّرة ، ولذاته موفورة عليه ، فكل ما يعنيه أن ينعم بهذه اللذات ، وأن يغنيها فى شعره لا أكثر ولا أقل .

وفى الحق أن هذا الفن الجديد كان مختلفاً متنوعاً فى هذا العصر باختلاف الشعراء واختلاف ضروب الحياة التى يحيونها. فكان هناك شعراء يتخذون الغزل صناعة يصفون به لذاتهم ، وزعيم هؤلاء عمر بن أبى ربيعة . . وكان هناك شعراء آخرون لا يتعدون إلى وصف اللذات وما تستتبعه ، وإنما يقصـــدون إلى وصف العواطف الحارة الصادقة التى تعذب صاحبها وتُعنّيه دون أن تتيح له لذة مادية ما ، وإنما اللذة الوحيدة التى يجدها والتى هو بها كلف وعليها حريص هى لذة الألم بأنه يحب ، ويحب من لا سبيل إلى وصله أو التقرب إليه ، وزعيم هؤلاء الشعراء جميل . .

كان عمر زعيم المتغزلين الإباحيين ، وكان جميل زعيم المتغزلين العذريين . . . ونلاحظ أن الذين ذهبوا مذهب اللذة فى هذا الفن كانوا المترفين من أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار الذين ورثوا الثروة الطائلة الضخمة عن آبائهم ، وحيل بينهم وبين العمل السياسى . والذين ذهبوا مذهب العفة كانوا من أهل البادية ، وكانت عشيقاتهم من نساء البادية أيضاً . ولقد يكون من العسير تعليل هذا ، فنحن نعلم من أخلاق العرب البادين أنهم إلى المادة والإباحة أقرب منهم إلى الحياة العذرية .

---

(١) الثانى هو الشعر السياسى .

ويقول فى موضع ثالث :

« ومن الظاهر أن الجاهليين لم يعرفوا هذا الفن ، ولم يتذوقوه ، فلسنا نعرف فى العصر الجاهلى شاعراً قصر شعره على الغزل ، وحياته على الحب والغرام ، وإنما كان الغزل كغيره من فنون الشعر ، كان وسيلة إلى غيره من فنون الشعر . لكننا نرى فى عصر بنى أمية شعراء يتخذون الغزل لنفسه صناعة وفناً مختارا ، لا يتكلفون غيره ، ولا يعنون بسواه ، فهم لا يمدحون ولا يهجون .. [1] » .

مناقشة هذا الرأى :

لكن هذا الرأى فى حاجة إلى مناقشة وتمحيص ، على ما به من بسط وتعليل .

١ — ليس من الطبيعى أن ينسى الفقير اليائس نفسه وهمومه وحاجاته الضرورية والفوارق التى بينه وبين الأغنياء القادرين على تحقيق رغباتهم ، ثم يتجه إلى التفكير فى مثل أعلى ينتج الحب ، وجسمه فى حاجة إلى الطعام والشراب والكساء أشد من حاجة نفسه إلى مثل أعلى . وما من شك فى أن الحب عاطفة ، وفى أن القوت أوحب البقاء غريزة ، والغريزة أقوى من العاطفة ، وأشد إخضاعاً للنفس ، وأعظم تأثيراً فى توجيه العزيمة .

لذلك كان الجاحظ على حق فى قوله إن الفقير المدقع مشغول عن الحب [2] . وكان المثل اللاتينى صادقا فى قوله : لا يغنى الحب عن الطعام والشراب ، وإذا احتاج المحب إلى طعام وشراب نسى حبه [3]

٢ — ثم إن أهل البادية الحجازية لم يكونوا كما صورهم الدكتور طه ،

---

(١) حديث الاربعاء ٢/١٦ .

(٢) رسالة العشق والنساء ١٦٦ من مجموعة رسائل الجاحظ .

(٣) Benham's New Book of Quotation. P. 658.

لم يكونوا فقراء يائسين ، فمن الذى حال بينهم وبين اللهو ؟ ومن الذى حرمهم الغنى والطموح ؟ لم تكن سياسة الأمويين سبباً فى حرمان أهل البادية ، ولم يكن الإسلام سبباً فى انصرفهم إلى أنفسهم يستخلصون منها نغمة حزينة زاهدة ، ويرسمون لأنفسهم مثلا أعلى يتمثل فى الزهد تارة ، وفى الحب العفيف والغزل العفيف تارة ، فإن الإسلام قد أكسبهم خيراً لم يكن لهم فى الجاهلية ، أكسبهم مالا ، وأكسبهم سمواً فى العقيدة ، وكفل لهم أمناً وعدالة . فأى حرمان هذا الذى جعلهم يوقعون على أوتار حزينة ، ويفرون من الحقائق الواقعة إلى مثل عالية متخيلة ؟ .

٣ — وهل كان الزهاد فى البادية أكثر عدداً من زهاد الحواضر ؟ لا ، لم يكن الأمر كذلك ، فإن الحواضر التى سمرت لياليها بالمجان واللاهين كانت تتجاوب فيها صلوات المصلين ، وضراعات العابدين ، وتوسلات الزاهدين ، ودروس الفقهاء والمفسرين والمحدثين .

فمنذ نشبت الفتنة بمقتل عثمان انصرف بعض المسلمين عن المشاركة فى الحياة العامة ، حفاظاً على دينهم أو تقيَّة ، واتجهوا إلى العبادة والورع والعزلة ، وقد تزايد عددهم بين سنة ٤٠ و ١١٠ هـ وبخاصة فى مكة والمدينة والبصرة والكوفة .

وحسبنا أن نذكر من مكة عكرمة وعطاء وابن أبى مُليكة ، وأن نذكر من المدينة أمثال سالم ونافع وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة وعروة ابن الزبير والزهرى .

وبحسبنا أن نمثل فى مواطن أخرى بسعيد بن المسيَّب ومحمد بن سيرين والربيع بن خثيم ومطرف بن عبدالله وأبى سالم الخولانى وأبى العالية وأبى حازم وبكر بن عبد الله المزنى ومحمد بن واسع وفرقد السنجى[1] .

بل إن المدينة ومكة كانتا عامرتين بالزهاد والعباد من قبل ذلك ،

---

(١) الطبقات الكبير وحلية الأولياء وصفوة الصفوة وغيرها .

كأبي ذر وسالم مولى أبي حذيفة وسلمان الفارسي وأبي الدرداء .

٤ — ثم إن الحب عاطفة اضطرارية لا اختيار فيها . فكيف يحاول البائس أن يتسلى عن بؤسه بحب يبحث عنه ؟ وهل الحب مسلاة يجتلبها الشخص اجتلابا لينفس بها عن نفسه ؟

٥ — على أننا نعتسف الطريق إذا حكمنا بأن بيئة الحجاز كانت كلها منصرفة عن السياسة يأساً من الوصول إلى الحكم أو من صلاح الحكام ، فإن هذه البيئة ناصرت علي بن أبي طالب ، ثم ناصرت عبدالله بن الزبير ، وناصبت البيت الأموي العداء إلى زمن بعيد في العصر الأموي (٧٣ هـ) .

وإذاً فلم يكن اللهو في الحجاز عاماً ليشغل الناس عن المشاركة في الصراع السياسي ، ولم يكن اليأس شديد الوطأة ، ليصرف الناس عن هذا الصراع .

٦ — على أن في تعليله تناقضا واضحا .

فقد علل لنشأة الغزل الحسي والعذري بأنه ثمرة لحياة الترف والغنى والثروة ويُسْر الحياة ووفرة اللذات ، مع أنه علل بهذا وحده في إحدى الفقرات لنشأة الغزل الحسي في مدن الحجاز ، وعلل لنشأة الغزل العذري بالحرمان واليأس والطموح إلى مثل أعلى .

فكيف يصدر الغزل العذري عن مصدرين متناقضين : تارة عن ثروة ولين وسهولة عيش ، وتارة عن فقر شديد ، ويأس مرّ ، وطموح إلى مثل أعلى يُعزّى عن الحرمان ؟ ويظهر أن الدكتور طه نسي ما علل به ، أو ذكره وهو يكتب مقالا آخر فلم يطمئن إليه ، لأنه عجب من نشأة الغزل العذري في البادية ، مع أن رجالها ونساءها — في رأيه — أقرب إلى الحياة المادية ، وأميل إلى الإباحية منهم إلى العفة والعذرية والتصون .

ولست أوافقه في وصف رجال البادية ونسائها بذلك ، ولست أوافقه على وصفهم بأنهم أجرأ على الإباحية من رجال الحواضر ونسائها ،

لأن حياة الحضر فى كل عصر هى الأقرب إلى المادية والإباحية ، ولأن البدو أحرص على التقاليد ، وأرعى للعرف ، وأشد نفرة من قالة السوء ، وأعظم حفاظا على أعراضهم ونسائهم .

وقد ذكر ابن خلدون أن أهل البادية أقرب إلى الخير من أهل الحاضرة ، ولم يخالفه فى هذا الدكتور طه حسين فى دراسته لآراء ابن خلدون الاجتماعية .

وهذه فقرات مما قال ابن خلدون[1] : «أهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها ، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك ، حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم ، فتجد الكثير منهم يقذعون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم ، لا يصدهم عنه وازع الحشمة . لما أخذتهم به عوائد السوء فى التظاهر بالفواحش قولا وعملا .

وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه فى المقدار الضرورى ، لا فى الترف ولا فى شىء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها . فعوائدهم فى معاملاتهم على نسبتها ، وما يحصل فيهم من مذاهب ومذمومات الخُلُق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير .. وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة نهاية العمران ، وخروجه إلى الفساد ، ونهاية الشر ، والبعد عن الخير » .

٧ — أما تعليله لنشأة الغزل الحسى فموضع نظر أيضاً ، لأننا نعلم أن الأمويين مدوا للفتيان من أشراف الحجاز فى اللهو ، وأغدقوا عليهم ، ليحولوا بينهم وبين الطموح إلى الحكم أو الاشتغال بالسياسة ، فكان ذلك باعثاً

(١) المقدمة ٢/٤١٤ تحقيق الدكتور على عبد الواحد .

على شيوع الغناء واللهو والحب الجسدى لا منشئاً لها ، فإن العبث واللهو والغناء والحب الجسدى والخمر والميسر وغيرها كانت من أشاغيل العرب فى الجاهلية ، يستوى فى ذلك البدو والحضر .

وإذاً فقد عرف الجاهليون هذا الغزل الحسى ، بل اشتهر به ثلاثة من شعرائهم كانوا أسبق إلى الافتنان فيه من عمر بن أبى ربيعة ، ولست أشك فى أن عمر قد قرأ شعرهم وحفظ كثيراً منه، بل لست أشك فى أنه تأثرهم فى كثير من مناحى قولهم ومعارض وصفهم(١) ، وإن كان عمر قد حبس شعره على هذا الضرب ، ولم يحبسوا ، هؤلاء الشعراء هم سُحَيْم والأعشى وامرؤ القيس .

٨ — وأما قوله إن الجاهليين لم يعرفوا هـذا الفن ، ولم يتذوقوه ، لأننا لا نعرف فى العصر الجاهلى شاعراً قصر شعره على الغزل ،وحياته على الحب والغرام ، ولكننا نرى فى العصر الأموى شعراء يتخذون الغزل صناعة وفنا ، لايعنون بسواه ، أما قوله هذا فمردود ، لأننا سنعرف فى شعراء الجاهلية من قصروا حياتهم على الحب ، وقصروا شعرهم على الغزل ، وسنجد فيهم من لم يتخذوا الغزل وسيلة إلى غيره من فنون الشعر .

ولنفرض أن هـــذا غير صحيح ، فإننا لا نوافق الدكتور على هذا الأساس الذى وضعه ، لأن من التعسف ألا نقضى بنشأة الغزل بنوعيه إلا إذا قيل فى قصائد مستقلة ، وإلا إذا قصر الشعراء شعرهم على قوله . ففى العصر الأموى نفسه لم يقصر من الغزلين شعرهم على الغزل إلا عمر ابن أبى ربيعة ، أما الآخرون فلم يحبسوا شعرهم على الغزل، فجميل بن مَعمر قال فى غير الغزل فافتخر ، وهجا ، ومدح (٢) . وكُثَيِّر عزة تشيع على

(١) سنعرض لهذا بالتفصيل فى الفصول القادمة .

(٢) الأغانى ٧/٧٤ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٦ .

مذهب الكيسانية ، ومدح بنى أمية (١) وابن قيس الرقيات ناصر الزبيريين بشعره السياسى ، ومدح بنى أمية وغيرهم (٢) .

وإذا كنا لا نقضى بنشأة الغزل إلا إذا قصر بعض الشعراء شعرهم عليه ، وإلا إذا قالوه فى قصائد مستقلة ، فإن القياس يقتضينا أن نطبق هذا على أبواب الشعر الأخرى من مدح وفخر وحماسة وهجاء ووصف وحكمة ،

وسنخرج من هذا القياس الصحيح بأن أى نوع من هذه لم يكن قد نشأ لا فى الجاهلية ولا فى العصر الأموى ولا فى العصر العباسى ، لأننا لا نعرف شاعراً حبس لسانه أو قلمه على واحد من هذه الأنواع ، ولأننا نجد فى قصائد المدح والهجاء وغيرهما غزلا كثيراً ووصفا كثيراً ، ونجد القصيدة الواحدة كثيراً ما تجمع ألوانا من الأغراض .

نحن إذاً أمام اثنتين لا ثالث لها : إما أن نتجاوز عن هذا الشرط الذى اشترطه الدكتور طه ، وإما أن نطبقه على أبواب الشعر كلها ، فننتهى إلى أنها لم تكن فى العصر الأموى ولا فى العصر العباسى .

٣ — رأى الأستاذ جِبْ

كذلك رأى الأستاذ جب Gibb أن الغزل نشأ فى العصر الأموى ، يقول : لقد وجد الشعراء فى البلاط الأموى استعداداً للترحيب بهم ، وفى قصور الأمويين صدح الشعراء بالشعر كما كان يصدح أسلافهم فى بلاط الحيرة وغسان ، ومضوا ينظمون القصائد فى مدح سادتهم الجدد ومدح أسلافهم وهجاء خصومهم ، وكان سادة هذا الفن الجديد — ذلك الذى لا يتصل بشعر ما قبل الإسلام لا فى الأسلوب ولا فى الطريقة — الأخطلُ وجرير والفرزدق .

وبدأت أولى خطوات التجديد فى جو التمدين المحيط بمكة . ومن

---

(١) الأغانى ٨/٢٦ ، ٢٨ ، ٣١ والشعر والشعراء ١٩٨ .

(٢) الأغانى ٥/٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ .

الجائز جداً أن هذا الوحى الجديد جاء من بلاد الفرس، وربما جاء أيضا من اليونان ، ولكن المهم فى الأمر أن النسيب — وهو لم يخرج عن أنه جزء من القصيدة — قد تطور فأصبح فنا قائما بذاته ، تقال فيه القصيدة كاملة . وهنا يُذكر عمر بن أبى ربيعة أو دون جوان مكة ، وينطوى شعره على رقة تختلف كل الاختلاف عن العواطف الجياشة البدوية التى تمتلىء بها قصائد امرىء القيس (١) .

مناقشة هذا الرأى :

١ — أسلفت فى الرد على الدكتور طه أنه من التعسف أن نشترط للحكم بنشأة الغزل قصر قصائد مستقلة عليه ، أو اقتصار الشعراء عليه لا يقولون فى غيره .

٢ — وسنرى فى دراسة خصائصه فى الجاهلية أن كثيراً من شعراء العصر الجاهلى قالوا الغزل فى قصائد كاملة ، فلم يتخذوه مقدمة وتمهيداً لغرض آخر ، وفى هذا غَناء ومقنع .

وفى شعراء الجاهلية من قصروا شعرهم على الغزل ، فلم يصلنا من إنتاجهم غيره مثل عروة بن حزام .

٤ — الرأى الذى أرتضيه

لم يبق شك إذاً فى أنى أخالف النظريات الثلاث ، وأغلب الظن أنه قد استبان من ردودى عليها ومناقشتى لها أنى أرجع بالغزل العذرى والحسى معاً إلى ما قبل العصر الإسلامى ، إلى العصر الجاهلى .

رأيى إذاً أن الغزل العذرى لم ينشأ فى العصر الإسلامى ، ولم يَصِر فنا مستقلا فى العصر الإسلامى ، وإنما نشأ ، وكان فنا مستقلا فى العصر الجاهلى .

---

(١) Arabic literature. Gibb. P. 30

ولكن هذا لا يمنعني من الإقرار بأن الحياة الإسلامية كانت مشجعة على عفة الحب وعذرية الغزل، لأن الإسلام نظم علاقة الرجال بالنساء، وحظر الاستجابة للغريزة الجنسية إلا من طريق الزواج، وحرّم البغاء — على ندرته في الجاهلية — وسما بالعقيدة والأخلاق، فكان منميا للحب العذري والغزل العذري لا منشئا لهما.

ولقد أعتمد في تعزيز هذا الرأي — زيادة على تفنيد الآراء السابقة — على عدة أدلة :

(ا) بين غزل الجاهلية والإسلام :

في غزل العذريين من الجاهليين ما في غزل العذريين الأمويين من صدق العاطفة وحرارتها ، والاقتصار على محبوبة واحدة ، والحفاوة بجمال المرأة النفسي أكثر من العناية بجمالها الجسدي ، وتحليل الشاعر لعواطفه في القرب والبعد ، والصد والوصل ، والأمل واليأس .

وهذا الغزل مقصود لذاته ، وليس وسيلة إلى غرض آخر في بعض الأحيان . ولقد يجيء في أوائل القصائد على صورة مقدمة لغرض آخر، لكن هذا لا يقلل من قيمته ، لأنه غزل صادق حار ، ولأن هذا الطابع كان هو الغالب على نظام القصائد في العصر الجاهلي .

(ب) بين العذريين في الجاهلية والإسلام :

حياتهم تشبه حياة العذريين الإسلاميين ، فقد استشهد بعضهم في حبه كما استشهد بعض العذريين في الإسلام .

وهم يشبهون العذريين الإسلاميين في أنهم يؤثرون سعادة حبيباتهم وهناءتهن وسلامتهن على سعادتهم وهناءتهم وسلامتهم ، وفي أنهم يأتون بعظائم الأمور مرضاة لهن ، واستجلاباً لإعجابهن . ثم يتشابه هؤلاء

وأولئك فى أن حياة الشاعر مصدقة لشعره ، وشعره مصدق لحياته ، فهو كما يقول تيوفيل جوتييه[1] :

« يسلم نفسه لحبيبته ، فلا يرى إلا بعينيها ، ولا يسمع إلا بأذنيها ، لأنه يرى الحياة فيها ، ويكون مستعداً لأكبر التضحيات وإنكار الذات ، ويحس أنه يتضاعف وهو يبذل » .

وسنعرض هذا بشىء من التفصيل فيما بعد .

(حـ) معاونة البيئة العربية للحب

كانت الحياة الجاهلية ملائمة للحب العذرى ، كما فُهم فى الإسلام ، فالبيئة موانية للحب كما قدمت ، والمرأة ذات مكانة رفيعة وذات جمال وجاذبية وسلطان على قلوب الرجال كما تبين هذا فى الفصل الذى درست فيه جمالها وتجملها ، وكان العرب غُيُراً على النساء ، حراصاً على عاداتهم البدوية التى تصون العرض ، وتحمى النساء من قالة السوء . ثم كان بعضهم يحب حباً عنيفاً حاراً لا يُبْرده وصل ولا أمل ، ومن هنا نشأ الحب العذرى ، لأنه كما يقول فرويد : « انحراف عن الغاية الجنسية ناشىء عن تعذر إشباعها وعن التسامى بها » ويقول مكدوجل : « إن تقدير المرأة وإكبارها أساس لبناء العلاقة الجنسية على الحب[2] » ولهذه الملاءمة أسباب ومظاهر عدة :

١ — عاش العرب فى بيئة غنية بالجمال المطبوع ، وإن حُرِمت كثيراً من ألوان الجمال المصنوع . فهنالك يبزغ القمر وضاح الجبين بساما ، ويبعث أشعته الفضية المدلج والساهر والسامر فيخلب لبه ، وتلتمع النجوم سوافر فى سماء أضحيانة تناغى وتناجى . وهنالك السكون الرهيب الباعث على التأمل ، والبراح الفسيح المتكشف ، والحرية المطلقة ،

---

(١) كيف تفهم الناس ١١٨ إبراهيم ناجى .
(٢) Introductiod to Social Psychology. P. 365

وتخفف الحياة من أشاغيل المدنية وضجيج الحضارة . هنالك ينفسح الوقت لأن يخلو الشاعر إلى نفسه ، وأن ينضّر حياته بالحب ، ويملأ فراغه بالتفكير فيمن يحب .

يقول استاندال : « منبع الحب الصادق ومقره الأصيل ربوع البدو وخيامهم ، لأن طبيعة الصحراء وعزلة البداة كانا السبب هنالك فى نشأة أسمى العواطف ، أقصد عاطفة الحب التى تضطر المحب إلى أن يتغنى بها فى شعره ليشرك الآخرين معه فى وجدانه ، فيشعر بالرضا والسعادة . ولا سبيل إلى هذا الحب العنيف إلا بأن يشعر الرجل أن المرأة المحبوبة تساويه فى مكانته ، وهذا الضرب من المساواة مفقود فى بلادنا الغربية[1] » .

٢ — والعربى حساس يأسره الجمال فيملق به ، ولا يلبث أن يصور مشاعره فى قصيد . فطالما أعجب بالسحاب الرُّكام ، وبالمطر المدرار ، والبرق الخاطف ، والرعد القاصف ، فتغنى هذا الإعجاب .

وطالما تغنى بناقته وفرسه ، وصور مناظر الصيد ، ومجارى الغدران ، وجمال الرياض .

استهوته الصحراء : رمالها وتلالها ووديانهـــا وغدرانها ورياضها وواحاتها وحيوانها وسرابها ومطرها وبرقها ورعدها ونجومها ، فتغنى بها فى شعره[2] .

لكن جمال المرأة أغلى أفانين الجمال ، لأنه الجمال الحى الواعى الذى لا ينضب الإعجاب به ، إذ كانت المرأة الجميلة ومازالت تجمع أفانين الجمال ، وترمز إلى ما فى الطبيعة من فتون وإبداع ، ثم إن المرأة حلوة الحديث عذبة العشرة ، يجد فيها جليسها ماينشده من هدوء وصفاء وسكن . وقد كانت المرأة العربية ذات جمال جسدى وروحى كما سبق ، فلا جرم كانت

---

(١) De l'Amour. Stendal. Paris 1938. P. 211.

(٢) راجع كتابى (أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى) .

جمالها ذا سلطان على الرجال ، ولاجرم أن أحبوها ، وأكثروا الغزل فيها ، قال عمرو بن معد يكرب فى سلطان جمال المرأة :

والغانيات يُقتلنَ الرجال إذا ضَرَّجن بالزعفران الرَّيط والنُّقبا
إن الغوانى قد أهلكننى تعباً وخلتهن ضعيفات القوى كذبا (١)

وقد قيل لعذرى : « ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تماث كما ينماث الملح فى الماء ؟ أما تتجلدون ؟ » فقال : « إننا ننظر إلى محاجر أعين لاتنظرون إليها (٢) » .

٣ — وكانت المرأة العربية ذات مكانه رفيعة فى البيئة العربية ، فطالما تقرب الشعراء إليها ، وخطبوا ودها ، وطالما شجّع الرجال وكرموا مرضاة لها ، وطالما أشهدها الأبطال على بلائهم ومفاخرهم كما سيجىء ، وعرف العرب لها قدرها ، حتى لقد وزنها جنامة بن عقيل بن عاتفة بالرجال :

أيعذِر لاحينا ويَلحَينَ فى الصبا وما هن والفتيان إلا شقائق (٣)

وفى أمثالهم : « إن النساء شقائق الأقوام » والشقائق جمع شقيقة وهى كل ما يشق اثنين ، وأراد بالأقوام الرجال ، ومعنى المثل أن النساء مثل الرجال ، وشققن منهم ، فلهن مثل ما عليهن من الحقوق (٤)

ومامن شك فى أن هذه المكانة التى للمرأة مضافة إلى العوامل الأخرى ، من بواعث حب الرجل لها ، لأن الحب عاطفة يمازجها الإعجاب والاحترام ، والمرأة الممتهنة ليست أهلا لأن يتقرب إليها الرجال . لذلك يقول العلامة

(١) الأغانى ١٤/٣٧ وفى الأصل النيط بدل الريط .
(٢) عيون الأخبار ٤/١٣١ .
(٣) معجم البلدان ٤/١٤٦ يعجب من أن يعذرهم لائموهم فى الحب ثم لا تعذرهم المحبوبات
(٤) مجمع الأمثال للميدانى ١/٢٦ .

مكدوجل : « إن تقدير المرأة وإكبارها أساس لبناء العلاقة الجنسية على الحب (١) » .

ويكفى للدلالة على علو قدر المرأة فى العصر الجاهلى أن أرسم لها صورة عجلى كأنها المعالم إلى الطريق (٢) » .

(ا) كانت تتمتع بحق الملكية والتصرف فيما تملك ، ويلاحظ أننا بصدد تملكها لا بصدد طريقة هذا التملك ولا بصدد حقها فى الميراث (٣)

وحقيقة كانت القبيلة تتكون من المحاربين فحسب ، ولكن النسب إلى القبيلة شيء وحق الملكية شيء آخر . وقد غفل المؤرخون العرب عن هذه التفرقة وقالوا : إن النساء والأطفال ماكانوا يرثون ، فهل هذا صحيح ؟

إننا نميل إلى الشك فى ذلك ، فقد كثر ذكر الوصاية على اليتامى فى القرآن الكريم وأحاديث الرسول ، ومعنى ذلك أن لهم مالا ورثوه (٤). وظل حق المرأة فى الامتلاك والتصرف فى ملكها إلى أواخر عصر ماقبل الإسلام وعلى الأخص فى مكة (٥) .

وأوضح مثال على ذلك السيدة خديجة ، فقد كان لها مال ومتاجر ، وكانت تستأجر رجالا من قريش ليتاجروا لها . وقد تاجر لهـــا النبى صلى الله عليه وسلم فى اليمن وفى الشام ، وتقاضى أجره منها أربع بكرات فى رواية ، وقلوصين فى رواية أخرى (٦).

وفى القرآن الكريم مايدل على هذه الملكية وعلى حق التصرف فيها:

---

(١) Introduction to Social Psychology, P, 365

(٢) راجع المرأة فى الشعر الجاهلى .

(٣) Muslem law An Historical introduction to The Law of inheritance by Russell and Suhrawardy, P, 29—30

(٤) المرجع السابق ٢٧/ ٢٨ (٥) المرجع السابق ٢٤ :

(٦) إنسان العيون ٢/ ١٤٧ — ١٥٢ .

« يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة [١] » ويقول الطبرى فى تفسير الآية إن ابن المتوفى أو قريبه كان أحيانا يعضل زوجته فيمنعها من زواج غيره حتى تموت أو ترد إليه صداقها لتفتدى به [٢].

ويذكر الزمخشرى فى تفسير الآية أن الرجل كان إذا تزوج امرأة ولم توافقه حبسها مع سوء العشرة والقهر لتفتدى منه بمالها وتختلع [٣]. وسواء أكان هذا أم ذاك فإن للمرأة مالا ، وإن لها أن تتصرف فى هذا المال .

وقد اختلعت بنت عامر بن الظرب من زوجها فى الجاهلية [٤] .

وملكية المرأة صريحة فى قول حاتم الطائى لزوجته .

تلوم على إعطائى المال ضِلَّةً   إذا ضنّ بالمال البخيل وصرّدا

تقول ألا أمسك عليك فإننى   أرى المال عند الممسكين معبَّدا

ذرينى ومالى إن مالك وافر   وكل امرىءٍ جارٍ على ماتعوّدا [٥]

وإذا كانت المرأة قد حُرِمت الميراث فى العصر الجاهلى [٦] ، فقد كانت هنالك طرق أخرى الملكية كالتجارة والوصية والهبة والهدية ، وبذلك كانت المرأة العربية خيراً من الرومانية ، لأن زوج المرأة الرومانية كان هو الذى يملك مالها ، ويقيم عليها وصياً قبل موته (٧) ، فهى محرومة حق الملكية وحق التصرف فيها .

---

(١) سورة النساء   (٢) تفسير الطبرى ٤/٢٠٧ — ٢٠٩ .

(٣) الكشاف ١/١٩٧   (٤) عيون الأخبار ٤/٧٦ وبلوغ الأرب ٢/٥٣ .

(٥) ديوان حاتم ٨ وشعراء النصرانية ١٢٠ .

(٦) تفسير الطبرى ٤/٧٦ ، ٨٥ و ٥/١٩١ — ١٦٩ والكشاف ١/١٩٠ والنيسابورى ٤/١٩٥ .

(٧) المرأة فى العصور لأحمد خاكى ٢٥ — ٣٠ .

وكانت أيضاً خيراً من المرأة الانجليزية ، لأنها لم تملك إلا فى عام ١٨٨٢ م ، مع أنها كانت تؤدى أعمالا مضنية ، ولكن أباها أو زوجها هو الذى يستولى على أجرها (١) ، فهى أيضا لا تملك ولا تتصرف . وما زالت المرأة الفرنسية إلى اليوم محرومة حق التصرف المنفرد فى ملكها .

(ب) على أنها إلى حقها فى التملك والتصرف فى ملكها كانت كثيراً ما تستشار فى زواجها ، فمثلا خطب دريد بن الصمة الخنساء وألح عليها أخوها معاوية أن تقبله زوجا فرفضت (٢) ، واستشار علقة بن حفصة ابنته الزباء لما خطبها الحارث بن سليل (٣) ، وكذلك فعل أوس بن حارثة الطائى لما خطب إليه الحارث بن عوف (٤) ، وتخيرت ماوية بنت عفزر حاتماً الطائى من خطابها الثلاثة (٥) .

(ح) وكانت الزوجة تستمتع بمشاركة زوجها فى شئونه ، وينصاع إلى مشورتها ، فقد رفض أوس بن حارثة أن يجيب الحارث بن عوف إلى خطبته ، ثم حملته زوجته على أن يقبل فاستجاب لها (٦) ، وكذلك فعل غيره (٧) ، وأطاع الحطيئة زوجته فقعد عن سفر (٨) .

(ى) وكانت المرأة تشارك الرجال فى الحياة العامة ، فقد اشتركت عاتكة بنت مرة — زوجة عبد مناف بن قصى وأم هاشم والمطلب وعبدشمس — فى حلف الأحابيش (٩) ، ويقرب من هذا ما صنعته بعد

---

(١) المرأة فى العصور ٩٤ .
(٢) الأغانى ٩/١١ والأمالى ٢/١٦١ والشعر والشعراء ١٢٢ وعيون الأخبار ٤/٦
(٣) المحاسن والأضداد ١٨٣ وجمهرة الأمثال ٧٠ ومجمع الأمثال ١/١١٠ .
(٤) الأغانى ٩/١٤٢ وجمهرة الأمثال ١٨٣ .
(٥) الأغانى ١١/١٠٤ والشعر والشعراء ٧٢ وجمهرة الأمثال ١٥٤ .
(٦) الأغانى ٩/١٤٢ .
(٧) مجمع الأمثال للميدانى ٢/٢٦٣ .
(٨) الأغانى ٢/١٧٧ (٩) تاريخ اليعقوبى ١/٢٧٩ .

ذلك فى حلف المطيبين أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب[١] .

(هـ) وكانت تجير كما يجير الرجال ، فيمتنع من تجيره من الأذى والعدوان ، فقد أجارت سبيعة بنت عبد شمس[٢] ، وأجارت أم هانىء بنت عبد المطلب اثنين من أحمائها يوم فتح مكة (٣) ، وأجارت زينب بنت الرسول عليه الصلاة والسلام زوجها أبا العاص يوم بدر فأُطلق بغير فداء ورُد عليه ماله (٤) ، وأجارت امرأة من دوس جماعة من قريش فأمضى الدوسيون إجارتها (٥)، وأجارت ريطة بنت جِذْل الطعان دريد ابن الصمة حين أسرته كنانة (٦) .

(و) وكانت تشارك فى الحياة الأدبية ، فتنافس الرجال فى قرض الشعر ، كالخنساء ، فقد أنشدت النابغة بعكاظ بعد الأعشى وحسان ابن ثابت وغيرهما فأعجب بشعرها وقال لها : لولا أن أبا بصير — يعنى الأعشى — أنشدنى آنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، ثم فضلها على حسان[٧] . واحتكم امرؤ القيس وعلقمة إلى أم جندب زوجة امرىء القيس فأنشداها قصيدتين (٨) .

(ز) وكانت العصمة أحيانا بيد الزوجات ، يطلقن رجالهن متى شئن ، والأمثلة على هذا كثيرة[٩] .

(ح) وكان العرب حراصاً على كرامتها وإعزازها والضن بها ، حتى لقد تنشب حرب من جراء امتهانها ، كما حدث فى اليوم الثانى من أيام

---

(١) سيرة ابن هشام والتعليق عليها ١/١٤٣ وتاريخ اليعقوبى ١/٢٨٧ ، ٢/١٠ .

(٢) الأغانى ١٩/٧٩ — (٣) سيرة ابن هشام وفتح البارى ٨/٣٧ .

(٤) الإصابة ٨/٩١ — (٥) الإصابة ٨/٢٦٥ .

(٦) الأمالى ٢/٢٧١ — ٢٧٣ — (٧) الأغانى ٩/١٥٦ ساسى .

(٨) الأغانى ٢١/١١٢ .

(٩) الأغانى ١٦/٩٩ ، ١٠٢ وأخبار النساء لابن القيم ٥٤ والمحبر ٣٩٨ وذيل الأمالى ١٥٣ والامثال ١/٢١٨ ومعجم البلدان ٦/٣٠٧ .

الفجار الأول ، إذ اعتدى شباب من قريش وكنانة على إمرأة من بنى عامر فثار العامريون وقتلوا بنى كنانة[١] . وكما حدث بين اليمنيين وبين ربيعة ومضر ، إذ اعتدى لبيد بن عتبة الغسانى على زوجته عمرة بنت الحباب من تغلب ، وتنقص من قدر كليب بن ربيعة التغلبى ، فاقتتل الفريقان وانهزم اليمنيون[٢] .

(ط) وكانت تشترك مع الرجال فى الحروب فى الجاهلية[٣] ، بل قادت المحاربين فى ذلك العصر كما فعلت أم قرفة فى الجاهلية ، وكما فعلت هى وابنتها سلمى فى حرب الردة[٤] ، وكانت تحرض على الثأر ولا تقر حتى تشفى غليلها[٥] .

واحتفظت بهذه المشاركة فى الحرب وبالتحريض على الثأر فى صدر الإسلام[٦] . وهذه المرأة التى كانت قديرة على إشعال الحرب وتأريثها والاصطلاء بحرها كانت قديرة أيضاً على نشر لواء السلام وحقن الدماء ، كما فعلت بُهَيسة بنت أوس الطائى إذ حملت زوجها الحارث بن عوف على أن يصلح بين عبس وذبيان قبل أن يدخل بها — وهى عروس — فصدع بمشورتها وأصلح بين الحيين ، وتحمل ديات القتلى[٧] .

وليس من موضوعى أن أتبسط فى بيان مركز المرأة فى الحياة

---

(١) الأغانى ١٩/٧٤ .
(٢) المرأة العربية ١/٥٩ وبكر وتغلب ١٥/٢٥ .
(٣) المعارف لابن قتيبة ٢٨٠ وديوان بن الخطيم ١٤ وديوان حسان ٩٣ وشعراء النصرانية ٢٤١ وأيام العرب ١٣٢/١٦٢ .
(٤) تاريخ الطبرى ٣/٢٣٤ وتاريخ اليعقوبى ٢/٧٤ وسيرة ابن هشام ٤/٢٩٠ .
(٥) أشعار النساء للمرزبانى ٥٧ ومجمع الأمثال للميدانى ٢/٢٠٢ وديوان الخنساء ١٠٦ وحماسة البحترى ٣٣ والأمالى ٢/٢٢٦ وبلاغات النساء لابن طيفور ١٦٧ .
(٦) الإصابة ٨/٨ ، ٨٠ ، ١٩٩ ، ٢٣٥ وتاريخ ابن الأثير ٢/٦١ وألف باء للبلوى ٢/٢١٠ وسيرة ابن هشام ٣/٦ ، ١٣ و ٤/٧٥ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٩ ، ٣٦٦ والتمدين الإسلامى ٣/٥٤ ، ١٤٧ و ٥/٥٧ .
(٧) الأغانى ٩/١٤٣ .

الجاهلية ، فإن لهذه الدراسة كتابا آخر (المرأة فى الشعر الجاهلى) ، ولكن هذا لم يمنعنى من أن ألم بمكانة المرأة فى العصر الجاهلى إلماماً تاماً مجملا .

وقد اعترف لها بمكانة عالية رَسِل Russell كما مرّ ، كما اعترف لها المستشرق الإنجليزى نيكلسون Nicholson فى قوله : « كان مركز المرأة ونفوذها فى الحياة الاجتماعية قبل الإسلام عالياً وعظيما ، فقد كانت النساء حرات فى اختيار أزواجهن وكن يستطعن العودة إلى ذويهن إذا أسيئت معاملتهن ، وفى بعض الحالات كن يهبن أنفسهن للزوج ، وكان لهن حق الطلاق ، ولم يكن يعتبرن عبيداً أو سرارى ، بل أنداداً ورفيقات ، وكن يلهمن الشعراء لينشدوا ، والمحاربين ليقاتلوا .

ولعل فروسية العصور الوسطى متأثرة بحياة العرب فى الجاهلية . وقد جاء بكتاب الليدى آن ومستر ويلفرد بلات المسمى « القصائد الذهبية فى العصر الجاهلى » بالمقدمة ص ١٤ هذه الفقرة : كانت الشهامة والخروج بالخيل بحثا عن المغامرات وإنقاذاً للعذارى من السبى ، ومساعدة للنساء اللائى نزل بهن الضيق . كانت هذه فضائل عربية وأعمالا مجيدة يتحلى بها الفارس ، ذلك الرجل النبيل الأصل[1] ، ثم شرع نيكلسون يذكر بعض شهيرات النساء ويعرض مواقفهن المشرفة .

٤ — وكانت المرأة العربية — إلى جمالها الجسدى والروحى الذى تحدثت عنه فى الجمال والتجمل — ناقدة لبقة راوية للشعر ، وحَسْبُ الشاعر الغزل أن يجد هذه التى تجاوبه ، وتدرك نفثاته وخلجاته ، وتفهم قيمة الدر الذى ينظمه إعجاباً بها وشوقاً إليها . وأخبارهن فى ذلك كثيرة ، منها أن الفارعه بنت أبى الصّلت أنشدت النبى ﷺ بعد غزوة الطائف قصائد من شعر أخيها أمية ، إحداها القصيدة التى مطلعها :

---

(١) Aliteary History of the Arabs. Nicholson. P. 87-92.

باتت همومى تَسْرِى طوارقها   أَكُفُّ عينى والدمع سابقُها[١]

وكانت ريّا بنت مسعود بن رقاش حبيبة الصمة بن عبد الله بن مسعود ابن رقاش تتذاكر معه الشعر[٢] ثم كان ذلك فى الإسلام أيضاً ، فان قيس بن الملوح جلس يحدث نسوة فيهن ليلى ، ويروى لهن شعرا ، فأحب ليلى وأحبته[٣] .

• — كثيراً ما كان الفتيان يخالطون قريباتهم وبنات أعمامهم ، وكثيراً ما كانوا ينشئون معاً فى بيت واحد ، فإذا ما كبر الفتى ونضجت الفتاة تحابا ، كما أحب عروة بن حزام عفراء بنت عمه[٤] ، وكما أحب الصمة بن عبد الله بن مسعود بن رقاش ريا بنت مسعود بن رقاش[٥] ، وكما أحب المخبَّل القيس ليلى بنت عمه[٦] ، وأحب المرقش الأكبر بنت عمه أسماء[٧] وكان الفتيان يحادثون ويخالطون غير القريبات ، فى مضارب الخيام وفى الفضاء وفى الترحال وفى رعى الأغنام ، ولقد يلد هذا الخلاط حباً ، كما أحب قيس بن الملوح ليلى — فى العصر الاسلامى — وهما يرعيان الغنم معاً ، يدل على ذلك قوله[٨] :

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابة   ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم ياليت أننا   إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

ظروف الحياة إذا ملائمة للمخالطة ، مَدعاة إلى المحادثة ، وربما أنشأت المخالطة حبا ، لهذا كان أهل الفتاة يخشون ما وراء هذا الحديث فيحاولون

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨ / ١٥٦
(٢) تزيين الأسواق ٩١ .
(٣) الأغانى ٢ / ١٢ ، ٤٢ .
(٤) الأغانى ٢٠ / ١٥٢ والشعر والشعراء ٢٣٧ والأمالى ٣ / ١٥٧ والنوادر ١٥٧ .
(٥) تزيين الأسواق ٩١   (٦) الأغانى ٢١ / ١٦٠ .
(٧) الأغانى ٥ / ١٨٠ والشعر والشعراء ٥٤ .
(٨) الأغانى ٥ / ١٨٠ .

أن يمنعوه ، وربما لا يستجاب لهم . كان القتال الكلابى يتحدث إلى ابنة عم له اسمها العالية ، فرآه أخوها فنهاه ، وحلف لئن رآه ثانية يتحدث إليها ليقتلنه ، فلما كان بعد ذلك رآه عندها ، فأخذ السيف ، وبصر القتال به ، فخرج هاربا(۱) .

وعلم الإصبع بن منحصن بحب مالك بن الصمصامة لأخته جنوب ، فآلى يمينا لئن عرض لها أوزارها ليقتلنه ، ولئن عرض بها فى شعره أو ذكرها ليأسرنه ، ثم لا يطلقه حتى يجز ناصيته فى نادى قومه ، فبلغ ذلك مالكا فقال :

فما الحلق بعد الأسر شر بقية ... من الصد والهجران وهى قريب
أحقا عباد الله أن لست خارجا ... ولا والجا إلا على رقيب
ولا زائرا وحدى ولا فى جماعة ... من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبة فى أن تحن نجيبة ... إلى إلفها أو أن يحن نجيب(۲)

ولقد يبيحون الحديث ثقة بعفة الرجال والنساء ، وكرامة أنفسهم عليهم . قال سويد بن أبى كاهل اليشكرى :

تسمع الحداث قولا حسنا ... لو أرادوا غيره لم يستمع(۳)

فلم يكن الحديث محظورا دائما ، وإنما كان يباح كثيرا لما يرون من النقص فى الريب ، ويأخذون أنفسهم بحفظ الجيران ، وما يعرف بعضهم عن بعض من الوفاء والتحرز من العار(٤) .

وقد روى أن سبب حب قيس بن الملوح لليلى أنه جلس يحدث نسوة

(۱) الأغانى ۲۰/۱٥۹
(۲) الأغانى ۱۹/۸۳ .
(۳) المفضليات ۱/۱۹۰
(٤) أخبار النساء لابن القيم ۸٦

وفيهن ليلى ويقص عليهن شعراً فأعجب ليلى وأعجبته (١) .

وطالما تغنى الشعراء بعذوبة حديث النساء وسحره ، ووصفوه بالجد والحياء والعفة كما سيجيء في حديث المرأة ، وهذا أدعى إلى تعلق الفتى بالفتاة ، وإعجابه بنبلها . قال عدى بن زيد :

هيَّجَ الداءَ فى فؤادك حُورٌ ناعماتٌ بجانبِ المِلْطاط

آنسات الحديث فى غير فحش رافعات جوانب الفُسْطاط (٢)

ولقد يجر الحديث إلى مجالسة ومؤانسة قال حسان :

ولقد تجالسنى فيمنعنى ضيق الذراع وعلَّةُ الخَفَرَ (٣)

ولقد يلتقى المتحابون فيتباثون الشكوى ، وينفض الشاعر ما بدِخلته أمام محبوبته ، ويسكب فى سمعها وقلبها من رُقَى شعره ، ثم لا يزيد على ذلك . قال محمد بن يحيى المدنى : « سمعت عطاء يقول : كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها يفرح إن رأى من رآها . وإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار ، فاليوم يشير إليها وتشير إليه ، فإذا التقيا لم يشكوا حبا ولم ينشدا شعرا ، وقام إليها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة وأصحابه (٤) .

٦ — وكانت النساء والرجال يجتمعون طوافهم بالأصنام ، يدل على ذلك قول الأزهرى : الدوار صنم كانت العرب تنصبه ويجعلون حوله موضعاً يدورون به ، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار ، ومنه قول امرئ القيس :

فَعَنَّ لنا سِربٌ كأن نعاجه عذارى دَوارٍ فى مُلاء مُذَيَّل

---

(١) الأغانى ٢/١٢ ، ٤٢ .

(٢) معجم البلدان ٨/١٤٩ الملطاط : طريق على ساحل البحر .

(٣) ديوان حسان ٤٤ (٤) أخبار النساء ١٨ .

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالكعبة (١) . ويرى هشام بن محمد الكلبي أن الدوار هو الطواف بالأصنام والأوثان والحجارة الغبر المنصوبة (٢) .

وسواء أكانت اللغة قد أطلقت الكلمة على صنم أم على موضع الطواف به . أم على الطواف نفسه . فإن بيت امرىء القيس يكشف عن صلة بين العذارى والطواف بالأصنام .

ولا بد أن الطائفات بالأصنام والأوثان والأنصاب كن يتخذن زينتهن ، ويطفن فى رشاقة ودلّ فيصبين الرجال . يدل على ذلك قول عامر بن الطفيل — وقد أتى أخواله غنى بن أعصر يوماً وهم يطوفون بنصب لهم ، فرأى فى فتياتهم جمالا وهن يطفن بالنصب — :

ألا ياليت أخوالى غَنِيًّا ... عليهم كلما أمسوا دَوار (٣)

وكان المحب يمنى نفسه أن يلق حبيبته فى الدوار إذا كانت حاله لا تتيح له أن يلقاها فى غيره، يقول الحادرة : إن سمية هجرتنى وحرمتنى أن أراها، وليس لى أن أرجو لقاءها إلا فى يوم الدوار ، على أنى فى شك من لقائها فى هذا اليوم :

أمسَتْ سُمَيَّةُ صَرَّمت حبلى ... ونأت وخالف شكلها شكلى
ورجاؤها يوم الدَّوار كما ... يرجو المقامر نيلَةَ الخَصْلِ (٤)

---

(١) تاج العروس مادة (دور) وفى القاموس المحيط : الدوار مثل كتان وتضم الدال أيضاً وبتخفيف الواو أيضا : الكعبة وصنم . وقد شبه إناث البقر الوحشى فى مشيها وطول أذنابها بجوار يدرن حول الصنم وعليهن الملاء الطويل المهدب .

(٢) الأصنام ٣٣و٤٢ (٣) الاصنام ٤٢ .

(٤) ديوان الحادرة ١٤ نيلة الخصل : نيل الغلب، أى كما يرجو المقامر أن يغلب خصمه لان الخصل أن يقع السهم بلزق القرطاس . وأحرز خصله أى غلب .

٧ — على أن الأسواق الكبرى ومواسم الحج فى الجاهلية كانت مشاهد يفد إليها العرب من كل فج عميق ؛ ليشهدوا منافع لهم ، ومن طبيعة المرأة أن تأخذ زينتها فى هذه المواطن ، فيراها الفتيان فيعلقون بها ، قال قيس بن الخطيم :

وعهدى بها أيام نحن على مِنى   وأحسِنْ بها عذراء ذات ذوائب (١)

وقد بقى موسم الحج والاجتماع مثاراً للحب والغزل إلى الإسلام ، وهو عصر تصوُّن أكثر من العصر الجاهلى ، فقد روى فى سبب حب جميل لبثينة أنه : « خرج فى يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزَّين ويبدون للرجال فى كل عيد ، فرأى بثينة وأختها أم الحسين فى نساء من بنى الأحبِّ فأعجبنه ، وعشق بثينة (٢) » .

وانتهز قيس بن الملوح فرصة الحج ليرى ليلى ، فرآها وأطال النظر إلى بنانها المخضوب وهى تقذف الجمار :

فلم أرَ ليلى بعد موقف ساعة   بخَيف مِنًى ترمى جِمار المحصَّب
ويبدى الحصا منها إذا قذفت به   من البُرد أطراف البنان المخضَّب (٣)

وأفاض عمر بن أبى ربيعة فى ذكر موسم الحج ، وكان ربيعاً لغزله ، فقد أبصر حسناء مَرَّة بين المقام والحجر :

أبصرتهـا ليـلة ونسوتَها   يمشين بين المقـام والحجر
بيضاً حساناً نواعماً قُطُفا   يمشين هَوْناً كمشية البقر (٤)

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ١١ .
(٢) الأغانى ٧/ ٦٧ .
(٣) الأغانى ٢/ ٢٠ المحصب : موضع رى الجمار بمنى .
(٤) الأغانى ١/ ١٧٠ قطف : قريبات الخطا .

وأبصرها مرة ترمى الجمار :

فلقيتها تمشى بها بَغَلاتها ترمى الجمار عَشِيَّةً فى موكب[١]

لهذا يحب عمر موسم الحج ، فيقول :

حبذا الحج والثريا ومن بالـ ـخَيفِ من أجلها ومُلْقى الرِّحال[٢]

وكذلك كان موسم الحج عند عبيد الله بن قيس الرقيات، فقد حجت رقية بنت عبد الواحد العامرية ، فطافت ليلة بالبيت ، ثم أهوت لتستلم الركن الأسود وقبلته ، وكان من ورائها عبيد الله ، فأهوى يستلم الركن الأسود ويقبله ، فصادفها قد سبقت إليه ، فنفحته بردنها فارتدع . ثم قال لصاحبه فند : من هذه ؟ فقال له : إنها رقية ، فقال :

من عذيرى ممن يضن بمبذو ل لغيرى عند الطواف

وقال أيضا :

سائلا فِنداً خليلى كيف أزدانُ رقَيَّه
إننى عُلقت خَوْداً ذات دَلٍّ بَخترِيه[٣]

٨ — وكانت الأديار فى العصر الجاهلى كثيرة ، وكان العرب على صلة بها وكانت ينبوعاً آخر للحب .

منها دير هند الصغرى — بنت النعمان بن المنذر — بالحيرة[٤] ، ودير هند الكبرى — بنت هند أم عمرو بن هند — بالحيرة أيضا[٥] ، ودير سعد[٦] ، ودير عمرو بجبال طيء ، وقد ذكره زهير[٧] والأخطل

---

(١) الأغانى ٢٠١/١ (٢) الأغانى ٢١٣/١ .
(٣) الأغانى ٩٦/٥ . بخترية : حسنة المشى والجسم مختالة .
(٤) معجم البلدان ١٨٢/٤ (٥) المعجم ١٨٣/٤ .
(٦) المعجم ١٤٦/٤ (٧) المعجم ١٥٩/٤ .

يذكر دير لُـبّى على جانب الفرات[١] ، وبالحيرة أيضا دير الُّلج بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس[٢] ، وبها دير حنظلة الطائى وكان قد نسك فى الجاهلية وتنصر وبنى هـذا الدير[٣] ، ودير حَنـّه بناه المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم بنو ساطع[٤] ، ودير عبد المسيح بن عمرو ابن بقيلة الغسانى وهو الذى صالح خالد بن الوليد لما غزا الحيرة[٥] ، وبالقرب من الموصل دير العذارى ، سمى بذلك لأن به نساء عذارى قد ترهبن وأقمن للعبادة[٦] . ولم يكن الدير محبسا للزهادة والعبادة فحسب بل كان مشربا للخمر المعتقة ، ومجلسا محببا للندامى ، قال عدى بن زيد فى دير علقمة بالحيرة :

نادمت فى الدير بنى عَلْقَمَا   عاطيتُهم مَشمُولةً عَنْدَما
كأن ريح المسك من كأسها   إذا مزجناها بماء السما
علقمُ ما بالُك لم تأتِنا   أما اشتهيت اليوم أن تَنعما؟
من سره العيش ولذاته   فليجعل الراح له سُلّما[٧]

وكان الدير أيضاً مبعث حب وغزل ، فإن الفتيات يشخصن إليه زائرات مزدانات، فيسبين قلوب الفتيان، قال أبو دؤاد الإيادى لصاحبه :

بل تأمّلْ وأنت أبصرُ منى   قَصدَ دير السوَا بعينٍ جليةْ
لمن الظعن بالضحا واردات   جدولَ الماء ثم رُحْن عَشيةْ

(١) معجم البلدان ٤/١٦٧
(٢) معجم البلدان ٤/١٦٧ .
(٣) معجم البلدان ٤/١٣٤
(٤) معجم البلدان ٤/١٣٥ .
(٥) معجم البلدان ٤/١٥٤
(٦) معجم البلدان ٤/١٥٦ .
(٧) معجم البلدان ٤/١٥٨ مشمولة : خمر عرضت لريح الشمال فبردت . العندم : دم الأخوين والبقم (وهو شجر أحمر اللون يصبغ بطبخه) والمراد أن الخمر حمراء .

مظهرات رَقْماً تُهـال له العيـ ... ـن وَعَقْلاً وعَقْمةً فارسيه (١)

وقيل فى دير اللج إنه حبيب إلى القلب ، يحل به غزال جميل حلو النغم ، إذا رجع الإنجيل وتمايل سبى واجتذب وهاج الحنين :

سقى الله دير اللجِّ غيثا فإنه ... على بعده منى إلى حبيب
يُهيِّج ذكراه غزالٌ يَحُلُّه ... أغنُّ سَحور المقلتين ربيب
إذا رجَّع الإنجيلَ واهتز مائدا ... تذكر محزونٌ وحنّ غريب
وهاج لقلبي عند ترجيع صوته ... بلابل أسقام به ووجيب (٢)

ويقول ورد بن الورد الجعدى فى دير حبيب :

وإن مرّ ركبٌ مُصْعِدون فقلبه ... مع الرائحين المصعدين خَبِيبُ
سل الريح إن هبت شمالاً ضعيفة ... متى عهدها بالدير دير حبيب
متى عهدها بالنَّوْفَلِيَّاتِ حبذا ... شواكل ذاك العيش حين يطيبُ (٣)

وطالما جرع عبد المسيح بن بُقَيْلة مرارة من حب عاق به من دير الجرعة بالحيرة من حسناء زائرة للدير لا راهبة :

---

(١) معجم البلدان ٤/ ١٥٠ الرقم : ضرب مخطط من الوشى أو الخز أو البرود . العقل : ثوب أحمر يجلل به الهودج أو ضرب من الوشى . العقمة : بفتح العين وكسرها المرط الأحمر أو كل ثوب أحمر ، وبالكسر الوشى .

(٢) معجم البلدان ٤ / ١٦٧ سحر المقلتين : شديد سحرهما . ربيب : مربوب معتنى به . وجيب : خفقان .

(٣) معجم البلدان ٤/ ١٣٢ ولم يعرف ياقوت موضع هذا الدير . وفى البيت الثانى إقواء . خبيب : الخبيب ضرب من العدو . النوفليات : شيء من صوف تختمر عليه نساء العرب ، والمراد هنا النساء . شواكل : مذاهب وطرق .

كم تجرعت بدير الجرعه   غصصاً كبدى بها منصدعه
من بدور فوق أغصانٍ، على   كُثُبٍ زُرْنَ احتساباً بِيعه[(١)]

والقد تجمع الحبيبة بالدير، وعجبا يقضى الليل أرِقاً، قال المرّار الفقعسى:

أحقًّا يا حريزُ الرهنُ منكم   فلا إصعاد منك ولا قُفولا
أصيح إذا هجعت بدير تُوماً   حمامات يَزِدْنَ الليل طولا
إذا ما صحن قلت : أحسُّ صبحاً   وقد غادرن لى ليلاً ثقيلا
خليليّ اقعــدا لى عللانى   وصُدّا لى وسادى أن يميلا[(٢)]

وكان سبب عشق عدى بن زيد لهند بنت النعمان بن المنذر أنه رآها فى خميس الفصح تتقرب فى البيعة ،فوقعت فى نفسه ، ثم قصدت بيعة توما بعد ذلك فتبعها[(٣)] ثم تحابا ، وتزوجها . والأديار والحانات كثير جداً ، وفيها شعر كثير[(٤)] .

٩ — ثم كانت هنالك مجالس للغناء مشهودة ، وطالما تغنى الشعراء بجمال القيان ، كقول طرفة :

ندامای بيض كالنجوم وقَينَةٌ   تروح علينا بين بُرْدٍ ومُجسَدِ
رحيبٌ قِطابُ الجيب منها رفيقةٌ   بجَس النَّدامى بَضَّةُ المتجرَّدِ
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرَتْ لنا   على رِسلها مطروفةً لم تَشدَّدِ

---

(١) معجم البلدان ٤/١٣١   (٢) معجم البلدان ٤/١٢٩ .
(٣) الأغانى ٢/١٢٨ — ١٣٢ .
(٤) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ١/٢٦٤ — ٢٩٨ .

إذا رجّعَت في صوتها خلتَ صوتها ... تجاوُبَ أظآرٍ على رُبَعٍ رَدِي [1]

وقول سلامة بن جندل :

وعندنا قينةٌ بيضاء ناعمة ... مثلُ المهاة من الُحورِ الَخراعيب

تُجرى السواك على غُرٍّ مُفلَّجة ... لم يَغْذُها دَنس تحت الجلابيب [2]

وقول عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيانَ يعزفن بالدفِّ ... لفتياننا وعيشاً رَخيًّا

يتبارين في النعيم ويَصْبُبْـ ... ـن خلال القرون مسكا ذكيا

إنما همهن أن يتحلَّيـ ... ـن سُموطاً وسُنبلاً فارسيا

من سُموط المرجان فصّل بالدرِّ ... فأحسنَّ بحليهن حُليًّا [3]

ويظهر أن أكثر القيان كن غير عربيات ، ولعل العرب أنفوا من صناعة الغناء وإن كانوا قد طربوا له . يدل على ذلك أن حسان بن ثابت وصف ليلة من لياليه في الجاهلية عند جبلة بن الأيهم ، وجاء في وصفه أنه سمع عشر قيان : خمس روميات يغنين بالبرابط ، وخمس يغنين غناء

---

(١) ديوان طرفة ٢٥ ندامای : صحبي على الشراب . بض : أعلام مشاهير . برد . ثوب موشى . مجسد : ثوب مصبوغ بالزعفران ، أي تروح إلينا وعليها برد ومجسد . قطابه الجيب : مجتمعه ، ووصفه بالسعة لأنها كانت تجعله كذلك ليبدو صدرها . رفيقة بجس الندامى : يلمسونها ويجسونها فلا تحشن لهم أو المراد بالجس الطلب أي تجيبهم إلى ما يطلبون من غنائها . بضة : بيضاء ناعمة . المتجرد : ماسترته الثياب من الجسد . على رسلها : على مهلها . مطروفة : فاترة الطرف . لم تشدد : لم تجتهد وتجهد وإنما أخذت تغني بغير مشقة .

(٢) المفضليات ١/١١٨ المهاة : البقرة الوحشية . الخراعيب : جمع خرعوب ، وهي الشابة الحسنة القوام الرخصة اللينة . غر : بيض . مفلجة : ذوات فلج وهو تباعد ما بين الأسنان . لم يغذها : لم يلصق بها ، أراد أنها عفيفة .

(٣) الأغاني ٩/١٦٤ . سموط : قلائد .

أهل الحيرة[١] . ولكنه لم يذكر جنسية هؤلاء اللائى يغنين غناء أهل الحيرة ، أهن فارسيات أم عربيات ؟ ويدل على ذلك أيضاً أن الدكتور بيرون ذكر فى كتابه عن النساء العربيات أن معظم المشهورين والمشهورات بالغناء كانوا عبيداً ، ويستنتج أن أكثرهم من الأحباش ، لأن أكثر العبيد كانوا أحباشاً[٢] . ومما يؤيد رأيه هذا أن العرب عرفوا القنين واستعملوه فى الجاهلية ، والقنين من أسماء الطنبور عند الأحباش ، ولا شك أن أدوات الموسيقى وثيقة الاتصال بالغناء ، وقد ذكر الجاحظ من مفاخر السودان تفوقهم فى الغناء والرقص[٣] .

ويدل على ذلك أيضاً أن المستشرق ليال Lyall يقول إنهن كن فارسيات أو يونانيات من سوريا ، وأنهن كن يغنين بالعربية ، وربما كن يغنين بلهجة أجنبية[٤] وأن فون كريمر يذهب إلى أنهن كن فارسيات أو يونانيات يغنين بلسانهن اليونانى أو الفارسى[٥] .

كانت القيان يغنين بلغات غير عربية أحياناً ، كما سبق فى قول حسان ، وكما ذكر أبو الفرج عن الأعشى أنه كان يزور أساقفة نجران ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهما ما شاء ، يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومى ، وفى ذلك يقول الأعشى مخاطبا ناقته :

وكعبةُ نجرانَ حتمٌ عليـ ... ـك حتى تُناخى بأبوابهـا
نزور يزيد وعبدَ المسيح ... وقيساً همُ خيرُ أربابها
وشاهدُنا الجُلُّ والياسَمـ ... ـين والمسمِعاتُ بِقصّابِها

---

(١) الأغانى ١٦/١٤ (٢) بلال داعى السماء . العقاد ١٥٠
(٣) رسالة فخر السودان من مجموعة رسائل الجاحظ ٥٤ .
(٤) الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية ٥٤ شوقى ضيف .
(٥) A History of Arabian Music. Farmer. P. 17.

وبَرْبَطُنَا دائمٌ مُعْمَلٌ   فأىُّ الثلاثة أُزْرَى بها ؟[١]

ولكنْ هنالك نصوص صريحة الدلالة فى أنهن أيضاً كن يغنين باللغة العربية ، من ذلك قول عبدة بن الطبيب :

ثم اصطبحتُ كُمَيْتاً قَرْقَفاً أُنُفا   من طَيِّب الراح، واللذاتُ تعليل
صِرْفاً مِزاجاً وأحياناً يُعَلِّلنا   شِعرٌ كمُذْهَبَة السَّمان محمول
تُذرى حواشيهُ جَيْداءُ آنسةٌ   فى صوتها لسماع الشَّرْب ترتيل[٢]

ومن ذلك أنه كان بمكة قينتان فارسيتان لعبد الله بن جدعان تغنيان الناس[٣] والغناء للناس يترجح أن يكون بالعربية ليفهموه ، لأنه غناء للشعب ، ومن ذلك أيضاً أنه كان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغنى النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء ، فتيقظ له وأصلحه[٤] .

وكانت سارة مولاة لبنى عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانت مغنية بمكة ، وقد قدمت إلى رسول الله ﷺ بالمدينة وأسلمت ، وشكت إليه حاجتها وطلبت منه الميرة ، فقال لها : أما كان فى غنائك مايغنيك؟فقالت: إن قريشاً منذ قتل منهم من قتل ببدر تركوا الغناء فوصلها ﷺ، ثم رجعت إلى قريش حاملة كتاب حاطب بن أبى بلتعة وارتدت عن الإسلام(٥) .

وقد تغنت القيان بشعر الهجاء ، فقد كان لابن خطل قينتان تغنيانه

---

(١) الأغانى ٦/٦٩ — ٧٠ ومعجم البلدان ٤/١٧٩ المسمعات : المغنيات . القصاب : الزمار . البربط : العود (معرب) .

(٢) المفضليات ١/١٤٣ كميتا : خمرا فى لونها سواد وحمرة . قرقف : تصيب شاربها رعدة. أنف: لم يشرب منها أحد قبله صرفا مزاجا: نشربها خالصة لطيبها وكأنها ممزوجة بالماء لسهولتها . يعللنا : يلهينا . السمان : وشى مقارب أو الأصباغ التى تزوق بها السقوف. محمول : مروى ذائع لحسنه . تذرى: ترفع أو تسقط حواشى أغانيها تطريبا وترجيعا .حواشيه : أطرافه. جيداء : طويلة الجيد . آنسة : منبسطة متحدثة .

(٣) الأغانى ٨/٣٢٧   (٤) الأغانى ٩/١٥٧ .

(٥) إنسان العيون ٣/٨٧ .

بهجائه لرسول الله ﷺ ، وفى يوم فتح مكة أمر رسول الله بقتله وقتلهما، فقتل وقتلت إحدى قينتيه، واستؤمن رسول الله الأخرى فأمنها وأسلمت (١)

وكانت هريرة — محبوبة الأعشى — وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو بن مَرْثِد ، وكانتا تغنيانه النصب ، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان (٢) ، والنصب غناء عربى صرف

لهذا لا أوافق على أنهن كلهن كن غير عربيات ، كما ذهب ليال وفون كريمر ، وأرى أن بعض القيان كن عربيات . ويعزز ذلك أيضاً أن ماوية بنت عفزر كانت على سمو مكانتها تلق فتيان العرب فيفضون إليها بأشعارهم فتوقعها ، وتلقيها عليهم بصوت يهزهم هزاً (٣)

وقد كانت القيان ينبوع متعة ومبعث حب ، افتن فيه الشعراء افتتانا ، لأنهم كانوا يجتمعون فى مجالس الغناء ، فيشربون ويسمعون ويطربون ويعشقون .

وقد أحب الأعشى هريرة ، وتغزل فيها كثيراً ، وكانت هريرة وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو بن مرثد (٤) .

وظلت القيان ينبوع حب إلى ما بعد العصر الجاهلى كما كن فى العصر الجاهلى ، فمثلا يتحدث أبو الجديد أنه سمع رقطاء الحَبَطية ،فأحبها وزف خلفها زفيف النعامة ، ثم أودعها قلبه ، وخلفه لديها ؛ وعاد يهوى كالرخمة بغير قلب (٥) ؛ وقد أحب ابن الرومى المغنية مظلومة وتغزل بها ، (٦) وأحب المغنية وحيد ، وأوحى إليه حبها بقصيدة حارة رائعة صرح فيها بأنه متيم معمود (٧) .

---

(١) إنسان العيون ٣/ ١٠٥

(٢) الأغانى ٨/ ٧٧ .

(٣) الأغانى ١٠/ ١٧

(٤) الأغانى ٨/ ٧٧ .

(٥) الأغانى ١/ ٢٨٨

(٦) ديوان ابن الرومى ٢١٥ .

(٧) ديوان ابن الرومى ٩٨ .

واشتهر عبد الرحمن بن أبي عمار القس بحب سلاّمة [١] .

ولقد يحب الرجل مغنية تتغنى بغير لغته ، وإن كان لا يفهم لغتها ، يحبها لأنه يؤخذ بجمالها ، ويطرب لصوتها ، فقد روى أن أبا تمام سمع غناء بخراسان بالفارسية ، فلم يدر ماهو ، غير أنه أشعل شوقه ، فقال [٢] :

حمدتك ليلةً شرفت وطابت أقام سهادُها ومضى كَراها
سمعت بها غناء كان أولى بأن يقتاد نفسي من عناها
ومُسْمِعَةٍ يحار السمعُ فيها ولا تُصْمِمْهُ لا يُصْمَمْ صَداها
مَرَتْ أوتارها فشفت وشاقت فلو يسطيع حاسدها فداها
ولم أفهم معانيها ولكن ورَتْ كبدي فلم أجهل شجاها
فكنت كأنني أعمى مُعَنًى يحب الغانيات لا يراها

على أن الإماء كن مثار نوع آخر من الحب ، ونوع آخر من الغزل ، سنتحدث عنهما في الغزل الحسي .

١٠ — ثم هم ذوو فراغ ؛ لأن أكثرهم رعاة يسيمون الإبل والشاء ، وقليلا منهم تجار يترددون على الأسواق بين الفينة والفينة ، وأقل من هؤلاء زراع وصناع ، وهؤلاء جميعاً في أوقاتهم سعة ، وفي أعمالهم دعة ، وهذا الفراغ في هذه البيئة مجال خصيب للحب ينبت فيه وتمتد جذوره وتعلو سوقه . يقول الجاحظ : « رجلان من الناس لايعشقان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع ، فإن قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن ؛ لأن في الرياسة الكبرى وفي جواز الأمر ونفاذ النهي وفي ملك رقاب الأمم ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل

(١) أخبار النساء لابن القيم ١٧ والأغاني ٦/١٣٦ و ٨ : ٦
(٢) تهذيب الكامل ٢ / ٣٤

فى الحب والاحتراق فى العشق (١) . والجاحظ على صواب ؛ لأن الحب لايعشش ويفرخ إلا فى القلوب الفارغة له . أما القلوب المشغولة بالكدح فى طلب القوت ، أو بالعمل العظيم الذى ينتهب الوقت ، فإنها ليست من أوكاره ، وإن أوى إليها حيناً من الدهر ، شعر بضيقها ، وفر عنها إلى أوكار أرحب ، وأهنأ وأنعم .

وقد ردد داود الانطاكى رأى الجاحظ ، فجعل أشد الغرام ما كان عن فراغ ، وبنى على هذا أن أخف الناس عشقاً الملوك ، ثم من دونهم لاشتغالهم بتدبير الملك ، وقدرتهم على مرادهم ، ومن دونهم أفرغ له ، قلة الاشتغال ، حتى يكون المتفرغون له هم أهل البادية ، لأنهم غير مشغولين بعوائق ، ولذا فهم أكثر الناس موتاً بالحب (٢) .

وما زال الفراغ إلى اليوم من الظروف المواتية للحب ، ولهذا يقول إميل لودفيج : إن الحب فى أمريكا نادر، لأن الناس هنالك مشاغيل بالعمل الذى لايفتر (٣) ويقرر أن الريف أكثر ملاءمة للحب من المدن . لأن الحب يتطلب حياة هادئة لا كد فيها ، وفى الأمثال : العطلة أم كل علة ، ولو استبدلنا كلمة الشهوة بكلمة العلة لم نخطىء إلا قليلا ، ولا يصح أن نزدرى العطلة وفق آداب القرون الوسطى ، بل يجب أن انشد مصدراً للفلسفة والشعور (٤) .

١١ — وقد اتصف كثير من رجال العرب بصفات نفسية تحببهن إلى النساء ، وسأوضح هذا فى آثار الحب والحبيبة فى نفس الشاعر ، كما اتصف بعضهم بجمال جسدى ، حتى لقد كانوا يتعممون بمكة مخافة الافتتان بهم ، وقد ذكر محمد بن حبيب كثيراً منهم ، كحنظلة بن عثمان بن عمرو .

---

(١) رسالة العشق والنساء ١٦٦ من رسائل الجاحظ

(٢) تزيين الأسواق . داود الانطاكى ٩

(٣) الحياة والحب ٦٢

(٤) الحياة والحب ٣٨

والحضر ، والزبرقان بن بدر ، وسبيع الطهوى ، وأعفر البربوعى ، وزيد الخيل الطائى ، وقيس بن الحطيم ، وامرىء القيس بن حجر[١] .

١٢ — فى هذا المجتمع الذى توافى ظروفه الحب كانت الرؤية الأولى كافية لأن تصيب سهامه القلوب والحب فى أكثر حالاته وليد نظرة ولقية ، فما هو إلا أن ينظر الفتى العربى فتاة من قريباته أو من غيرهن ويروقه جمالها حتى يعلق بها وتصير ليلاه . وليس العاشق بالخيار فى هذا ، وليس لأحد أن يسأله : كيف أحبيت من النظرة الأولى ؟ كيف أحببت قبل أن تتعارفا ؟ لأن روح النوع هى التى ألهمت وأوحت .

وليس يقع الحب من النظرة الأولى نادراً ، بل إنه الأعم الأكثر . وقد جلا شكسبير هذه الحقيقة فى قوله : لم يحب قط من لم يحبب لأول نظرة[٢] .

والأمثلة على هذا شتى ، منها غرام الصبى دانتى بالصبية بياتريس ، والرجل بترارك بالمرأة لورا ، وقد استأثر هذا على ما فيه من حرمان بمجامع قلب الشاعرين مدى حياتهما ، ومنها حب بوكاتشو — أحد أدباء إيطاليا فى عصر النهضة — لفتاة جميلة رآها فى الكنيسة ، إذ علق بها من أول نظرة ، وجعل يحدق فيها حتى اضطرت أن تسدل على وجهها قناعها ؛ ولم تمض إلا أيام حتى توثقت بينهما الصلة[٣]

وقد أحب عبد الله بن علقمة حبيبته من أول نظرة لما رآها تحلب ناقة ، وقد ضرب الهواء سباً أخضر على وجهها فانكشف[٤]

---

(١) المحبر لابى جعفر محمد بن حبيب ٢٣٢ .
(٢) ملخص رأى شوبنهور . هلال نوفبر ١٩٣٤ .
(٣) قصة الأدب فى العالم ٢ / ٨
(٤) تزيين الأسواق ٧٧

وروى أن قيس بن الملوح أحب ليلى من أول لقاء ومن أول نظرة[١] كما أحب دريد بن الصمة تماضر بنت عمرو — الخنساء — من النظرة الأولى وعبر عن حبه بقصيدة منها :

حيُّوا تماضر واربَعُوا صَحْبِي وقِفوا فإن وقوفكم حَسْبِي
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم واعتاده داء من الحب[٢]

ويكاد الأدباء والمجربون للحب يدينون بأثر النظرة الأولى ، فإذا كان شكسبير يرى أن الذى لم يقع فى شرك الحب من النظرة الأولى فليس يحب حباً حاراً غلابا ، فإن إميل لودفيج يرى كذلك أن الحب مبدؤه نظرة : « بدء الحب نظرة ، والذى يدفع أحد العاشقين إلى الآخر ويجعل من الغريبين شخصين متحابين يتبادلان التأثير إنما هو مقابلة ولو هنيهة على الأقل ، يكون فيها تبادل نظرتين ناطقتين عند إلقائهما بكلمة (أحبك) ، فالعين رسول تلك الجاذبية التى بين الأرواح ، ومن النادر أن يفتن شخص آخر بالصوت وحده غناء أو نداء أو كلاما »[٣] .

ويقول شوقى :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء[٤]

فلست أوافق ابن حزم فى أن الحب من النظرة الأولى يتصف دائماً بأنه سريع الزوال ، وبأن المحب سريع السلو عنه ، لأن أسرع الأشياء نمواً أسرعها فناء ، ولأن أبطأها حدوثا أبطؤها نفاداً ، لذا يدوم الحب إذا كان بعد طول مخافتة ومشاهدة وأنس ، لأن ما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً[٥] . ولست أوافق ابن داود الظاهرى فى هذه النظرة إلى الحب

---

(١) الأغانى ٢ / ١٢
(٢) الأمالى ٢ / ١٦١
(٣) الحياة والحب ١٨
(٤) الشوقيات ٢ / ١٣٩
(٥) طوق الحمامة ٢٠ — ٢٢

الذى ينشب سريعا ، فهو يرى كما رأى ابن حزم أنه لا يستقر فى القلب ، بل يزول إذا ما ابتلى بطارئ ، ومن عشق بأول النظر سلا مع أول الظفر[١] .

لا أوافقهما لأنهما يقيسان العاطفة بالمادة ، فيطبقان على العواطف ما يجرى على المواد من بطء النماء وبطء الفناء ، وسرعة النماء وسرعة الفناء . وكأنهما يقولان إن الحب البطىء كالماء يمتص الحرارة فى بطء ويفقدها فى بطء ، وإن الحب السريع كاليابسة تمتص الحرارة فى سرعة وتفقدها فى سرعة ، والحق إن العواطف لاتخضع لهذا الحكم ، لأن العبرة فى الحب بالشرارة الأولى التى تنبعث من عينين أو من قلبين، أما هذا الحب الذى لا ينشب إلا بعد طول التلاقى ، فإنه فى الغالب إلف وصداقه لاحب وهيام . فليس كل حب من النظرة الأولى ضحلا ، وليس كل حب بعد طول المعاشرة عميقاً ، لأن التعميم هنا يفضى إلى تعسف وخطأ .

ولقد يحب الشاعر ويفيض معين حبه ، ولكنه يذكر ماضيه فى حسرة تشوبها لذة ، وفى عزة تخالطها كآبة ، ولسنا نستطيع أن نقول له إنك غير محب فلماذا تتغزل ؟ لأنه فى الحقيقة محب ولكنه محروم ، يعتز بماضيه ، ويستريح إلى أحاديث الصبابة . يمثل ذلك أن عمر بن أبى ربيعة كان قد آلى ألا يتغزل ببيت شعر إلا أعتق رقبة ، ولكنه رأى محباً ، فتأثر واهتاج وحن ، وقال شعراً[٢] .

وفى مثل هذا يقول هكسلى : « لعل أجمل ما كتبه دانتى من شعر رقيق ، ذلك الذى أوحت به ذكرياته التى انقضت وحرمها »[٣] .

وسنرى أن كثيراً من الشعراء الجاهليين كانوا يحنون إلى ماضيهم السعيد ، يقول ابن حزم : « وإنك لتجد الإنسان السالى برغمه وذا السن

---

(١) الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الظاهرى ٣٣٠

(٢) الأغانى ١/١٤٥

(٣) Huxley. P. 121.

المتناهية إذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين » (١) .

وقد أحب العرب حباً واقعياً ، أحبوا نساء وذكروا أسماءهن حقيقية مراراً ومجازية مراراً ، وسنجد فى وصفهم لهؤلاء النساء أن حبهم واقعى لاخيالى كأولئك الذين يتحدث عنهم أدلر أنهم يصورون لأنفسهم فى عالم الخيال غراماً مثالياً لايتحقق فى عالم الواقع ، فيقضون الحياة سعياً وراءه ، ويقضون العمر ترقباً لمجيئه ، فينقضى بهم العمر دون أن يتحقق لهم ما التمسوه ، فيكون لهم من ذلك مايبرر قصورهم عن أن يعيشوا كما يعيش الناس ، فيخرجون عما ألف الناس ، ويزهون بذلك (١) .

وبعد فالحب عاطفة فردية محصورة فى نفس المحب لاتتعداه إلى غيره ، فلماذا نحفل بالغزل المصور لهذه العاطفة ؟ .

نحفل به « لأن التشابه فى ألوان الحياة والتجانس فى مظاهرها وأحوالها ، يجعل من عواطف الشخص مرآة ونموذجاً لعواطف غيره ، ولاسيما إذا كان صادق الحس صافى الوجدان ، ولهذا يكون النوع الفردى سهل الاستساغة سريع الاتصال بالنفوس ، وإن قدرة الأديب على التصوير تزيد هذا النوع من العواطف تأثيراً وقوة ، وتجعل مانقرؤه له مما يضمنه خلجات نفسه شديد الاتصـــال بنفوسنا كأنه يعبر عن عواطفنا وانفعالاتنا » (٢) .

---

(١) طوق الحمامة ٧ .
(٢) علم النفس الفردى ١٥١ .
(٣) الأصول الفنية للأدب . عبد الحميد حسن ٧٢ .

خصائص الغزل العذرى

أما هذه الخصائص التى أسلفناها بجملة فقد آن الأوان لتفصيلها ، توضيحا وتمثيلا .

وإنه لما يزيد رأيى قوة فى أن العصر الجاهلى هو منشأ الغزل العذرى أن هذه الخصائص التى سأذكرها للغزل العذرى فى الجاهلية هى الخصائص نفسها التى نستطيع استنباطها من الغزل الإسلامى .

١ — قصر بعضهم على الغزل قصائد كاملة ، فلم يمهد به لغرض آخر ، لأنه غاية يقصد إليها ، وهدف يرمى إليه ، فهو إذاً تعبير متميز عن عاطفة الحب ، وغناء مقصود لذاته ، وهو بهذا يشبه غزل جميل وقيس فى العصر الإسلامى . فمثلا لعروة بن حزام نونية مشهورة ، عدتها اثنان وثمانون بيتاً كلها غزل حار[١] ، ولمضرّس بن قُرط بن الحارث المزنى قصيدة عددها ستة وعشرون بيتاً كلها غزل روحى يصور أشواق المحب[٢] ، وللمنخّل بن عامر بن ربيعة اليشكرى قصيدة غزلية أبياتها أربعة وعشرون ، فى ثناياها سبعة أبيات فى الفخر ، ولكنه مما يتقرب به الشاعر إلى محبوبته[٣] ، وللمرقش قصيدة أو مقطوعة كلها غزل أبياتها ثمانية[٤] ، ولقيس بن الحدادية قصيدة عدتها أربعة وأربعون بيتاً كلها غزل[٥] ، وله أخرى عدتها ستة عشر بيتاً وهى أيضاً لا تتناول غير الغزل[٦] ، ولحسان بن ثابت قصيدة غزلية أبياتها سبعة عشر ليس بها غير الغزل[٧] ، ولطرفة قصيدة غزلية فى عشرة أبيات[٨] ، ولعنترة قصائد غزلية مستقلة منها قصيدة فى أحد عشر بيتاً[٩] ، وأخرى فى

---

(١) النوادر لأبى على القالى ١٥٨ (٢) الأمالى ٢ ، ٢٥٧ — ٢٥٨
(٣) الأصمعيات من مجموعة وليم ألبروسى ١/ ٣٠ (٤) المفضليات ٢/ ٢٣١
(٥) الأغانى ١٣/ ٥ (٦) الأغانى ١٣/ ٧
(٧) ديوان حسان ١٢ (٨) ديوان طرفة ١٤٧
(٩) ديوان عنترة ٦٥

ثمانية(١) ، وثالثة فى خمسة عشر(٢) ، ولسوار بن المضرب غزلية مستقلة طويلة(٣) .

٢ — وهذا الغزل روحى لا أثر فيه لوصف الجسم ومطالب الجسد ، أو فيه أثر ضئيل يشبه ذلك الأثر الذى أسلفته فى غزل قيس وجميل وتوبة ، وإنما هو نجوى وشكوى وتنفيس عما يعتلج بالقلب من أشواق ، وما يختلج بالصدر من حنين ولهفة ، فهو إذاً شبيه الغزل العذرى فى الإسلام ، لأنهما معاً يسلكان طريقاً واحدة .

يقول النابغة الذبيانى إنه يحن إلى عهد سعادته بحبيبته نُعم ، إذ كانا يتناجيان بالحب ، ويبثها ما يخفى على الناس ، وما يظهر للناس ، وإن حبها مكين فى نفسه ، ولولا تمكنه لنسيها ، ويظهر أنها قد صدت عنه ، أو زوجت من غيره ، ولذلك يتمنى هذا النسيان ، ويرى أنه فى غيبوبة من هذا الحب ، فإن أفاق فحق له أن يفيق ، لأن ضلاله قد طال ، ثم يعود إلى الخضوع لحبه فيقول : إن نُعما هاجرة ولكنها عاتبة ، ويدعو لهذه العاتبة الهاجرة بالخير ، ويصور حاله وقد رآها على عجل وهى مرتحلة أو وهو مرتحل فوجب قلبه وجيبا ، واضطرب نفسه اضطرابا :

وقد أرانى ونُعماً لاهيين معاً ... والدهرُ والعيشُ لم يَهمُمْ بإمرار

أيام تخبرنى نعمٌ وأخبرها ... ما أكتُمُ الناسَ من بادٍ وأسرار

لولا حبائل من نعم عَلِقتُ بها ... لأقصر القلب عنها أىّ إقصار

فإن أفاق فقد طالت عَمايته ... والمرء يُخلَقُ طَوْراً بعد أطوار

نبيت نعمٌ على الهجران عاتبةً ... سقيًا ورعيًا لذاك العاتب الزارى

---

(١) الديوان ١٧٣ (٢) الديوان ١٧٣

(٣) الاصمعيات ١ / ٧٣

رأيت نعما وأصحابى على عَجَل   والعِيسُ للبَين قد شدَّت بأكوار
فريع قلبي وكانت نظرة عرضت   حيناً وتوفيق أقدار لأقدار(١)

وكان عنترة قد خرج يوماً فى سفر ، ولما طالت غيبته عن بنى عبس نفس همه بقصيدة يقول فيها : إنه يتجلد ويقنع بطيف عبلة ، ويتمنى أن تمر به ريح الحجاز لتبرد كبده ، وأن يحيى البرق بنى عبس ، ويمطرهم السحاب ، ثم يدعو على نفسه ألا ينعم بلقائها إن كان قد غفل عن ذكرها فى يقظة أو منام ، ثم يقول إن طائراً ينوح على غصن قد شجاه وشاقه ، ويشبه حال الطائر بحاله :

إذا رشقَتْ قلبى سهامٌ من الصد   وبَدَّل قربى حادث الدهر بالبعد
لبست لها درعا من الدهر مانعا   ولاقيت جيش الشوق منفرداً وحدى
وبت بطيف منك يا عبل قانعا   ولو بات يسرى فى الظلام على خدى
فبالله يا ريح الحجاز تنفسى   على كبد حَرَّى تذوب من الوجد
ويا برق إن عَرضت من جانب الحمى   فحىِّ بنى عبس على العَلَم السَّعْدى
وإن خمدت نيران عبلة مَوْهِنًا   فكن أنت فى أكنافها نَيِّر الوَقد
وخلِّ الندى ينهلُّ فوق خيامها   يُذَكِّرها أنى مقيم على العهد
عَدِمتُ اللِّقا إن كنت بعد فراقها   رَقَدْتُ وما مَثَّلتُ صورتها عندى
وما شاق قلبى فى الدجا غير طائر   ينوح على غصن رطيب من الرَّند
به مثل ما بى فهو يخفى من الجوى   كمثل الذى أخفى ويبدى الذى أبدى

(١) ديوان النابغة ٣٨ لمرار : تكدير . العيس : النوق البيض . أكوار : رحال .

ألا قاتل الله الهوى كم بسيفه　　قتيل غرام لا يوسَّد فى اللحد (١)

وقد صور عروة بن حزام مشاعره حين تعتريه ذكرى عفراء، ومشاعره حين يراها، تصويراً مؤثراً كهذا الذى نجده عند جميل وأبى صخر الهذلى :

وإنى لتعرونى لذكراك روعة　　لها بين جلدى والعظام دبيب
فما هو إلا أن أراها فُجاءةً　　فأُبْهَتَ حتى ما أكادُ أجيب
وأصدف عن رأيى الذى كنت أرتئى　　وأنسى الذى أزمعت حين تغيب
ويُظْهِر قلبى عذرَها ويُعينها　　علىَّ فمالى فى الفؤاد نصيب
وقد علمَتْ نفسى مكان شفائها　　قريباً وهل ما لا ينال قريب ؟
بنا من جوى الأحزان والبعد لوعة　　تكاد لها نفس الشفيق تذوب
وما عجبى موت المحبين فى الهوى　　ولكن بقاء العاشقين عجيب
حلفت بربِّ الساجدين لربهم　　خشوعاً وفوق الساجدين رقيب
لئن كان بردُ الماء حَرّان صاديًا　　إلىَّ حبيبا إنها لحبيب (٢)

وتمنى لقاءها وتمنى لكل متحابين أن يلتقيا، وأضفى عطفه حتى على الأنعام المتحابة، واشتاق إلى يوم الحشر ليلقاها، وتمنى أن يعيشا معاً وأن يموتا معاً، ثم زين له حرمانه أن يود لو أنهما راعيان يبعدان فى الصحراء :

فياليت كل اثنين بينهما هوًى　　من الناس والأنعام يلتقيان

(١) ديوان عنترة ٦٥ .
(٢) الأغانى ٢٠/١٥٥ والشعر والشعراء ٢٣٨ وتزيين الأسواق ٨٤ .

فيقضى حبيب من حبيب لُبانةً ... ويرعاهما ربى فلا يرَيان
وإنى لأهوى الحشر إذ قيل إننى ... وعفراء يوم الحشر ملتقيان
فياليت مَحيانا جميعاً وليتنا ... إذا نحن متنا ضمّنا كفنان
وياليت أنّا الدهرَ فى غير ريبة ... خليّان نرعى القفر مؤتلفان[١]

ويصف المرقش الأصغر وجدانه ـ وكان قد أحب فاطمة بنت المنذر، ثم كاد يسلوها ـ بأن الأرض تدور به إذا تذكرها، وقد آثرها على النساء جميعاً وهام بحبها :

رمتك ابنة البكرىّ عن فرْعِ ضالةٍ ... وهُنّ بها خُوصٌ يُخَلْنَ نعائما
صحا قلبه عنها خلا أن رُوعه ... إذا ذكرت دارت به الأرض قائما
أفاطم لو أن النساء ببلدة ... وأنت بأخرى لاتبعتك هائما[٢]

هو تحليل لنفسية الشاعر، يصور دخيلته، ويفصح عن آلامه وآماله، لأنه منبعث من أعماق نفسه. فمثلا المرقش الأصغر حيران فى أمره بين وجدانه ونزوعه : أيتغلب وجدانه فيظل محباً أم يتغلب نزوعه فينسى؟ ولكنه يئس من أن يتغلب نزوعه لأن قلبه هائم بأسماء، ومن شأن الحب أن يتملك القلوب، ويعجب من أن يلام فى حب أسماء، لأنه لاجدوى من لومه، فقد أصر على حبها واستمسك قلبه بها متغلباً على الوشاة وإن غمته وشاياتهم، وكيف يستمع لمن يلومه أو يسلوها قلبه وهى هم نفسه وشغلها، وأحاديث قلبه كلها ما خفى منها وما استقر؟ ويصف حاله إذا ذكرها فيصور جسمه يرتعد كأنه محموم :

---

(١) النوادر لأبى على ١٥٨

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٦ الضالة : السدرة وهى الشجرة التى تعمل منها السهام يريد أن نظرتها سهم . هن : الضمير عائد على النوق التى كانت مطايا الحبيبة ومن معها يوم فتنه نظرها . خوص : جمع خوصاء : غائرة العينين . نعائم : جمع نعامة

أغالَبَكَ القلبُ اللَّجوج صبابة ... وشوقا إلى أسماء أم أنت غالبه ؟
يهيم ولا يعيا بأسماء قلبه ... كذاك الهوى إمراره وعواقبه
أيُلْحى امرؤ فى حب أسماء قد نأى ... بغمٍّ من الواشين وازوَرَّ جانبه ؟
وأسماء همُّ النفس إن كنت عالماً ... وبادى أحاديث الفؤاد وغائبه
إذا ذكرتها النفس ظَلْتُ كأننى ... يزعزعنى قَفْقَافُ وِرْدٍ وصالبه (١)

وعروة بن حزام يكشف عن أمنيته التى حرم تحقيقها حين يتمنى لكل حبيبين من الناس والأنعام أن يلتقيا ، ولا يغفل عن استكناه شعور الناقة التى ركبها إلى المحبوبة ، فهى تحن إلى ماراءها لأن لها فصيلا خلفته ، وهو يحن إلى من أمامه لأنه مقبل على ديار من يحب ، ثم يصور حبه العظيم بأنه لا طاقة له باحتماله ولا طاقة للجبال به ، ويصور قلبه الخفاق المضطرب بأنه قد ربطت به قطاة من جناحها ، فهى لا تفتأ تهز جناحها لتتخلص من هذا الإسار ، ثم يكشف عن استسلام المحب للأوهام حين يقول إنه استطب عراف اليمامة ، وعراف نجد ، وزعما أنهما قديران على شفائه من الحب اليائس ، فرقياه وسقياه السُّلوة ، ولكنه لم يبرأ ، فاستسلما للقضاء ، ودعوا الله أن يشفيه لأنهما لا طاقة لهما بشفائه :

على كبدى من حُبِّ عفراء قرحة ... وعيناى من وجد بها تَكِفَانِ
فعفراء أرجَى الناس عندى مودةً ... وعفراء عنى المعرضُ المتدانى
فياليت كل اثنين بينهما هوى ... من الناس والأنعام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لُبانة ... ويرعاهما ربى فلا يُرَيَانِ

---

(١) الأغانى ٥/١٨٣ . ورد : اسم للحمى أو يوم من أيامها . صالب : حمى فيها رعدة . قفقاف : ارتعاد واصطكاك أسنان .

هوى ناقتى خلفى وقدامى الهوى وإنى وإياها لمختلفان

يقول لى الأصحاب إذ يعذلوننى أشوق عراقى وأنت يمانى ؟

تحملت من عفراء ما ليس لى به ولا للجبال الراسيات يدان

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدى من شدة الخفقان

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفيانى

فقالا نعم نشفى من الداء كله وقاما مع العواد يبتدران

فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة إلا وقد سقيانى

وما شفيا الداء الذى به كله ولا ذخرا نصحًا ولا ألوانى

فقالا شفاك الله والله ما بنا بما ضمنت منك الضلوع يدان (١)

ولما انتجع أهل جنوب بنت محصن الجعدى وأرادوا الرحيل وقف مالك بن الصمصامة محب جنوب يتحسر ويتفجع، ويستوثق من جنوب أتظل راعية للعهد أم ينسيها البعد ؟ وهو لا يريد إلا جواباً يطمئنه ويعزيه عن هذا الفراق البغيض، ولو أنه يستطيع أن يزور محلها لزارها ، فتلك أمنية نفسه ، ولكن دونها عوائق ، دونها غيرة أخيها الإصبع بن محصن الذى هدده بالقتل وبالأسر ، فهو فى حيرة من أمره ، لأنه يحب حباً يائساً ، لا مرجع عنه ، ولا أمل فيه :

أريتك إن أزمعتم اليوم نية وغالك مصطاف الحمى ومرابعه

أترعين ما استودعت أم أنت كالذى إذا ما نأى هانت عليه ودائعه

---

(١) الأغانى ٢٠/١٥٥ وتزيين الأسواق ٧٧ . تخفقان : تدمعان بغزارة . سلوة . خرزة يشرب المحب ماءها فتسليه . ألوانى : قصرا فى علاجى ، والشاعر عدى الفعل اللازم .

ألا إن حِسْيا دونه قُلَّةَ الحِمَى مُنَى النفس لو كانت تنال شرائعه
وكيف ومن دون الورود عوائق
و(إصْبَعُ) حامى ما أحب ومانعه
فلا أنا فيما صدّنى عنـــه طامعٌ
ولا أرتجى وصْلَ الذى هو قاطعه

ولقد يصور هؤلاء المحبون عواطفهم وعواطف حبيباتهم فى أسلوب حوارى، يحللون فيه مشاعرهم، ولا يعرضون فيها للجسد أو ما يتصل به، كقول قيس بن الحدادية يصف مشاعره ومشاعر نعم بنت ذؤيب الخزاعى، وقد مضت مع أخيها قبيصة وبطون من خزاعة إلى مصر والشام راحلين لما أصابهم من جدب، فيعبر عن ألمه لرحلتها، وعن بخلها بالوصل، ثم يقص حديثاً دار بينهما فيقول:

وقلت لهـا فى السّرّ بينى وبينها على عَجَلٍ أيّان من سار راجع؟
فقالت لقاءٌ بعد حول وحِجّةٍ وشَحْط النوى إلا لذى العهد قاطع
وقد يلتقى بعد الشتات أولو النوى ويسترجع الحىَّ السحاب اللوامع

ويصور أذاها من الوشاة بقوله:

سعى بينى وبينهم واشٍ بأفلاق بُرمَةٍ ليفجع بالأظعان من هو جازع
بكت من حديث بثّه وأشاعه ورصّعه واشٍ من القوم راصع
بكت عين من أبكاك لا يعرف البكا ولا تتخالجك الأمور النوازع

---

(١) الأغانى ١٩ / ٨٣

(٢) الأغانى ١٩ / ٨٣. أفلاق برمة: قدر مكسرة أى سعى بينهم الواشى سعاية تفسد ما بينهم كما يحدث للقدر المكسرة لا تشعب.

فلا يسمعَنَّ سرِّى وسرك ثالث ... ألا كلُّ سرٍّ جاوز اثنين شائع

وكيف يشيع السر منى ودونه ... حجاب ومن دون الحجاب الاضالع

ويصف حاله وحالها وقد نادى مناد بالرحيل ، فيقول إنه جاء إلى منزلها كمستضيف أو سائل ، يتوسل بذلك لأن يلقاها ويحدثها ، فردته ، فاختفى تحت الستر حتى بلله العرق من الحر ، فدهشت من فعله وعضت إصبعها :

وما راعنى إلا المنادى ألا اظعَنُوا ... وإلا الرواعى غُدوَةً والقماقع

فجئت كأنى مستضيف وسائل ... لاخبرها كلَّ الذى أنا صانع

فقالت تزحزحْ ما بنا كبرُ حاجة ... إليك ولا منا لفقرك راتع

فما زلت تحت الستر حتى كأننى ... من الحر ذو طمرَين فى البحر كارع

فهزت إلىَّ الرأس منى تعجبا ... وعُضّض مما قد فعلتُ الاصابع (1)

وفى مثل هذا الأسلوب يصـــور عروة بن حزام آلامه فى نونيته المطولة(2) .

هذا الغزل ونظائره روحانى خالص ، لا تشوبه متعة جسدية ، ولا يفترق فى شىء عن غزل قيس وجميل .

وإذا كانت أشواق الروح فى هذا الغزل أغلب من رغبات الجسد، فليس معنى هذا أنه روحى خالص الروحانيـة ، فقد أسلفت أن حب الرجل للمرأة لا يخلو من شوائب جسدية ، إعجابا بجمالها ، واشتياقاً إلى لمسها أو تقبيلها ، وضربت على ذلك أمثلة من حياة العذريين فى الإسلام ومن شعرهم، وهكذا كان الغزل العذرى فى الجاهلية ، فيه لفتات إلى الجمال الجسدى ،

(١) الأغانى ١٣/٦ . الرواعى : الماشية لراعية . القماقع : صوت العمد عند تقويض الخيام . راتع : من رتعت الماشية أى رعت فى خصب وسعة ، وأرتعها صاحبها ، وكان السياق يقتضى (مرتع) ولعل صواب الكلمة (راقع) أى مصلح ، أو (رافع) أى مزيل .

(٢) النوادر لأبى على القالى ١٥٨ — ١٦٢ .

وشوق إلى متعة ضئيلة مما لا يخرج بهذا الضرب من الحب والغزل عن نوعه إلى الغزل الحسى .

قال عبد الله بن العجلان :

خَوْدٌ رَدَاحٌ طَفْلَةٌ   ما الفُحْشُ من أخلاقها
ولقد ألَذُّ حديثَها   وأَسَرُّ عند لقائها[1]

وعروة بن حزام وصف بعض جمال عفراء ، وتحدث عن بياضها، ودقة خصرها ، ولدونة ردفها :

لأَدْنُوَ من بيضاء خفاقة الحَشَا   بُنَيَّةِ ذى قَاذُورَةَ شَنَآن
كأن وشاحَيْها إذا ما ارتدتهما   وقامت عِنانا مُهْرَةَ سَلِسَان
يَعَضُّ بأبدانٍ لها ملتقاهما   ومتناهما رِخوان يضطربان
وتحتهما حِقفان— قد ضربتهما   قُطارٌ من الجوزاء— مُلتَبِدان[2]

وتحدث عن أمنية اللقاء حديثاً لم يصرح فيه بشىء ، لأنه اللقاء الذى يتمناه لنفسه وللمحبين جميعاً ، حتى لقد تمناه الأنعام المتحابة .

لقاء الغرض منه قضاء اللبانة ، ولقد تكون هذه اللبانة حديثاً ونجوى وشكوى ، ولقد تكون عناقاً وقبلات :

فياليت كل اثنين بينهما هوًى   من الناس والأنعام يلتقيان

---

(١) الأغانى ١٩/١٥٢ الخود : الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة . رداح : ثقيلة الأوراك . طفلة : رخصة ناعمة .

(٢) النوادر لأبى على القالى ١٦١ خفاقة الحشا : ضامرة . بنية ذى قاذورة : بنت رجل قذر . شنآن : بغض ، أى أن أباها ذو قذارة وذو بغض . الحقف : الكثيب من الرمل ، يصف ردفيها بالضخامة . قطار : سحاب عظيم المطر . ملتبدان : متماسكان .

فيقضى حبيب من حبيب لُبانةً ويرعاهما ربى فلا يُرَيَان
فياليت مَحيانا جميعاً وليتنا إذا نحن متنا ضمنا كفنان
وياليت أنّا الدهر فى غير ريبة خليانِ نَرعَى القفر مؤتلفان(١)

على أن الوصف الجسدى والشوق إلى المتعة أكثر ندرة عند العذريين فى العصر الجاهلى من العذريين فى الإسلام ، وهو إلى ندرته أشد خفاء ، وأين هذا من قول جميل :

تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرُّضاب من الثغر

وقوله :

كأن فَتيتَ المسك خالط نشرها تُعَلُّ به أردانُها والمرافق
تقوم إذا قامت به من فراشها ويغدو به من حِضْنِها من تعانق

وقوله :

حلفتُ يميناً يا بثينة صادقاً فإن كنت فيها كاذباً فعميت
إذا كان جلد غير جلدك مسنى وباشرنى دون الشعار شَريِت(٢)

وقوله :

ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى أظل إذا لم أسقَ ريك صادياً

٣ — ولقد قضى كل محب من هؤلاء الغزلين حياته كلها وقلبه يخفق بحبية واحدة لم يبدلها ، وتحمل فى حبه أهوالا أضنته أو أذهلته أو قتلته ، والموت من الحب أو الضنى من الحب سمة العذريين فى الجاهلية والإسلام .

---

(١) النوادر لأبى على القالى ١٥٨ وتزيين الأسواق ٧٧ .

(٢) شريت : أصيبت بمرض جلدى اسمه الشرى .

فمثلا أضنى الحب مالك بن الصمصامة[١]، وأذهل المرقش الأصغر حتى قطع إبهامه[٢]، وطوّح بعمرو بن كعب بن المنذر بن ماء السماء في تيه، فلا يُدْرَى أين مذهبه[٣]، وقتل عبد الله بن العجلان[٤]، والمخبل القيسي[٥] والمرقش الأكبر[٦] ومسافر بن أبي عمرو[٧] وعروة ابن حزام[٨].

وقد أشار طرفة بن العبد إلى موت المرقش من حبه في قوله[٩]:

وقد ذَهبَتْ سَلْمى بعقلك كله ... فهل غيرُ صَيْد أحرزته حبائله؟
كما أحرزَتْ أسماء قلب مرقِّش ... بحب كلمع البرق لاحت مخائله
وأنكح أسماء المرادىَّ يبتغى ... بذلك عوف أن تصاب مقاتله[١٠]
فلما رأى أن لا قرار يُقِرُّه ... وأن هوى أسماء لا بدَّ قاتله
ترحل من أرض العراق مرقِّش ... على طرب تَهْوى سراعا رواحله
إلى السَّرْو أرضٍ ساقه نحوها الهوى ... ولم يدر أن الموت بالسرو غائله[١١]

---

(١) الأغانى ١٩/ ٨٣ (٢) الشعر والشعراء ٥٦ ومجمع الأمثال ١/ ١٣٤.
(٣) الدر المنثور ٣٤٨.
(٤) الأغانى ١٩/ ١٠٢ والشعر والشعراء ٤٧٢ وتزيين الأسواق ٧٩ ومصارع العشاق ٨
(٥) الأغانى ٢١/ ١٦٠.
(٦) الأغانى ٥/ ١٨٠ وديوان طرفة ١١٩ والشعر والشعراء ٥٤ وتزيين الأسواق ٨٨.
(٧) الأغانى ٨/ ٤٦.
(٨) الأغانى ٢٠/ ١٥٢ والأمالى ٣/ ١٥٧ والشعر والشعراء ٢٣٧ وتزيين الأسواق ٧٣ والنوادر ١٥٧ والدر المنثور ٣٤٦.
(٩) ديوان طرفة ١١٩.
(١٠) المرادى: رجل من مراد تزوج أسماء. وتقدير البيت وأنكح عوف أسماء من المرادى ليصيب مقتل مرقش
(١١) السرو: سرو حمير وهو أعلى بلادهم.

فغودر بالفَرْدَيْن أرض نَطِيَّة ... مسيرة شهر دائبٍ لا يواكله[1]
فوجدى بسَلمى مثلُ وجد مرقش ... بأسماء إذ لا تستفيق عواذله
قضى نحبه وجداً عليها مرقش ... وعُلِّقت من سلمى خبالا أماطله

وأشار قيس بن ذريح إلى موت عروة ، وموت عمرو بن العجلان في قوله[2] :

وفى عروة العُذرى إنْ متُّ أسوةٌ ... وعمرو بن عجلان الذى قتلَتْ هِنْد
وبى مثل ما ماتا به غير أننى ... إلى أجل لم يأتنى وقتُه بعد

وأشار مجنون ليلى إلى قصة عروة أيضاً فى قوله[3] :

عجبت لعروة العذرى أضحى ... أحاديثا لقوم بعد قوم
وعروة مات موتاً مستريحاً ... وها أنا ميتٌ فى كل يوم

٤ — فى شعر العذريين الجاهليين إذعان لحبهم وخضوع له ورضا به ، على أنه قضاء من الله وقدر ، لا حيلة لهم فيه ولا اختيار ، فليس عليهم تثريب إذا ما خضعوا له ، وآمنوا به .

قال النابغة الذبيانى :

رأيتُ نُعْمًا وأصحابى على عَجَلٍ ... والعِيس للبَيْنِ قد شُدَّت بأكوار
فريع قلبى وكانت نظرة عَرَضَت ... حينا وتوفيق أقدار لأقدار[4]

---

(١) الفردين : اسم أرض . نطية : بعيدة . لا يواكله : لايحتبس فى سيره ولايضعف ، والضمير عائد على السير .
(٢) الأغانى ٨/١١٦
(٣) الأغانى ٢/٨٤
(٤) ديوان النابغة ٣٨

وهـــذا النزوع نفسه أشد وضوحا فى غزل الإسلاميين ، كقول جميل :

لقد لامنى فيها أخ ذو قرابة حبيب إليه فى ملامته رُشْدِى
فقلت له : فيها قضى الله ما ترى علىَّ وهل فيما قضى الله من رَدّ (١)

وقول مجنون ليلى :

خليلى لا والله لا أملك الذى قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا(٢)

ه — أضفى شعراء الجاهلية على حبيباتهم — كما أضفى شعراء الإسلام فيما بعد — صفات الإجلال ، والتأثير الغلاب ، حتى لتذوب عزيمة أحدهم بسحر محبوبته وفتنتها كما يذوب الملح فى الماء .

قال المثقب العبدى (٣) :

فإنى لو تخـــالفنى شِمالى عنادَك ما وصلتُ بهـا يمينى
إذًا لقطعتهـا ولقلت بينى كذلك أجتَوِى مَنْ يجتوينى

وقال عروة بن حزام :

وإنى لتعرونى لذكراك روعة لها بين جلدى والعظام دبيب
فما هو إلا أن أراها فُجاءة فأبْهَتَ حتى ما أكاد أجيب
وأصدِفُ عن رأيى الذى كنتُ أرتئى
وأنسى الذى أزمعتُ حين تغيب (٤)

---

(١) الأغانى ٨/ ١٥٠ (٢) تزيين الأسواق ٨٢ .
(٣) طبقات الشعراء ١٠٨ .
(٤) الأغانى ٢٠/ ١٥٥ والشعر والشعراء ٢٣٨ .

وقال النابغة الذبياني :

لولا حبائل من نُعم علِقتُ بها لأقصر القلب عنها أىّ إقصار
فإن أفاق فقد طالت عَمايته والمرء يُخلَقُ طورا بعد أطوار[1]

وقال المرقش الأصغر :

صحا قلبه عنها خلا أن رُوعه إذا ذكرت دارت به الأرض قائما[2]

وقال عبد الله بن العجلان[3] :

لقد كنت ذا بأس شديد وهمة إذا شئت لمسا للسماء لمستها
أتتنى سهام من لحاظ فأرشقت بقلبى ولو أسطيعُ ردًّا رددتها

وإن الشبه لقوى بين هذا وبين وصف الإسلاميين لسلطان الحبيبات على نفوسهم ، كما نجد فى قول جميل :

وأنت التى إن شئت كدرت عيشتى وإن شئت -بعد الله- أنعمت باليا[4]

وقول أبى صخر الهذلى :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر
لقد كنت آتيها وفى النفس هجرها بتاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فُجاءة فأُبهتَ لا عُرْفٌ لدى ولا نُكر
وأنسى الذى قد كنت فيه هجرتها كما قد تُنَسّى لُبَّ شاربها الخمر[5]

٦ — وكثيرا ما شكا هؤلاء المعذبون من تمنع الحبيبات وبخلهن ، استجابة لعفتهن وتعاليهن .

---

(١) ديوان النابغة ٣٨
(٢) الشعر والشعراء ٥٦
(٣) الأغانى ٢/ ٨٤
(٤) الأغانى ٨/ ١٢٦
(٥) شرح الحماسة للتبريزى ٣/ ١١٩ والأمالى ٢/ ١٤٩

قال بشامة بن عمرو إنها لم تنوله شيئاً :

وما كان أكثر ما نولت　　من القول إلا صِفاحا وقيلا (١)

وقال قيس بن الحدادية إنه شاب ولم ينل شيئاً :

وإن الذى أمّلت من أم مالك　　أشاب قذالى واستهام فؤاديا(٢)

وقال سويد بن أبى كامل :

تسمع الحُدّاثَ قولا حسنا　　لو أرادوا غيره لم يُسْتَمَع(٣)

وقال كعب بن رُواع :

ويخالها المرح السفيه تحبه　　ونوالها غير الحديث بعيد(٤)

وصورها رجل بأنها تبخل حتى بما لا يبخل به أحد :

وكيف طِلابى وصلَ من لو سألته　　قَذَى العينِ لم يُطلَبْ وذاك زهيد(٥)

وقد فعل مثل ذلك شعراء الغزل العذرى فى الإسلام . قال جميل :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى　　لو ابصره الواشى لقرت بلابله

بلا وبألا أستطيع وبالمُنَى　　وبالأمل المرجُوّ قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى　　أواخره لا نلتقى وأوائله(٦)

وقال كثير :

كأنى أنادى صخرة حين أعرضَتْ　　من الصُّمِّ لو تمشى بها العُصْمُ زلّت

صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة　　فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّت(٧)

---

(١) المفضليات ١ / ٥٤ صفاح : إعراض .

(٢) الأغانى ١٣ / ٧　　(٣) المفضليات ١ / ١٩٠ .

(٤) المؤتلف والمختلف ١٢٨　　(٥) شرح الحماسة ٣ / ١٩٠ .

(٦) الأغانى ٨ / ١٠٥　　(٧) الأغانى ٩ / ٢٧ صفوح : معرضة .

٧ — وستعرف من دراستنا لأثر البيئة والطبع أن شعراء العصر الجاهلى تحدثوا عن الوشاة والعذال وكتمان والحب الفراق والطيف والأطلال، وأنهم حنّوا وأنّوا إذا ماراثوا البرق يومض، أوسمعوا الحمام ينوح، أو أحسوا بالنسيم يهب من ناحية المحبوبة.

وهم بهذا كله يشبهون من جاء بعدهم من شعراء العصر الإسلامى.

٨ — وحياة هؤلاء العذريين بليغة الدلالة على ما كابدوا فى حبهم من آلام جسام، وما بذلوا فى سبيل حبيباتهم من تضحيات عظام، وليس ينقصها شىء مما حفلت به حياة أبطال الحب العذرى فى الإسلام. ويمتد بى القول لو استعرضت حياتهم جميعاً فى تفصيل، فأجتزىء بالمعالم البارزة والأحداث المثيرة.

ولست على يقين من صحة هذه التفاصيل التى تروى عن حياة هؤلاء المحبين، لأن الخيال القصصى قد أضاف إليها أحداثاً ومثيرات، لذا نجد اختلافاً فى الروايات وتناقضاً أحياناً، ونجد تشابهاً بين نهاية محب ونهاية محب آخر، ولكن هذا لا يتعارض مع العنصر الأصيل فى حياة الشاعر، وهو أنه أحب واصطلى بنار الحب، واحتمل فى حبه مبرح الآلام.

(١) المرقش الأكبر:

يقول أبو الفرج إن اسمه عمرو أو عوف بن سعد بن مالك بن ضبيعة ابن قيس بن بكر ابن وائل (١)، ويقول ابن قتيبة إن اسمه ربيعة بن سعد ابن مالك أو عمرو بن سعد بن مالك (٢). ويتردد داود الأنطاكى بين عمرو وعوف (٣). ولكنهم جميعاً متفقون على أنه من قبيلة بكر، وأنه كان يهوى أسماء بنت عوف بن مالك بين ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بنت عمه، وقد أغرم بأسماء منذ صغره وخطبها إلى عمه فرفض أن يزوجه إلا إذا عرف بالبأس — وقيل إلا إذا ترأس وزار الملوك (٤) — وصار

(١) الأغانى ٥/١٨٠
(٢) الشعر والشعراء ٥٤.
(٣) تزيين الأسواق ٨٨
(٤) الأغانى ٥/١٨٠.

يماطله ، ثم انطلق مرقش إلى ملك فأقام عنده زماناً ومدحه فنال جوائزه. وفى وغيبته نزلت بعوف أزمة ، فأتاه رجل من مراد وأرغبه فى المال، فزوجه أسماء على مائة من الإبل ، فلما عاد المرقش خشى إخوته أن يخبروه فيهلك ، فادعوا أن أسماء قد ماتت ، وأروه قبرها ، فى قصة تناولها الخيال فزاد فيها كثيراً ، فضنى ضنى شديداً . ثم علم بالأمر مصادفة . فارتحل إلى بلاد المرادى ، واصطحب معه وليدته وزوجها المخاص له ، فمرض فى الطريق حتى ما يحمل إلا معروضاً ، فنزلوا بكهف أسفل نجران ، وهى أرض مراد، وبينما هم فى الكهف سمع زوج وليدته يقول لها : لقد هلك مرقش سقماً ، وهلكنا معه ضراً وجوعا ، فبكت الوليدة ، فهددها زوجها أن يتركها مع مرقش إن لم تصخ إلى أمره ، فأصاخت وانطلقا وتركاه ، ولكن القدر ساق إليه راعياً فأبصره ، وتحدث معه مرقش ، فعرف أنه راع عند المرادى زوج أسماء ، فحمله إليها رسالة لعب فيها الخيال كثيراً ، وأعلمت زوجها ، وطلبت أن يعجل فى طلبه ، فركب فرسه وحمل أسماء على فرس آخر ، وسارا حتى وصلا إليه فاحتملاه ، فمات عند أسماء ودفن بأرض مراد [١].

ويستنتج الأب لويس شيخو اليسوعى أن المرقش مات سنة ٥٥٢م [٢] وقد ذكر طرفة قصة المرقش وموته من حبه [٣] كما ذكرها مجنون ليلى [٤].

(ب) والمرقش الأكبر قريب أذهله الحب هو المرقش الأصغر ، وهو أخو المرقش الأكبر [٥] أو ابن أخيه [٦] ، واسمه أبو عمرو ربيعة ابن سفيان بن سعد بن مالك ، وقيل اسمه عمرو بن حرملة بن سعد بن مالك [٧] ، كان يهوى فاطمة بنت المنذر الملك ويتشبب بها ، وكان له —

(١) الأغانى ٥/١٧٩ والشعر والشعراء ٥٤ وتزيين الأسواق ٨٨ ، وديوان طرفة ١١٨
(٢) شعراء النصرانية ٢٨٢ .
(٣) ديوان طرفة ١١٨ — ١٢٠ .
(٤) الأغانى ٢/٨٤ .
(٥) الشعر والشعراء ٥٦ .
(٦) الأغانى ٥/١٧٩ ، ١٨٣
(٧) الأغانى ٥/١٧٩ والشعر والشعراء ٥٦ .

كما كان للمرقش الأكبر — مكانة ممتازة فى بكر بن وائل وحروبها مع بنى تغلب ، وبأس وشجاعة ونجدة وتقدم فى المشاهد ونكاية فى العدو وحسن أثر [1] .

وقد كانت فاطمة تبادله حباً بحب ، فلما أفشى سرها لصديق وعلمت قطعت صلته ، فندم وعض على إصبعه فقطعها وجداً عليها .

وعبر عن ندمه فى قصيدة طويلة منها :

صحا قلبه عنهـا على أن ذُكْرَةً إذا خطرت دارت به الأرض قائما
أفاطم لو أن النسـاء ببلدة وأنت بأخرى لاتَّبعتك هائما
ألم تر أن المرء يَجذم كفه وَيجشَم من لوم الصديق المجاشما [2]

(ح) وهذا المحب هو عبد الله بن علقمة العامرى ، أحب حُبَيْش ، وقد ارتبطت قصة حبه وموته بحرب كان يقودها خالد بن الوليد . ذلك أنه بعد فتح مكة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيوش إلى قبائل شتى . فبعث خالد بن الوليد إلى بنى عامر ، فوافاهم بماء يقال له الغميصاء ، فقاتلهم حتى انهزموا ، ويقص خالد بن الوليد نفسه قصة ابن علقمة العامرى [3] . ويقصها أحد المشتركين فى الموقعة واسمه ابن أبى حَدْرد الأسلمى [4] . وملخصها أن خالد بن الوليد بعد هزيمة بنى عامر رأى غلاما له ذوائب يسير بفرسه فى أخريات القوم ، فوضع خالد رمحه بين كتفيه ، فقال الغلام « لا إله » . فقبض خالد عنه الرمح . فقال الغلام : « إلا اللات أحسنت أو أسأت » . فأسره خالد وشد وثاقه . ثم كلمه فلم يجب ، فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بنى جذيمة قد سباهن المسلمون

---

(١) الأغانى ١٧٩/٥ .
(٢) الأغانى ١٨٥/٥ ومجمع الأمثال للميدانى ١٣٤/١ والشعر والشعراء ٥٦ .
(٣) الأغانى ٢٣/٧ ، ٢٨ (٤) سيرة ابن هشام ٥٩/٤ .

فقال : يا خالد هل أنت واقف على هؤلاء النسوة ؟ فأجابه إلى طلبته . فأقبل على النسوة وفيهن جارية تدعى حبيش ، فقال لها : ناوليني يدك . فناولته يدها في ثوبها ، فقال لها أسلمي حبيش قبل نفاد العيش ، فقالت : « حييت عشراً وتسعاً وتراً وثمانيا تترى » . فقال :

أرَيْتكِ إن طالبتكم فوجدتكم بحَلْيَةَ أو أدركتكم بالخوانق
ألم يك حق أن يُنَوَّل عاشق تكلف إدلاج السرى والودائق
وقد قلت إذ أهلي لأهلك جيرة أثيبي بود قبل إحدى الصّفائق
أثيبي بود قبل أن تشحط النوى وينأى أمير بالحبيب المفارق

فتقدم إليه خالد فضرب عنقه فأقبلت الجارية ووضعت رأسه في حجرها وجعلت ترشفه وتقول :

لا تبعدن يا عمرو حياً وهالكا فحقّ بحسنِ المدح مثلك من مثل
لا تبعدن يا عمرو حياً وهالكا فقد عشت محمود الثنا جيِّد الفعل
فمن لطراد الخيل تُشْجَرَ بالقنا وللفخر يوما عند قرقرة البُزْل

وجعلت تبكي حتى ماتت ورأسه في حجرها(١) .

(ى) وعروة بن غرام بن مهاصر بطل من أبطال الحب العذرى والغزل العف ، قصر حبه على عفراء بنت عمه عقال بن مهاصر ، وقصر غزله عليها ، وهو شاعر مخضرم توفى سنة ٣٠هـ (٢) . وذكر الذهبي أنه توفى في خلافة عثمان سنة ٣٠ وقيل سنة ٢٨ هـ (٣) . وكان قد نشأ مع

---

(١) الأغانى ٧/٢٣ — ٢٨ وسيرة ابن هشام٤/٥٩ وتزين الأسواق ٨٥ ، وتاريخ الأمم والملوك ٣/١٢٥ . حلية والخوانق : موضعان ، وفى طبعه ساسى حيلة ، ولكنها فى طبعة دار الكتب حلية ٧/٢٩٠ . الودائق : جمع وديقة وهى شدة الحر . الصفائق : النوائب . تشجر : تطعن . قرقرة: هدير الإبل ، ودعاؤها . البزل : جمع بازل وهو البعير فى السنة التاسعة ، وفى الأصل « وللعجز يوما عند قرقرة البذل » وهو تحريف .

(٢) فوات الوفيات ٢/٣٥ (٣) تزيين الأسواق ٧٦ .

عفراء منذ الصغر ، لأن أباه مات وترك عروة فى حجر عمه عقال ، فكانا يلعبان حتى تآلف كل منهما صاحبه إلفاً شديداً ، وكان عمه يمنيه أن تكون عفراء زوجة له . فلما نضجت عفراء أرسل عروة عمته إلى عمه ليزوجه عفراء ، فاعتذر بأن عروة فقير، وليست عليه عجلة . فسكن عروة بعض السكون ، ولكن أم عفراء كانت سيئة الرأى فيه ، وتريد لابنتها زوجاً غنياً لأنها ذات كمال وجمال ، فلما تكاملت سن عروة وبلغ أشده علم أن غنياً من قومه يخطب عفراء ، فلم يطق صبراً ولم يرسل إلى عمه رسولا ، بل كلمه بنفسه وكشف له عن حبه ،وأن عفراء لو تزوجها غيره لمات ، فعطف عليه ووعده خيرا ، وطلب منه أن يضرب فى الأرض لعله يغتنى ، وحاول عروة أن يتودد إلى قلب أم عفراء لعلها تخفف من شططها فى المهر فأبت ، فأيقن أن المال وسيلة إلى عفراء ، فعزم أن يقصد ابن عم له موسر بالرى ، وأخبر والدى عفراء فصوبا رأيه ووعداه ألا يحدثا أمراً حتى يعود . وشد على راحلته ، وصحبه صديقان من بنى هليل بن عامر ، وكان فى طريقه مشدوها يكلمه صاحباه فلا يفهم حتى يعيدا عليه القول ، لأن فكره مرتبط بعفراء ، ومقسم بين الأمل واليأس ، وأحسن ابن عمه لقاءه ووصله بمائة من الإبل ، فانصرف بها إلى أهله مسروراً عظيم الأمل فى زواج عفراء . ولم يكن يدرى أن أموياً غنياً قدم من الشام فنزل فى حى عفراء فنحر وأطعم ووهب ، ورأى عفراء فأعجبته ، فخطبها إلى أبيها ، فاعتذر بأنه قد سماها لابن عمها العزيز عليه ، فرغبه الأموى فى عظم المهر فلم يرغب ، فعدل إلى أمها فوافق عندها قبولا ، ومازالت بزوجها حتى قبل ، ولكن عفراء كانت على عهدها لعروة، وكان هذا الزواج بالرغم منها ، فقد قالت قصيدة منها :

يا عرو إن الحى قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا(١)

---

(٧) الأغانى ٢٠/١٥٣ وفوات الوفيات ٢/٣٠ .

وفى رواية أخرى أن الذى تزوجها ابن عم لها من البلقاء[1]

وصب عروة غضبه على عمه لأنه نكث بعهده ، فهجاه ، ودعا عليه أن يصيبه من الهم ما أصاب عروة ، وأن يبتلى بعروق عنيف إلى حبيب ميئوس منه كما ابتلى عروة :

فياعمُّ ياذا الغدر لا زلت مبتلًى حليفاً لهمٍّ لازم وهوان
غدرتَ وكان الغدر منك سجية فألزمت قلبى دائم الخفقان
وأورثتنى غماً وكرباً وحسرة وأورثت عينِي دائم الهملان
فلا زلتَ ذا شوق إلى من هويتَه وقلبك مقسوما بكل مكان
فياعم لا أُسقيتَ من ذى قرابة بِلالاً فقد زلَّت بك القدمان
ومَنَّيتنى عفراء حتى رجوتُها وشاع الذى منَّيتَ كلَّ مكان
فوالله لولا حب عفراء ما التقى علىَّ رواقا بيتك الخَلَقان
رواقان هفَّافان لا خير فيهما إذا هبت الأرواح يصطفقان[2]

ويقول فى قصيدة أخرى :

فقلت لعراف اليمامة داونى فإنك إن أبرأتنى لطبيب
فما بى من حُمَّى ولا مس جِنة ولكنَّ عمى الِحميرىَّ كذوب[3]

ويأبى الخيال إلا أن يعمل هنا ما عمله فى قصة المرقش الأكبر ، فهو يضيف إلى قصة عروة ما أضافه إلى قصة المرقش من عنصر التعمية على

---

(١) الشعر والشعراء ٢٣٧ .
(٢) النوادر للقالى ١٦١ وتزيين الأسواق ٧٧ .
(٣) تزيين الأسواق ٧٤ .

الحب ، ثم طريقة وصول الحقيقة إليه ، لأن عم عروة عمد إلى قبر عتيق فجدده ، وسأل الحى كتمان أمر عفراء ، وقدم عروة بعد أيام فنعاها فقال إليه وأراه القبر ، فصار يختلف إليه أياماً وهو هالك مضنى ، حتى أخبرته جارية الخبر ، فركب إلى الشام يريد الأموى ، ولقيه وانتسب إليه فى عدنان ، فأحسن الأموى ضيافته ، ومكث عنده أياماً ، ثم بعث إلى عفراء خاتمه كما بعث مرقش إلى أسماء خاتمه ، وطرحه فى قعب اللبن كما فعل عبد أسماء بخاتم مرقش ، فعلمت أنه خاتم عروة كما علمت أسماء من قبل ، ثم أعلمت زوجها كما أعلمت أسماء زوجها ؛ فعاتبه الأموى على كتمانه نفسه ، وزاده إكراماً وتركه يتحدث مع عفراء ، وأوصى خادماً له أن يستمعهما . وهذا خيال أيضا لأنه يتنافى مع الغيرة العربية ، ولأن تجسس الخادم منقصة من قدر عفراء ، فتشاكيا ، وبكى عروة وعرضت عليه عفراء قدحاً من خمر فرفض ، ثم أعلمها أنه لا يستطيع البقاء بعد أن علم الأموى حقيقته ، فبكت وبكى وانصرف ، فلما جاء زوجها أعلمته الخادم حديثهما ، وأعلمته عفراء أن عروة مزمع الرحلة . فدعاه وألطف له القول ووعده ألا يحول بينهما وبين الاجتماع ، بل تذهب الرواية إلى أكثر من ذلك ، فتدعى أنه قال له : « لئن شئت لا فارقتها ولأنزلن لك عنها[1] » فجزاه عروة خيراً وأثنى عليه وتجلد ، وادعى أن أموراً تضطره إلى الرجوع إلى وطنه ووعد أن يعود ، ولكنه بعد رحيله نكس وأصابه غشى وخفقان . وتختلق القصة شبهاً بينه وبين يعقوب عليه السلام ، فتصوره أنه كان كلما أغمى عليه ألقى صاحباه على وجهه خماراً لعفراء زودته إياه فيفيق ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يصل إلى حيه بثلاث ليال ، وعلمت عفراء فجزعت جزعا شديداً ، ورثته بأبيات لم تزل ترددها وتندبه حتى ماتت بعده بأيام قلائل[2] . وأرجح أن تشبيه حاله بحال

---

(١) الأغانى ٢٠/١٥٤ .
(٢) الأغانى ٢٠/١٥٥ .

يعقوب تخييل إسلامى متأثر بقصة يوسف فى القرآن الكريم .

وفى رواية أخرى أنه لم يمت فى طريقه ، وأنه قد بلغ أهله نحيلا مضنى ، وكانت أخواته وخالته وجدته يعظنه ولكن لا يؤثر فيه وعظهن ، فجئن له بأبى كحيلة رباح بن شداد وهو عراف حجر ليداويه فلم ينفعه دواؤه ، أو أنه أصيب بالهلاس حتى لم يبق منه شيئاً ، فاستطبوا له عند طبيب باليمامة اسمه سالم ، فجعل يسقيه الدواء فلا ينفعه ، فخرجوا إلى طبيب بحجر فلم ينتفع بعلاجه[1] ، وهو يشير إلى ذلك بقوله :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف حجر إن هما شفيانى
فما تركا من حيلة يعلمانها ... ولا سُلْوَةَ إلا بهما سقيانى
فقالا شفاك الله والله مالنا ... بما حملت منك الضلوع يدان
فويلى على عفراء ويلاً كأنه ... على الصدر والأحشاء حدُّ سنان
أحب ابنة العذرى حباً وإن نأت ... ودانيت فيها غير ما متدان
تحملت من عفراء ما ليس لى به ... ولا للجبال الراسيات يدان[2]

وبلغ به الشوق أنه كان يأتى حياض الماء التى كانت تردها إبل عفراء فيلصق بها صدره ، فيقال له : مهلا فإنك قاتل نفسك ، فاتق الله فلا يقبل[3] ، وما زال على غرامه وهيامه حتى قضى نحبه .

وعلمت عفراء بموته فقالت لزوجها : قد كان من خبر ابن عمى ما كان بلغك ، ووالله ما عرفت منه قط إلا الحسن الجميل ، وقد مات بسببى ولا بد لى من أن أندبه ، فأذن لها ، فندبته ثلاثا حتى توفيت فى اليوم

---

(١) الأغانى ٢٠/١٥٦ والشعر والشعراء ٢٣٨ .

(٢) الشعر والشعراء ٢٣٨ والأغانى ٢٠/١٥٥ والنوادر لأبى على القالى ١٦١ ومجالس ثعلب ١/١٩١ (٣) الأغانى ٢٠/١٥٦ .

الرابع[1] ، أو أنها استأذنت زوجها فى زيارة قبر عروة ، فأذن لها ، فصارت تتمرغ على القبر وتبكى[2] .

ويحاول الخيال القاص أن ينضر المحبين فى موتهما بما حرماه فى حياتهما ، فيقول إن عفراء رثت عروة بشعر على قبره ، وألقت نفسها عليه فماتت ، فدفنت بجانبه ، فنبتت من القبرين شجرتان حتى إذا صارتا على حد قامة التفتا ، فكان المارة ينظرون إليهما ولا يعرفون من أى ضرب من النبات ، وكثيراً ما أنشدوا فيهما شعراً[3] .

ومن رثاء عفراء له ما يكشف عن أنها كانت تبادله الحب ، فهى تدعو على من نعوه ، وتدعو على الفتيان ألا ينعموا بعده بلذة ولا سلامة ، وتوئس النساء أن يلدن مثله وأن يفرحن بوليد :

ألا أيها الركب المخبّون ويحكم ... بحقٍّ نعيتم عروة بن حزام ؟
فإن كان حقاً ماتقولون فاعلموا ... بأن قد نعيتم بدرَ كل ظلام
فلا تَهْنَأ الفتيـان بعدك لذةٌ ... ولا رجعوا من غيبة بسلام
وقل للحبالى لا ترجين غائباً ... ولا فرحات بعـده بغلام[4]

وقد ذكر مجنون ليلى قصته :

عجبت لعروة العذرى أمسى ... أحاديثاً لقوم بعـــد قوم
وعروة مات موتاً مستريحاً ... وهاءنا ميت فى كل يوم[5]

(هـ) وكذلك قتل الحب عبد الله بن العجلان بن عبد الأحب من نهد فقد رأى على ماء غسان بنجد هنداً فى بنات من العرب كن يقصدن هذا

---

(٢) الأغانى ٢٠/١٥٧ (٢) تزيين الأسواق ٧٥ .
(٣) تزيين الأسواق ٧٥ .
(٤) الأغانى ٢٠/١٥٥ وتزيين الأسواق ٧٥ (٥) الأغانى ٢/٨٤

الماء ، ويخلعن ثيابهن ويغتسلن ، وكانت هند طويلة الشعر شفافة الجسم ، فأسره جمالها ، وسحرته نظراتها ، وعبر عن حبه بقوله :

لقد كنتُ ذا بأس شديد وهمة إذا شئت لمساً للسماء لمستها

أتتنى سهام من لحاظ فأرشقت بقلبى ولو أستطيع رداً رددتها

وشكا لصديقه فقال له : اكتم ما بك واخطبها إلى أبيها ، ففعل وتزوج بها[1] ، وكانت من أقاربه من نهد أيضاً ، وظل أسعد الناس سبع سنوات أو ثمانى سنوات حتى فرق بينهما أبوه .

ذلك أن العجلان كان سيداً فى قومه ، وورث ابنه عنه سيادته ، وكان العجلان أكثر بنى نهد مالا ، ولم يكن له ولد غير عبد الله ، ولم تكن هند ولدت فى هذه المدة ، فقال العجلان لابنه : إنه لا ولد لى غيرك ولا ولد لك ، وهذه المرأة عاقر ، فطلقها وتزوج غيرها ، فأبى .

فآلى ألا يكلمه حتى يطلقها ، ولكنه أقام على أمره .فعمد إليه أبوه يوماً وهو سكران ، وعاوده فى أمرها وأنبه ، وجمع عليه مشيخة الحى وفتيانهم ، فتناولوه بألسنتهم وعيروه شغفه بها وضعف حزمه ، ولم يزالوا به حتى طلقها ، ولكنه أسف عليها أسفاً شديداً ، وعلم أن أباها زوجها لرجل من بنى نمير فدنف عبد الله وسقم ، وعرضوا عليه فتيات الحى جميعا ، فلم يقبل واحدة منهن ، وما زال يقول فيها الشعر ويبكيها حتى مات أسفا عليها[2] ، وكان موته كما ذكر فى « النزهة » قبل عام الفيل بأربعة أعوام[3] ، وقد ذكر بعض الشعراء موته من الحب :

فإن مت من الحب فقد مات ابن عجلان[4]

وذكر ابن رشيق فى كتابه « بلغة الإشفاق فى ذكر أيام العشاق »

---

(١) تزيين الأسواق ٨٠ (٢) الأغانى ١٩ / ١٠٢ .
(٣) تزيين الأسواق ٨٠ (٤) الشعر والشعراء ٢٧٤ .

أن عبد الله بن العجلان عاش يكابد المحنة وغصص الشوق ثلاثين سنة ، ولذا ضرب المثل به كما ضرب بعروة ، من ذلك قول قيس :

فما وجدَتْ شوقي بها أم واحد ولا وجدالنَّهديُّ وجدى على هند
ولا وجد العذرى عروة فى الهوى كوجدى ولا من كان قبلى ولا بعدى

وهو يشير إلى عبد الله بقوله « النهدى » . وقال البحترى :

هوىً لا جميل فى بثينة ناله بمثلى ولا عبد بن عجلان فى هند[1]

ومن أسفه عليها قوله :

فارقت هنداً طائعاً فندمت عند فراقها
فالعين تذرى دمعها كالدر من آماقها
متحلِّباً فوق الردا ء يجول من رقراقها[2]

(و) وكان مسافر بن عمر بن أمية يحب هند بنت عتبة وتحبه ، فخرج إلى الحيرة وأتى النعمان بن المنذر ، ثم أقبل أبو سفيان فى بعض ما كان يأتى الحيرة ، فلقى مسافراً ، فسأله مسافر عن حال قريش والناس ، فأخبره وقال له فيما يقول : وتزوجت من هند بنت عتبة . فدخله من ذلك ما اعتلَّ معه حتى استسقى بطنه ، وقال :

ألا إن هنداً أصبحت منك محرما وأصبحت من أدنى حموتها حما
وأصبحت كالمقمور جفن سلاحه يقلب بالكفين قوسا وأسهما

فدعا له الملك الأطباء فكووه فما زاد إلا ثقلا ، فخرج يريد مكة . فلما انتهى إلى موضع يقال له « هبالة » ، مات فدفن هناك[3] .

---

(١) تزيين الأسواق ٧٩ (٢) الأغانى ١٩/١٠٣ وتزيين الأسواق ٨٠ .
(٣) الأغانى ٨/٤٦ ، ٤٨ وقد ذكر أن مسافراً أتى عمرو بن هند أو النعمان بن المنذر وليس من الممكن أن تكون هند معاصرة لعمرو بن هند صاحب عمرو بن كلثوم والحارث ابن حلزة .

(ز) وتعلق عمرو بن كعب بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء عقيلة بنت عمه أبى النجاد ، وكان قد رباه عمه بعد وفاة أبيه ، فنشأ معها فى بيت واحد ، فلما كبرا خطبها إلى عمه فطلب مهراً أعجزه ، فأشار عليه بعض أصحابه بالخروج إلى إبرويز بن كسرى لما كان بين أجدادهما من الصلة ، ولكنه علم من عرّاف فى الطريق أنه ساع فيما لا يدرك ، فعاد فوجد عمه قد زوج عقيلة لفزارى ، فهام على وجهه باليمامة ، لايرى إلا شاخصا إلى السماء وهو ينشد :

إذا جن ليل فاضت العين أدمعاً   على الخد كالغدران أو كالسحائب
فما أسفى إلا على ذوب مهجتى   ولم أدر يوما كيف حال الحبائب

وكانت عقيلة تبادله حبا بحب ، فلم تمكن الفزارى منها ، حتى قالوا إنها كانت تشده فى الليل إلى كسر البيت وتبيت فى الخدر ، فإذا أصبح الصبح تطلقه فيستحى أن يخبر أحداً بذلك ، ومكثا على ذلك سبعين ليلة ، فلما كثرت ظنون الناس فيه خرج فلا يُدرَى أين ذهب ، وعادت عقيلة إلى بيت أبيها لا تتناول إلا الأقل من الطعام ، وأذابها البكاء على عمرو حتى ماتت[1] .

(ح) وكان جحدر بن ضُبَيْعة من بنى كنة قد هوى امرأة أخيه وكتم هواه ، فسل جسمه ضرا وهزالا ، واستعجم أمره على أهله ، فلما خيف عليه الموت أحضروا الحارث بن كلدة ، فلما رآه واستبهم عليه أمره قال : أطعموه واسقوه نبيذا ، فلما شرب قال :

ألا رفقاً ألا رفقاً   قليــلا ما أكونه
ألمـا بى على الأبيــا   ت بالخيف أزرهنه
غزالا ما رأيت اليــو   م فى وفد بنى كنه

---

(١) الدر المنثور ٣٤٨ .

غضيض الطرف مربوبا وفى منطقه عنـــه

فقال الطبيب قد كاد يبدى عما بنفسه ، فزيدوه من الشراب ، ففعلوا ، فلما شرب ثانية قال :

أيهـــا الركب سلموا واربعوا كى تكلموا
وقفوا لبـــانة وتحيـــوا وتغنموا
خرجت مزنة من البـــحر ريـــا تمجمج
هى ما كنـــتى وتز عم أنى لهـــا حمو

فلما سمع أخوه مقالته طلق امرأته ونزل عنها له ، فأبى أن يتزوجها حياء من أخيه ، فلم يزل على حالته حتى قضى نحبه[1] .

(ط) وهناك غير هؤلاء أحبوا حباً عذرياً أحرقهم وصبروا على حرقه ، أو توسلوا به إلى زواج ، كأبى مالك بن عبد الله بن مسعود ، أحب ريا بنت مسعود بن رقاش[2] ، وعتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح ، أحب ريا بنت الغطريف السلمى[3] ، والمخبل القيسى ، أحب ميلاء بنت عمه[4] ، وعدى بن زيد العبادى أحب هند بنت النعمان بن المنذر ، وتزوجها على كره من أبيها ، ثم قتله النعمان فترهبت بعده فى الدير المعروف بدير هند فى ظاهر الحيرة ، وقد أدركت الإسلام وخطبها المغيرة بن شعبة فردته[5] ، ومالك بن الصمصامة أحب حباً عذريا جنوب بنت محصن الجعدى[6] .

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢ ٣٢
(٢) تزين الأسواق ٩١ .
(٣) تزيين الأسواق ٩١
(٤) الأغانى ٢١ / ١٦٠ .
(٥) الأغانى ٢/١٢٨ — ١٣٢
(٦) الأغانى ١٩/ ٨٣ .

ثانياً : الغزل الحسى

تمهيد :

الأدب المكشوف والأدب المستور :

هل كانت هنالك ضرورة لتصوير الشعراء هذه العلاقة الخاصة بينهم وبين النساء ؟ ألم يكن الأخلق بهـــذه الأسرار أن يسدل عليها الستار ؟ فلماذا كشف الشعراء عن نفوسهم ما كان يجب أن يخفوا ؟

وهل نجد مدعاة لدراسة هذا الغزل المكشوف الذى كان من واجب الشعراء أن يستروه ؟

نحن الآن أمام مذهبين من المذاهب الأدبيـة ، يختلف حكمهما على هذا الغزل : مذهب يرى أن الأدب يجب أن يبث فى النفوس خلال الخير والحق والجمال ، وهو إذا يَزْوَرُّ عن دراسة هذا الأدب المكشوف لأنه يجافى الخلق الكريم ، ومذهب يرى أن الأديب حر فى تعبيره عن مشاعره بصرف النظر عما فى مضامن أدبه من خير أو من شر ، وهو إذاً يحفل بدارسة هذا الضرب من الغزل .

١ — وقد سبق أفلاطون إلى المذهب الأخلاقى فى قوله « يجب أن نراقب شعراءنا ، فنوجب عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الحميد ، وإلا فليكفوا عن النظم . وعلينا أن نوسع نطاق مراقبتنا ، فتشمل أساتذة كل فن ، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن والفساد والسفالة والسماجة ، لكى لا ينشأ حكامنا فى وسط صور الرذيلة نشوء الماشية فى مراع رديئة ، فتتسرب الأضرار إلى نفوسهم فتفسدها » (١)

---

(١) جمهورية أفلاطون ٧٧ ترجمة حنا خباز .

وقد هاجم الشعراء فى كتابه (القوانين)، ذلك بأنه مجّد هومير، وبلل ثراه بندى الزهر والريحان، ثم قرر أن الفنانين شعراء وخطباء لا يصح أن يكونوا أمثلة لشباب أثينا. وكثيراً ما أغرى بهم الحكام ليحولوا بينهم وبين التأثير فى نفوس الشباب، إلا إذا كتبوا عن فضيلة خلقية، وإلا إذا صانوا أخيلتهم عن الأوهام الفاسدة التى لا تجد لها ظلالا فى الحقيقة (١).

وكذلك فعل أرسطو، لأنه رأى أن الأدب قد يتعرض للرذيلة ولكن ليحاربها، ويجب أن يمنع من أن يقررها ويشيعها (٢).

ثم توالى دعاة المذهب الأخلاقى جيلا بعد جيل.

وقد اهتم الكلاسيكيون بالثمرة الأخلاقية للأدب، وحرصوا على أن يحقق الأدب المثل العالية، فواجب الشعراء أن يحببوا إلى قرائهم الفضائل الدينية والاجتماعية، وأعظم الشعراء هو الذى يتجلى فى شعره إمتاع القراء وتهذيبهم، وتغذية عقولهم وتقويم أخلاقهم، وواجب القصصيين أن يبصروا المجتمع بمساوئه، ويصلحوا عاداته. وعلى المؤلفين للمسرح أن يكونوا دعاة للإصلاح، ومن الجرم أن يَفْتنَّ الكاتب المسرحى فى تصوير الرذائل تصويراً يحببها إلى النظارة، أو يدفعهم إلى مناصرتها.

وخلاصة مذهبهم نَصرُ الحق على الباطل، والخير على الشر، والواجب على العاطفة، والعزيمة على الهوى.

وثمة أنصار للمذهب الأخلاقى فى كل أمة

يقول سدنى فى كتابه (دفاع عن الشاعر) Defence of Poet الذى نشره سنة ١٨٥١ م: «إن الأدب يرمى إلى أن يصرف العقل عن الشر

---

(١) كتاب الخطابة لأرسطوطاليس. ترجمة إبراهيم سلامة. المقدمة ٢٥.

(٢) المرجع السابق ٣٣.

إلى الخير فى غير ادّعاء ، كما تضاف المشهيات إلى طعام الطفل ليستسيغه ، (١)»

ويرى الداعون إلى المذهب الأخلاقى أن بين تقدير الجمال ورقى السلوك علاقة خفية متبادلة ، لأن تقدير الجمال يرقى السلوك ، ورقى السلوك يؤدى إلى زيادة الميل إلى خلْق الجمال . ويظهر أن وردسورث ورسكن وتولستوى قالوا بهذا الرأى ، وإن لم يستمسكوا به على الدوام » (٢) .

٢ — أما المذهب الآخر فيرى أن الفنان حر ، لأن الغرض من الفن ليس التهذيب ولا الترقية ، بل الغرض منه تعبير الفنان عن خلجاته ، وتصويره لما يحس به ، ولما يروقه أو يؤلمه .

فالغاية من الفن الإمتاع وبعث السرور والإعجاب والتنفيس عن النفس ، أما المذهب الخلقى فإنه — كما يقول جاريت — « يغض من قيمة جمال الشعر وجاذبيته ، ويصوره حيلة وخداعا . ولعل دريدن Dryden كان أول كاتب إنجليزى عاب هذا المذهب فى كتابه (دفاع عن مقال فى الشعر التمثيلى) بقوله : إن المتعة هى الغرض الرئيسى للشعر إن لم تكن هى الغرض الوحيد . أما التعليم فلا يمكن إلا أن يكون الغرض الثانى(٣) .

وإذا كنا نحبس الفن والأدب فى دائرة التثقيف والتهذيب فإننا نغض من قيمة التمثيليات والروايات الخيالية التى تصور صراعاً بين العدل والظلم والخير والشر والأمانة والخيانة ، لأن هذه الرذائل عناصر لا غنى عنها ، لذا يلجأ القصاص والوعاظ والكتاب الأخلاقيون إلى تصوير الشخصيات الشريرة وما يلقى أصحابها من محن ، ليوازنوا بين حالها وحال الأخيار ، ولقد يتأنقون فى تصوير هذه الشخصيات تأنقا .

فليس حكمنا على إنتاج الأديب راجعاً إلى ما فيه من خير أو من شر

---

(١) فلسفة الجمال ٦٢ .

(٢) فلسفة الجمال ٦١ جاريت

(٣) فلسفة الجمال ٦٥ .

وإنما يرجع إلى روعة الإنتاج نفسه ، وصدق الشعور الذى ابتعثه ، والبراعة فى تصوير هذا الشعور » وربما كان أقذع ما توصف به قصيدة أنها تهذيبية أو تثقيفية ، ولا يفوق ذلك الوصف إقذاعاً إلا قولنا إنها قبيحة » [1] .

وليست الأخلاق بحاجة إلى تعهد متكلف لتثبت فى تيار الحياة ، ولتندس فى الفن على هذا النحو المصطنع ، وكلما كان الفن حراً فى تصويره للواقع كان أتم ، « وليس الوجدان الفنى بحاجة إلى الوجدان الأخلاقى يستمد منه العفة ، لأنه ينطوى فى ذاته على هذه العفة التى هى الحياء الفنى ، بل إن الفنان حين يتجاوز هذا الحياء فيخرج على الوجدان الفنى ويدس فى الفن ما لا تدعو إليه حاجة فنية أو يسوغه مسوغ فنى — ولو كان من أنبل المسوغات وأشرفها — فإنه لا يكون قد أخطأ من الناحية الفنية فحسب ، بل يكون قد أجرم من الناحية الأخلاقية، لأنه أخل بواجبه من حيث إنه فنان[2] .

وبعد فقد صور هؤلاء الشعراء نزعاتهم خاضعين لفنهم وحده ، كما صور آخرون من بعدهم فى الشرق والغرب هذه النزعات ، وإن أنكرها الدين والعرف ، ولا ننسى هنا مجون أبى نواس والحسين بن الضحاك وبشار بن برد وابن سُكرة ، ولا ننسى اعترافات روسو ، وقصائد بيرون .

وما من شك فى أن فى آثارهم متعة فنية وحيوية ، وأن شعرهم صادق التعبير عن خلجاتهم ، صادق التصوير لأحوالهم وأحوال مجتمعهم الخاص ، فمن حقهم أن يدرسوا ومن حق أدبهم أن يُفرَدَ بكثير من العناية .

وإذا فما بدٌ من أن ننظر فى الشعر المكشوف إلى فنيّته ، فنقدر براعة تصويره ، ونستشف صدق شعوره ، ونقضى لصاحبه بالتفوق فيما

---

(١) فلسفة الجمال ٦٤ جاريت .
(٢) المجمل فى فلسفة الفن . كروتشة ١٧١

أجاد ، ونحكم على الشعر نفسه حكما أدبيا غير مشوب بالحكم الأخلاقى أو الدينى ، لأن الاحتكام إلى الأخلاق أو الدين إنما يتأتى بالنسبة للموضوع نفسه لا بالنسبة إلى الإنتاج .

ولعل الناقد عبد العزيز الجرجانى عنى هذا بقوله « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر ، لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر . . . ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر »[1] .

وليس يشك دارس فى أن كثيراً من الشعر العالى حافل بنزوات الشاعر وشذوذه ومجافاته للعرف أو للدين أو للخلق الكريم ، لكنه مع مجافاته ممتع من ناحيته الفنية ، كخمريات أبى نواس والأعشى وغزل امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة ، واعترافات روسو وقصائد بيرون وبودلير .

ولست أقصد أن ندرس أدبهم لنطبقه فى حياتنا ، أو ندعو غيرنا إلى أن يعيد ظروفه ويحيا فيها ، أو أن ندرسه إعجابا بمسلك أصحابه وخلقهم ، فإن هذه الدراسة الفنية أبعد ما تكون عن هذه الأغراض .

أما شيوع مذهب الفنية ، أو كما يقال خطأ (الفن للفن) فإنه استغلال المذهب فى غير ما أريد به ، ذلك أنه شاع فى فرنسا وغيرها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وجرد من ملابساته التاريخية ، حتى انصرف إلى معان لم يقصدها من دعوا إليه أول الامر . فمن الناس من يظن أن معنى الفن للفن هو الخروج على قواعد الأخلاق ، والضرب على غير هدى ، فيما يسمى بالأدب المكشوف ، وهذا فهم خاطئ ، ومن واجبنا أن نفهم مدلول هذا المذهب فهما تاريخيا يبين المراد منه ، والظرف الذى نشأ فيه .

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٦١ .

ظهر هذا المذهب كما فهمه الفرنسيون فى أواخر القرن التاسع عشر، وعلى رأسهم (تيوفيل جوتييه) ردا على المذهب الرومانتيكى الذى اتخذ من الأدب وسيلة للتعبير عن المشاعر الشخصية قبل كل شىء، وأسرف فى هذا الاتجاه، حتى صار فى كثير من الأحيان صرخات عاطفية أو أنات شعورية، ولم يحفل بغير الترجمة عن العاطفة الفردية الشخصية، وكان فى هذا نزول بالأدب إلى مستوى الوسيلة.

وثار على هذا الاتجاه أدباء رأوا أن من حق الأدب أن يصبح غاية فى ذاته، وفنا مقصودا لا مجرد وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة، وأخذوا يتجهون نحو الوصف بنوع خاص.

وإذاً فإنه يبدو أن مذهب الفن للفن لا علاقة له بالمسألة الأخلاقية وارتباطها بالأدب، والقول بأن الفن غاية فى ذاته لا محل للحكم عليه حكما أخلاقيا، بأن يقال إن المذهب يماشى الأخلاق أو يعارضها [1].

مفيفتم :

« هو الغزل الحسى المادى الذى أساسه حب تمتزج به ميول شهوانية أو عواطف خالية من التحرج، وأوصاف ربما لا يرضى عنها إلا أنصار الأدب المكشوف» [2]. هو تعبير عن نوع من الحب أساسه الشوق إلى الاستمتاع بالمرأة الجميلة فى نظر الشاعر، فليس متسما بالروحانية التى وجدناها عند العذريين، ولا حافلا بالأشواق الملتهبة والنغم الحزين، ولا مقصوراً على امرأة واحدة يتغنى الشاعر حياته بحبها ويبكى لها ويحتوى غيرها من النساء، وليس فيه بسطة فى تحليل عاطفة الشاعر كما حلل العذريون عواطفهم، لأنه تصوير لحب عابث من طبيعته الإعجاب

---

(١) فى الأدب والنقد ٢٩ محمد مندور.

(٢) الأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن ٧٤.

المؤقت بالجمال حتى يقضى الشاعر وطراً فينقلب إلى جميلة أخرى وهكذا.

ولقد يجتمع فى قلب الشاعر حب اثنتين فى آن واحد ، فى كل منهما ضرب من الجمال يروقه .

وأصحاب هذا الغزل لا طاقة لهم بالصبر على واحدة ؛ يقول أدلر : « إن بعض الناس يهوى أكثر من اثنتين فى وقت واحد ؛ لأنهم يرون أن الحب قيد يحد من سطوتهم ؛ فهم يلتمسون فى حبين تخففا من قيود الحب الواحد ومايلقى عليهم من تبعة ، ويرون فى التردد بين أعطاف الواحد إلى أعطاف الآخر ما يبقى عليهم قدرهم ويخفف من التبعة الملقاة عليهم[1] » .

فحبهم قائم على الاستطراف المؤقت ، ولذلك قلما يحفلون بهجر ، ولم يحفلون ؟ أليست الجميلات كثيرات ؟

أليسوا قادرين على النقلة السريعة من امرأة إلى أخرى ؟ بل لقد يتهددون الهاجرة بحب جديد ، قال امرؤ القيس :

أأسماء أمسى وُدُّها قد تغيرا   سَنُبْدِلُ إن أبدلْتِ بالود آخَرَ[2]

ولم يتحرج أبطال هذا الضرب من الغزل من التصريح بلذاتهم ، أو دعوة غيرهم إلى مثلها كما سيجىء .

نشأته

لم ينشأ عربيا :

أرى أن هذا الضرب من إعلان الرجل للذاته ، وجهره باستمتاعه

---

(١) علم النفس الفردى إسحق رمزى ١٥١ .
(٢) ديوان امرئ القيس ٦٩ .

بالمرأة ، ومجاهرته بالفحش يناقض الخلق العربى القائم على العفة أو التعفف ، والغيرة على النساء ، والشهامة والسيادة .

١ — وكيف لا يناقض الخلق العربى ؟ وقد كانت العفة من الموازين التى توزن بها أقدار الرجال ؟ ولم تكن المجانة والخلاعة مما يتغاضون عنه ، فامرؤ القيس طرده أبوه لخلاعته ، والمنافرة التى كانت بين علقمة ابن علاثة وابن عمه عامر بن الطفيل كان سببها قول علقمة له : « إنك أعور البصر عاهر الذكر وأنا عفيف » [١] ، فلما تنافرا إلى هرم بن قطبة حكيم العرب قال لعلقمة : « بأى شىء أنت أسود من عامر ؟

قال : « أنا بصير وهو أعور ، وأنا أبو عشرة وهو عقيم ، وأنا عفيف وهو عاهر » [٢] .

كانت العفة كالشجاعة والكرم فى وزن واحد مما يفخر بها الرجال ، ومما يسودون لها ، لذا كانت السبب فى تفضيل بسطام بن قيس على منافسيه « ومما فضل به بسطام بن قيس على عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث بن شهاب أن بسطاماً كان فارساً عفيفاً جواداً ، وكان بخيلا ، وكان عامر فارساً جواداً عاهراً ، فاجتمعت فى بسطام ثلاث خصال شريفة ففضلهما » [٣] .

وقد لقبوا حسان ملك حمير — وهو أحد الأذواء — بلقب ذو معاهر ؛ لأنه كان يُرمى بالفجور [٤] .

وطالما تباهى الرجال بعفتهم [٥] ، وطالما مُدحوا بها ورُثوا [٦] .

---

(١) طهارة العرب . الشنقيطى ١٢ (٢) أخبار النساء لابن القيم ٨٦
(٣) أخبار النساء لابن القيم ٨٦ (٤) طهارة العرب ١٢
(٥) يزدع بن عدى الأوسى . مجالس ثعلب ٢٥٣/١ وشاعر آخر . الامالى ٥/١ : وعنترة الديوان ١٨٥
(٦) الخنساء فى رثاء صخر . ديوان الخنساء ٨٢ ، ٦٨ ، ٧٠ وبلاغات النساء ١٦٨ والخرنق . دوانم المخطوط . وأعشى باهله فى رثاء المنتشر بن وهب . طهارة العرب ٣٤ .

وكان النساء أكثر من الرجال عفة وتصوناً ، حتى لقد عجبت هند بنت عتبة وهى تعاهد الرسول مع نسوة من قريش من أن يعاهدهن على ألا يزنين ، وقالت : وهل تزنى الحرة يارسول الله ؟ (١)

وقد أشاد الشعراء بعفة الحبيبات وتمنعهن وبعد منالهن (٢) ، وكانت الغيرة على النساء من أبرز أخلاق العرب (٣) .

٢ — وكانت علاقة الرجال بالنساء قائمة على زواج يخطب فيه الرجل إلى أبيها أو أخيها أو الوالى عليها ، ويمهرها . أما أنواع العلاقات الأخرى التى وردت فى حديث السيدة عائشة (٤) ، فقد كانت مقصورة على فئة خاصة من النساء ، هن أصحاب الرايات ، وبغايا يقصد إليهن الفتيان (٥) ، وكن ينصبنها على أبوابهن لتكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن (٦) ، ولم يكن من مفاخر الرجل أن يتسلل إليهن ، قالت العوراء بنت سبيع فى رثاء أخيها عبد الله بن سبيع :

أبكى لعبـــد الله إذ حشّت قُبَيْلَ الصبح نَاره
طيان طاوى الكشع لا يُرْخَى لمُظْلِمـــة إزاره (٧)

وكان هؤلاء البغايا من الإماء ، وكن يوجهن ، ويستمتع بهن ، كما كانت القيان يوجهن .

---

(١) الروض الأنف للسهيلى شرح سيرة ابن هشام ٢/٢٧٧ والإصابة ٨/٢٩٥

(٢) علقمة بن عبدة المفضليات ٢/١٩١ وسيد بن أبى كاهل المفضليات ١/١٩٠ وأخبار النساء ٨٦ وراجع ماسبق فى جمال المرأة النفسى .

(٣) مجمع الأمثال للميدانى ٢/٧٠ وطهارة العرب ٦ والأغانى ٢٠/١٥٩ و ١٩/٨٣ وطبقات الشعراء لابن سلام ٨٩و١١٠ والمحاسن والأضداد ٢١٩ والأغانى ١٥/٨٢و٩/١٧ ،

(٤) إنسان العيون ١/٤٧ (٥) العقد الفريد ٣/٢

(٦) إنسان العيون ١/٤٦

(٧) مراثى شواعر العرب . لويس شيخو ١٤٧ . حشت : أو قدت .

قال الأعشى مادحاً بهبة القيان :

هو الواهبُ المُسمِعاتِ الشُّرو ... بَ بين الحرير وبين الكَتَن[١]

وقال النابغة يمدح النعمان بهبة الإماء :

الواهب المائةَ المِعكاءَ زَيَّنها ... سَعْدانُ تُوضِحَ فى أوبارها اللُّبد

والراكضاتِ ذيُولَ الرَّيطِ فانَقها ... بَرْدُ الهواجر كالغزلانِ بالجَرَد[٢]

وقد مدح الأعشى بذلك[٣] وكرره النابغة[٤]

وكانت القيان والإماء جميلات كما وصفهن طرفة[٥]، وعبدة بن الطبيب[٦] وسلامة بن جندل[٧]

وكن لا يتحرزن ولا يتصونَّ ، لذا كان يستمتع بهن الرجال ، قال الأعشى :

والبيضُ قد عَنَسَت وطال جَراؤها ... ونشأن فى قِنٍّ وفى أذواد

ولقد أخالِسهن ما يَمْنَعْنَنِي ... عُصُراً يَمِلنَ عَلَيَّ بالأجياد[٨]

وقد أحب الأعشى واحدة منهن ، وأكثر من التشبيب بها ، أحب هريرة ، وكانت هى وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو بن مرثد، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان[٩] .

---

(١) لسان العرب ١٧/ ٢٣٥ المسمعات : القيان . الشروب : الشاربون . الكتن : الكتان وثيابه معتدلة فى الحر والبرد .

(٢) ديوان النابغة ٢١ المعكاء : الغلاظ الشداد . سعدان : نبت جيد التغذية للابل . توضح : موضع . اللبد : ماتلبد من الوبر . فانقها : نعم عيشها . الجرد : موضع ببلاد تميم .

(٣) لسان العرب ١٨/ ٨٣

(٤) ديوان النابغة ٣٨

(٥) ديوان طرفة ٢٠

(٦) المفضليات ١/ ١٤٣

(٧) المفضليات ١/ ١١٨

(٨) ديوان الأعشى ٩٩ الجراء : الفتاء والشباب. قن: رق. أذواد : جماعات من الإبل.

(٩) الأغانى ٨/ ٧٧

وكانت لهن بيوت للهو يسمر بهما الفتيان ويلهون ، يدل على ذلك قول امرىء القيس إنه دخل بيتاً منها آمنا ، وحق له أن يأمن لأن بيت الريبة لا يحميه حام :

وبيت يفوح المسك في حَجَراته بعيدٍ من الآفات غير مُرَوَّق
دخلت على بيضاء جُمٍّ عظامها تعفّي بذيل الدرع إذ جئت مَودِقي (١)

وهي تعفي على آثار موضعه لا لأنها تخشى على نفسها ، بل لأنها تخشى عليه أن يفتضح لأنه يغشى بيتها .

ويقول أيضاً :

وبيتِ عذارى يوم دَجْنٍ ولجتُهُ يطُفْنَ بجبَّاء المرافقِ مِكْسَال
. . . .
صرفت الهوى عنهن من خشية الردى
ولست بِمَقلِيِّ الخلال ولا قالى (٢)

ويقول عبيد بن الأبرص :

وبيت عذارى يرتمين بِخِدْرِه دخلْتُ وفيه عانس ومريض
فأقرضتُها ودّى لأُجزاهُ إنما تَدُقُّ أيادى الصالحين قُرُوض (٣)

وكان بعضهم يقتني الإماء ويكرههن على البغاء ، يدل على ذلك قوله

---

(١) ديوان امرىء القيس ١١٩ حجراته : نواحيه . غير مروق : ليس له رواق . جم عظامها : لينة بضة كأنها لاعظام لها فهى جماء . مودق : موضعى .

(٢) ديوان امرىء القيس ١٤٢ الدجن : ظل الغمام المطبق أو المطر الدائم . جباء المرافق : عظامها متوارية لسمنها . مكسال : مترفة . مقلى الخلال : مكروه الأخلاق أو الصداقة .

(٣) ديوان عبيد القصيدة ١٠ عانس : بكر طال مكثها فى بيت أهلها ولم تتزوج . أقرضتها ودى : تقدمت إليها بحبى . تدق : تظهر . أيادى : معروف وجميل .

تعالى : «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا» .

وكان ممن فعل ذلك عبد الله بن أبي بن سلول ، كانت له جاريتان مسيكة وأميمة أو جارية واحدة اسمها مسيكة أو معاذة ، وكان يؤجرها ويكرهها على البغاء فأتت النبي ﷺ ، فشكت إليه ذلك ، فأنزل الله الآية .

وعن ابن عباس أن بعضهم كانوا يكرهون إماءهم على الزنا، ويأخذون أجورهن [1]، ولذا عير عمرو بن معديكرب أعداءهم بأنهم أبناء إماء درّبن على الفسوق :

وكنتم أعبداً أولادَ غَيْلٍ   بنى آمٍ مَرَنّ على السّفاد[2]

ودليلي على أن البغاء كان مقصوراً على الإماء أن القرآن الكريم عبر عنهن بالفتيات ، وكلمة الفتيات لم تطلق فى القرآن الكريم إلا على الإماء ، قال تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » .

فلو أن البغاء كان بين الحرائر أيضا ما خص النهى عنه بالإماء . وقد كانت أنفة العرب وغيرتهم على النساء الحرائر مغنية عن نهيهم عن إكراه الحرائر على البغاء .

وقد عبر الأعشى عن الإماء بالبغايا فى مدحه الأسود بن المنذر اللخمى او المنذر بن الأسود :

يَهَبُ الجِلّةَ الجَرَاجِرَ كالبُـ   ستانِ تحنو لدَرْدَقٍ أطفال

---

(١) تفسير الطبرى ١٨/١٠٣ — ١٠٤ والإصابة ٨/٢١ ، ١٨٩

(٢) لسان العرب ١٨/٤٧ الغيل : اللبن ترضعه المرأة ولدها وهى تؤتى أو وهى حامل . آم : إماء .

والبغا يَرْكُضنَ أكسيةَ الإضر ... يج والشَّرْعَبِيّ ذا الأذيال[1]

والبغى فى اللغة : الأمة ، أو الحرة الفاجرة [2]، ومن إطلاقها على الأمة قول الشاعر :

خَـــر البَغِيّ بحذج ربّهـــا [3]

ويذكر أبو على القالى أن البغاء الفجور فى الإماء خاصة ، وأن البغى الأمة [4] . وكانت البغايا محقرات ، ولذا افتخر الرجال ومدحوا بالتعفف عنهن . ولم يكنّ عربيات غالباً[5] ، يدل على احتقارهن وبخاصة فى نظر النساء أن عاصية بنت ثابت بن أبى الأفلح زوجة عمر رضى الله عنه لما أسلمت أتت عمر فقالت : قد كرهت اسمى ، فسمنى ، فقال أنت جميلة . فغضبت وقالت : ما وجدت اسماً تسميني به إلا اسم أمة ؟ وأتت النبى ﷺ واستسمته فسماها جميلة أيضاً فغضبت ، وذكرت ما قالت لعمر ، فقال النبى ﷺ : أما علمت أن الله عند لسان عمر وقلبه[6] .

هذا الوضع الذى كان للأمة فى الجاهلية كان له ما يشبهه عند الإغريق، فإن أرسطو أقر الرق ، وما كان للمرأة التى تباع أو تؤسر أن تمتنع من سيدها[7] . وكان الرومان يسرقون النساء ليستمتعوا بهن ويؤجروهن ، وارتفعت أثمان الجوارى الحسان لأنهن يجلبن لمالكهن ثروة من الفجور[8] . وكانت الفتيات والزوجات يبحن للرجال الاستمتاع بهن فى هيكل الإلهة

---

(١) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ١٨/٨٣ البغايا هنا الإماء . الإضريج : خز أصفر أو أحمر . الشرعبي نوع من البرود . الجلة : الإبل المسنة . الجراجر : جمع جرجور وهو الضخم من الإبل . دردق : صغار الإبل .

(٢) القاموس المحيط ولسان العرب مادة بغى .

(٣) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١٠٧ على هامش الميدانى .

(٤) الأمالى ٢/١٧٥

(٥) الأسرة والمجتمع على عبد الواحد ٧٤ — ٧٥ (٦) الإصابة ٨/٤٠

(٧) الرق فى الإسلام ١٩ أحمد شفيق (٨) الرق فى الإسلام ٣٤

عشترة ببعلبك . ويعتبرون ذلك عملا مقدساً ، لأنه قربان للإلهة عشترة إلهة الخصب والنتاج ، وظل ذلك حتى عهد قسطنطين(١) .

وكان لزاما على كل امرأة فى بابل وأشور أن تزاول العهارة المقدسة مرة فى حياتها ، وكان هيكل مليتاربة الجمال يغص بهؤلاء النساء(٢) . وقد شهد هيرودوت هذه الحفلات تقديساً للإلهة «استار» عشترة جرياً على عادة الفينيقيات(٣) . وقد عرف بنو إسرائيل هذه العهارة المقدسة ، فعدوا ضروب البغاء تكريماً لعشترة(٤) .

وربما كان اقتناء بعض العرب إماء للبغاء أثراً مشوهاً للعهارة المقدسة التى عرفها الأشوريون والبابليون والفينيقيون واليهود ، والعرب على صلة بهؤلاء جميعاً ، وعبد الله بن أبى بن سلول الذى اشتهر بهذا فى الجاهلية كان حليفاً لليهود متأثراً بهم .

ومهما يكن من شىء فإن بغاء الإماء لا يناقض ما سبق من غيرة العربى وأنفته ، وعفة المرأة العربية وعزتها .

الغزل الحسى حبشى النشأة

ليست المجاهرة بالفاحشة من أخلاق العرب ، لأن العربى يعد العفة من مزايا الرجولة ومرجحات السيادة ، فيتعفف إن لم يكن عفيفاً ، ويستتر ولا يعلن للناس فحشه .

فلماذا جهر بعض العرب بهذا الأدب المكشوف ؟

ومن أين جاء هذا الغزل الذى لا يتأثم من ذكر اللذة والعورة والقبيح ؟

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٢٢

(٢) P. A. Rosler, La Question Feministe. P. 137.

(٣) المرجع السابق ١٤٠

(٤) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ٥١ جوستاف لوبون

أرى أنه ضرب من الأدب دخيل على العرب ، لم يجىء من الفرس ولا من الروم ، وهما الشعبان اللذان عنى تاريخ الأدب بذكر علاقة العرب بهما وتأثيرهما فى الأدب العربى ، وإنما جاء من بلاد اليمن ، لأنها وَصلة بين العرب والأحباش ، وصادف فى بعض الشبان حياة ماجنة توائمه فنما وازدهر .

والأدلة على هذه النظرية :

١ — نزحت جموع من العرب فى العهد الأول الدولة الحميرية الأولى (١١٥ ق.م — ٣٠٠ م) إلى بلاد كوش وأسسوا المملكة الحبشية . ثم قامت دولة أكسوم الحبشية فى القرن الأول الميلادى[١] .

٢ — فتح الأحباش بلاد اليمن وحكموها أربع مرات .

(الأولى) فى القرن الأول قبل الميلاد حيث نصروا بنى همدان على ملك سبأ وحلفائه من بنى ريدان الحميريين ، وتحالف علهان نهفان زعيم الهمدانيين مع جدرت ملك الحبشة ، وكان هذا التحالف هجومياً ودفاعياً ، ثم اتسع الحلف فشمل يدعاب غيلان ملك حضرموت ، واستطاع ولدا يريم أيمن الهمدانيان أن يحرزا لقب ملكى سبأ وذى ريدان ، ولكن الملك السبئى لم يستسلم ، ولم يستسلم حلفاؤه الحميريون ، وظلوا يدافعون عن ملكهم المغصوب ، والأحباش يعاونون الهمدانيين ردحاً من الزمن ، ثم انجلى الصراع عن انتصار الملك السبئى ، واتخاذ الأحباش مدينة (سحرت) فى الجنوب الغربى من اليمن قاعدة حربية لهم ، واستقرت جاليات حبشية فى اليمن من ذلك الحين[٢] .

(الثانية) حدثت فى القرن الرابع ، إذ غزا الأحباش اليمن فى عهد إيلا إميدا سنة ٣٤٠ م وقضى هذا الملك على حكم شمر يهرعش وابنه ياريم،

---

(١) تاريخ العرب ٦٥ فيليب حتى

(٢) بين الحبشة والعرب ٢٣ — ٢٦

واتخذ لنفسه لقب ملك أكسوم وحمير وذى ريدان وحبشة وسبأ وسلح وتهامة[1] . وكان سبب هذه الحملة الحد من توسع شمريهرعش فى الجنوب وصد عدوانه على سحرت قاعدة الحبشة فى بلاد العرب .

ويستنتج من دراسة النقود أن حملة الحبشة على اليمن كانت فى نهاية القرن الثالث ، وكان من آثارها أن حكم الأحباش بلاد اليمن منذ نهاية القرن الثالث الميلادى حتى القرن الرابع[2] .

ويستنتج جلاسر أن السبئيين كانوا قد احتلوا جزءاً من الحبشة قبيل ذلك[3] .

(الثالثة) حدثت فى القرن الخامس ، وكان سببها أن دميانوس أو دمنوس ملك حمير اليهودى أمر بقتل قافلة أو أكثر من قوافل التجار الرومانيين الذين كانوا يجتازون مملكته إلى بلاد الحبشة ، فأوغر ذلك صدر ملك الحبشة إيدوج Aidog (٤٨٠ م) وأوغر صدر إمبراطور الروم ، فجردا على دميانوس حملة انتهت بهزيمته وقتله ، وولى الأحباش أميراً نصرانيا على حمير ، ولكنه لم يعش طويلا ، فانتهز اليهود الفرصة وولوا على حمير ملكا يهوديا هو ذو نواس[4] .

(الرابعة) كانت حوالى ٥٢٣ م[5] لأن ذانواس اليهودى أغضب النصارى وعدا عليهم . وتختلف الروايات فى سبب عدوانه ، ولكن ذلك ليس من موضوعنا ، وكان طبيعياً أن يلجأ النصارى إلى الحبشة ، وأن تسارع إلى الانتقام من الملك الثائر ؛ لأنه تولى بالرغم من إرادة الرومان

---

(1) Jhe Back ground af islam. glaser. P. 132.

(٢) بين الحبشة والعرب ٣٢ — ٣٤

(٣) Jhe Baegk round af islam P. 108.

(٤) بين الحبشة والعرب ٤٥ — ٤٧

(٥) بين الحبشة والعرب ٥٦

والأحباش ، ولأن طريق التجارة الرومانية محفوف بالمخاطر ، حتى لقد انقطعت القوافل ، ولأنه يضطهد النصارى .

وكانت هذه الحملة بقيادة أرياط أو أبرهة ، وانجلت عن هزيمة العرب وغرق ذى نواس ، وانتقام أرباط أو أبرهة من أهل اليمن شر انتقام ، ولم تسلم قصورها وحصونها من حنقه(١) .

وأقام أبرهة باليمن ، وأصلح أمورها ، وحاول أن يمد نفوذه إلى الحجاز ، وكانت غزوة الفيل ، ويختلف المؤرخون فى زمنها ، فالذين يرون أن النبى عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل يحددون تاريخها بأنها كانت عام ٥٧٠ م ، ولكن فى السيرة روايات أخرى عن مولده ﷺ ، بعضها يذكر أنه ولد بعد عام الفيل بعشر سنين ، وبعضها يرى أنه ولد بعده بثلاث وعشرين سنة أو بثلاثين وقيل بسبعين(٢) .

والذى يستنتج من ذلك أن غزوة الفيل كانت بين ٥٠٠ و ٥٧٠ م ، ولكن كثيراً من الباحثين يرجحون أنها كانت حوالى ٥٤٠ م ، وأن استيلاء الفرس على اليمن وطردهم الأحباش كان فى ٥٧٠ م ، ويجعلون الفترة بين ٥٤٠ و ٥٧٠ لحكم يكسوم ومسروق ابنى أبرهة ،(٣) .

وكان حكم الحبشة باليمن منذ دخلوها هذه المرة إلى أن قتل الفرس مسروق بن أبرهة وأخرجوا الأحباش من اليمن اثنتين وسبعين سنة(٤) . فى رأى الطبرى .

ولكن إذا صح تاريخ بدء الغزوة وهو ٥٢٣ م(٥) وأن أبرهة مات ٥٤٤ م وحكم بعده يكسوم ١٩ عاما ثم مسروق ١٢ عاما(٦) كان الزمن الذى حكمت فيه بلاد اليمن فى هذه المرة ثنتين وخمسين سنة لا اثنتين وسبعين كما ذكر الطبرى .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/١٠٧ — ١٠٩ وسيرة ابن هشام ١/٣٦ ومعجم البلدان ٢/٢٤٣

(٢) إنسان العيون ١/٦٥

(٣) بين الحبشة والعرب ٦٥

(٤) تاريخ الطبرى ٢/١١٥

(٥) بين الحبشة والعرب ٥٦

(٦) بين الحبشة والعرب ٦٧

٣ — على أن للعرب كانوا على صلة بالحبشة والأحباش عن طريق آخر ليس بأقل تأثيراً من طريق الغزو والحكم، أقصد التجارة، حتى ليرى بعض مؤرخي الافرنج، أنه كان في مكة بيوت تجارية رومانية تزاول الشئون التجارية للرومان، وكان فيهـــا أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية[1].

وكانت بين الحبشة والعرب معاهدة تجارية بلغة العصر الحاضر، فقد ذكروا أن بني عبد مناف أخذوا العِصم لقريش من الملوك، وكان الذي أخذ حبلا من النجاشي عبد شمس.

وبذلك اختلف القرشيون إلى الحبشة متاجرين كما اختلفوا إلى الشام وفارس والعراق واليمن[2].

وإذا مارجعنا إلى فجر الإسلام وجدنا المشركين يضطهدون المسلمين اضطهادا يلجيء مئات منهم إلى الفرار بدينهم، فإلى أين فروا؟ فروا إلى الحبشة التي تربطهم بها صلات تجارية، ومنهم من هاجر بأهله كعثمان بن عفان، وأبي حذيفة بن عتبة ابن ربيعة، وبعثت قريش مندوبَين عنها ليزينا للنجاشي ألا يبقى في مملكته هؤلاء الوافدين، هما عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وجمعت قريش لهما هدايا للنجاشي وابطارقته، وتحاور مندوبا قريش والمسلمون في مجلس النجاشي، فانتصر المسلمون وطاب لهم المقام مدة من الزمان[3].

ولم يكن اختيار النبي عليه الصلاة والسلام بلاد الحبشة مهاجَراً ناشئاً عن أنها مسيحية مستقلة فحسب، فليست وثنية تعادي الدين السماوي فتضطهده وتعتدي على معتنقيه، وليست مسيحية خاضعة لدولة أخرى

---

(١) فجر الإسلام أحمد أمين ٥١

(٢) تاريخ الطبري ٢/١٨٠ ومجمع أمثال الميداني ٢/٦٦

(٣) سيرة ابن هشام ١/٣٤٤ — ٣٦١

خضوعا فعلياً يحول بينها وبين حماية دين سماوى كما كان شأن الحيرة وغسان واليمن ، وإنما نشأ هذا الاختيار عن شيئين : صلة تجارية وثيقة بالحبشة ،ومسيحية الحبشةواستقلالها ،وإن كنت لا أغفل عاملاً له أثره فى هذا الاختيار هو أن المناذرةوالغساسنة واليمنيين كلهم عرب ، وقريش التى تناوىء النبى عليه الصلاة والسلام وتناصبه العداء عربية مثلهم ، ولها بهم صلات ليست له ، فهم ينفسون على رجل عربى أن يستلب نفوذهم كما نفست عليه قريش .

٤ — ثم كان بين العرب والحبشة طريق آخر للاتصال هو أن أكثر العبيد والإماء كانوا أحباشاً ، وكان العرب ميالين إلى الزواج بالحبشيات والسود عامة ، فقد روى الأصمعى أن رجلا قيل له : أى الرجال أخف أرواحاً ؟ قال الذين أعرقت فيهم السودان . وقال على بن أبى طالب : من تزوج سوداء فطلقها فعلىَّ مهرها . وكان أبو حازم المدنى ينشد :

ومن يك معجباً ببنات كسرى فإنى معجب ببنات حام[1]

وكان اليمنيون يؤثرون فى الزواج الحبشيات وبنات الحبشيات[2] .

ولم يك هذا ناشئاً عن المساواة التى بثها الإسلام ، فإن كثيراً من العرب فى الجاهلية أمهاتهم حبشيات ، فأم عنترة زبيبة وهى أمة حبشية[3] وأم خفاف بن عمير أمة سوداء اسمها ندبة[4] وإليها نسب ، وأم السليك ابن عمير أو عمرو أمة سوداء اسمها السُّلكة وإليها نسب[5] ، وكان سحيم عبد بنى الحسحاس عبداً أسود نوبياً[6] .

وكانت بركة أم أيمن مولاة النبى صلى الله عليه وسلم وحاضنته أمة

---

(١) عيون الأخبار ٤/٤٠

(٢) رسالة فخر السودان من مجموعة رسائل الجاحظ ٧٥

(٣) الاغانى ٧/١٤١ والمحبر ٣٠٦

(٤) الأغانى ١٦/١٣٥ والشعر والشعراء ١٢٢

(٥) الأغانى ١٨/١٣٣ والشعر والشعراء ١٣٤ (٦) الأغانى ٢٠/٢

سوداء ، وقد تزوجها عبيد بن زيد الخزرجي فولدت له أيمن ، ثم زوجها النبي ﷺ من زيد بن حارثة فولدت أسامة(١) .

وهناك بركة غيرها تكنى بأم أيمن (أيضا) وهى حبشية كانت خادم أم حبيبة وقد ترجم لها ابن حجر(٢) .

ويذكر صاحب المحبَّر عدة من الحبشيات الزوجات والأمهات ، منهن صهال كانت لهاشم بن عبـــد مناف وولدت نضلة بن هاشم بن عبدمناف ونفيل بن عبد العزى ابن رباح وعمرو بن ربيعة بن الحارث ، ومنهن حيَّه كانت لجابر بن حبيب وهى أم الخطاب بن نفيل ، وقد عير ثابت بن قيس الأنصارى عمر بن الخطاب بقوله : « يا ابن السوداء » ، فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » ومنهن أم عمرو بن العاص بن وائل السهمى ، وأم معمر بن عثمان التيمى ، وأم المتلمس الضبى ، وأم قرظة بن عبدعمرو ابن نوفل وهو أبو فاختة بنت قرظة زوجة معاوية بن أبى سفيان ، وأم عثمان بن الحويرث إلخ(٣)

٥ — الحبشى قد اشتهر بهذا الضرب من الغزل الذى ينتهى به إلى المجون ، وهو إذا ما انفعل عبر عن انفعاله فى غير تحرج ، وقد عرف العرب فيهم هذا الطبع ، قال النبى ﷺ فى عبيد الحبشة : « إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا »(٤) وأراد عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى أن يهدى الشاعر الحبشى سُحيما — وقد اشتراه — إلى عثمان بن عفان فكتب إليه : « أنا قد اشتريت لك غلاماً حبشياً شاعراً ، فكتب إليه : « لا حاجة لنا فيه ، وإنما حظ أهل العبد الشاعر منه إذا شبع أن يشبب

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٨/٣١٢
(٢) الإصابة ٨/٢٧
(٣) المحبر ٣٠٦ — ٣٠٩
(٤) الاغانى ١/٦٥

بنسائهم وإذا جاع أن يهجوهم »[1] ، وفى رواية أخرى أنه قال : « إن الشاعر لا حريم له[2] » .

٦ — فى بعض الأناشيد الدينية الحبشية نوع يسمونه ملكىء ، وهو شعر يصف القديس أو الشهيد من رأسه حتى أظفار أصابع رجليه ، لا يتحرج من ذكر القبيح ، وهو يذكرنا بشعر نشيد الإنشاد فى التوراة[3] .

٧ — إذا تقصينا شعراء الغزل الحسى الذين مهدوا طريقه لشعراء الإسلام وجدناهم إما أحباشاً وإما عرباً متأثرين بالأحباش

فامرؤ القيس أستاذ هذا الفن من كندة « وكانت متجه الغزاة من الأحباش منذ قديم الزمان ، غزاها إفيلاس فى القرن الثالث الميلادى ، ثم أخضعها أبرهة وولى عليها يزيد بن كبشة فى القرن الثالث الميلادى »[4]

والأعشى كان كثير الشخوص إلى الجنوب ، يزور كل سنة بنى عبد المدان فيمدحهم ويقيم عندهم ، ويسمع الغناء[5] يقول فى ذلك :

وكعبة نجران حتم علي ... ك حتى تناخى بأبوابها

نزور يزيد وعبد المسيح ... وقيساً هُم خير أربابها

وشاهدنا الجل والياسمي ... ن والمسمعات بقصابها

وبَرْبَطنا دائم معمل ... فأىُّ الثلاثة أزرَى بها ؟

وهؤلاء الذين ذكرهم أساقفة نجران ، وكان يزورهم ويمدحهم ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهما ما شاء ، يسقونه الخمر ،

(١) الشعر والشعراء ١٥٢ والأغانى ٢٠/٣
(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٧١ (٣) بين الحبشة والعرب ١٢٥
(٤) بين الحبشة والعرب ١٢٣ (٥) الأغانى ١/٦٥

ويسمعونه الغناء الرومى(١) .

وفى شعره ما يدل على أنه زار الحبشة مثل قوله :

وطوفت للمـــال آفاقـه عمان وحِمصَ وأُورَيشَلِم
أتيت النجـــاشي فى داره وأرض النبيط وأرض العجم(٢)

وكان سحيم عبد بنى الحسحاس أسود نوبيا(٣) أو حبشياً قبيحاً(٤) ، اشتراه عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى ، فلما رفض عثمان بن عفان أن يقبله ردّه ، فاشتراه أحد بنى الحسحاس(٥) .

٨ — فإذا ماخطونا إلى العصر الإسلامى ، وجدنا عمر بن أبى ربيعة يتزعم هذا اللون من الغزل ، ولم يكن متأثراً بهؤلاء الذين مهدوا له الطريق فحسب ، بل كانت له صلة بالحبشة واليمن ، فقد كان لعبد الله بن ربيعة عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وكان عددهم كثيراً ، حتى روى أنه قيل لرسول الله ﷺ حين خرج إلى حُنَيْن : هل لك فى حبش بنى المغيرة تستعين بهم ؟ وكان عبد الله عاملا للنبى ﷺ على الجَنَد ومخاليفها ، ولم يزل عليها حتى قتل عمر بن الخطاب ، وقيل إن عثمان استعمله عليها أيضاً(٦) ، وكانت أم عمر بن أبى ربيعة أم ولد يقال لها (مَجْد) سبيت من حضرموت ، ويقال من حمير ، ومن هناك أتاه الغزل ، يقال غزل يمانٍ ودل حجازى ،

وقال عمر بن شبة : هى أم ولد ، سوداء من حبش يقال لهم فرسان ، وقيل إن هذه أم أخيه الحارث لا أمه(٧) .

---

(١) الأغانى ٦/٦٩ ومعجم البلدان ٤/١٧٩
(٢) ديوان الأعشى (٣) الأغانى ٢/٢٠
(٤) الشعر والشعراء ١٥٢ والأغانى ٢٠/٣ (٥) الأغانى ٢٠/٣
(٦) الأغانى ١/٦٥ الجند : ولاية إسلامية من ولايات اليمن الثلاث : الجند وصنعاء وحضرموت . المخاليف : ج مخلاف وهو الكورة والرستاق (القرى والأصقاع) .
(٧) الأغانى ١/٦٦

وكانت جدته لأبيه أسماء بنت مُخَرِّبة عطارة ، يأتيها العطر من اليمن ، وكان ابنها عبد الله تاجراً موسرا يتجر إلى اليمن ، وقد تزوجها هشام ابن المغيرة ، فولدت له أبا جهل والحارث ، وكانت تبيع العطر بالمدينة[1] .

ثم وجدنا نُصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، وكانت أمه سوداء حملت به من سيدها ، وقيل كان أبوه وأمه نوبيين سبيين لخزاعة ، ثم اشترت امرأة من خزاعة سلامة أم نصيب وهى حامل به ، وأعتقت ما فى بطنها[2] .

* * *

أجدنى بعد هـــذا فى حل من أن أرجح أن الغزل الفاحش نَبتٌ أجنبى نقل من الحبشة إلى اليمن ، فساعدت حضارة اليمن على نمائه ، وتعهده بعض الشعراء المتأثرين باليمن وبالأحباش ، فغلظت سوقه، وبسقت فروعه ، وكانت ثمراته هذه القصائد العابثة التى أبدع صوغها امرؤ القيس والأعشى وسحيم من قبل ، ثم عمر بن أبى ربيعة من بعد .

خصـــائصه

١ — جهر أبطاله بما لا يصح إعلانه من صلة بين الرجل والمرأة ، وزينوه للناس ، ودعوهم إلى الاقتداء بهم ، فامرؤ القيس يصف بعض لذاته ، ويحبب إلى غيره الاستماع بها ، ويخص النساء الحسان بالذكر :

لياليَ يدعونى الهوى فأجيبه ··· وأعْيُنُ من أهوى إلىَّ رَوَانِ

تمتع من الدنيا فإنك فان ··· من النَّشَوات والنِّساء الحِسانِ

---

(١) الأغانى ١ / ٦٤

(٢) الأغانى ١ / ٣٢

من البيض كالآرام والأُدم كالدُّمى حَوَاصِنُها والمُبرِقاتُ رَوَانِ[1]

ولقد يتباهى بصبواته أمام من يريد إغواءها ليغريها ، فلا يتحرز ، وإنما يجهر بما لا يصح الجهر به ، كقوله :

فمثلكِ حُبلى قد طرقتُ ومرضعٍ فألهيتها عن ذى تمائمَ مُحْوِلِ

. . . .

وقوله :

ومثلِكِ بيضاءِ العوارضِ طَفْلَةٍ لعوبٍ تُنَسِّينى إذا قمتُ سِرْبالى
لطيفة طىِّ الكَشْحِ غيرِ مُفَاضةٍ إذا انْفَتَلَتْ مُرتجّةً غيرَ مِتفالِ
سموت إليها بعد ما نام أهلها سُمُوَّ حَبَابِ الماء حالاً على حالِ
فقالت : سباك الله إنك فاضحى ألستَ ترى السُّمّارَ والناسَ أحوالى
فقلت : يمينُ الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفت لها بالله حِلْفة فاجر لناموا فما إنْ مِنْ حديثٍ ولا صالِ
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هَصَرْتُ بغصنٍ ذى شماريخَ ميّالِ
وصرنا إلى الحُسنَى ورق كلامنا ورضتُ فَذَلّتْ صعبةً أىَّ إذلالِ
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها عليه القَتامُ سيىءَ الظن والبالِ[2]

---

(١) ديوان امرىء القيس ١٨٨ الأدم : جمع أدماء وهى السمراء . حواصن : ج حاصن وهى العفيفة أو المتزوجة أو الحبلى . المبرقات : المتزينات بحلى يبرق . الآرام : الظباء . روان : ناظرات .

(٢) ديوان امرىء القيس ١٠٧ ذى تمائم محول : طفل صغير عمره حول .

(٣) الديوان ١٤٠ مرتجة : مهتزة . متفال : كريهة الرائحة . صال : مستدفىء . القتام : غبار الخزى .

وسحيم عبد بنى الحساس شبب بعميرة بنت سيده أبى سعيد وأفحش :

وبتنا وسادانا إلى عَلَجَانَةٍ وحِقْفٍ تهاداه الرياح تهاديا
وهبت شمالاً آخرَ الليل قَرّةٌ ولا ثوبَ إلا بُرْدها وردائيا
تُوَسِّدُنى كفاً وتَثنِى بِمعصَمٍ علىّ . . . .
فما زال بُرْدى طيّباً من ردائها إلى الحول حتى أنهجَ البُرْدُ باليا
وأشهد عند الله أن قد رأيتها . . . . (١)

وكان تشبيبه وغرامه ببنت مولاه سبب قتله ، فلما مضوا به ليقتلوه رآه امرأة كانت بينها وبينه مودة ، ثم فسدت ، فضحكت به شماتة ، فنظر إليها وقال :

فإن تضحكى منى فيارُبَّ ليلة . . . .

ولما قدم ليقتل قال :

شدوا وِثاق العبد لا يُفْلِتْكُمُ إن الحياة من الممات قريب
فلقد تحدَّر من جَبينِ فتاتكم عَرَقٌ على مَتْنِ الفراش وطيب (٢)

وافتخر المرار بن منقذ بأن له فى هذا الضرب جولات :

وتعلَّلْتُ وبالى ناعمٌ بغزال أحور العينين غِرّ (٣)

---

(١) ديوان سحيم ١٩ وطبقات الشعراء لابن سلام ٧١ والأغانى ٢٠/٥ وأخبار النساء لابن قيم الجوزية ٤٣ علجانة : شجرة معروفة تنبت فى الرمال . الحقف : الكثيب من الرمل. تهاداه الرياح : تنقله من موضع إلى موضع . قرة : باردة. أنهج : بلى .

(٢) ديوان سحيم ٦٠ والأغانى ٢٠ / ٥ وأخبار النساء ٤٣ وطبقات الشعراء لابن سلام ٧١

(٣) المفضليات ١ / ٨١ تعللت : تلهيت مرة بعد مرة .

وافتخر ثعلبة بن صُعير المازنى بأن له فى هذا الضرب جولات :

ولرُبَّ واضحةِ الجبين غريرة　　　مثلِ المهاة تَرُوقُ عين الناظر
قد بتُّ ألعبُها وأقصُرُ همَّها　　　حتى بدا وضَح الصباح الجاشر (١)

وكذلك كان يفعل المرقش ، فهو يثير الغيرة فى نفس خولة بذكر صبواته مع غيرها حتى لا تضن عليه ، وحتى لا تظن أنه غير مجرب :

يا خَوْل مايدريكِ رُبَّتَ حُرَّةٍ　　　خَوْدٍ كريمةٍ حَيِّها ونسائها
قد بتُّ مالكَها وشارب رَيَّةٍ　　　قبل الصباح كريمةٍ بسِبائها (٢)

وطرفة بن العبد يعدد من لذاته التى تحبب إليه الحياة أنه يقصر اليوم الغائم المطير بامرأة ناعمة شابة فى خيمته العالية :

وتقصيرُ يوم الدَّجْنِ والدَّجنُ مُعجبٌ　　　ببَهْكَنَةٍ تحت الطراف المعَمَّد
كأن البُرِينَ والدماليج عُلِّقَتْ　　　على عُشَرٍ أو خِروعٍ لم يُخَضَّد (٣)

وكان هؤلاء المجان يجتمعون للهو والعبث ، وتربطهم آصرة واحدة هى الخروج على العرف المألوف ، قال الأخنس بن شهاب التغلبى :

وقد عشت دهراً والغواةُ صحابتى　　　أولئك خُلصَانى الذين أصاحب
قرينةَ من أسْفى وقَلَّد حَبْلَه　　　وحاذَرَ جرَّاه الصديق الأقارب (٤)

---

(١) المفضليات ١ / ١٢٩ الجاشر : الدال على إقبال الصباح

(٢) المفضليات ٢ / ٣٤ خود : حسنة الخلق ناعمة . الرية : المراد بها الخمر . السباء : شراء الخمر ، أى أنه اشتراها ولم يشرب مع قوم اشتروها دونه .

(٣) ديوان طرفه ٢٩ البرين : الخلاخيل . الدماليج : ج . دملوج : ما يلبس فى العضد . العشر : شجر أملس لين العود . الخروع : كل نبت ناعم . لم يخضد : لم يثن لينكسر ، شبه ساقيها وعضديها فى لينهما بالعشر والخروع .

(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٢ / ١٢٤ — بقيت زماناً طويلا لا يطيب عيشى إلا مع الندامى الخلعاء فمشت قرين السفهاء الذين أطلقوا لأنفسهم العنان وتبرأ منهم الأقارب والأصدقاء هروباً من جناياتهم .

٢ — ويفخرون بأنهم تجاوزوا إلى المرأة حراسها، وتغفلوا قومها، فنالوا منها أربا.

يريدون بذلك أن يصوروا حبهم جارفا عنيفاً، وأن يدلوا على أنهم شجعان مخاطرون، وأن يصفوا المرأة بأنها محمية منيعة من قوم أقوياء ذوى غيرة.

قال امرؤ القيس إنه تجاوز إلى امرأته المحمية معشراً حراصاً على قتله لو أنهم أمسكوه، وإنه تسلل إليها فى جنح الظلام وقد نضت ثيابها إلا قميصاً، فعجبت من جرأته، وخرج بها واستمتع، ثم وصف جمالها:

وبيضةِ خدْرٍ لا يُرام خباؤُها ... تمتّعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعجَلِ
تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشراً ... علىَّ حِراصاً لو يُسِرُّون مقتلى
فجئت وقد نضّتْ لنوم ثيابها ... لدى السترِ إلا لِبسةَ المتفضِّلِ
فقالت يمين الله ما لك حيلةٌ ... وما إن أرى عنك الغَواية تنجلى
خرجت بها أمشى تجر وراءنا ... على أثرينا ذيل مِرْطٍ مُرَحَّلِ (١)

. . . .

ويقول:

سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حَبَاب الماء حالا على حال
فقالت: سباك الله إنك فاضحى ... ألست ترى السُّمّار والناس أحوالى
فقلت: يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها ... عليه القَتَامُ سيء الظن والبال (٢)

(١) ديوان امرىء القيس ١٢٨ بيضة خدر: غادة مخدرة. لبسة المتفضل: ما يلبس عند النوم. مرط: إزار خز معلم. مرحل: فيه صور الرحال. ويروى مرجل فيه صور الرجال.
(٢) ديوان امرىء القيس ١٤٠

ويقول الأعشى إنه استمتع بشابة مطوبة ، تسلل إليها فى الظلام، وقد غفلت عين زوجها ، فصار سيدها وسيده :

ومثلك معجبة بالشبا ب صَاكَ العبير بأجسادها
تسديتها عادنى ظلمة وغفلةُ عين وإيقادها
فبتُّ الخليفةَ من زوجها وسَيِّدَ نُعمٍ ومستادها(١)

ويفصل هذا التسلل فيقول إنه قد صار يراقب زوجة الغيور الحذر الذى لا تغفل عينه ، وصار يرعاها ، فلما أقبل الليل انسل إليها منتهزاً غفلة من الزوج ، فتيمها وسخر من هذا الزوج الذى رقب نهاراً وغفل ليلا :

ومَصاب غادية كأن تِجارها نَشرَت عليه بُرودها ورحالها
قد بِتُّ رائده ، وشاةِ محاذرٍ حذَراً يُقِلُّ بعينه إغفالها
فظللت أرعاها وظل يحوطها حتى دنوت إذ الظلام دنا لها
فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها
حفظ النهار وبات عنها غافلا نَخَلَتْ لصاحب لذة وخلا لها(٢)

٣ — ويلجئون فى تصوير استمتاعهم الجسدى إلى لون من الحوار أو الأسلوب القصصى يكسب شعرهم طرافة وجمالا ، قال امرؤ القيس إنه أحب حسناء ذات طفل ، وهى حيرى بين أن تستجيب لامرىء القيس وتدع طفلها يبكى ، أو لا تستجيب فتغضبه ، وقد بعث إليها فى هَدْءٍ من الليل حتى لا يحس بها أحد ، فجاءت متمهلة الخطا متهيبة السرى ، ولم تجىء وحدها بل كان معها أربع من رفيقاتها الكواعب، وقد جردها من ثيابها، وأقسمت له أنها ما خطرت إلا لمرضاته ،ولم يكن همها أن تحدثه ويحدثها،

(١) ديوان الأعشى ٥١ . صاك : لصق . تسديتها : تناولتها . مستادها : سيدها .
(٢) ديوان الأعشى ٢٣

فهذا الحديث مأثور بينهما فليس لديهما جديد ، وإنما كان همها شيء آخر :

ومثلكِ بيضاء العوارض طفلة ... —

ومهن سَوفُ الخَوْد قد بلّها الندى   تراقب منظوم التمام مُرضَعا
يَعِزُّ عليها ريبتى ويسوءها   بكاه فتَثنى الجيد أن يتضوعا
بعثت إليها والنجوم ضواجع   حذاراً عليها أن تَهُبَّ فتُسمَعا
فجاءت قطوفَ المشى هيّابة السُّرى   يداعب ركناها كواعب أربعا
تقول وقد جرّدتها من ثيابها   كما رعتَ مكحول المدامع أتلعا
وجَدِّك لو شىءٌ أتانا رسوله   سواك ولكن لم نجد لك مَدْفعا
تصد عن المأثور بينى وبينها   وتدنى علىّ السابرىّ المضلعا
إذا أخذتْهَا هِزَّةُ الرَّوع أمسكت   بمَنكِبِ مقدام على الهول أروعا[1]

وقال المنخل إنه دخل عليها فى يوم ماطر ، ودفعها ، فمشت كما تمشى القطاة إلى الغدير ، وعطفها فانعطفت ، وأحست حرارة جسمه فسألته ، فأجاب بأنها من لهب الحب :

ولقد دخلت على الفتا   ة الخدر فى اليوم المطير
الكاعب الحسناء تر   فل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتها فتدافعت   مَشىَ القطاة إلى الغدير
وعطفتها فتعطّفت   كتعطُّف الظبى البهير
فدنت وقالت يا منخـ   ـل ما بجسمك من حرور؟
ماشفّ جسمى غير حبـ   ـك فاهدئى عنى وسيرى[2]

(١) ديوان امرىء القيس ١١٢
(٢) [illegible]

٤ — ويحرسون على الا يقفو أحد آثارهم ، فالمحبوبة تمشى معفية بذيل جلبابها على آثار أقدامها ، أو يعفى الشاعر بذيله ، قال امرؤ القيس :

فلما دنوت تسديتها ... فثوباً نسيتُ وثوباً أجر
ولم يرنا كالىء كاشح ... ولم يَفشُ منا لدى البيت سر (١)

وقال :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا ... على أثَرَيْنا ذيلَ مِرطٍ مُرَحَّلِ (٢)

وقال سحيم :

ومثلك قد أبرزت من خدر أمها ... إلى مجلس تجرُّ بُرْداً مسَهَّما
فنفَّضْتُ ثوبيها ونَظَّرت حولها ... ولم أخش هذا الليل أن يتصرما
أعفى بآثار الثياب مبيتها ... والقط رَضاً من وُقُوف تحطما (٣)

٥ — وفى شعرهم ما يدل على أنهم استعانوا برسل يسفرون بينهم وبين عشيقاتهم، ويمهدون أسباب الاتصال ، ولعل بعض نسوة كن يتولين هذا ، بدليل قول السيدة عائشة ليست الواصلة بالتى تعرفون، وما بأس إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها ، ولكن الواصلة أن تكون بغياً فى شبيبتها ، فإذا أسنت وصلته بالقيادة (٤) . وهذا طبيعى من نسوة كن بغايا فى شبابهن ، لأنهن إذا ما تغضنت وجوهن ويبست أعوادهن ، وانصرف الرجال عنهن ، غلبتهن طبيعتهن، فسفرن بين الرجل والنساء ، وربما كان من دوافعهن إلى ذلك أيضاً أنهن يجدن فى شيوع الفاحشة عزاء لهن

(١) الديوان ٧٩ (٢) الديوان ١٢٩
(٣) ديوان سحيم ٣٥ والأغانى ٢٠ / ٥ رضا : فتاتاً من مسكها كان قد تكسر من ملاعبتها .
(٤) عيون الأخبار ٤ / ١٠٢

وثاراً من المجتمع الذى كان يعيبهن ، ويجدن أيضاً مرتزقاً.

قال امرؤ القيس :

بعثت إليها والنجوم ضواجع حِذراً عليها أن تَهُبّ فَتُسْمعا(١)

وقال الأعشى :

فعشنا زماناً وما بيننا رسول يحدث أخبارها
وأصبحت ما أستطيع الكلام سوى أن أراجع سِمسارها(٢)

وقال :

لميثاء إذ كانت وأهلك جيرة رِئاءً وإذ يفضى إليك رسولها(٣)

٦ — وكثيراً ما كانت العشيقة توافى عاشقها ومعها صواحبها ، قال امرؤ القيس :

فجاءت قطوف المشى هيّابة السرى يدافع ركناها كواعب أربعا(٤)

وقال سحيم :

تجمعن من شتى ثلاثاً وأربعا وواحدةً حتى كملن ثمانيا
وأقبلن من أقصى الخيام يَعُدْنَنى بقيةَ ما أبقين نَصْلا يمانيا
يَعُدْن مريضاً هُنّ قد هِجْنَ داءه ألا إنما بعض العوائد دائيا(٥)

٧ — وإذ كان هذا الغزل منبعثاً عن شهوة جسدية ، فلسنا نجد فيه تحليلا للنفس وخوالجها ، وتصويراً لحرقة الشوق ولذع الحرمان ، وتعبيراً عن تحمل الآلام واستطابتها ، كما وجدنا فى غزل العذريين .

---

(١) ديوان امرىء القيس ١١٣
(٢) ديوان الأعشى ٢١٤
(٣) الديوان ١٢٢
(٤) ديوان امرىء القيس ١١٣
(٥) ديوان سحيم ٢٣ والأغانى ٢٠ / ٥.

على أنه لا يخلو من لمحات عاجلة خاطفة تتحدث عن ألم الفراق أو الهجر ، ولكنه حديث سطحى لا يتغلغل إلى أعماق نفس الشاعر ، ولا يعدو أن يكون بكاء كما فى قول الأعشى :

غشيت لليلى بليل خدورا ... وطالبتها ونذرت النذورا
وبانت وقد أورثت فى الفؤا ... د صدعا على نأيها مستطيرا
كصدع الزجاجة ما تستطيع ... كف الصناع لها أن تحيرا[1]

وكما فى قول امرىء القيس :

كأنى غداة البين يوم تحمَّلوا ... لدى سَمُرات الحى ناقف حنظل[2]

وقال :

أمن ذكر نَبْهانيةٍ حلَّ أهلها ... بجزع الملا عيناك تبتدران؟
فدمعهما سَحٌّ وسَكْبٌ وديمة ... ورَشٌّ وتَوْكاف وتنهملان
كأنهما مزادتا متعجّلٍ ... فَرِيَّانِ لم تُسْلَقا بدِهان[3]

وهذه المبالغة التى يصور بها دموعه ، وهذه الألفاظ المترادفة التى يصفها بها ، دليل على أن شعوره مصطنع متكلف ، وما الذى يلجئه إلى الحزن أو البكاء الحار ؟

ليست عواطفه مشبوبة نحو هذه المرأة المرتحلة أو الهاجرة ، فليست هى الأولى أو الأخيرة التى أحبها لجسده ، فقد استمتع بغيرها من قبل ، قال امرؤ القيس :

---

(١) ديوان الأعشى ٦٧
(٢) ديوان امرىء القيس ١٢٥ . ناقف حنظل : أشقه بأسنانى فتدمع عيناى من مرارته
(٣) الديوان ١٨٨ — سح وسكب وديمة : انهمال وغزارة وكذلك الرش والتوكاف. مزادتان : قربتان كبيرتان . فريان : مخروقتان . لم تسلقا : لم تلصقا .

ومثلك بيضاء العوارض طفلة لعوب تنسينى إذا قمت سربالى
سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال[1]

وقال الأعشى :

ومثلك معجبة بالشبا ب صاك العبيرُ بأجسادها
تسديتها عادنى ظلمـــةٌ وغفلةُ عين وإيقادها
فبتُّ الخليفةَ من زوجها وسيِّد نُعمٍ ومستادِها[2]

وهو قدير على أن يحب غيرها إن هجرت ، قال امرؤ القيس :

أأسماء أمسى ودهـا قد تغيرا سنبدل إن أبدلت بالود آخرا[3]

٨ — وهم لا يحفلون فى غزلهم بالجاذبية الروحية التى يحسونها فى المرأة بقدر ما يحفلون بأوصافها الجسدية ، وذوقهم فى الجمال قائم على أن هذا الجسم للاستمتاع ، كما سبق فى فصل آخر — جمال المرأة — وبحسبى هنا أن أقول إنهم برعوا فى الوصف الجسدى براعة تفاوتت كل عضو من أعضاء المرأة ، كما نجد فى شعر امرئ القيس[4]، وفى شعر المنخل[5] ، وفى شعر الأعشى[6] ، وفى شعر طرفة[7] .

٩ — والمتصفح لغزل هؤلاء الشعراء لابد أن يسترعى انتباهه ترديدهم لأسماء حبيبات عدة ؛ ولست أريد أن الشاعر سواء أكان من العذريين أم من الحسيين يذكر دائماً الاسم ويريد به علماً خاصاً على امرأة معلومة ، فإن الشاعر كثيراً ما يرمز بالعلم إلى المحبوبة دون أن

(١) الديوان ١٤٠ (٢) ديوان الأعشى ٥١
(٣) ديوان امرئ القيس ٦٩ .
(٤) ديوان امرئ القيس ١٢٩ — ١٣١ ، ١٣٩ — ١٤٠
(٥) الأصمعيات ١ / ٣٠ (٦) ديوان الأعشى ٤٢ — ٤٣
(٧) ديوان طرفة ٤٥

يكون اسماً لها ، وإن كان الغالب فى غزل العذريين أن يصدقوا فى الدلالة بالاسم ، كما يصدقون فى قصر الحب على واحدة ، فعنترة يذكر عبلة ولا يذكر سواها ، وعروة يذكر عفراء ولا يتعداها .

وقد ردد هؤلاء الشعراء عديداً من الأسماء ، لأنهم متنقلون فى حبهم أو فى لهوهم ، فهم كالنحلة ما تلبث أن تمتص من الزهرة رحيقها حتى تطير عنها إلى غيرها ، وتعديد الأسماء دليل على تنقل الحب ، حتى وإن كانت الصناعة هى التى ألجأت إلى هذا التعديد ، وحسبى هنا أن أمثل من شعر امرىء القيس والأعشى .

أما امرؤ القيس فقد ردد أسماء كثيرة منها :

١ — هر

وهرٌّ تصيد قلوب الرجال   وأفلتَ منها ابن عمرٍو حُجُر[1]

٢ — هند

تذكرت هنـــداً وأترابها   فأصبحت أزمعت منها صدودا[2]

٣ — سليمى :

سما بك شوق بعـــد ما كان أقصرا
وحلّتْ سـليمى بَطْنَ قَوٍّ فعَرْعَرا[3]

٤ — فرتنا

أغادى الصّبوح عند هرٍّ وفَرْتَنَا   وليداً وهل أفنى شبابى غير هِرٍّ؟[4]

---

(١) ديوان امرىء القيس ٧٨
(٢) الديوان ٦٤
(٣) الديوان ٦٦
(٤) الديوان ٨٣

٥ — ماوية :

أماويَّ هـــل عندكم من مُعَرَّس
أم الصرم تختارين بالوصل نيأس ؟(١)

٦ — سلمى :

أمن ذكر سلمى إذ نأتك تَنُوصُ فتَقْصُر عنها خَطوةً وتَبُوص(٢)

٧ و ٨ — أم الحويرث وأم الرباب :

كدأبك من أُم الحوَيْرِث قبلها وجارتها أُم الرَّباب بمأسَلِ(٣)

٩ — فاطمة :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى(٤)

وأما الأعشى فقد كرر أسماء عدة منها :

١ — هريرة :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل؟(٥)

٢ — ليلى :

أزمَعتُ من آل ليلى ابتكارا وشطَّت على ذى هوى أن تزارا(٦)

٣ — سمية :

رحَلَت سُمَيَّةُ غُدوَةً أجمالها غضبى عليك فما تقول بدالها(٧)

---

(١) الديوان ١٠٠

(٢) الديوان ١٠٤ تنوص : تتأخر . تبوص : تعجل .

(٣) الديوان ١٢٥

(٤) الديوان ١٢٨

(٥) ديوان الأعشى ٤١

(٦) الديوان ٣٤

(٧) الديوان ٢٢

٤ — جُبيرة :

لاتَ هَنّا ذِكرى جُبَيرَة أو مَن ‏ جاء منها بطائف الأهوال[1]

٥ — سلمى

أوَصَلْت صرم الحبل من ‏ سلمى لطول جَنابها ؟[2]

٦ — وكرر فى عدة مواضع هذه الإشارة (نيًّا) :

عرفت اليوم من نيًّا مقاما ‏ بجوٍّ أو عرفت لها خياما[3]

ألا قل لنيـــاك ما بالُها ‏ ألِلبين تُحْدَج أجمالُها[4]

تذكرتَيا وأنّى بهـــا ‏ وقد أخلفت بعض ميعادها[5]

ألا قل لنيا قبل مِرَّتها اسلمى ‏ تحية مشتاق إلى متيم[6]

أتشفيك نيا أم تُرِكْتَ بدائكا ‏ وكانت قَتُولاً للرجال كذلكا[7]

ولقد تكون الإشارة إليها بهذه الكلمة فيها خشونة وقلة مبالاة ، ولكن هكذا كان شعراء المتعة الجسدية لايبالون .

أثر الجاهلى فيما بعده :

وبعد فإن عمر بن أبى ربيعة قد كان تلميذاً لسحيم وامرىء القيس والأعشى، وقد فصل ما أجملوا ، وضخم ما لم يضخموا ، ولكنه جرى على عرفهم فى كثير من غزله .

---

(١) الديوان ٣

(٢) الديوان ١٧٥

(٣) الديوان ١٣٣

(٤) الديوان ١١٦

(٥) الديوان ٥٠

(٦) الديوان ٩١

(٧) الديوان ٦٤

فهو يواعد نسوة من قريش على أن يلتقى بهن بالعقيق ليتحدث معهن ويتحدثن معه ، كما كان يفعل امرؤ القيس وسحيم ، ثم يصور هـــذا فى شعره[(١)]. وهو يوسط رسولا كما وسط امرؤ القيس والأعشى ، ولكنه يصف التى بعثها بأنها ماهرة ذات حيلة ودهاء وسياسة :

فأتتهـــا طَبَّةٌ عالمة   تخلطُ الجِد مراراً باللعب
تغلظ القول إذا لانت لها   وتُراخِي عند سَوْرات الغضب
لم تزل تصرفها عن رأيهـا   وتأنَّاها برفق وأدب[(٢)]

ويكرر ذلك فى مواضع أخرى[(٣)]

وهو يدب إلى محبوبته كما دب امرؤ القيس والأعشى :

فلما فقدتُ الصوتَ منهم وأطفئت   مصابيح شُبت بالعشاء وأنورُ
وغاب قُمَيْرٌ كنت أرجو غُيوبه   وروَّح رُعيـان ونوّم سُمّر
ونفضت عنى النوم أقبلت مشـية الـ
حُباب وشخصى خشيةَ القوم أَزْور[(٤)]

ويخرج بمحبوبته إلى الخلاء فتعفى هى وصواحبها على آثار الأقدام بذيولهن كما سبق فى شعر امرىء القيس وسحيم :

غَفَلْنَ عن الليـل حتى بدت   تباشير من واضح أسفرا
فقمن يُعفِّـين آثارنا   بأكسية الخز أن تُقْفَرا[(٥)]

وهو يجم بصحبه كما جموا[(٦)] :

---

(١) الأغانى ١ / ١٥١   (٢) الأغانى ١ / ١٣٥ تأناها : تمهل عليها
(٣) الأغانى ١ / ٩٢ و ١ / ١٤٠   (٤) الأغانى ١ / ١٤٤ .
(٥) الأغانى ١ / ١٥١   (٦) الأغانى ١ / ١٩٢

وهو يسلك سبيل الحوار والقصص الذى سلكوا[١] .

وكذلك فعل جران العود النميرى ، إذ اقتفى أثر امرىء القيس وسحيم والأعشى ، ويمثل مذهبه هذه الأبيات التى أسوقها من فائيته الطويلة ، وفيها يذكر ما دار بينه وبين حبيبته من تواعد ولقاء وتعفية على الأثر ، ويذكر أن صاحباتها كن معها :

فموعدكِ الشط الذى بين أهلنا ... وأهلك حتى تسمع الديك يهتف
ونكفيكَ آثارا لنا حيث نلتقى ... ذيول نعفّيها بهن ومُطْرَف
ومُنْسَحَبٌ رَيْطٍ فوق ذاك ويُمْنَة ... يسوق الحصا منها حواشٍ ورَفْرَفُ
فنصبح لم يُشْعَر بنا غير أنهم ... على كل ظن يحلفون ونحلف
فلما علانا الليل أقبلت خِفية ... لموعدها أعلو الإكام وأظْلِف
فأقبلن يمشين الهوينا تهاديا ... قصار الخطى منهن راب ومُزْحف
فلما التقينا قلن أمسى مُسَلَّطاً ... فلا يُشْرِفَنّ الزائر المتلطف
وقلن تمتع ليلة اليأس هذه ... فإنك مرجوم غدا أو مسيَّف
وأحرزن منى كل حُجْزةِ مئزر ... لهن ، وطاح النَّوْفَلِيُّ المزخرف
فبتنا قعوداً والقلوب كأنها ... قطا شُرَّعٌ الأشراك مما تخوّف
علينا الندى طوراً وطوراً يرشّنا ... رذاذ سرى من آخر الليل أوطف[٢]

---

(١) الأغانى ١ / ٨٥ و ١ / ٧٩

(٢) ديوان جران العود النميرى ١٧ — ٢٤ مطرف : رداء من خز . أظلف : أمشى على الغليظ من الأرض لئلا يظهر أثرى . راب : منقطع النفس . مزحف : عاجز عن المشى لوعورة الأرض . النوفلى : ما يدار على الرأس تحت الخمار أو هو ضرب من الحلى أو هو المشط . شرع الأشراك : نشبت فيها الأشراك . أوطف : سحاب متدل له أطراف .

بين المذهبين فى الغزل :

يختلف مذهب العذريين ومذهب الحسيين فى النظرة إلى المرأة ، فالأولون ينظرون إليها على أنها محبوبة ملهمة تسمو بهم إلى سماء عالية من الروحانية والصفاء والمتع المعنوية ، والآخرون ينظرون إليها على أنها جسد جميل تلذ المتعة به . والأولون لا يصرحون باشتهاء إلا شوقاً إلى قبلة أو لمسة ، والآخرون يجاهرون بالاشتهاء ويفتنون فى ضروب من الحيلة والوسيلة ليصلوا إليه .

الأولون يحللون نفسياتهم تحليلا يصور آلامهم وتضحياتهم، وقلما يحفلون بوصف الجسد ، والآخرون قلما يكشفون عن حرق وأشواق ، ولكنهم يحفلون بتصوير الجسد وجماله .

ثم يختلف المذهبان اختلافاً جوهرياً فى موضوع الحب نفسه، فالمذهب العذرى قائم على حب امرأة واحدة قلما تتبدل ، والمذهب المادى قائم على حب النوع ممثلا فى كل امرأة يستحليها الشاعر ، فهو يحب الجنس لا الشخص ، وهو لذلك لا يُعَنِّى نفسه بتوحيد الحبيبة والوفاء لها واحتمال الآلام فى حبها .

ثالثاً : الغزل التمهيدى

حقيقته :

وهذا ضرب ثالث من الغزل ، فيه من العذرى ، وفيه من الحسى ، وفيه لون ثالث لا هو عذرى ولا هو حسى ، وإنما هو فن من القول مصطنع ، وكان لا يقال إلا فى مطالع القصائد .

١ — أما العذرى فيمثله غزل عنترة فى أول معلقته وفى مطالع بعض قصائده ، مثل قوله :

أشاقك من عبل الخيال المبهّج ... فقلبك منه لاعج يتوهج[(١)]

ثم افتخر . ومثل قوله :

بين العقيق وبين بُرقة ثهمد ... طلل لعبلة مستهل المعهد[(٢)]

ثم افتخر أيضاً :

٢ — وأما الحسى — وإن كان هنا أقل حظاً — فيمثله غزل امرىء القيس فى أول المعلقة[(٣)] .

٣ — وأما الصناعى الذى لم تبعثه عاطفة حب عذرى أو حسى فكثير ، منه افتتاح لبيد فخره بهذين البيتين :

عفا الرسمُ أم لا بعد حول تجرّما ... لأسماء رسم كالصحيفة أعجما

لأسماء إذْ لم تفجُعنا ديارها ... ولم نخش من أسبابها أن تجذّما

ثم انتقل إلى غرضه بقوله :

فدع ذا وبلّغ قومنا إن لقيتَهُم ... وهل يخطئنّ اللوم من كان آلوما[(٤)]

---

(١) ديوان عنترة ٣١ ... (٢) الديوان ٦٨

(٣) الديوان ١٢٨ — ١٣١ ... (٤) ديوان لبيد ٣٩

ومثل هذا الغزل العاجل يقول عمرو بن الأهتم :

أجــدَّكَ لا تُلِمُّ ولا تزور ... وقد بانت برهنكم الخُدُور

كأن على الجمال نعاجَ قوٌ ... كوانسَ حُسَّرا عنها الستور

وأبكاراً نواعم الحقتنى ... بهن جُلالَةٌ أُجُدٌ عسير

فلما أن تسايرنا قليـــلا ... أَذِنَّ إلى الحديث فهن صُور [1]

ثم انتقل إلى وصية ابنه رِبعىٍّ بمكارم الأخلاق ، ثم افتخر بغلبته الأعداء وبمآثره ومآثر أبيه .

كثرة الغزل التمهيدى ، والغرض منه :

كثيراً ما افتتحت القصائد الجاهلية بالغزل التمهيدى فى كل فن من أفانين الشعر ، حتى الرثاء نفسه كما سيجىء ، ولم يك هذا الافتتاح عبثاً أو لغواً من القول ، وإنما كان عملا فنياً مقصوداً .

١ — يريد الشاعر المحب أن يتناول غرضاً من الأغراض كالحماسة أو الفخر أو الهجاء أو المدح أو وصف الناقة أو الرحلة ، فيبدأ يشقق القول بتعبير عن عاطفته ، يعد به نفسه لتمثل موضوعه ، والاندماج فيه ، فيسهل عليه المقال ، وتنثال عليه الصور والفكر ، مثله فى ذلك مثل المغنّى أو المغنية ، لابد له قبل الغناء من جو موسيقى يثير كوامن المشاعر ، ويهيئه لأن يَطرب ويُطرب .

والشاعر الذى لايحب يتكلف هذا الغزل التمهيدى ويصطنعه ، ليثير نفسه بأن يتقمص نفسية المحب ما استطاع .

---

(١) المفضليات ٢ / ٢٠٩ أجدك : أجدا منك . القلوب : الخدور : ما جللت به الهوادج . الجلالة : الجليلة الخلق يصف ناقته . الأجد : الموثقة . العسير : التى لم تروض . صور : جمع صوراء أى مائلات .

٢ — على أن الشاعر يفتتح قصيدته بالغزل ليهيء السامع لأن يتلقى مايسمع بعاطفة متفتحة ، ووجدان يقظ ، فالغزل هنا كالمقدمة فى الخطبة ، يمهد بها الخطيب أذهان السامعين لموضوعه ويهيئهم للسماع .

وأى حديث أشهى إلى النفس وأحلى موقعاً فى الأذن من حديث الصبابة ؟ وأى افتتاح أدعى إلى الإنصات والانتباه من وصف المرأة فى جمالها الساحر ، وفى وصلها وهجرها ورضاها وصدها ؟

يقول ابن قتيبة : « إن الشاعر ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار ، فشكا وبكى وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه ؛ لأن النسيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، ثم يصف الرحلة ومشقاتها ، ثم يمدح [1] » .

ويوافقه ابن رشيق فى هذا التعليل حيث يقول : « وللشعراء مذاهب فى افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول ، بحسب مافى الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء ، وإن ذلك استدراج لما بعده . . . [2] » .

وقد علل ابن الرومى بدءه قصائد الهجاء بالغزل تعليلا لا يخرج عن هذا ، بقوله :

ألم تر أننى قبل الأهاجى ... أقدم فى أوائلها النسيبا
لتخرق فى المسامع ثم يتلو ... هجائى محرقاً يكوى القلوبا
كصاعقة أتت فى إثر غيث ... وضحكِ البيضِ يتبعه النحيبا [3]

على أن الغزل المتكلف لا يصدر عن عاطفة ، وإنما هو ضرب مصطنع من القول .

---

(١) الشعر والشعراء ١٤ (٢) العمدة ١ / ١٥٠
(٣) ديوان ابن الرومى ١٥

لهذا لانجد له تأثيراً فى عواطفنا يجعلنا نشارك قائله مشاركة وجدانية كما نتأثر ونشارك فى الغزل الصادق ، وشتان بين غزل نابع من القلب ، وآخر صادر من العقل .

هل اقتصر الغزل التمهيدى على بعض فنون الشعر ؟

(ا) فى الرثاء :

لم يحبس الشعراء غزلهم التمهيدى بنوعيه على بعض الفنون دون بعض ، وقد كان الرأى الشائع فى دراسة تاريخ الأدب أن قصائد الرثاء لم تبدأ بالغزل ؛ لأنه لا يلائم العاطفة الحزينة والقلب الملتاع . وفى ذلك يقول ابن رشيق : « وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء . قال ابن الكلبى : لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصِّمة :

أرثّ جديد الحبل من أم معبد بعاقبة أم أخلفت كل موعد؟

وأنا أقول إنه الواجب فى الجاهلية والإسلام إلى وقتنا هذا ومابعده ؛ لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو من الحسرة والاهتمام بالمصيبة ، وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ ثأره وأدرك طلبته »[1] .

ولكن هذا الرأى فى حاجة إلى تمحيص ، فقد وجدت كثيراً من المراثى مصدرة بغزل . منها :

١ — مرثية دريد بن الصمة فى رثاء أخيه عبد الله ، وقد افتتحها بهذه الأبيات :

أَرَثّ جديد الحبل من أُم معبد بعاقبة أم أَخْلَفتْ كل موعد

(١) العمدة ٢ / ١٢١

وبانت ولم أَحمَدْ إليها نوالها ولم تُرجَ فيها رِدَّةُ اليومِ أو غد

ثم انتقل إلى موضوعه بقوله :

أعاذلَ إن الرزء في مثل خالد ولا رزء فيما أهلك المرء من يد

وقلت لعارض وأصحاب عارض ورهط بني السوداء والقوم شهدى

علانيةً ظُنُّوا بألفَىْ مدجَّج سَرَاتهم في الفارسيِّ المسرَّد

. . . .

تنادوا فقالوا أردَت الخيل فارسا فقلت:أعبد الله ذلكم الرَّدى ؟ (١)

وأتم رثاءه لأخيه .

٢ — إحدى مراثى المهلهل لأخيه كليب ، أولها :

الدار قَفْرٌ عفاها بعد ساكنها بالريح بعد ارتحال الحىّ عافيها

وغالها الدهر إن الدهر ذو غِيَلٍ فأصبحت بلقعاً قفراً مغانيها

إلا رواكد سُفْعا بين ملتبد مثل الحمامة منتوف حوافيها

دار لمهضومة الكشحين خَرْعَبَةٍ كالشمس حين بدا في الضوء باديها (٢)

٣ — وله مرثية أخرى مطلعها :

غدا الخليطان إذ جد الخليطان عنا بأحداج أجمال وأظعان (٣)

٤ — وللمهلهل مرثية ثالثة أولها :

طَفْلَةٌ ما ابنةُ المحلَّل بيضا ء لعوبٌ لذيذة في العِناق

---

(١) الأصمعيات ١ / ٢٣ من مجموعة وليم البروسى

(٢) بكر وتغلب ٤٤ (٣) بكر وتغلب ٤٧

فاذهبي ما إليك غير بعيد ... لا يؤاتى العناق مَنْ فى الوثاق
ضرَبتْ نحرها إلىّ وقالت ... يا عديا لقد وقتك الأواقى
ما أرجّى العيش بعد ندامى ... أراهم سُقُوا بكأس حَلاق [1]

ثم تحسر على ثمانين من تغلب

٥ — مرثية الحارث بن عباد لابنه بُجَير الذى قتله المهلهل ومطلعها :

بانت سعاد وما وفّتك ما تَعِدُ ... فأنت فى إثرها حران مُعتمد [2]

٦ — ٨ وله ثلاث غيرها مبدوءة بالغزل[3] .

٩ — مرثية عُذَيقة بن مسافع العبسى لأخيه ، أولها حديث عن المرأة:

تقول سليمى ما لجسمك شاحبا ... كأنك يحميك الشرابَ طبيب
فقلت ولم أعىَ الجواب ولم أُلِحْ ... وللدهر فى صم السِّلام نصيب
تتابعُ أحداث تخرّمن إخوتى ... وشيبن رأسى والخطوب تشيب

ثم انتقل إلى الرثاء[4]

١٠ — مرثية المرقش الأكبر لابن عمه ثعلبة بن عوف ، مبدوءة بوقفة على الأطلال فى أربعة أبيات ، وحديث عن الظعائن فى بيتين[5] .

١١ — مرثية النابغة الذبيانى للنعمان بن الحارث الغسانى[6] .

١٢ — مرثية حسان بن ثابت لحمزة بن عبد المطلب[7]

---

(١) الأغانى ٥ / ٥٤ حلاق معدول عن الحالقة ، وإنما يريد المنية لأنها تحلق
(٢) بكر وتغلب ٨٩ ... (٣) بكر وتغلب ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦
(٤) الأصمعيات ١ / ١٥ السلام : جمع سلمة وهى الحجارة
(٥) المفضليات ٢ / ٣٧ ... (٦) ديوان النابغة ٥٧
(٧) ديوان حسان ٨٥

ولست أقصد إلى أن هذا عرف غالب بين الشعراء ، وإنما أقصد إلى أنه لم يكن من الندرة إلى الحد الذى كان مقرراً فى الأذهان ، أو إلى الحد الذى ذهب إليه ابن رشيق .

على أن مواقف الفجيعة كانت تفجر القصيد الرائى فى أكثر الأحيان غير مصدر بغزل ، وغير مصرع ، من ذلك ثلاث مراث لعمرو بن حممة الدوسى ألقاها على قبره الهدم بن امرئ القيس ، وعتيك بن قيس ، وحاطب بن قيس[1] ، ومن ذلك مرثية عنترة لتماضر زوجة الملك زهير ابن جذيمة العبسى ، فإنها غير مبدوءة بغزل[2] .

(ب) فى المدح :

ولكن تقدمة الغزل فى قصائد المدح كثير الشيوع ، حتى لقد يستغرق الغزل أحياناً نصف القصيدة ، فمثلا مدحة كعب بن زهير للنبى ﷺ التى مطلعها « بانت سعاد[3] » عدد أبياتها ثمانية وخمسون بيتاً ، استغرق الغزل ووصف النوق ثمانيـة وثلاثين بيتا ، وبقى المدح والاعتذار عشرون .

وفى مدحة المسيب بن علس للقعقاع غزل فى ستة أبيات ، ووصف للناقة فى ثمانية ، ومدح فى اثنى عشر[4] .

وفى مدحة عنترة للملك زهير بن جذيمة العبسى غزل فى ثمانية أبيات ومدح فى أربعة[5] .

وفى مدحة الأعشى لابى الأشعث قيس غزل فى اثنين وعشرين بيتاً ، ومدح فى خمسة أبيات[6] .

---

(١) الأمالى ٢ / ١٤٣
(٢) ديوان عنترة ٦٠
(٣) جمهرة أشعار العرب ٣٠٨
(٤) ذيل الأمالى ١٣٠
(٥) ديوان عنترة ١٦١
(٦) ديوان الأعشى ٢٢٧

(حـ) فى الفخر :

وربما كان الغزل أكثر ملاءمة فى مطالع الفخر من مطالع المدح ؛ لأن النفس فى الفخر منفعلة مهتاجة ، ولأن الغزل ضرب من القدرة والفتوة والسمو يساير الفضائل التى يفخر بها الشاعر .

فمثلا افتخر الشنفرى بقتله حراما قاتل أبيه ، واستفتح فخره بهذا الغزل :

أرى أم عمرو أزمعت فاستقلت ... وما ودعت جيرانها إذ تولت

فقد سبقتنا أم عمرو بأمرها ... وقد كان أعناقُ المطى أظلت

فواندما على أميمة بعدما ... طمعتُ فيها نعمة العيش زلت[1]

وواصل غزله فى أحد عشر بيتا ، ثم افتخر وهدد خصومه .

وكذلك فعل خفاف بن ندبة[2] ، والعباس بن مرداس[3] ، وسلامة ابن جندل[4] ، وذو الإصبع العدوانى[5] ، وعنترة[6] .

ولقد يكون الغزل أطول من الفخر كما فى قصيدة قيس بن الخطيم التى مطلعها :

رد الخليط الجمال فانصرفوا ... ماذا عليهم لو أنهم وقفوا ؟[7]

فإن أبيات الغزل فيها تسعة عشر ، وأبيات الفخر والتهديد تسعة ، وكما فى قصيدة عبيد بن الأبرص التى مطلعها :

ليس رسم على الدفين ببال ... فلوى ذروة فجنبَىْ أثال ؟[8]

---

(١) الأغانى ٢١ / ٩٠
(٢) الأصمعيات ١ / ١٦
(٣) الأصمعيات ١ / ٣٥
(٤) الأصمعيات ١ / ٥٠
(٥) المفضليات ١ / ١٦٤
(٦) ديوان عنترة ٤١ ، ٥٦ ، ٨٧
(٧) الأصمعيات ١ / ٤٥
(٨) ديوان عبيد القصيدة ١١

فأبياتها الغزلة تسعة عشر ، وأبياتها الفاخرة ستة عشر .

وليس من المصادفة أن كان أكثر فخر عنترة وأضرابه من الصناديد يبدوءاً بغزل ، لأن هذا الفخر نزعة فنية ونفسية عند هؤلاء الأبطال ، وما من شك فى أن فخر عنترة كان موجهاً إلى عبلة ، ومراداً به التقرب إليها ، ونيل رضاها وإعجابها ، كما يتبين ذلك من دراسته

(ى) فى الهجاء :

كذلك كانت قصائد الهجاء أحياناً تصدر بالغزل ، ولعل ذلك لأن الهجاء كان لا يخلو من فخر ، فالهاجى يعير خصومه ويفتخر بفضائل قومه من نجدة وكرم وشجاعة وسطوة الخ ، ثم هو يصدر هجاءه بغزل ليكسبه حلاوة وطلاوة فيذيع ويُرْوَى .

فمثلا هجا الأعشى علقمة فبدأ هجاءه بثلاثة عشر بيتاً غزلية(١) .

وهجا شيبان بن شهاب بقصيدة عدتها سبعون بيتاً تغزل فى سبعة وعشرين منها(٢) . وكذلك فعل فى هجاء يزيد بن مسهر إذ تغزل فى سبعة أبيات(٣) .

وهجا عبيد بن الأبرص امرأ القيس بقصيدة بدأها بخمسة أبيات غزلة ثم افتخر وهجا(٤) .

وهدد امرؤ القيس بنى أسد وهجاهم بادئاً بغزل فى بيتين :

يا دار ماوِيَّةَ بالحائل ... فالسَّهب فالخَبْتَيْن من عاقل

صُمَّ صَدَاها وعفا رسمها ... واستعجمت عن منطق السائل

قولا لُدودان عبيد العصا ... ما غركم بالأسد الباسل(٥)

---

(١) ديوان الأعشى ١٠٤ (٢) الديوان ١١١

(٣) الديوان ٥٦ (٤) ديوان عبيد القصيدة ١٧

(٥) ديوان امرىء القيس ١٥١

(و) ولقد يكون الغزل تصديراً القصائد ذات موضوعات عدة ، فيها وصف للناقة وللرحلة ، وفيها مدح ،وفيها فخر ، وفيها حكمة ، وهو فى تصدره القصيدة المتعددة الموضوعات كتصدره القصيدة الموحدة سواء بسواء .

البدء بغير غزل :

على أن كثيراً من القصائد كانت تبدأ بغير غزل حتى من الشعراء المحبين الذين أكثروا من البدء بالغزل ، فمثلا امرؤ القيس يبدأ بالموضوع فى كثير من قصائده مثل قصيدته التى يتوعد بها بنى أسد[١] وقصيدته التى يمدح بها المعلى من تيم بن ثعلبة[٢] ، وقصيدته التى يمدح بها بنى عوف[٣] .

والأعشى بدأ قصيدته فى مدح قيس بن معديكرب الكندى بحكم استغرقت أحد عشر بيتاً ، ثم عرج على بعض صبواته الماضية فى عشرين بيتاً ثم مدح (٤) .

وعنترة بدأ بعض خرياته بغير غزل(٥) .

وعبيد بن الأبرص هدد امرأ القيس وهجاه بقصيدة لاغزل فيها (٦) .

وعمرو بن الطفيل افتخر ببلائه ولم يبدأ بغزل (٧) .

البدء بالغزل والعودة إليه :

وهناك قصائد شذت عن الطريقتين معاً ، فليست مبدوءة بالغزل فحسب ، ولكن الشاعر يبدأ به ثم ينتقل إلى غرضه الأصيل ، ثم يعود إلى الغزل،وقد يختمها بالغزل. وقد يقال إن هذا من خلط الرواة، ولكنى

---

(١) ديوان امرئ القيس ٦٠ (٢) الديوان ١٧٩
(٣) الديوان ١٨٩ (٤) ديوان الأعشى ١٣
(٥) ديوان عنترة ١٧٨ ، ١٧٢ ، ١٧٠ ، ١٠٦
(٦) ديوان عبيد القصيدة ٦ (٧) ديوان عامر القصيدة ١٥

أستبعده، لأن الراوية ليس من الغفلة بحيث لا يروى الغزل متلاحقاً وهو يعلم أن هذا نظام شائع فى الشعر. وأرى أن الشاعر أنشد قصيدته على هـــذا الغرار، أو لأن الغزل الأول لم يشف ما بنفسه، أو لأنه كان قد فتر فانصرف عن غير الغزل إلى الغزل مرة ثانية.

من ذلك قصيدة ســويد بن أبى كاهل اليشكرى، فقد بدأها بالغزل فى نحو اثنين وعشرين بيتاً، ثم عاد إلى الغزل من البيت الخامس والأربعين إلى البيت الخمسين (١).

وقصيدة عبيد التى مطلعها:

يا دارَ هندٍ عَفَاها كل هطَّال   بالجَوِّ مثل سَحيق اليُمْنة البالى (٢)

فقد تغزل أولا فى خمسة أبيات ثم وصف ناقته، وافتخر بشجاعته وشربه الخمر فى تسعة أبيات، ثم عاد إلى الغزل فى أربعة أبيات. وكذلك قصيدته التى مطلعها:

أمن منزل عافٍ ومن رسم أطلال   بكيت وهل يبكى من الشوق أمثالى؟ (٣)

فقد بداها بغزل فى عشرة أبيات، ثم وصف الناقة فى ثلاثة، ثم عاد إلى الغزل فى أربعة.

ومعلقة عنترة، بدأها بالغزل، ثم عاد إليه فى وسطها (٤).

ثم فعل ذلك من بعد المرّار بن منقذ فى إحدى قصائده (٥).

الانتقال من الغزل إلى غيره:

ليس الغزل منفك الصلة بما بعده فى نفس الشاعر، وإن بدا كذلك

---

(١) المفضليات ٢ / ١٨٨
(٢) ديوان عبيد القصيدة ٥
(٣) ديوان عبيد القصيدة ١٥
(٤) شرح المعلقات العشر
(٥) المفضليات ١ / ٨٠

فى الظاهر ؛ لأن الشاعر كما قلت إما محب ، وإما متصنع للحب ، ومتصنع الحب يحاكى المحب فى فن القول ، والعلاقة بين الغزل وما بعده علاقة نفسية ؛ لأنهما معاً صادران عن عاطفة ، ويشغلان تفكير الشاعر ، ولأنهما معا من صور الحياة البدوية التى يحياها الشاعر ويعجب بها ، ولقد يرتبطان فى بعض الحالات ارتباطا وثيقاً ، كأن ينتقل الشاعر من الغزل إلى الحماسة لأن الحماسة فتوة ، ولأن الحب فتوة ، أو ينتقل الشاعر من الغزل إلى وصف الناقة مركب الشاعر إلى حبيبته النازحة ، ومركبه فى التسلى عن حبه ، فهى وثيقة الصلة بالحب .

وقد فطن فرويد إلى أنه « لابد من علاقة بين أى فكرتين تلى إحداهما الأخرى ، سـواء أكانت تلك العلاقة ظاهرة أم غير ظاهرة . فالعقل لا يستطيع أن يغير الموضوع حينما يشاء من غير إشارة إلى ماضيه القريب »(١) .

ولقد يترسم الشاعر هذا الطريق وهو لا يقصد ؛ لأن الذكريات أفكار مرتبطة ، وحتى فى التفكير المتعمد تكون الروابط لا شعورية ، فيفيض التيار العصبى من غير تفكير فى المسالك العصبية ، ولا يستثير شرارة الشعور إلا عندما يقفز من طرف لآخر (٢) .

هذا التعدد فى موضوعات القصيدة كان من وحى الصحراء ؛ لأن الشاعر إذ يمر على ربع المحبوبة بعد رحيلها يتملى بالنظر إليها ، ويتذكر ما تقضى من أيام أنسه ، ويتذكر ما كان بينه وبين محبوبته من وصل ومن هجر ، فيبكى ماضيه الجميل ، وقد يستبكى مَنْ معه من رفاق ، فإذا ما شفى بكاؤه وتعبيره عن نفسه بعض ما يجد ، انصرف إلى رحلته وإلى ناقته فتحدث عن مشاق الرحلة ، ووصف بعض مناظر الصحراء ، وتحدث عن ناقته ، وأبدع فى وصفها . ولقد يستطرد إلى تصوير ما يشبه به ناقته من

(١) كيف يعمل العقل ١ / ٤٥ (٢) كيف يعمل العقل ١ / ٣٠

غزال أو بقرة أو ظليم، ثم ينتقل إلى المدح أو الفخر أو الحماسة أو غيرها.

وإذاً فقد كانت هذه الموضوعات مترابطة فى نفس الشاعر، وسهل عليه التعبير عنها متلاحقة أنه لم يكن فى أكثر الأحيان يعد شعره مكتوبا، وإنما كان يعده فى نفسه تارة، ويرتجله تارة.

فإذا كانت القصيدة العربية قد جرت على تعدد موضوعاتها فى الغالب الأعم، فإن هذه الموضوعات المتعددة تلتقى عند نقطة واحدة، هى أنها مشغلة الشاعر، وأنها وحى البيئة التى يعيش فيها، وإن بدت فى القصيدة مناحى متفرقة فى القول.

وندع القول لمستشرق غربى يتحدث عن هذه الأجزاء التى تضمها القصيدة، لنرى حكم الذوق الغربى على هذا التعدد. يقول الأستاذ جب: «إن القصيدة تتألف من سلسلة من صور تعرض جوانب متعددة من الحياة العربية، ليس بينها من الروابط إلا القليل، يطبعها التقليد بطابعه فى ترتيبها وتسلسل أرقامها ففى مطلع القصيدة نرى الشاعر على ظهر جمله مع صاحب أو صاحبين، وينطلق إلى حيث مخيمه أو مخيم قبيلة صديقة رحلت وبقيت أطلالها، إنه يدعو صاحبه للوقوف لحظة، ثم يبدأ فى أسف وأسى يصف أيامه السعيدة التى قضاها مع حبيبته منذ سنين، أما الآن فقد باعدت بينه وبين حبيبته تصاريف الأيام، وضربه المتوالى فى الأرض. وبين الأطلال وحواليها يقف الشاعر يندب حظه، ثم يطنب فى وصف الحبيبة فى تفصيل دقيق.

ثم يستعيد شعوره؛ ويمضى فى رحلته، ثم ينتهز الفرصة ليصف فى خبرة وفى إعجاب جمله أو حصانه، وسرعة حصانه تقوده إلى أن يوازن بينه وبين الحمار الوحشى أو النعامة أو الضبع، وسرعان ما ينسى هذه الموازنة ويستغرق فى وصف الحيوان الذى شبه به، أو فى وصف منظر

من مناظر الصيد ، وهذا الجزء هو أقرب الأجزاء إلى الذوق الغربي ثم ينتقل إلى موضوع القصيدة الذي يريده . . . ويتبين من ذلك كيف سهل الأمر على المصنفين فيما بعد ففصلوا أجزاء القصيدة بعضها عن بعض، واعتبروا كل جزء وحدة قائمة بذاتها» [١] .

٢ — وقد أخذ النقاد على الشعراء الجاهليين أنهم ينتقلون من الغزل إلى غيره فجاءة بغير أن يربطوا بين الغرضين ، ويتسللوا من الغزل إلى ما بعده في مهارة وحبك ، وآثروا أن يتطرق الشاعر من الغزل إلى غيره في لطف وحيلة ، كما يفعل أبو تمام وأبو الطيب في أكثر الأحيان [٢] ومسلم بن الوليد ومنصور النمري [٣]. وهذا حق ، لكن الانتقال المفاجيء دليل على أن الشاعر لم يستوح عقله ومنطقه وتفكيره ، وإنما استوحى عاطفته وقلبه وشعوره ، ولو أنه استوحى عقله ما عجز عن براعة الانتقال التي برع فيها المتنبي مثلا . والشاعر صادق في تعبيره عن شعوره لأن المرأة تشغله ، والناقة تشغله ، ولأن الفخر أو المدح أو الهجاء يشغله أيضاً ، فهو يتابع هذه الأغراض في قوله كما تتتابع في شعوره . لذا لم يحاول أن يعقد صلة مصطنعة في انتقاله من غرض إلى غرض .

وليس أدل على أن هذا التحايل والتلطف في التنقلة من الغزل إلى المدح مثلا عمل عقلي لا فني من أن البارعين فيه هم الذين تفلسفوا في شعرهم كأبي تمام وأبي الطيب ومن تأثر بهم إلى العصر الحاضر ، مثل شوقي في تكريم سعد زغلول ، فقد تغزل في تسعة أبيات ، وصف فيها جمال الحسناء وإعجاب الحسان بها ، ثم انتقل إلى المدح بقوله :

لو كنتَ سعداً مطلق السجناء لم   تطلق لساحر طرفها مَصْفُودا [٤]

في حين نرى شاعراً فذاً لا صلة لشعره بالفلسفة كالبحتري لا يتلطف

---

(١) Arabic literature. P. 18—20. Gibb.

(٢) العمدة ١ / ١٥٦ (٣) الصناعتين ٤٣٨ (٤) الشوقيات ١ / ١٢٥

هذا اللطف، فكثيراً ما انتقل من غزله التمهيدى إلى المدح فجأة بغير وشائج، كقوله فى مدح المتوكل :

أخفى لك هوى فى الضلوع وأظهر   وألام فى كمد عليك وأعذر

وأتم غزله فى تسعة أبيات ، ثم انتقل إلى المدح بقوله :

الله مكّن للخليفـــة جعفر   مُلكا يحسّنه الخليفة جعفر[1]

وأكثر مدائحه على هذا الغرار ، يبدؤها بالغزل ولا يتحايل فى الانتقال[2] .

وإنما كانت طريقة الشعراء أن ينتقلوا من الغزل إلى غيره بقولهم دع ذا ، قال لبيد .

عفا الرسم أم لا بعد حول تجرّما   لأسماء رسم كالصحيفة أعجما

لأسماء إذ لم تَفْتنـــا ديارها   ولم نخش من أسبابها أن تَجَذَّما

فدع ذا وبلغ قومنا إن لقيتهم   وهل يخطئنّ اللوم من كان ألوما[3]

وقال امرؤ القيس بعد أن تغزل فى خمسة وعشرين بيتاً :

فدع ذا وسل الهم عنك بِجَسْرَةٍ   ذَمُولٍ إذا صام النهار وهَجَّرا[4]

أو ينتقلون بغير هذا ، كما فعل النابغة الذبيانى فى مدحته لعمرو ابن الحارث المعروف بالأعرج ، فإنه تغزل فى ثلاثة أبيات، ثم انتقل إلى المدح مباشرة :

علىَّ لعمرو نعمة بعد نعمة   لوالده ليست بذات عقارب[5]

---

(١) ديوان البحترى ١٠ مطبعة الجوائب بالقسطنطينية .

(٢) الديوان ١٢ ، ١٣ ، ٧٤ ، ٩٨ الخ   (٣) ديوان لبيد ٣٩

(٤) الديوان ٧٠ جسرة : ناقة قوية . ذمول : سريعة . صام النهار : قامت الظهيرة .

(٥) ديوان النابغة ٥

وكقول الأعشى فى مدحه قيساً دهقان اليمن بعد أن تغزل :

عُدَّ هـــذا فى قريض غيره   واذكرَن فى الشعر دهقان اليمن[1]

وكذلك فعل المسيب بن علس ، فقد تغزل فى ثمانية وعشرين بيتاً ، ثم طفر إلى المدح بقوله :

وإليك أعملت المطيـة من   سهل العراق وأنت بالقفر

وأتم مدحته فى اثنى عشر بيتاً[2] .

وهذا الانتقال المفاجىء كثير ، ومن أمثلته قصيدة لطرفة[3] ، وقصيدة لحسان بن ثابت[4] ، وقصيدة لقيس بن الخطيم[5] ، وقصيدة لعمرو بن الأهتم[6] .

ولقد يعرض الشاعر قوله وفيه ما يصح أن يسمى ربطاً ، ولكنه أيضاً غير مقصود ، لأنه خواطر تتساوق ومعان تتداعى ، وذلك كقصيدة لامرىء القيس وقف فيها على الربع واستنطقه ، ثم ذكر الظعائن ووصفهن وصور حزنه لما ارتحلن ، وهذه كلها مرتبطة فى نفسه ، ثم شرع يصف ناقته بقوله

فعزَّيتُ نفسى حين بانوا بِجَسْرَةٍ   أُمُونٍ كبنيان اليهودى خَيْفَق[7]

وواصل وصفها . ولكن الناقة مرتبطة بوقفته على ربع الحبيبة وبرحلته وبالألم لفراقها ، وهى وسيلة إلى الرحلة التى يأمل أن تسليه .

ولقد يحدث الربط الوثيق والانتقال المتسلسل ، لكنه مصادفة لا تعمل فيه ، وخير ما يمثله قول ربيعة بن مقروم فى مدح مسعود بن سالم:

---

(١) ديوان الأعشى ٢٢٨

(٢) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٣

(٣) ديوان طرفة ٧٠   (٤) ديوان حسان ١١

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٢٥   (٦) المفضليات ٢ / ٢٠٩

(٧) الديوان ١١٨ . بنيان اليهودى : حصنه . خيفق : سريعة .

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا   وأخلفتك ابنة الحرّ المواعيدا

فتغزل فى أربعة أبيات ، ثم وصف ناقته فى ثلاثة ، ثم انتقل إلى المدح بقوله :

لما تشكت إلى الأينَ قلت لها   لا تستريحين مالم ألق مسعودا[(1)]

وقول حاجب بن حبيب :

أعلنتُ فى حب جُمْلٍ أى إعلان   وقد بدا شأنها من بعد كتمان

وقد سعى بيننا الواشون واختلفوا   حتى تجنّبتها من غير هجران

هل أبْلُغَنْها بمثل الفحل ناجيةٍ   عَنْسٍ عُذافرةٍ بالرحل مِذعان[(2)]

فهو هنا انتقل من الغزل إلى وصف الناقة انتقالا موصولا لا مبتوراً .

رابعاً : الغزل الكيدى

مقدمة :

هذا نوع من الغزل لا هو عذرى ولا هو حسى ولا هو تمهيدى . فليس عذريا ولا حسيا ، لأنه غير منبعث عن عاطفة ، وليس تمهيديا ، لأن الغرض منه لم يكن إعداد النفس للإنتاج ، وتهيئة الجو الموضوع وإعداد السامع للإصغاء ، وإنما كان الغرض منه الكيد والإغاظة ، وتجريح الخصم ، والنيل من عرضه بشباة اللسان ، فهو فى الحقيقة لون من الهجاء .

لهذا صح أن أجعله نوعاً مستقلا عن الأنواع السابقة .

---

(١) المفضليات ٢/١٣

(٢) المفضليات ٢ / ١٧٠ ناجية : ناقة سريعة . عنس : ناقة قوية صلبة . عذافرة : ضخمة . مذعان : مطيعة .

وهو من حيث المظهر وطريقة العرض لا يختلف عن الغزل التمهيدى فى شىء، وهذه أمثلة له :

١ — فى يوم بُعَاث تغزل قيس بن الخطيم بِعَمْرة بنت رَوَاحة أخت عبد الله بن رواحة وهى أم النعمان بن بشير ، ثم فخر بانتصار الأوس على الخزرج :

أتعرف رسْماً كالطراز المذهب لِعَمْرةَ وَحشاً غير موقف راكب

ديار التى كانت ونحن على منى تَحُل بنا لولا نجاء الركائب

تراءت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجبٌ منها وضَنَّت بحاجب

ولم أرها إلا ثلاثاً على منى وعهدى بها عذراء ذات ذوائب

ومثلك قد أصبيتُ ليست بِكَنَّةٍ ولا جارةٍ ولا حليلة صاحب (١)

وهذا غزل لا إفحاش فيه ، بل إنه فى مظهره أقرب إلى أن يكون من الغزل العذرى ، ولكن عبد الله بن رواحة لم يطق صبرا ، فرد العدوان بمثله ، إذ تغزل فى ليلى بنت الخطيم على الوزن والقافية نفسها :

أشاقتك ليلى فى الخليط المجانب نعم فرشاش الدمع فى الصدر غالب (٢)

٢ — واقتتل الأوس والخزرج فى يوم الربيع قتالا كاد يفنيهم ، وانهزمت الأوس وتبعتها الخزرج إلى الدور ، ولحسان قصيدة فى هذا اليوم تغزل فيها بليلى بنت الخطيم فى مطالع الفخر :

لقد هاج نفسك أشجانُها وعاودها اليوم أديانُها

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٨٩ وديوان قيس بن الخطيم ١٠ وجمهرة أشعار العرب ٢٠٧ الطراز المذهب : الثوب المنقوش بالذهب .
(٢) ديوان قيس بن الخطيم ٣٦

تذكرتَ ليلى وأنّى بها ... إذا قُطعت منك أقرانها
وحَجّل فى الدار غِرْبانها ... وخف من الدار سكانها
وغيَّرها مُعْصِرات الريح ... وسَحُّ الجنوب وتَهْتانها
مهاةٌ من العِين تمشى بها ... وتَتْبعها ثَمَّ غزلانها
وقفت عليها فساءلتها ... وقد ظعن الحى : ما شأنها ؟
فَعَيَّتْ وجاوبنى دونها ... بما راع قلبىَ أعوانها[1]

فأجابه قيس بن الخطيم بقصيدة من الوزن والقافية ، وتغزل بعمرة زوجة حسان :

أَجِدّ بعمرةَ غُنْيَانُها ... فتهجرَ أم شأننا شأنها ؟
وإن تُمْسِ شَطَّتْ بها دارها ... وباح لك اليوم هِجْرانها

ثم انتقل إلى مناقضة حسان فى فخره[2] .

وقيل إن قصيدة قيس هذه إنما قالها فى عمرة بنت رواحة أم النعمان ابن بشير وأخت عبد الله بن رواحة .

٣ — وبعد غزوة بدر شبب كعب بن الأشرف بأم الفضل بنت الحارث ، ليغيظ المسلمين ، فقال :

أراحلٌ أَنت لم تحلل بمَنْقَبة ... وتاركٌ أنت أم الفضل بالحَرَم؟
صفراءُ رادعةٌ لو تُعْصَر انعصرت ... من ذى القوارير والحناء والكَتَمَ

(١) ديوان حسان ٤١٦ والأغانى ٣/١٢ أديانها : ج دين وهو الداء والمراد الحب القديم
(٢) ديوان قيس بن الخطيم ٧ والأغانى ٣/١٢ غنيانها : استغناؤها عنى

يَرْتَجُّ ما بين كعبيها ومَرْفِقِها إذا تأَتَّتْ قِياما ثم لم تَقُم
وأشباه أم حكيم إذ تواصلنا والحبل منها متين غير منجذم
إحدى بنى عامر جُنَّ الفؤاد بها ولو تشاء شفتْ كمداً من السَّقم
فَرْعُ النساء ، وفَرْع القوم والدُها أهل المحلة والإيفاء بالذمم
لم أَر شمساً بليل قبلها طلعت حتى تجلت لنا فى ليلة الظُّلَم

ثم شبب بنساء من نساء المسلمين حتى آذاهم فأمر النبى بقتله [١] .

الفرق بينه وبين الأنواع الأخرى :

يختلف الغزل الكيدى عن أنواع الغزل السابقة من حيث الباعث ومن حيث الغرض .

١ — فالباعث على الغزل العذرى الحب العفيف ، ولكن الباعث على الغزل الكيدى العداء والخصومة .

والغرض من الغزل العذرى التنفيس وتصوير المشاعر ، والتعبير عما يختلج فى نفس الشاعر من وجد وشوق وهيام وآلام وآمال ، أما الغزل الكيدى فإن الغرض منه إغاظة الأعداء والحط من شأنهم .

٢ — والباعث على الغزل الحسى الحب الشهوى ، أما الباعث على الغزل الكيدى فهو البغضاء .

والغرض من الغزل الحسى هو التعبير عما بنفس الشاعر .

وقد يكون الغرض أيضاً إغارة امرأة معينة واستمالتها بأن يحدثها الشاعر عن صبواته وغزواته الغرامية .

(١) الطبرى ٣/٣ الكتم : نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فيبقى لونه . تأتت قياما : ترفقت وتهيأت للقيام .

أما الغرض من الغزل الكيدى فهوى التشهير بالخصوم ، والادعاء بأن الحب عقد آصرة بين الشاعر وبين فتاة من فتياتهم .

٣ — وقد عرفنا أن الغزل التمهيدى قد يكون عذريا ، وقد يكون حسياً ، وقد يكون صناعياً متكلفاً .

أما العذرى والحسى فقد تبين الباعث عليهما والغرض منهما ، على أنهما يشتركان مع الغزل الصناعى فى تحقيق غرض آخر هو إعداد الشاعر وإعداد السامع ، كما أسلفنا فى الغزل التمهيدى .

أما الكيدى فإنه لا يراد به إلا هجاء الخصوم وإغاظتهم

متى نشأ ؟

فى رأى الدكتور طه حسين أنه نشأ فى العصر الأموى ، لأنه يقول[1] : « هذا الغزل الهجائى الذى يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ، خليق بالعناية ، فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التى استحدثها الشعراء المسلمون » .

لكنى لا أوافق على رأيه هذا ، لأن ابن قيس الرقيات لم يكن مبتدعه ، ولم يوشك أن يكون مبتدعه ، فقد سبقه فى الجاهلية قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت وكعب بن الأشرف ، فهو إذاً لون قديم توارى حيناً ، ثم ظهر فى شعر ابن قيس الرقيات والعرجى فى عصر بنى أمية .

على أنه نهج فى العصر الأموى طريقه القديم فى الجاهلية ، ولم يحدث فيه تطور يجعل نسبته إلى العصر الأموى أولى من نسبته إلى العصر الجاهلى .

على أن ابن قيس الرقيات ليس أول شاعر اصطنع الغزل الكيدى

---

(١) حديث الأربعاء ١/٢٤٧

فى الإسلام ، فقد سبقه عبد الرحمن بن حسان إذ شبب برَملة بنت معاوية.

خصائصه

١ — يتسم الغزل الكيدى بالتصون فى التعبير ، والتعفف فى المعنى ، فليس فيه إفحاش كالذى جدّ فيما بعد فى تهـــاجى شعراء العصر الاموى والعباسى . لهذا لا نعجب حين نقرأ أن النعمان بن بشير دخل المدينة أيام يزيد بن معاوية ، واشتاق إلى الغناء ، فذهب هو وخواص أصحابه إلى عَزّة وقال لها : غنينى ، فغنته :

أجَـــدَّ بعَمْرة غُنْيانها فتهجُرَ أم شأنها شأننا[1]

فأشار بعض أصحابه إلى عزة ، وأفهمها أن عمرة أم النعمان ، فسكتت ، فقال النعمان : غنينى ، فوالله ما ذكرت إلا كرماً وطيبا ، لا تغنينى سائر اليوم غيره . فلم تزل تغنيه هـــذا اللحن فقط حتى انصرف[2] .

ولـكن العربى لايطيقه وإن كان عَفـّاً متصوناً ؛ لأنه تعرض للحرم وتسميع بالنساء ، وقد سبق أن العرب كانوا لا يزوجون شاعراً فتاة أعلن حبه لها وتغزل فيها ، حميةً وأنفة .

لذلك كان الغزل الـكيدى أحياناً سبباً فى قتل الشاعر ، كما حدث لـكعب بن الأشرف ، فإنه بكى قتلى بدر وشبب بنساء رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله محمد بن مَسلَمة ورهطاً من الأنصار بقتله فقتلوه[3] . ولم يكن سبب قتله أنه بكى قتلى بدر ، فقد بكاهم كثير من الشعراء ، ولم يأمر رسول الله بقتل واحد منهم ، مثل أمية بن أبى الصلت، فإنه بكاهم وحرض قريشا على أن تثأر من المسلمين ليوم بدر ، فنهى النبى عن رواية

---

(١) الأغانى ٣/ ١١ ، ١٤ وطبقات الشعراء لابن سلام ٨٩
(٢) الأغانى ٣/ ١٣
(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١١٠

القصيدة ، فكفوا عن روايتها حيناً من الدهر ، فلما تمت للإسلام النصرة زالت علة المنع فرويت القصيدة[١] .

وإنما كان سبب قتله تشهيره بنساء المسلمين .

٢ — كان الغزل الكيدى مقدمة لقصائد الفخر بعد الانتصار فى المعارك ، كما رأينا فى قصيدة قيس بن الخطيم يوم بعاث ، وفى قصيدة حسان يوم الربيع .

٣ — وكان لا بد من الرد عليه بمثله من الوزن والقافية ، وفى هذا دليل على صيانة العرب لأعراضهم ، وشدة غيرتهم على نسائهم ، ودليل على أن العداوة لم تقتصر على انتضاء السيوف والرماح واللقاء فى ميادين الحرب ، فقد كانت بجانب هذه المعارك الدامية معارك أخرى فنية .

٤ — الغزل الكيدى أقل أنواع الغزل مقدارا ، وآخرها ظهورا ، لأنه لم يعرف إلا فى آخر العصر الجاهلى .

٥ — وإذ كان الغرض منه الكيد والإغاظة بحديث عن الحب مصطنع ، جاء خلواً من عاطفة الحب وما يتصل به من شوق وحنين وإعجاب .

---

(١) الأغانى ٤/١٢٢ والبيان والتبيين ١/٢٣٦ وسيرة ابن هشام ٢/٤٠٥

الفصل السادس

اثر البيئة والطبع فى الغزل

هذا الغزل الصادق فى تصويره لمشاعر قائليه صادق أيضاً فى تصويره لبيئة قائليه وأخلاقهم وطباعهم وعاداتهم ، فهو قد استوحى من البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وكان مصوراً لها تصويراً أمينا .

الفراق : الهجر والرحيل

لم يتألمون منه ؟ :

الفراق جحيم لا يطيقه المحب ، لأن القرب يحييه ، سواء أكان يسعد باللقاء أو يأمل أن يسعد ، بل إن القرب يندى حرارة قلبه وإن لم يأمل أن يلقى محبوبته ، ويكفيه أنه يحيا بقربها ، ويتنفس من الجو الذى تعطره بأنفاسها .

على أن « الفراق مستغن ببشاعة اسمه عن الإغراق فى وصفه[1] » :

ولكن الحياة العربية كانت ذات نجعة وتنقل ، فكان فراق الحبيبة كثير الحدوث متوقعه ، وسأبين فى تأثر الغزل بالحياة البدوية أن هذا الترحال أوحى بغزل باك متفجع .

« ورحيل المحب أو المحبوب من المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التى تفتضح فيها عزيمة كل ماضى العزائم ، وتذهب قوة كل ذى بصيرة ، وتسكب عين كل جمود ، ويظهر مكنون الجوى . ولعمرى لو أن ظريفاً يموت

---

(١) الزهرة ١٩٢

فى ساعة الوداع لكان معذوراً . . . . وإنها ساعة ترق القلوب القاسية ، وتلين الأفئدة الغلاظ ، وإن حركة الرأس وإدمان النظر والزفرة بعد الوداع لهاتكة حجاب القلب وموصلة إليه كثيراً من الجزع[1] » .

تشاؤمهم بنعيب الغراب :

وقد كرهوا الغراب ، وتشاءموا بنعيبه ، لأنهم اعتقدوا أنه ينذرهم بفراق الأحباب[2] ، وكيف لا وقد اشتقت من اسمه الغربة والاغتراب والغريب[3] ، واغتراب الأحباب[4] ، وقد فصلت ذلك فى كتاب آخر[5] ويكفى هنا قول عنترة إن الغراب الأبقع قد أنذره ببين أحبابه ، وإنه غراب كريه المنظر منسول الريش مولع بتفريق الأحبة ، كأن فكيه مقص يقطع الأواصر :

ظعن الذين فِراقهمْ أتوقَّعُ   وجرى ببينهم الغراب الأبقَعُ
حَرِقُ الجَناحِ كأن لحيَىْ رأسه   جَلَمان ، بالأخبار هَشٌّ مولع
فزجـرته ألا يُفرِّخَ عُشُّهُ   أبدا ويصبح خائفاً يتفجع
إن الذين نعبت لى بفراقهم   هم أسهروا ليلى التَّمامَ فأوجعوا[6]

تصوير ألمهم من الرحلة :

وقد برع الشعراء فى تصوير آلامهم من الرحلة ، وافتنوا فى هذا التصوير . قال سويد بن أبى كاهل إنها رحلت وقلبه مقيد معها وان يرد :

---

(١) طوق الحمامة ٨٥
(٢) الحيوان للجاحظ ٣/١٣٦
(٣) الحيوان ٣/١٣٥
(٤) ديوان حسان ١٢
(٥) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٣٧٩ — ٣٨١
(٦) ديوان عنترة ١٠٣ الأبقع : الذى . فيه بقع . حرق الجناح : سال شعره وتقطع ، وصفه بهذا تطيراً به . لحياه : جانبا وجهه . الجلم : المقص الكبير ، شبه منقاريه إذا تعب بالجلمين لأنهما يفرقان مثلهما . ألا يفرخ عشه : يصير وحيداً . فزجرته : تطيرت عليه .

بَـكَرَبْ مُزْمِعَـةٌ نيتَهـا   وحدا الحادى بها ثم اندفع
وكـريمٌ عندها مُـكْتَبَلٌ   غَلِقٌ إثْرَ القطين المتبَّع (١)

وبشر بن أبى خازم يرى قوم الحبيبة مرتحلين، وينظر ولكن يكذب نفسه، لأنه لا يريد أن يوقن برحلتهم، فيسأل صاحبه أحقاً هم مرتحلون؟ ويتابعهم بنظره ودمعه القانى، ولعله سأل صاحبه أيضا ليعمى عليه فلا يفطن إلى وجده الذى يخفيه :

ألا بان الخليط ولم يُزاروا   وقلبك فى الظعائن مستعار
أُسائل صاحبى ولقـد أرانى   بصيراً بالظعائن حيث ساروا
فَلأيًا ما قَصَرْتُ الطَّرف عنهم   بِقانيـةٍ وقد تَلَعَ النهار (٢)

وكذلك تابع الحادرة ركب المحبوبة بنظره الذى لا يطرف (٣).

وبكى من لوعة الفراق قيس بن منقذ، ثم بكى مثله قيس بن الحدادية:

بكى من فراق الحى قيس بن منقذ   وإذراء عينى مثله الدمع شائع
بأربعة تنهـل لمـا تقدمت   بهم طرق شتى وهن جوامع (٤)

وصور بعضهم الفراق أليماً حتى لقد تمنوا الموت قبل أن يصطلوا بناره، قال قيس بن الحدادية إنه كان يؤثر أن يموت ذبحاً :

وإن الذى أَمَّلْتُ من أُم مالك   أشاب قَذالى واستهام فؤاديا
فليت المنـايا صبحتنى غُدَيّةً   بذبح ولم أسمع لبَيْنٍ منـاديا

---

(١) المفضليات ١/١٩٤ مكتبل : موثق ومقيد، يريد أن قلبه معها . غلق : ذاهب . القطين : الأهل والحشم .

(٢) المفضليات ٢/١٨٣ الخليط : الأحباب . قانية : عين محمرة من الدمع، وقد فسرها شارحا المفضليات بأنها ماء لبنى سليم . تلع النهار : ارتفع .

(٣) المفضليات ١/٤٢   (٤) الأغانى ١٣/٧

وقد أيقَنتْ نفسى عشية فارقوا ... بأسفل وادى الروح أن لا تلاقيا
إذا ما طوالكِ الدهر يا أُم مالك ... فشأنُ المنايا القاضيات وشانيا [1]

وجعله أوس بن حجر هلاكا :

وكان له الحَيْنَ المتاحَ حُمولُها ... وكل امرىء رهن بما قد تحملا [2]

وأيقن حسان بن ثابت لما رأى قوم الحبيبة يقوضون خيامهم بفرقة تشمل رأسه شيباً :

وأيقَنتُ لما قوَّضَ الحيُّ خَيْمَهُمْ ... بروْعَات بينٍ يترك الرأس أشيبا [3]

وجزع عروة بن حزام من البين ، وتمنى لو أن الغربان تأكله على أن تبقى جنبيه ، يريد ألا تأكل قلبه لأن فيه عفراء :

ألا يا غُرابَىْ دِمْنَةِ الدار بيّنا ... أبا لهجر من عفراء تنتحبان ؟
فإن كان حقاً ما تقولان فاذهبا ... بلحمِى إلى وكْريكُما فكُلانى
كُلانى أكلاً لم ير الناسُ مثله ... ولا تَهْضِما جَنْبَيَّ وازدردانى
ولا تُعْلِمَانِ الناس ما كان قصتى ... ولا يأْكُلَنَّ الطير ما تَدَعان [4]

وجعل ربيعة بن مقروم الفراق ذاهباً بعقله [5] .

وصور بشر بن أبى خازم عقله ذاهباً أيضاً :

فظللتَ من فَرْط الصبابة والهوى ... طَرِفاً فؤادك مثل فعل الأيْهَمِ [6]

---

(١) الأغانى ١٣/٧ (٢) ديوان أوس بن حجر ٢٠
(٣) ديوان حسان ١٢ الخيم : الخيام .
(٤) النوادر ١٦٠ وتزيين الأسواق ٧٧ (٥) المفضليات ٢/١٣.
(٦) المفضليات ٢/١٤٦ الأيهم : المجنون.

ويصور امرؤ القيس حزنه وبكاءه حين الفراق بقوله :

كأنى غداة البَيْنِ يوم تحمّلوا لدى سَمُرات الحىّ ناقف حنظل[1]

تذرع المحب بألم حين الفراق لتنيله الحبيبة .

وإذا كان من خلق الحبيبة الاحتجاز والامتناع والدل ، فإن المحب يتذرع إليها حين الفراق بشوقه ، ولهفته لعلها أن تنيله بعض الوصال .

قال المثقِّب العبدى :

أفاطم قبل بَيْنك متّعينى ومَنْعُكِ ما سألتُ كأنْ تَبِينى
ولا تَعِدى مواعد كاذبات تمرُّ بها رياحُ الصيف دونى
فإنى لو تخالفنى شِمالى عنادك ما وصَلْتُ بها يمينى
إذاً لقطعتها ولقلت بِينى كذلك أجتوى من يجتوينى[2]

عاطفة الشاعر بعد الفراق .

(١) تفارق الحبيبة حبيبها فلا يفتأ يذكرها ويحن إليها ، ويدعو لدارها بالسقيا ، قال النابغة :

سَقَى دارَ سُعْدَى حيث حلت بها النوى
فأفْعَمَ منها كل رَبْعٍ وفَدفد[3]

---

(١) الديوان ١٢٤ سمرات : شجرات من نوع يشبه السنط . ناقف حنظل : من يشق الحنظل بأسنانه فتدمع عيناه .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ١٠٨ ومنعك ما سألت كأن تبينى : بخلك بتمتيعى يماثل الفراق . وشطر البيت فى الطبقات كان (ومنعك ما سألتك أن تبينى) ولا معنى له . رياح الصيف : خصصها بالذكر لأنها تثير الغبار ولا تمطر . أجتوى : أكره .

(٣) ديوان النابغة ٥٠ ربع : منزل . فدفد : فلاه أو المكان الصلب الغليظ ، والمرتفع والأرض المستوية .

(٢) ويكره المكان الذي نأته به ، لأنه مرتبط بذكرى مرة ، قال عبيد :

وحنت قلوصي بعد وهن وهاجها مع الشوق يوماً بالحجاز وميض
فقلت لها لا تضجري إن منزلا نأتني به هند إلى بغيض[1]

(٣) ويستشرف من بعيد لعله يرى ناراً في ربعها ليأنس برؤيتها ، كأنها حبل يصل بينهما ، قال الصمة بن عبد الله القشيري :

نظرتُ وطرف العين يَتْبَعُ الهوى بشرقي بُصْرَى نِظْرَةَ المتطاول
لأبصر ناراً أوقدت بعد هَجْعَةٍ لِرَيَّا بذات الرمث من بطن حائل[2]

(٤) ويشيم البرق إذا أومض من ناحيتها ، ويتحسس مهب النسيم لعل نسمة تمر به حاملة شذى محبوبته . قال ضبعان بن عَبَّاد النميري :

ألا حبذا البرق اليماني وحبذا جَنوبٌ أتانا بالخَبِيط نسيمها
هي المسك أو أشهى من المسك نفحة إذا هي شُمَّت لو يُنال شميمها[3]

(٥) يرتاح إلى ريح الصبا .

وهم جميعاً تهيج ذكراهم إذا ما هبت الصَّبا ، فما الصبا ؟ ومن أين تهب ولم أولعوا بها ؟ ولم اقترنت بذكرى الحبيبة ؟

قال النويري : إنها ريح تهب من المشرق إلى المغرب ، وسميت كذلك لأن النفوس تصبو إليها ، لطيب نسيمها وروحها ، والعرب تحبها لرقتها ، ولأنها تجيء بالسحاب ، وفيها المطر والخصب[4] . ونقل عنه الألوسي تعريفه لها وسبب حب العرب لها[5] ويظهر أنها اقترنت بذكر الحبيبة

---

(١) ديوان عبيد القصيدة ١٠ قلوصي : باقي الفتية . وهن : نصف الليل أو بعده بقليل
(٢) معجم البلدان ٢/٢١٨
(٣) معجم البلدان ٢/١٠٠
(٤) نهاية الأرب للنويري ١/٩٥
(٥) بلوغ الأرب للألوسي ٢/٣٢٣

لأنها نسيم لطيف يهب على الصحراء بعد توهجها فيلطف الجو ، ويبعث فى النفس نشاطا وخفة ، فتصفو من أوهاق الحر وضيقه ، وإذاً تنتعش النفس وينطلق الخيال ، وتتوافد الأحلام والذكريات والأمانى . وإن حملت الصبا مطراً تمنى الشاعر أن يجود ديار المحبوبة ، لأنه الخير العظيم الذى يتمناه الحبيب لحبيبه ، ولأن نزوله يبهج المحب فيود أن تشترك معه فى بهجته حبيبته . قال طرفة فى هجاء عبد عمرو بن بشر بن مرثد :

فأنت على الأعلى شمالٌ عريَّة   شآميـة تَزْوِى الوجوه بَليل
وأنت على الأقصى صَبًا غير قَرَّةٍ   تَذاءبُ ، منها مُرْزِغٌ ومُسِيل[(١)]

فريح الشمال مكروهة لبرودتها وذهابها بالغيم والخصب ، وهى عندهم الشامية[(٢)] وريح الصبا محبوبة لأنها بشير الخير .

٦ — والمحب يستطيل الأيام وإن قصرت ، قال قيس بن الحدادية :

وحسبك من نأيٍ ثلاثة أشهر   ومن حَزَنٍ أن زاد شوقَك رابع[(٣)]

لذا يمنى نفسه شتى الأمانى ، فيرجو الحادرة أن يلقاها يوم الدوار :

أمست سُمَيَّـة صَرَمَتْ حبلى   ونأت وخالف شكلها شكلى
ورجاؤهم يومَ الدّوار كما   يرجو المقامر نَيْلَةَ الخصْل[(٤)]

---

(١) ديوان طرفة ٧٨ شمال عرية : ريح من الشمال باردة . تزوى الوجوه : تقبضها . بليل : باردة . تذاءب: تجىء من هاهنا مرة ومن هاهنا مرة . مرزغ : قليل من المطر أو هو دون السيل .

(٢) بلوغ الأرب ٣/٣٧٣   (٣) الأغانى ١٣/٦

(٤) ديوان الحادرة ١٤ يوم الدوار : يوم الطواف بالأصنام . نيلة الخصل : كما يرجو المقامر أن ينال الغلب ، لأن النيلة ما يناله الإنسان والخصل أن يقع السهم بلزق القرطاس ، وأحرز نصاله أى غلب . يشك الشاعر أو ييأس من لقاء الحبيبة يوم الدوار كما يشك لاعب القمار فى وزه . وفى الديوان (نيل)

٧ — وإذا ما هدل حمام أو رجع طير هاج شوقه وذكراه . قال عنترة:

وما شاق قلبي في الدجى غير طائر ينوح على غصن رطيب من الرّند
به مثل ما بي فهو يخفي من الجوى
كمثل الذي أخفي ويبدي الذي أبدي(١)

وكذلك اهتاج شوق الأعشى(٢) .

تجلد بعضهم عند الرحيل ، ورحلة بعضهم للتسلي :

على أن بعضهم يتجلد عند الرحيل فلا يبكي أنفة ، أو إخفاء لما به عن الناس ،قال أوس بن حجر :

لا تحزُنيني بالفراق فإنني لا تستهلُّ من الفراق شئوني (٣)

وقال عنترة إنه يدّرع بالصبر :

إذا رشقت قلبي سهام من الصد وبدّلَ قربي حادثُ الدهر بالبعد
لبست لها درعا من الصبر مانعا
ولاقيت جيش الشوق منفردا وحدي
وبت بطيف منك ياعبل قانعا
ولو بات يسري في الظلام على خدي (٤)

وكذلك عزى نفسه وتجلد النابغة (٥) والأعشى (٦)

وبعضهم يضرب في الأرض ليتسلى ويرى مناظر وأحوالا تنفس عنه . قال بشامة بن عمرو :

---

(١) ديوان عنترة ٦٦ (٢) ديوان الأعشى وشعراء النصرانية ٣٨٦
(٣) ديوان أوس بن حجر ٢٩ (٤) ديوان عنترة ٦٥
(٥) ديوان النابغة ٥٣ (٦) شعراء النصرانية ٣٧٠

وما كان أكثر ما نوّلت   من القول إلا صِفاحًا وقِيلا

كأن النوى لم تكن أصقبت   ولم تأتِ قومَ أديم حُلولا

فقربت للرحـــل عَيرانةً   عُذافِرةً عَنْتَرِيسًا ذَمُولا[1]

وصرح المسيب بن علس بأن الرحلة للتسلى :

فتَسَلَّ حاجتَها إذا هى أعرضت   بخميصة سُرُح اليدين وسَاع[2]

وصرح لبيد بأن الرحلة كانت مسلاة له إذا هجر :

وكنت اذا الهموم تحضّرتني   وصَدّت خُلّةٌ بعد الوصال

صرمت حبالها وصددت عنها   بناجية تَجِلُّ عن الـكلال[3]

وكثير من الشعراء رحلوا للتسلية كربيعة بن مقروم[4] والمثقب العبدى (٥) وبشر بن أبى خازم (٦) والمرقش الأكبر (٧) .

رحلة بعضهم وراء المحبوبة :

ولم يطق بعضهم صبراً ، فرحل وراء المحبوبة ، يصور ذلك قول النابغة :

فلأيا بعد لأى ألحقتنى   بأولى الظعن ذِعلبة أمون (٨)

والمثقب العبدى أضجر ناقته من كثرة مارحل :

---

(١) المفضليات ١ /٥٤ . صفاح : إعراض . عيرانة : ناقة صلبة كالعير . عذافرة : شديدة . عنتريس : جريئة قوية . ذمول : سريعة .

(٢) المفضليات ١ /٥٩ وساع : واسعة السير . سرح اليدين : منسرحة اليدين فى المشى .

(٣) معجم البلدان ٢ /١٤٧ خلة : حبيبة . ناجية : ناقة سريعة .

(٤) المفضليات ١ /١٧٩   (٥) المفضليات ٢ /٩٠

(٦) المفضليات ٢ /١٤٦   (٧) المفضليات ٢ /٢٩

(٨) ديوان النابغة . ذعلبة : ناقة سريعة . أمون : متينة الجسد .

إذا ما قمت أرحَلُها بليل ... تأوَّهُ آهة الرجل الحزين
تقول إذا دَرَأْتُ لها وَضِينى ... أهذا دِينه أبدا ودينى ؟
أكل الدهر حل وارتحال ... أما يُبْقِى علىّ وما يقينى ؟ (١)

عـلاج الحب :

مسكين هذا العاشق ، يحيا لحبه وحبيبته ، ولا يرى الحياة إلا بعينيها ، ولا يأنس إلا بقربها ، فهو كما قالت أعرابية للعتبى : « مسكين ، كل شيء عدوه ، هبوب الريح يقلقه ، ولمعان البرق يؤرقه ، ورسوم الديار تحرقه ، والعذل يؤلمه ، والتذكير يسقمه ، وإذا دنا الليل منه هرب النوم عنه (٢) » .

لهذا لجأ الحريصون على حياته إلى علاج أساسه الوهم والإيحاء ، فيرقونه أو يسقونه ماء السلوة — أو السلوانة — وهى خرزة بيضاء شفافة يسقاها فتسليه ، أو تسحق ويشرب ماءها فيسلو عن حب ابتلى به :

ياليت أن لقلبى من يعلله ... أو ساقيا فسقانى عنك سلوانا

وأنشد ابن برى (من شعر عروة بن حزام) :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفيانى
فقالا : نعم نشفى من الداء كله ... وقاما مع العواد يبتدران
فما تركا من رقية يعلمانها ... ولا سَلْوة إلا بها سقيانى (٣)

وقال الشمردل :

ولقـــد سقيت فكأنما ... قال المداوى للخيال بها ازدد

---

(١) المفضليات ٢/ ٩١ لوضين : الحزام . درأت : مددت وشددت .
(٢) أخبار النساء لابن القيم الجوزية ٣٤
(٣) لسان العرب ١٩/ ١١٩

وقال الراجز:

لو أشرب السلوان ما سليت   ما بى غنىً عنكم وإن غنيت

وفى رأى اللحيانى أن السلوانة تراب من قبر يسقى منه العاشق فيسلو

الظعائن والهوادج

ترحل المرأة الحبيبة فى ركب صواحبها ، فيشهد المحب هذا الركب فيحترق قلبه ، ويشد نظراته بهودج المحبوبة ويعلق به ، ولا ينسى فى هذا الموقف أن يصف الهوادج والنساء وصفاً فيه تفصيل أحياناً وإجمال أحياناً .

رسم الطريق:

ولا ينسى أيضاً أن يذكر الطريق أو الطرق التى سيقطعها الركب فى دقة وإحاطة كأنه جغرافى يرسم طريق السير . وهو فى موقفه هذا يصور حزنه ووجيعته من هذا الرحيل كما سبق .

ذكر الشعراء طريق الظعائن فى تفصيل ، كأنهم يتعزون حيناً بمرافقتهم لهن فى رحيلهن حين يتابعونهن بخيالهم فى الانتقال من مكان إلى مكان ، قال المثقِّب العبدى :

لمن ظُعُنٌ تطالع من ضُبَيْبٍ   فما خَرَجَتْ من الوادى لِحِين

مررن على شراف فذات رَجْل   ونكّبن الذرائحَ باليمين

وهن كذاك حين قطعن فَلْجًا   كأن حُمولهن على سَفين[1]

وقال عبيد :

تبصر صاحبى أترى حُمولا   تساق كأنها عوم السفين

(١) المفضليات ٢/٨٨ ضبيب : موضع . لحين: بعد حين وإبطاء . شراف وذات رجل والذرائح : مواضع . نكبن : عدلن عنه .

جعلن القج من رَكَكٍ شمالا ونكبنَ الطَّوِىَّ عن اليمين[١]

وكذلك ذكر زهير طريق الرحلة فى تفصيل[٢] :

تشبيه الحدوج :

وشبهوا الحدوج بالسفن ، وفى هـذا تصوير لضخامتها وغنى أهل الحبيبة ، وفيه تصوير آخر لنفسية القائل ، لأن السفينة تفرق الأحباب ، والناقة مركب البين ، قال طرفة :

كأن حُدوج المالكية غُدوَةً خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

عَدَوْلِيَّةٌ أو من سفين ابن يامنٍ يَجُور بها الملاح طَوراً ويهتدى

يشق عبابَ الماء حيزومُها بها كما قَسَمَ التُّرْبَ المفايلُ باليد[٣]

وقال المثقب العبدى :

وهُنَّ كذاك حين قطعن فَلجاً كأن حمولهن على سفين

يُشَبَّهن السَّفِينَ وهُنَّ بُخْتٌ عُراضاتُ الأباهر والشئون[٤]

وكذلك شبهها معن بن أوس[٥] والنابغة الذبيانى[٦] :

وشبهها آخرون بالنخل ، يصورون علو الهوادج ، واهتزازاتها ، كما تهزهز الريح النخيل ، قال امرؤ القيس :

---

(١) ديوان عبيد القصيدة ١٣

(٢) شرح المعلقات العشر للشنقيطى ٨١

(٣) ديوان طرفة ٦ الخلايا : السفن العظام . النواصف : مقسم الأودية أو مجارى الماء إلى الأودية . دد : اسم موضع . عدولية : نسبة إلى قرية بالبحرين تسمى عدولى . ابن يامن : ملاح من هجر .

(٤) المفضليات ٢ /٨٨ . بخت : جمال طوال الأعناق . عراضات : عريضات . الأباهر : الظهور . الشئون : مجارى الدموع إلى العين أو شعب الرأس .

(٥) ديوان معن بن أوس ٣ (٦) ديوان النابغة ٥٦

وحَدِّثْ بأن زالت بليل حُمولهم   كنخل من الأعراض غير منبّق (١)

وجمع معن بن أوس الصورتين ، فشبه الحدوج بالسفائن والنخيل :

بعينيك راحوا والحدوجُ كأنها   سفائن أو نخلٌ مذلَّلَةٌ عُمّ (٢)

وكذلك النابغة (٣) .

وشبهها آخرون بشجر الدّوم ، قال عمرو بن شاس :

ومن ظعن كالدّوم أشرف فوقها   ظباء السُّلَيِّ واكناتٍ على الخمْل (٤)

فشبه الهوادج بشجر ، وشبه النساء بظباء ، وصور جلستهن فى الهوادج على الطنافس فى دعة وأمن بطيور فى أعشاشها . وشبهها المرقش الأكبر بالدوم والسفن (٥) .

وجمع امرؤ القيس الصور الثلاث ، فشبه الهوادج بالدوم وبالسفن وبالنخيل :

فشبهتهم فى الآل لما تكمّشوا   حدائقَ دَوْم أو سفينا مُقيّرا

أو (المُكْرَعَاتِ) من نخيل ابن يامنٍ

دُوَيْنَ الصَّفا اللائى يَلِينَ المُشَقّرا

وأوغل فى وصف النخيل(٦) .

وقد ظل هذا التصور والتصوير إلى ما بعد الجاهلى ، فمثلا نابغة بنى شيبان يقول :

---

(١) ديوان امرئ القيس ١١٧ غير منبق : غير مسطور فى سطر واحد

(٢) ديوان معن بن أوس ٣   (٣) ديوان النابغة ٥٣

(٤) السلى : اسم موضع . واكنات على الخمل : جالسات على الطنافس . الوكن : عش الطائر .   (٥) المفضليات ٢/٢٧

(٦) ديوان امرئ القيس ٦٧ تكمشوا : جدوا فى سيرهم . مقير : مطلى بالقار . مكرعات : نابتات على الماء . ابن يامن : رجل له نخيل بهجر . المشقر : حصن بين نجران والبحرين

كواعب أترابٌ كأن حُمولها ... من النخل عُمْرِىُّ النخيل المواقرُ
تَعلّقَ ديباج عليهن باجلٌ ... وعَقْلٌ ورقْمٌ يملأ العين فاخرُ (١)

عزة الظعائن :

وصفوا الظعائن بأنهن عزيزات مكرمات محميات ، فهن كما قال عنترة :

حفت بهن مَنَاصِلٌ وذوابلٌ ... ومشت بهن ذَوامل ونواجى (٢)

غطاء الهوادج :

وكثيراً ما استرعت فُرُش الحدوج وأغطيتها أنظار الشعراء الغزلين وقلوبهم فذكروها ، ولقد يدهش بعضنا من هـذا الترف الذى كان يستمتع به كثير من سكان البادية ، ولكن الذى يعرف حياة ذوى اليسار من سكان البوادى فى العصر الحاضر ، والذى درس حياة الموسرين من العرب فى الزمن القـديم ، لا يجد فيما ذكر الشعراء إلا تصويراً صادقاً لما رأوا .

قال المسيب بن علس :

ولقد أرى ظُعُناً أُخَيِّلُها ... تَحْدى كأن زُهاءها نَخْل
فى الآل يرفعها ويخفضها ... رِيعٌ كأن متونه سَحْل
عَقْلاً ورَقْماً ثم أَرْدَفَهُ ... كِلَلٌ على أطرافها الخَمْلُ (٣)

---

(١) ديوان نابغة بنى شيبان ١٣ عمرى : قديم . موقر : مثقلات . باجل : حسن ناعم . عقل : ثوب أحمر تجلل به الهوادج أو هو ضرب من الوشى يكون نقشه طولا . الرقم : ضرب من الوشى يكون نقشه مستديراً .

(٢) ديوان عنترة ٣٨ مناصل : سيوف . ذوامل : سريعات وكذلك نواج .

(٣) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٧ ريع : تل مرتفع أو فج وطريق . سحل : ثوب لا يبرم غزله . الخمل : وشى مستطيل أو ثوب أحمر تجلل به الهوادج . الرقم : ضرب من الوشى نقشه مستدير .

وأجمعوا على أن غطاء الهوادج أحمر، ويظهر أنه كان أحب الألوان إلى العرب كما سبق فى ملابس المرأة، ووصفوه بأنه منقوش طولا وعرضا.

قال امرؤ القيس :

عَلَوْنَ بأنطاكيةٍ فوق عقمة   كجِرْمَةِ نخل أو كجَنّة يثرب (١)

وقال علقمة :

عَقْلاً ورَقْماً تظل الطير تتبعه   كأنه من دم الأجواف مدموم (٢)

وقال طفيل الغنوى :

لقد بَيّنَتْ للعين أحداجُها معًا   عليهن حوكيُّ العراق المرقّم
عقارٌ تظل الطير تخطف زَهْوَه   وعالين أعلاقا على كل مُفأم (٣)

ومن ترف المرأة وغنى آلها أن تكثر أغطية الهودج وأستاره، وأن تكون مرقشة، قال عبيد :

عالَيْنَ رقماً وأنماطاً مُظاهَرَة   وكِلّةً بعتيق العقل مقرومه
للعبقرىّ عليها إذ غدوا صَبَحٌ   كأنها من نجيع الجوف مدمومه (٤)

وقال ربيعة بن مقروم إن أنماط الظعائن عتيقة فاخرة، وإنهن يلبسن الحرير :

جعلن عتيق أنماطٍ خدورا   وأظهرن الكراكى والعهونا

---

(١) ديوان امرئ القيس ٣٢ أنطاكية : منسوجة بأنطاكية . العقمة : ضرب من الوشى . الجرمة : ما صرم من البسر .

(٢) ديوان علقمة ١٣ مدموم : مصبوغ .

(٣) ديوان طفيل ٣٣ حوكى : حيك بالعراق . مرقم : منقط . عقار : أحمر تخطف زهوه : تحسبه لحما فتضربه . زهوه : حمرته . مفأم : عريض واسع .

(٤) ديوان عبيد القصيدة ٢١ . الرقم : وشى مستدير . العقل : وشى مستطيل . صبح : من الصبحة سواد إلى الحمرة أو لون يضرب إلى الشهبة أو إلى الصهبة . مقرومة : معلمة ومزينة

على الأحداج واستشعرن ريطا　　عراقياً وَقَسِّيّاً مَصونا[1]

وقال زهير فى معلقته إن الكلة تشبه الدم :

علون بأنماط عِتاقٍ وكِلَّةٍ　　ورادٍ حواشيها مشاكهة الدم[2]

جمال الظعائن :

لم يغفل الشعراء عن وصف جمال النساء الظاعنات ، ووصف حليهن ، وكيف يغفلون وهذا وقت الزينة ؟ إن المرأة إذا ما سافرت أخذت زينتها ، لأنها تعلم أن نساء الحى سيرينها حين يودعنها ، ولأنها تعلم أنها قد تلق فى الطريق نساء أخر مرتحلات مثلها ، فيوم سفرها يوم زينتها ، لهذا كن يسبين بجمالهن وحليهن وحركاتهن قلوب الرجال .

قال المثقب العبدى بعد أن ذكر طرق الرحلة :

وهن على الرجائز واكناتٌ　　قواتل كل أشجع مستكين
كغزلان خَذَلْنَ بذاتِ ضالٍ　　تَنُوشُ الدانيات من الغصون
ظهرن بكلة وسدلن أخرى　　وثَقَّبْنَ الوصاوص للعيون
وهن على الظِّلام مُطَلَّبَاتٌ　　طويلات الذوائب والقرون
أرَيْنَ محاسناً وكَنَنَّ أخرى　　من الأجياد والبشر المصون
ومن ذهب يلوح على تَرِيبٍ　　كلون العاج ليس بذى غضون[3]

---

(١) القسية ثياب مصرية حريرية نسبة إلى القس قرب الفرما والعريش أو نسبة إلى القس بلد بالهند تجلب منه أنواع من الثياب والمآزر الملونة وهى أنفر ما يجلب من الهند من ذلك الصنف (معجم البلدان ٧ / ٨٥) والقاموس المحيط مادة قس .

(٢) المعلقات العشر .

(٣) المفضليات ٢ / ٨٨ . الرجائز : مراكب النساء . واكنات : مطمئنات . الأشجع : الطويل . خذلن : تخلفن عن صواحبهن وأقمن على أولادهن . الضال : السدر البرى . تنوش تتناول . الوصاوص : البراقع الصغار ، أراد أنهن حديثات الأسنان فبراقعهن صغار ، وقيل إنه لقب بالمثقب لهذا البيت . الظلام : الظلم .

وذكر المرقش الأصغر حلى الظعائن :

تحملن ياقوتاً وشَذْراً وصِيغة وجَزْعاً ظَفاريّاً ودُراً توائما[1]

الطـــيف

هذا المحب الذى نأت عنه الحبيبة أو نأى عنها ، لا يفتأ يذكرها ويتذكرها ، ويتمثلها فى حله وارتحاله ويقظته ومنامه ، ولقد يسعده طيفها فى حلمه ، فإذا صحا لم يجد إلا نفسه ، فيصور مشاعره تصويراً يختلف باختلاف طبيعته .

١ — فمن الشعراء من اتجه إلى العجب من قدرة الطيف على قطع المفاوز ، واحتمال مشاق الرحلة الطويلة ، ويظهر أن هؤلاء كانوا بعيدين عن الحبيبات . قال طرفة :

سما لك من سَلْمَى خيالٌ ودونها سوادُ كثيبٍ عَرْضُه فأمائله
فذوالنِّير فالأعلام من جانب الحِمى وقُفٌّ كظهر التُّرْسِ تجرى أساجله
وأنى اهتدت سلمى وسائل بَيْنَنا بشاشةَ حب باشر القَلْبَ داخله
وكم دون سلمى من عدوٍّ وبلدة يَحَارُ بها الحادى الخفيفُ ذَلاذله
يظل بهـا عَيْرُ الفلاةِ كأنه رقيبٌ يُخافى شخصَه ويضائله
وما خالت سلمى قبلهـــا ذات رحلة
إذا قَسْوَرِىُّ الليـل جيبَت سرابله[2]

---

(١) المفضليات ٢ / ٤٥ شذرا : لؤلؤا أو قطعا صغارا من الذهب . صيغة : مصوغ من الذهب . الجزع : الخرز اليمانى . ظفار : بلد باليمن . توائم : مثنى مثنى .

(٢) ديوان طرفة ١١٧ . أمايله : ج أميل وهو حبل من رمل عريض طويل . ذو النير والحمى : موضعان : القف : ما ارتفع من الأرض . أساجله : سرابه . ذلاذله : أسافل قميصه الطويل . قسورى : نصف الليل أو أوله أو معظمه . جيبت : جعلت كالجيب والمراد أنها قطعت . سرابله : قمصانه والمراد ظلامه .

وكرر مثل هذا فى قصيدة أخرى[1] .

واتجه هذا الاتجاه خفاف بن ندبة فى قوله :

ألا طرقَتْ أسماءُ من غير مَطْرق ... وأنَّى وقد حلَّتْ بنجران نلتقى ؟

سرَتْ كلَّ واد دون رَهْوَةَ دافعٍ ... وجِلْذانَ أو كرم بِلِيَّة محدق

تجاوزت الأعراض حتى توسدت ... وسادى لدى باب بجِلْذان مغلق[2]

واتجه الاتجاه نفسه حسان بن ثابت[3] . والمرقش الأكبر[4] .

واقتصر هؤلاء الشعراء على هذه الوجهة ، فلم يصفوا شعورهم حين ألم بهم هذا الخيال الزائر .

٢ — واتجه آخرون إلى وصف المشاعر ، فعنترة يجد فى طيف عبلة حياته وسلاته :

أيا عبل مُنّى بطيف الخيال ... على المستهام وطِيبَ الرقاد

عسى نظرة منك تحيا بها ... حُشاشة مَيْتِ الجفا والبعاد[5]

والأعشى ألم به طيف قتيلة فهاج ذكرياته وأشعله فصار كأنه ثمل :

ألَمَّ خيال من قُتيلة بعدما ... وهى حبلها من حبلنا فتصرما

فبت كأنى شارب بعد هَجْعَةٍ ... سُخَامِيَّةً حمراء تُحْسَبُ عندما[6]

---

(١) ديوان طرفة ٤٦ .

(٢) معجم البلدان ٣ / ١٢٢ . جلذان : موضع قرب الطائف بين لية وسبل . رهوة وليه والأعراض : أماكن .

(٣) ديوان حسان ٤٢ (٤) المفضليات ٢ / ٥٥

(٥) ديوان عنترة ٥٣ .

(٦) ديوان الأعشى ٢٠٠ سخامية : خمر سلسة . العندم : دم الأخوين أو البقم وهو شجر يصبغ بطبيخ سوقه .

وسويد بن أبي كاهل وافاه خيال سليمى وهو فى باكورة نومه فأرقه الليل كله :

أرّقَ العين خيـال لم يَدِعِ ... من سليمى ففؤادى مُنتَزَع
حل أهلى حيث لا أطلبهـا ... جانبَ الحِصْنِ وحلت بالفَرَع
لا ألاقيهـــا وقلبى عندها ... غير إلمام إذا الطَّرف هجع (١)

ويذكر الخيال فى القصيدة نفسها فيسلك مسلكا فيه مزج بين وصف الرحلة الشاقة والتأثير فى الوجدان :

هيج الشوق خيـالٌ زائرٌ ... من حبيب خَفِرٍ فيـه قدَع
شاحطٍ جاز إلى أرحُلِنـا ... عُصَب الغاب طَروقا لم يُرَع
آنس كان إذا ما اعتـادنى ... حال دون النوم منى فامتنع
وكذاك الحب ما أشجعه ... يَرْكب الهول ويعصِى من وَزَع
فأبيت الليـــل ما أرقده ... وبعينىّ إذا نجـمٌ طلع (٢)

٣ — وهناك فريق ثالث من الشعراء آلمهم الخيـــال ؛ لأنه أوهام وأحلام كالمرقش الأصغر فى قوله :

---

(١) المفضليات ١ / ١٩٣ وشعراء النصرانية ٤٢٩ لم يدع : لم يسكن ويستقر . الحصن موضع وفى رواية ابن الأنبارى (الحضر) وهى مدينة بالموصل والفرع بين الكوفة والبصرة

(٢) المفضليات ١ / ١٨٩ وشعراء النصرانية ٤٢٧ خفر : حيى قدع : حياء ، امرأة قدعة : قليلة الكلام حيية . شاحط : بعيد . عصب الغاب : المراد جماعات الرماح التى تحوى لأن الغابة الرمح الطويل وليس المراد الأجمات والغابات كما شرح البيت لأن كلمة عصب تعين أن المراد الرماح ، ولأن الأرض التى تفصل بين الشاعر وحبيبته ليست بها غابات ، ولأن الشعراء كثيراً ما يطرقون هذا المعنى . طروقا : زائراً فى الليل . وبعينى إذا نجم طلع : أرقب كل نجم يطلع بعينى .

أمِنْ بنتِ عجلانَ الخيالُ المطرّح ألمّ ورحلى ساقط متزحزح
فلما انتبهت للخيال فراعنى إذا هو رحلى والبلادُ توَضّح
ولكنه زَوْرٌ يُيَقِّظُ نائماً ويحدث أشجاناً بقلبك تجرح
بكل مبيت يعترينا ومنزل فلو أنها إذ تُدْلج الليل تُصْبح (١)

٤ — والشعراء الذين كانوا يصلون بهجر الحبيبة ويروضون أنفسهم على نسيان الحب لم يأنسوا بالخيال كما أنس غيرهم ، ولم يشقهم كما شاق سواهم ، بل قابلوه فى جفاف وخشونة ، يقول طرفة :

فقل لخيال الحنظليّةِ ينقلب إليها فإنى واصلٌ حبلَ من وصل (٢)

ويقول سلمة بن الخرشب :

تأوّبَهُ خيالٌ من سليمى كما يعتاد ذا الدَّين الغريم
فإن تُقْبِلْ بما علمتْ فإنى بحمد الله وصّال صَروم (٣)

الاطلال

لم احتفوا بها :

هنا كانت الحبيبة تقيم ، وإلى هنا كان قلب الشاعر يخفق ، ونظره يمتد ، وخياله يحوم ، وربما كان هنا لقاء ومناجاة ورجاء ووصل ، ومن

---

(١) شعراء النصرانية ٣٢٨ والمفضليات ٢ / ٤٢ بنت عجلان : هند بنت عجلان جارية فاطمة بنت المنذر . المطرح : المترامى من بعيد . ساقط متزحزح : متباعد . توضح : تتوضح أى تظهر يريد أنه رأى خيالها فى نومه فلما انتبه لم يجد إلا رحله والبلاد التى أمامه . زور : زائر . تدلج : تسير ليلا ، أى ليتها إذا زارنا خيالها ليلا يدوم إلى الصباح .

(٢) ديوان طرفة ٨٨ الحنظلية . من بنى حنظلة بن مالك .

(٣) المفضليات ١ /٣٧ تأوبه : عاوده ، ومعنى البيت أن خيالها كثير المعاودة ، كالدائن يعاود المدين أو هذا تشبيه يدل على كراهية للخيال . ومعنى البيت الثانى فإن وصلتنى وصلتها وإن هجرتنى هجرتها . بما علمت : بما عرفت من المودة التى كانت بيننا .

هنا طمنت الحبيبة فى بكرة مشقية مبكية . هنا كان الحب وكان الحبيب، ثم قضت حياة الانتجاع أن يعطل المنزل الذى كان حالياً، وأن يقفر المكان الذى كان خصباً موحياً، وأن يعود إلى طبيعته جماداً بعدما أضفت عليه الحبيبة حياةوجمالا، فقد تناوبته الرياح والأمطار، فلم يبق منه إلا أطلال ورسوم، لكنها كالعنوان من الكتاب.

أليس من حق هذه الأطلال أن يعزها الشاعر وأن يقف بها ويطوف حولها؟ بلى . وقد وقف واستوقف، وبكى واستبكى، ونطق واستنطق.

وإذا كانت الحبيبة هى المثير الطبيعى لعاطفة الحب فإن الأطلال هى المثير المقارن أو الصناعى «وتفسير ذلك أن الحبيبة بعيدة عن الشاعر، فديارها حلت محلها فى إثارة عاطفة حبها، فحين ثارت هذه العاطفة أقبل المحب يقبل جدران دارها، فالديار وجدرانها هى المثير الصناعى، والذى سوغ ذلك أن الحبيبة كانت تسكن الديار، فوجود هذه اقترن بوجود تلك، ومرت على ذلك الأيام حتى صارت الحبيبة وديارها وحدة متماسكة الأجزاء، فإذا كان جزء قد رحل فإن الجزء الآخر قد حل محله»[1].

لهذا أضافوا الأطلال إلى اسم المحبوبة، فهما معا مقترنان اقتراناً معنوياً فى ذهن الشاعر، وقد كانا مقترنين اقتراناً محسوساً من قبل. قال امرؤ القيس:

يا دارَ ماوِيَّةَ بالحـــائل فالسُّهْب فالخَبْتَيْنِ من عاقل[2]

وقال طرفة:

لخولة أطلالٌ بِبُرقة ثَهمـد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد[3]

وقال لبيد:

ألم تُلمِمْ على الدِّمَنِ الخوالى لسلمى بالمذائب فالقفـــال

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى ٩٦ حامد عبد القادر .

(٢) ديوان امرئ القيس ١٥١ (٣) ديوان طرفة ٥

وقال :

طلل لخولة بالرسيس قديم　　بمعاقل فالأنعمين رشوم[1]

وقال زهير :

أمن أم أوفى دمنة لم تَكَلَّم　　بحَوْمَانة الدّراج فالمتثلَّم[2]

وكثيراً ما ذكر الشعراء الأطلال مقترنة باسم الحبيبة هذا الاقتران .

عنايتهم بتحديدها :

لم يكتف الشعراء بذكر الأطلال مقترنة باسم الحبيبة ، بل حددوا موقعها تحديداً دقيقاً كأنما يرسمونها على الورق ، أو كأنهم جغرافيون يخطون الخرائط والبلدان . ولعل سبب ذلك تخوفهم من أن تمحوها عوادى الطبيعة ، لأنها ليست دوراً مشيدة ، ولكنها آثار قوم رحل ضربوا خيامهم حيناً من الدهر ثم ارتحلوا ، وخلفوا نؤيا وأحجاراً وآثاراً تعفى عليها الرمال والرياح والسيول . والشعراء يودون أن تبقى وإن فى تصورهم ، فيشيدونها بأحجار صلدة وطيدة لا تقوى على محوها سيول ولا رمال ، يشيدونها بشعر خالد يحدد مكانها ، ويرفع سَمْكها .

حدد امرؤ القيس الطلل من جهاته الأربع فى قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فحَوْمل

فتُوضِح فالمقراة ، لم يَعْفُ رَسْمُها　　لما نسجتها من جنوب وشمأل[3]

وقال زهير :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم　　بحـومانة الدّراج فالمتثلَّم[4]

---

(١) الأغانى ١٤ / ٩٧　　(٢) المعلقات العشر للشنقيطى ٨٠

(٣) ديوان امرئ القيس ١٢٤　　(٤) المعلقات العشر ٨٠ الشنقيطى .

وكذلك حدد لبيد [١] والحارث بن حلزة [٢] والنابغة[٣] وعبيد بن الأبرص[٤].

أثرها فى نفس الشاعر:

يقف الشاعر على الأطلال فلا يرى إلا رسوما وبقايا تهيج ذكراه فيحزن، ويسكب عبرات لعل فيها شفاء لنفسه الملتاعة، ويستعيد صوراً من سعادته بقرب الحبيبة، ويبكى لوعته وحرمانه، وتدور به الأرض كأنه مخمور، ولقد يحس برعدة وسخونة كأنه محموم، ومع ذلك لا يريد أن يَرِيمَ عنها، لأن فيها من الحبيبة أثرا.

وكثيراً ما كان يضفى على الطلل صفات الحى، فيخبره ويستخبره، ويناجيه ويستلهمه، ويتبرم به حين لا يجيب سؤاله، ويحييه، ويدعو له بالسقيا والسعادة.

وكثيراً ما كان يتحسر لأن مغنى الحبيبة صار مرتعا للوحش.

قال عنترة:

ولقد حبست بها طويلا ناقتى — أشكو إلى سُفعٍ رواكدَ جُثَّمِ
يا دار عبلة بالجواء تكلمى — وعِمى صباحا دار عبلة واسلمى
فوقفت فيها ناقتى وكأنها — فَدَنٌ لأقضىَ حاجة المتلوِّمِ
حُيِّيتَ من طَللٍ تقادم عهده — أقوَى وأقفر بعد أُمِّ الهَيثَمِ[٥]

---

(١) المعلقات العشر ٨٧
(٢) المعلقات العشر ١٢١
(٣) المعلقات العشر ١٤١
(٤) ديوان عبيد القصيدة ١ والقصيدة ١٣
(٥) ديوان عنترة ١٤٢ فدن: قصر. أم الهيثم: كنية عبلة. السفع: الأثافى وهى أحجار الموقد. الجواء: بلد. المتلوم: المتمكث المتمهل يريد نفسه.

وقال امرؤ القيس :

ألاعِمْ صباحا أيهـــا الطلل البالى

وهل يَعِمَنْ من كان فى الْعُصُر الخالى

وهل يعمَنْ إلا سعيدٌ مخلَّدٌ قليلالهموم ما يَبيت بأوجال [١]

فهو يحييه ويتمنى له السعادة ، ثم يستدرك فيقول : وهل يشعر بالسعادة من تقادم به الزمن وتناوبته الأحداث ؟ لقد تعاورتك أيها الطلل هموم العمر الطويل ، حتى صـــار من البعيد أن تتناسى آلامك وتشعر بسعادة ، وإنى مثلك فى شقاء حاضرى ، لأنى هرمت وفوقت إلى الأيام سهامها ، ومثلك فى سعادة ماضى يوم كنت شابا أنعم بالحب ، وما النعيم إلا للصبى الذى لم تعركه السنون أو للرجل الخلى الذى لم يشب .

ولقد يبكى الشاعر لوعته وشوقه وحرمانه ، تحدث بذلك امرؤ القيس ، ووقف واستوقف صاحبيه ، واستبكاهما معه ، وأشفقا عليه فنصحا له أن يتجلد حتى لا يبخع نفسه ، فرد عليهما أن شفاءه فى أن يبكى ليتخفف من بعض ما يحمل من هم :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسِقط الهوى بين الدَّخُول فَحَوْملِ

فتُوضِح فالمِقْراةِ لم يَعفُ رسْمُها لما نسجتها من جنوب وشَمْأل

وقوفاً بهـا صحبى علىّ مطيَّهُمْ يقولون لا تَهلِك أسىً وتجمّل

وإن شفائى عَبْرَةٌ مُهْراقة وهل عند رسم دارس من مُعَوّل [٢] ؟

(١) ديوان امرئ القيس ١٣٨ عم صباحا : انعم فى الصبح ، وهى تحية جاهلية . مخلد : صبى مقرط ، أو رجل لم يشب وسنه قد تقدمت . أوجال : مخاوف .

(٢) ديوان امرئ القيس ١٢٤ . سقط اللوى : منقطع الرمل . الدخول وحومل : موضعان شرقى اليمامة . توضح والمقراة : موضعان قرب الدخول . لم يعف رسمها : لم تذهب آثارها . تجمل : تصبر وتجلد . عبرة : دمعة . مهراقة : منصبة . معول : معتمد .

وكذلك بكى المرقش الأكبر :

هل تعرف الدار عفا رسمها ... إلا الأثافِيَّ ومَبْنى الخِيَم
أعرفها داراً لأسماء فالدّ ... مع على الخدين سَحٌّ سَجِم (١)

وبكى عبيد بن الأبرص بكاء حمامة تحن إلى إلفها :

وقفت بها أبكى بكاءَ حمامة ... أراكيَّة تدعو حماما أواركا
إذا ذكرَتْ يوما من الدهر شجوها ... على فرع ساق أذرت الدمع سافكا (٢)

ووقف بها عوف بن عطية الرَّبابي فدارت به الأرض من تباريح الحب كأنه مخمور :

وقفت بها أصُلاً ما تُبين ... لسائلها القول إلا سِرارا
كأنى اصطبحت عُقَارِيةً ... تَصَعَّدُ بالمرء صِرْفاً عُقارا
سلافةَ صهبـــاء ماذيَّةٍ ... يَفُضُّ المسابىءُ منها الجرارا (٣)

ووقف بها الأخنس بن شهاب التغلبي فأحس برعدة وسخونة كأنه محموم :

ظللتُ بها أُعرى وأُشعَرُ سخنَةً ... كما اعتاد محموماً بخَيْبَرَ صالب (٤)

---

(١) المفضليات ٢ / ٢٩ الأثافى : جمع أثفية ضم الهمزة وكسرها وتشديد الياء وهى الحجر توضع عليه القدر . الخيم : جمع خيمة . أسماء : بنت عمه عوف بن ضبيعة . السح : الصب . السجم : السائل .

(٢) ديوان عبيد القصيدة ١٧ أوارك : ترعى الأراك . السافك : هنا بمعنى المسفوك أى المصبوب .

(٣) المفضليات ٢ / ٢١٣ عقارية : خمر معتقة . صهباء : فى لونها بياض من قدمها . ماذية : سهلة الإساغة . يفض : يكسر . المسابىء : المشترى الخمر ليشربها .

(٤) المفضليات ٢ / ٤ أعرى : أرتعش . أشعر : أبطن . صالب : حمى شديدة وخيبر مشهورة بها .

ولم تطاوع طرفة نفسه أن يريم عنها :

حابسی رسمٌ وقفت به ··· لو أطيع النفس لم أرِمْهُ[1]

وتبرم امرؤ القيس لأن الأطلال استعجمت فلم تنطق :

يا دارَ ماوية بالحـــائل ··· فالسُّهْب فالخبتين من عاقل

صُمَّ صـداها وعفـا رسمها ··· واستعجمت من منطق السائل[2]

ولكنه فى مرة أخرى حيا الطلل ، وتمنى أن يتكلم ، وأن يطيل معه الحديث عن الحبيبة وركبها ومشاعرها حين الرحيل ، صادقاً فيما يحدث به:

ألا عِمْ صباحاً أيها الرَّبعُ فانطق

وحدِّثْ حديث الركب إن شئتَ فاصدُق

وحدث بأن زالت بليلٍ حُمُولُهم ··· كنخلٍ من الأعراض غير مُنَبَّق[3]

وتمر الأعوام وتتبدل الأحداث ولكنها لا تنقص من عزازة الأطلال ، لأن قلب الشاعر خفاق بحب من سكنتها . وتكاد عوادى الطبيعة تمحو معالمها محواً ، ولكن الشاعر يتحسسها بقلبه قبل أن يتنورها بعينه . قال النابغة الذبيانى :

توهمتُ آياتٍ لهـا فعرفتها ··· لستة أعوام وذا العام سابع[4]

وقال بشامة بن الغدير :

لمن الديار عَفَوْنَ بالجِزْع ··· بالدَّوْم بين بُحارَ فالشِّرْع

---

(١) ديوان طرفة ٧ لم أرمه . لم أتركه . (٢) ديوان امرئ القيس ١٥١

(٣) ديوان امرئ القيس ١١٧ نخل من الأعراض : نابت فى أعراض الحجاز وهى قراه. غير منبق : غير مستو ولا مهذب ولا مصفور فى سطر واحد أى متفرق .

(٤) ديوان النابغة ٤٩

درسَتْ وقد بَقِيَتْ على حجج　　بعد الأنيس عفونها سَبْع
إلا بقايا خَيمةٍ دَرَسَتْ　　دارت قواعدها على الرّبْع (١)

وإذا كان النابغة وبشامة قد وقفا بالأطلال بعد سنوات سبع ، فإن عَمِيرة بن جُعَل قد وقف بها بعد سنوات ثمان :

الا يا ديار الحى بالبرَدَان　　خلت حججٌ بعدى لهن ثمان (٢)

وليس أدل من هذا على وفاء الشاعر فى حبه .

معالمها الباقية :

وماذا يبقى فى الصحراء من آثار قوم رحل ؟

تبقى نُؤى وأحجار وأثافى ورمال ودخان يصبغ الأحجار .

ولكن هذه البقايا عميقة الأثر فى نفس الشاعر ؛ لأنها مرتبطة بمن يحب . فليست جمادات ولا نسياً منسيا ، وإنما هى أحياء ذوات معان ودلالات . قال المخبل السعدى إنه لم يبق إلا الرماد وبعض النؤى :

وأرى لها داراً بأغدِرة السّيـ　　ـدان لم يَدْرُسْ لها رسم
إلا رماداً هامداً دَفعَتْ　　عنه الرياحَ خوالدٌ سُحْمُ
وبقيّة النُّؤى الذى رُفِعَتْ　　أعضادُه فثَوى له جِذْمُ (٣)

(١) معجم البلدان ٢ / ٦٥

(٢) معجم البلدن ٢ / ١١٤ والفضليات ٢ / ٥٨

(٣) المفضليات ١ / ١١١ أغدرة : جمع غدير ولم يرد هذا الجمع فى المعاجم ، ونص عليه ياقوت فى معجم البلدان . السيدان : أرض لبنى سعد . لم يدرس لها رسم : لم يذهب أثرها كله . هامداً : خامداً . الخوالد : البواقى ، أراد بها أثافى القدور . سحم : سود ، أى أن الأثافى حفظت الرماد من أن تذروه الرياح . النؤى : الحاجز الذى يرفع حول البيت ليمنع عنه السيل أو الحفيرة تى تحفر حول الخيمة لذلك . أعضاده : جوانبه . الجذم : الأصل .

وقال عَميرة بن جُعيل إنه لم يبق منها غير نؤى ومواقد وحطب كانت الإماء تجمعه :

فلم يبق منها غيرُ نُؤىٍ مهدم وغير أوارٍ كالرَّكىِّ دِفان
وغير حَطوبات الولائد ذَعذَعت بها الريحُ والأمطار كلَّ مكان (١)

وقال أعشى طرود إن الآثار الباقية هى الموقد المنصوب وساحة الدار:

يادار أسماء بين السّفْح فالرحَب أقوى وعفّى عليها ذاهب الحقب
فما تبيَّن منها غير مُنْتَضِد وراسياتٍ ثلاثٍ حول مُنْتَصِب
وعَرْصَةُ الدار تستنُّ الرياح بها تحنُّ فيها حنين الواله السَّلَب (٢)

ولقد ينبت فيها الزهر ويترعرع ، لأنه يجد سماده وغذاءه ، قال المرقش الأكبر :

أضحت خَــلاءً نَبتُها ثئِدٌ نَوَّرَ فيـه زَهوُه فاعتمّ (٣)

مسرح للحيوان :

إذا ما غادر الدار قاطنوها أوى إليها الحيوان الذى كان يألفها ثم فر منها لما خيموا ، وأوى إليها حيوان لم يكن قد ألفها ليطعم مما خلفوا، ولقد صور الشعراء هذا ، قال المرقش الأكبر فى حسرة إنها قد خلت من سكانها ، وليس بها إلا أبقار الوحش ترعى فى دعة وتمشى مختالة كالفرس فى قلانسهم :

---

(١) معجم البلدان ٢ / ١١٤ والمفضليات ٢ / ٥٩ أوار : جمع آرى وهو ما حبس الدابة من وتد ونحوه . الركى : جمع ركية وهى البئر . دفان : مدفونة . حطوبات : جمع حطوبة وهى ما جمعته الإماء من الحطب . الولائد : الإماء . ذعذعت : فرقت .

(٢) المؤتلف والمختلف للآمدى ١٧ السلب : المسلوب العقل .

(٣) المفضليات ٢ / ٣٧ ثئد . مندى . زهوه : لونه أحمر وأبيض وأصفر . اعتم: كثر .

أمست خلاء بعد سكانها   مقفرة ما إن بها من أرَمْ
إلا من العِين ترَعَّى بها   كالفارسيِّين مشوا فى الكُمَمْ (١)

وصور زهير تصويراً جميلا منظر البقر الوحشى والظباء وهى ترعى فى الدمنة، صورها أسراباً يتبع صغارها كبارها، ويمشى بعضها فى إثر بعض، ويمشى بعضها فى اتجاه وبعضها فى اتجاه، ترعى متنقلة من مكان إلى مكان، وبين الفينة والفينة تنهض صغارها من مراقدها لتلحق بأمهاتها :

بها العِينُ والآرامُ يَمشِين خِلْفَةً   وأطلاؤها ينهضْنَ من كل مَجْثَمِ (٢)

ورسم المخبل السعدى صورة أخرى، وجعل الأبقار تتنقل من مكان إلى آخر وراء العشب، وفى رعيل الأبقار ظباء بيض البطون سود الظهور، وظبـــاء بيض البطون والظهور، وكأن صغار الأبقار والغزلان معزى :

تَقْرُو بها البقر المساربُ واخْ   تلطت بها الآرام والادْمْ
وكأن أطلاء الجآذر وال   غزلان حول رسومها البَهْمْ (٣)

وصورها عبيد مرعى للنعام والظباء :

تبدلن بَعدِى من سُلَيْمَى وأهلها   نَعاماً تَرَعَّاها وأُدْماً ترائكا (٤)

وصورها الأخنس بن شهاب مسرحاً للنعام يمشى متمهلا متثاقلا :

---

(١) المفضليات ٢/ ٢٩ الكمم : القلانس . الفارسيين : الفرس . أرم : أحد . العين : البقر الوحشى .

(٢) المعلقات العشر ٨٠ العين: البقر الوحشى . الآرام : الظباء . الأطلاء : صغار الظباء والبقر . مجثم : موضع رقود .

(٣) المفضليات ١ / ١١٢ تقرو : تتبع . المسارب : المراعى . البهم : صغارأولادالمعزى

(٤) ديوان عبيد القصيدة ١٧ ترائك : جمع تريكة وهى بيضة النعام بعد أن يخرج منها الفرخ . أدم : فى لونها أدمة وهى هنا البياض الواضح أو اللون المشرب ببياض .

تظل بها رُبْدُ النعام كأنها ... إماء تزجّى بالعشى حواطب[1]

وصورها المرقش الأصغر مرعى للغزلان وصغارها، وأضاف الحركة إلى الصورة بجعل الكبار تسوق صغارها سوقا هينا :

تزجّى بها خُنْسُ الظباء سِخالَها ... جآذرُها بالجو وَرْدٌ وأصبح[2]

ورأى عميرة بن جعل سباعاً تتعارك فى الدمن فتثير غباراً يسربلها :

قفارٌ مَرَوْرَاةٌ يحاربها القطا ... يظل بها السّبْعان يعتركان

يثيران من نسج التراب عليهما ... قميصين أسماطاً ويرتديان[3]

وشبه المتنخل آثار الريح فيها بنقش البسط، وشبه مزاحف الحيات فى أرضها بمساحب السياط، فى قصيدته التى قال فيها الأصمعى : أجود طائية قالتها العرب قصيدة المتنخل :

عرفت بأجدث فنعاف عرق ... علامات كتحبير النمّاط

كأن مزاحف الحيات فيها ... قبيل الصبح آثار السياط[4]

الأطلال من الوجهة الفنية :

١ — تأنق بعض الشعراء فى تصوير أسراب الحيوان التى ترعى بها كما فى قول زهير والمرقش الأصغر.

---

(١) المفضليات ٢ / ٤ ربد : جمع أربد وربداء والربدة سواد فى بياض. تزجى : تساق. خص العشى بالذكر لأن الحتطبات يرجعن فيه إلى بيوتهن.

(٢) المفضليات ٢ / ٤١ تزجى : تسوق سوقا ضعيفاً. الخنس : جمع خنساء وهى قصيرة الأنف. سخالها : أولادها. الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقر. الورد : الذى تعلوه حمرة. الأصبح : أشد حمرة من الورد.

(٣) المفضليات ٢ / ٥٩ مروراة : لا تنبت شيئاً ولا ماء فيها. يحار بها القطا : بعيدة لا يهتدى فيها هذا الطير الخبير بالطرق. الأسماط : الأخلاق البالية وليست فى المعاجم بهذا المعنى

(٤) الأغانى ٢٠ / ١٤٧

٢ — وكانت الأطلال نفسها ينبوعاً آخر للافتنان من حيث تشبيهها بغيرها مما تداعى إلى خاطر الشاعر حين رآها فقد شبهها الشعراء بالوشم، وبالطراز الموشى، وبالوشى، وبالكتابة كما سأفصل. وأرى أن هذا التشبيه ليس قائماً على الشكل والمظهر فحسب، ولكنه قائم أيضا على علاقة نفسية، لأن الشاعر يتذكر حبيبته ويستغرق فى ذكراها وهو واقف بآثارها وقوف الذاكر الخاشع، فأسرع الصور إلى ذهنه ما يتصل بالمحبوبة من قريب أو من بعيد. هو يرى الرمال قد موّجتها الرياح وتناثرت بها الآثار، ونبتت بها الأعشاب الخضر، فيشبهها بالوشم، والوشم من حلى الحبيبة وضروب تجملها كما سبق فى التجمل

وهو يرى هذا المنظر فيشبهه بالوشى والطراز الموشى، وذلك من ملابس الحبيبة.

شبه زهير الأطلال بالوشم :

ودار لها بالرَّقْمتَيْن كأنها مراجيع وشم فى نواشر مِعصم[1]

وشبهها معن بن أوس بالوشم على المعصم الجميل :

يلوح وقد عفّى منازلَهُ البِلَى كما لاح فوق المعصم الحسن الوشم[2]

وكذلك طرفة :

لخولة أطلال ببُرْقة ثَهْمَدِ تَلُوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد[3]

وارتبطت فى خيال عبد الله بن سلمة الغامدى بذيل العروس وبالوشم أيضا :

أمست بمُتَنّ الرياح مُفِيلَةً كالوشم رُجّع فى اليد المنكوس

---

(١) المعلقات العشر ٨٠ (٢) ديوان معن بن أوس ٣

(٣) ديوان طرفة ٥

وكأنما جرّ الروامس ذيلها ... في صحنها المعفوّ ذيل عروس[1]

وارتبطت في خيال طرفة بثوب جميل زخرفه أهل ريدة وأهل سحول :

وبالسفح آياتٌ كأن رسومها ... يمانٍ وشّته ريدة وسحول[2]

وشبهها قيس بن الخطيم بالثوب المذهب :

أتعرف رسماً كالطراز المذهّب
لعمرة وحشا غير موقف راكب[3]

وشبهها النابغة الذبياني بالوشي :

تذكرني أطلال هند مع الهوى ... دعائم منها قائم ومنزّع

على العصر الخالي كأن رسومها ... بتنهية الركيين وشيٌ مرجّع[4]

٣ — ولقد أكثر الشعراء من تشبيه هذه الآثار وتموجاتها والخطوط المنتظمة التي تصنعها الرياح فيها بالكتابة وبالصحف المكتوبة .

قال معاوية بن مالك بن جعفر — عم لبيد — إن آثار الدار مثل كتابة ظاهرة واضحة ، خطها كاتب ماهر متمهّق يتخوف أن يلحق به عيب :

فإن لها منازل خاويات ... على نملى وقفتُ بها الركابا

من الأجزاع أسفلَ من نُميلٍ ... كما رجّعتَ بالقلم الكتابا

---

(١) المفضليات ١ / ١٠٣ مستن الرياح : موضع جرها . مفيلة : مطموسة خفية المعالم . مكوس : أعيد عليه الوشم . الروامس . الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار .

(١) ديوان طرفة ٧٦ ومعجم البلدان ٤ / ٣٤٨ . يمان : ثوب يمني . ريدة وسحول : مدينتان باليمن مشهورتان بالنسيج .

(٣) جمهرة أشعار العرب ٢٤٧ الطراز المذهب : الثوب المنقوش بالذهب . وحشا : مقفرا

(٤) ديوان النابغة ٣٩ منزع : مهدم . التنهية : حيث ينتهي الماء من الوادي .

كتاب مُحَبِّرٍ هاجٍ بصير يُنَمِّقُه وحاذر أن يعابا[١]

وقال الأخنس بن شهاب التغلبى إن الآثار تشبه كتابة العنوان لأن كتابته واضحة بجودة :

لابنة حِطانَ بن عَوْفٍ منازل كما رقَّش العنوان فى الرّقّ كاتب[٢]

وقال امرؤ القيس إن الآثار كخط الزبور فى سعف النخل الوارد من اليمن معداً للكتابة :

لِمَنْ طلَل أبصرته فشجانى كخط الزَّبور فى العَسيب اليمانى[٣]

وقال طرفة إنهـا كسطور الكتابة الجميلة المزينة التى نمقها كاتب فى وضح النهار وذلك أحكم :

أشَـجاك الرَّبعُ أم قِدَمه أم تراب دارس حُمَمُه
كسطور الرّق رقّشه بالضحا مرقّش يَشِمِه[٤]

وقال حاتم إنها كالكتابة المنسقة المزخرفة :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدّما كخطك فى رقّ كتاباً مُنَمْنَما[٥]

وقال المرقش الأكبر :

الدار قفـر والرسوم كما رقش فى ظهر الأديم قلم[٦]

---

(١) المفضليات ٢ / ١٥٧ نُعلى : ماء بقرب المدينة . الأجزاع : منعطفات الوادى . نميل : تصغير نُعلى على حذف الزيادة كما قال البكرى . رجعت الكتابة : عدت بالقلم عليها . محبر : محسن . هاج : قارئ .

(٢) المفضليات ٢ / ٤ وهو جاهلى لا صحابى كما توهم الفيروزابادى ، إذ التبس عليه بالأخنس بن شريق .

(٣) ديوان امرئ القيس ١٨٦

(٤) ديوان طرفة ٦٨ والأمالى ٢ / ٢٤٦ الرق : الصحيفة البيضاء . يشمه : يزخرفه .

(٥) شعراء النصرانية ١١٨

(٦) البيان والتبيين ١ / ٢٨٨ والأمالى ٢ / ٢٤٦

وكذلك صورها ثعلبة بن عمرو العبدى ، وجعل الكاتب لا يسوى سطوره :

لمن دمن كأنهن صحائف — قفار خلا منها الكثيب فواصف
أكب عليها كاتب بدواته — يقيم يديه تارة ويخالف[(١)]

٤ — هذه الكثرة من التشبيه كفيلة بدعوتنا إلى أن نصحح نظراتنا إلى العصر الجاهلى .

فلم تكن الكتابة مجهولة للعرب بهذه الجهالة التى تحكى عنهم ، لأن هذا الفيض من التشبيه بالكتابة وبالورق والقلم والأسطر ينبىء عن معرفة بها عند الشعراء المشبهين كلهم أو أكثرهم ، إذ أن من خصائص التشبيه فى العصر الجاهلى أنه لا يجنح إلى العلائق الظاهرة والمشابهات السطحية قدر ما يجنح إلى الربط الوثيق بين المشبه والمشبه به ، فالتشبيه بالكتابة ليس منبعثاً عن تخيل أو محاكاة فحسب ، وإنما هو تصوير لعلاقة يجدها الشاعر بين الرسوم والكتابة .

وإننا لنجد فى بعض هذه التشبيهات تفصيلا ودقة لا يدلان على معرفة الشاعر بالكتابة فحسب ، بل يدلان على خبرته بها وممارسته لها ، كما نجد فى قول معاوية وفى قول ثعلبة .

على أننا نجد فى كثير من المصادر التاريخية والأدبية ذكراً غير مقصود لمعرفة بعض الشعراء الكتابة . نذكر منهم عدى بن زيد العبادى[(٢)] ولقيط بن يَعْمُر الإيادى[(٣)] وسُوَيْد بن الصامت الأوسى[(٤)] وعبدالله بن رَواحة[(٥)] والربيع بن زياد العبسى[(٦)] والمرقِّش الأكبر وأخاه حَرملة[(٧)] وكعب بن مالك الأنصارى[(٨)] والزبرقان بن

---

(١) المفضليات ٢ / ٨١ — (٢) الأغانى ٢ / ١٠١
(٣) الأغانى ٢٠ / ٢٤ والشعر والشعراء ١ / ١٥٢ — (٤) الأغانى ٣ / ٢٥
(٥) الطبقات الكبير ٣ / ٢ — (٦) المفضليات والأغانى ٥ / ١٨١
(٧) المحبر لابن حبيب ٢٧١ — (٨) الأغانى ٢ / ١٨٠

بدر [١] وكعبا وبجيرا ابنى زهير [٢] ولبيدا العامرى [٣].

وقد جاء ذكر الورق من مهارق [٤] وقراطيس فى كثير من الشعر ، فالحارث بن حلزة يشبه آثار الديار بصحائف الفرس فى قوله :

لمن الديار عَفَوْن بالحِبْس ... آياتها كمهارق الفرس [٥]

والبَعِيث بن حُرَيث الحنفى يشبه الطلل بالمهارق البالية :

لمن طَلَلٌ كروضات السِّخال ... تأبد كالمهاريق البوالى [٦]

وطرفة يشبه بياض خد ناقته بالقرطاس [٧].

وفى اللغة كلمات كثيرة قديمة تدور حول الكتابة وما يكتب به وما يكتب فيه [٨].

على أن الحارث بن حلزة ذكر أن حلف ذى المجاز كان مكتوبا :

واذكروا حِلْفَ ذى المجاز وما قُدِّ ... م فيه العهودُ والكُفَلَاء

حَذَرَ الخَوْن والتَّعَدِّى وهل تَنْ ... قض ما فى المهارق الأهواء [٩]

وذكر ابن سلام أن الناس أصبحوا يوماً بمكة وعلى باب دار الندوة مكتوب :

أَلْهَى قُصَيًّا عن المجد الأساطير ... ورشوةٌ مثل ما تُرْشَى السَّفاسير

(١) سيرة ابن هشام ٤ / ١٤٤ — ١٤٦ والشعر والشعراء ١ / ٩١
(٢) الأغانى ٢ / ١٨٠ (٣) الأغانى ١٦ / ٢٢
(٤) المهارق جمع مهرق على وزن مكرم : الصحيفة ، أو التى يكتب فيها ، أو ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه ، وقد يخص بما تكتب فيه العهود (تاج العروس : هرق)
(٥) المفضليات ١ / ١٣٠ (٦) معجم البلدان ٤ / ٧ ٣
(٧) ديوان طرفة ١٩ (٨) الأمالى ١ ٢٤٥
(٩) المعلقات العشر ١٢٧ والبيان والتبيين ٣ / ٦

وأكلها اللحمَ بَحْتًا لا خليط له وقولُها: رحلتْ عِير أتت عير

فأنكروا ذلك، وقالوا: ما قالها إلا ابن الزِّبَعرَى[1].

وجاء فى حديث رجل كندى من دُومة الجندل يَمُنُّ على قريش أن بشر بن عبد الملك أخا أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل قد علم قريشاً الكتابة (٢).

وروى أن ورقة بن نوفل كان فى الجاهلية يكتب الكتاب العبرانى أى يكتب بالعبرية (٣).

ولقد تآمرت قريش على النبى وعلى المسلمين، فتعاقدوا فى صحيفة مكتوبة على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى عبد المطلب وعلقوا الصحيفة فى الكعبة، وقد دعا رسول الله ﷺ على كاتبها فشل بعض أصابعه (٤).

وقد قلت فى كتابى (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) إن المعلقات ربما أخذت تسميتها هذه من أن الملك أمر بتدوين هذه القصائد وغيرها، فقد ذكر أبو جعفر النحاس أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزائنى، وقال ابن رشيق مثل ذلك (٥)، ورجحت أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر، لأن ابن سلام يقول «وقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح فيه هو وأهل بيته، فصار ذلك إلى بنى مروان أو ما صار منه[6]، وابن جنى يقول «أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج — وهى الكراريس — ثم دفنها فى قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبى عبيد قيل له إن تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الأشعار»[7]

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٩١ الأساطير: الخرافات. السفاسير: جمع سفسير ومن معانيه السمسار.

(٢) بلوغ الأرب ٣ / ٣٨٢ (٣) الأغانى ١٣ / ٢٠

(٤) سيرة ابن هشام ١ / ٣٧٢ (٥) العمدة ١ / ٦١

(٦) طبقات الشعراء لابن سلام ١٧ (٧) الخصائص لابن جنى ٣٩٣

واستدللت على أن الشعر قد دون بعضه فى العصر الجاهلى وفى صدر الإسلام فى عهد عمر بن الخطاب (١) .

ثم استهل الإسلام وفى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب ، ذكر البلاذرى أسماءهم . ثم إن الشفاء بنت عبد الله العدوية كانت تكتب فى الجاهلية ، وقد عرض عليها النبى ﷺ أن تعلم السيدة حفصه الكتابة(٢) .

وكان الأوس والخزرج يكتبون العربية ، وكان زيد بن ثابت يكتب العربية والعبرية (٣) .

بين الأدب العربى والأدب الغربى :

لم ينفرد شعراء العرب بوقفاتهم على الأطلال ، فإن شعراء الغرب يشركونهم فى مثل هذه الوقفات ، وإن لم تكن على أطلال ، بل كانت على بحيرات .

وقف لامرتين على بحيرة بورجيه ، ووقف روسو فى قصته (هلواز الجديدة) وفى (أحلام متنزه وحيد) ووقف هيجو فى قصيدته (أحزان أوليمبيو) وألفريد دى مسيه فى قصيدته (الذكرى) . ولبيرون قصيدة على بحيرة ليمان تحسر فيها على حبه الذى انقضى ، وتذكر أنغام محبوبته على خرير أمواه البحيرة .

وليس المقام مقام موازنة بين الأدبين ، لأن ثمة اختلافا فى البيئة والعقلية ، وزمنا متطاولا يفصل بين هؤلاء وهؤلاء ، ولا يمكن إغفال هذا كله فى الموازنة .

على أن قراءة الأدبين توضح أن الأطلال والبحيرات ومايشبهها تشترك فى أنها المثير المقارن لعاطفة الحب ، وأنها تبعث فى نفس الشاعر

---

(١) الأغانى ٤ / ١٤١ (٢) فتوح البلدان للبلاذرى ٤٧٧
(٣) المرجع السابق ٤٧٩

ذكرى سعادته الماضية ، وحسرته على نعيم لن يعود ، وهى عزيزة على الشاعر ، لأنها متصلة بالحبيبة اتصالا يخوله أن يتمثل الطلل أو البحيرة إنسانا حيا عزيزا يناجيه ويستخبره ، ويبثه مابه من شوق ووجد وحنين .

الأطلال بعد الجاهلية :

كان الشاعر الجاهلي يعزى قلبه الموله بوقفة أو وقفات على أطلال الحبيبة ، يحاول بها أن يستعيد أطيافا من ماضيه ، ولم لا ؟ ألم تكن هذه الأطلال مرابع الحبيبة ومراتع لهو العاشقين ولقائهما ؟

حدث عصمة بن مالك أنه رافق ذا الرمة فى زورة لحبيبته مى، وأنه كان يختلف إليها حتى انقضى الربيع ، ثم أتى ذو الرمة إلى عصمة وقال : قد رحلت مى ولم تبق إلا الآثار والنظر فى الديار ، فاذهب بنا ننظر فى ديارها ونقفو آثارها ، فخرجنا حتى أتينا منزلها ، فوقف ينظر ، ثم قال :

أَلا يا اسلمى يا دار مَىَّ على البِلى ... ولا زال مُنْهَلاً بجَرْعائك القَطر

قال عصمة : فما ملك عينيه ، فقلت : مَه . فانتبه ، وقال : « إنى لجلد وإن كان منى ماترى » ، فما رأيت أحداً كان أشد منه يومئذ صبابة ، وأحسن عزاء وصبراً ، ثم انصرفنا وتفرقنا (١) .

ولم ينفك الشعراء فى كل عصر يفتتحون بعض قصيدهم بالوقوف على الأطلال ، ولقد يكون هذا الضرب من الغزل صادق التعبير عن العاطفة إذا كان الشاعر ممن خبروا البادية وقروا بها حينا كالحطيئة وابن الدمينة ، أما الشعراء الذين لم يقروا بالبادية ، بل لم يعرفوا عنها إلا مثل ما نعرف ، لأنهم عاشوا فى بيئات متحضرة كالبحترى وأبى نواس وابن الخياط والبارودى فإنهم فى وقوفهم على الأطلال محاكون مقلدون ، غير ماتحين من عاطفة ولا مصورين لشعور .

---

(١) مجالس ثعلب ١ / ٤٢

وسأضرب أمثلة من العصر الإسلامى والعباسى والحاضر تكشف عن تغلغل تأثير العصر الجاهلى فيما وليه من عصور ، من حيث الوقوف بالأطلال ، والبكاء عليها ، واستنطاقها ، والتحسر على أنها عطلت من ساكنيها وعمرت بالوحش ، ومن حيث التعبير نفسه .

١ — فى العصر الإسلامى .

تردد ذكر الأطلال فى شعر الحطيئة وعمر بن أبى ربيعة وذى الرمة وجران العود النميرى وجرير والفرزدق والكميت وغيرهم .

قال الحطيئة :

لمن الديار كأنهن سطور ... بِلِوى زَرُودَ سَفَا عليهن المُور
نُؤْىٌ وأطلس كالحمامة ماثل ... ومُرَفَّع شرفاته محجور [١]

وكذلك بدأ مدحته لأبى موسى (٢)، والوليد بن عقبة (٢) ، وسعيد ابن العاص (٣) .

وقال عمر بن أبى ربيعة :

لمن الديار رسومها قفر ... لَعِبَتْ بها الأرواح والقطر [٤]

وقال :

لمن طلل موحش أقفرا ... فأصبح معروفه منكرا [٥]

---

(١) ديوان الحطيئة ١٣ المور : التراب . أطلس : المراد به الرماد .
(٢) ديوان الحطيئة ٣٥ (٣) ديوان الحطيئة ٣٧
(٤) ديوان الحطيئة ٣٩
(٥) ديوان عمر بن أبى ربيعة ١٨ الأرواح : الرياح .

وقال :

أوقفت من طلل على رسم بلوى العقيق يلوح كالوشم
أقوى وأقفر بعد ساكنه غير النعام يَرُودُ والأُدْم
فوقفت من طرب أسائله والدمع منى بيِّن السجْم[١]

وقال إنه استوقف أصحابه معه :

ألم تَرْبَعْ على الطلل ومَغْنَى الحى كالخِلل
فلما أن عرفت الدا ر عُجْتُ لرسمها جملى
وقلت لصُحْبَتى عوجوا فعاجوا هِزَّةَ الإبل
وقالوا قف ولا تعجل وإن كنا على عجل[٢]

وقال ذو الرمة :

وقفت على ربع لِمَيَّة ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه[٣]

وحاكى الكميت امرأ القيس بن عابس بن المنذر بن السمط فى وقوفه على الأطلال وتعبيره ، قال امرؤ القيس :

قف بالديار وقوف حابس وتأىَّ إنك غير آنس
ماذا عليك من الوقو ف بهامد الطَّلَلَيْنِ دارس

(١) ديوان عمر ٥٧

(٢) الأغانى ١ / ١٨٢ تربع : تحبس نفسك عليه . الخلل : ج خلة وهى بطانة يغشى بها جفن السيف تنقش بالذهب وغيره .

(٣) ديوان ذى الرمة ٣٨ . وراجع أيضاً ٦٤٩

فأخذه الكميت فقال :

قف بالديار وقوف زائر   وتأيَّ إنك غير صابر
ماذا عليك من الوقو   ف بهامد الطللين داثر[1]

وافتتح جرير كثيراً من أهاجيه وخرياته بالوقوف بالأطلال مثل قوله :

عرفت الدار بعد بِلَى الخيام   سُقِيَتْ نجاء مُرتكز ركام
كأن اخا اليهود يخط وَحْياً   بكاف فى منازلها ولام[2]

ومثل قوله فى هجاء جفنة بن جعفر :

ألا قل لربع الأَفاقَيْنِ يا اسلم   يُحَيَّا على شَحَطٍ وإن لم يُكلم[3]

وقال فى هجائه لعمر بن لجأ :

حى الديار وأهلها بسلام   ربما تقادم أوصريع خيام[4]

وفى مدح مسلمة بن هشام :

ماهاج شوقك من عهود رسوم   بادت معارفها بذى القيصوم[5]

وفى هجاء الأخطل :

قل للديار سَقَى أطلالك المطر   قدهجت شوقاً فماذا تُرجِعُ الذكر[6]

وقال الفرزدق :

أَلِمَّا على دار بمنقطع اللّوى   خلاء تعفيها رياح الجنائب[7]

(١) المؤتلف والمختلف للآمدى ٩
(٢) ديوان جرير ٢ / ٨٩
(٣) ديوان جرير ٢ / ٩٦
(٤) ديوان جرير ٢ / ١٠٤
(٥) ديوان جرير ٢ / ١١٠
(٦) ديوان جرير ١ / ١١٤
(٧) ديوان الفرزدق ١ / ٣٩

وقال :

عرفت المنازل من مَهْدَد كوحى الزبور لدى الغرقد[١]

وقال :

أعرفت بين رُوَيّتين وحَنبل دمنا تلوح كأنها الأسطار[٢]

٢ — فى العصر العباسى :

أكثر الشعراء من الوقوف بالأطلال فى العصر العباسى ، وكرروا معانى سابقيهم .

قال أبو تمام فى مطلع مدحته لأبى الحسن محمد بن عبد الله الهاشمى :

إن بكاءً فى الربع من أرَبه فشايعا مغرما على طربه[٣]

وقال :

قف بالطلول الدارسات عُلاثا أضحت حبال قطينهن رثاثا[٤]

وقال البحترى فى مدح المتوكل :

سُقيتِ الغَوادىمن طلولوأربع وحييت من دار لأسماء بلقع[٥]

وفى مدح إبراهيم :

وقوفك فى أطلالهم وسؤالها يريكغروب الدمع كيفانهمالها[٦]

وفى رثاء المتوكل :

محل على القاطول أخلق داثره
وعادتصروف الدهر جيشاً تغاوره[٧]

---

(١) ديوان الفرزدق ١ / ٢٠٢
(٢) ديوان الفرزدق ٢ / ٤٦٥
(٣) ديوان أبى تمام ٥١
(٤) ديوان أبى تمام ٦٣ وراجع ١١٤
(٥) ديوان البحترى ٥٦
(٦) ديوان البحترى ١٤٤
(٧) ديوان البحترى ٢٨

وكان أبو نواس برماً بالاستهلال الطلى ، ساخراً من البادئين به ، يؤثر أن يفتتح بعض قصائده بالخمريات والزهريات أو لوم من يستهلون بالأطلال .

مثل قوله :

لا تبك رسماً بجانب السَّنَد ولا تَجُدْ بالدموع للجرَد
ولا تعرج على مُعَطَّلة ولا أثاف حَلَّتْ ولا وتد
ومل إلى مجلس على شرف بالكوخ بين الحديق معتمد[١]

ومثل قوله :

عاج الشقىُّ على رسم يسائله وعُجتُ أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد لا درَّ درُّك قل لى من بنو أسد[٢]

ويكرر هذا الاتجاه فى مواضع شتى من ديوانه[٣] .

لكنه لم يستطع أن ينفلت من قيد الأطلال ، فقد كان يبدأ بها بعض مدائحه للكبراء مثل افتتاحه مدح الرشيد :

لقد طال فى رسم الديار بكائى وقد طال ترداى بها وعنائى
كأنى مُريع فى الديار طريدة أراها أمامى مرة وورائى
فلما بدالى اليأس عدَّيت ناقتى عن الدار واستولى علىَّ عزائى[٤]

على أن نزعته الشعوبية ربما كانت الباعث على اجتوائه للأطلال والذاكرين لها ، ولكنه كان يخفى هذه النزعة إذا مدح الخلفاء ، فيبدأ أحياناً بوقفات على الأطلال .

---

(١) ديوان أبى نواس ١٣٨ (٢) ديوان أبى نواس ١٣٨
(٣) الديوان ٧٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٧٥ ، ١٨٣
(٤) ديوان أبى نواس ٦٦

وقال المتنبي فى مدح سيف الدولة :

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا   فإنك كنت الشرق للشمس والغربا(١)

ووقف على الأطلال يستخبرها فاستعجمت ، ولم تساعده ببكائها فدعا عليها دعاء مبيرا :

مُلِثّ القطر أعطشها ربوعا   وإلا فاسقها السم النقيعا
أسائلها عن المتدَيِّريها   فلا تدرى ولا تذرى دموعا(٢)

٣ — فى العصر الحديث :

وتمشى تأثير الأطلال ، واستخبارها ، والوقوف بها إلى العصر الحديث، فلم تباعدهذه الحياة الحضرية بين بعض الشعراء المحدثين ومظاهر البداوة والاستمداد من بعض ينابيعها ، فالبارودى يحيى الأطلال ، ويصف أثر الريح فيها ، ويذكر أنه عرفها بعدلأى وتفرس ، وأنها صارت مراحاً للغزلان ، وهذه كلها من معانى العصر الجاهلى والبيئة البدوية :

ألا حىِّ من أسماء رسم المنازل   وإن هى لم تُرجع بياناً لسائل
خلاء تعفتها الروامس والتقت   عليها أهاضيب الغيوم الحوافل
فلأيا عرفت الدار بعد ترسم   أرانى بها ما كان بالأمس شاغلى
غدت وهى مرعى للظباء وطالما   غَنَتْ وهى مأوى للحسان العقائل
فللعين منها بعد تزيال أهلها   معارف أطلال كوحى الرسائل(٣)

وشوقى متأثر ببكاء الأطلال بعض التأثر ، فهو يفتتح أولى قصائده بعد عودته من المنفى بمناجاة الرسم ، وبكاء على ثراه ، وإجلال له وإعزاز . لكنه نحا فى مناجاته ووقفاته منحى جديدا لم يسبق إليه ،

(١) ديوان المتنبي ١ / ٤٠   (٢) ديوان المتنبي ١ / ٤١٧
(٣) ديوان البارودى ٢ / ٤٤٦ شرح محمود الإمام المنصورى

فالدموع التى تنهمر على الطلل وإن كانت ذوب القلب لاتفى الطلل حقه ، ولقد انحدرت من عينى الشاعر فقبلت التراب وحيته وكلمته ، ومن حق هذه الأطلال البالية أن يبكيها الشاعر وفاء لها ، فقد قضى بها وهى عامرة حالية شبابه الرّيق السعيد . لهذا وقف بها طويلا ، ليؤدى لها حقها ، وليؤدى للأحباب الذين كانوا بها حقوقهم ، فإن من الوفاء أن تشكر للمَنجم وهو يجود بالذهب ، فإذا ما نفد ذهبه صار من الوفاء أن تشكر الثرى الذى كان يحوى الذهب .

قال شوقى :

أنادى الرسم لو ملك الجوابا ... وأجزيه بدمعى لو أثابا
وقلّ لحقه العبرات تجرى ... وإن كانت سواد القلب ذابا
سبقن مقبلات الترب عنى ... وأدّين التحية والخطابا
نثرت الدمع فى الدمن البوالى ... كنظمى فى كواعبها الشبابا
وقفت بها كما شاءت وشاءوا ... وقوفا علم الصبر الذهابا
لها حق وللأحباب حق ... رشفت وصالهم فيها حبابا
ومن شكر المناجم محسنات ... إذا التبر انجلى شكر الترابا(١)

ترديد أسماء الأماكن

تبين من الحديث عن الأطلال أن الشعراء ربطوا ذكريات حبهم بها، لأنها تمثل عهوداً عزيزة عليهم ، وحياة كانت سعيدة مسعدة ، فتملوا فيها ماضيهم ، وبكوا حاضرهم ، واستخبروها وناجوها .

وعرفنا أنهم كثيراً ما حددوا الأماكن تحديداً دقيقا . وإذا كانوا قد أكثروا من ذكر المواضع والأماكن ، فإنهم محقون ، لأنها كانت مَغنَى الحبيبة ، ومقام قومها ، فهم يجدون فى ذكرها عزاء ومسلاة .

(١) الشوقيات ١ / ٥٤

ثم إن الحياة بالبادية لم تكن حياة استقرار وإقامة ، وإنما كانت حياة رحلة ونجعة ، فلا يلبث قوم أن يقيموا بمكان مدة من الزمان تطول أو تقصر ، يعلق فيها شاب من آخرين بفتاة من هؤلاء ، وإذا بهم يرتحلون للنجعة ، فيتوجع ، ويجد فى الأطلال أثراً من آثار الحب والحبيبة .

من ذلك قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

وقول لبيد :

عفت الديار محلها فمقامها بمنًى تأبد غولها فرجامها

وقول طرفة :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد[1]

ثم حاكاهم من بعد شعراء العصر الإسلامى والعباسى ، كما سبق فى الأطلال .

حاكاهم شعراء يعرفون البادية كابن الدمينة فى قوله :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادنى مسراك وجداً على وجد[2]

وحاكاهم شعراء لا عهد لهم بالبادية ، مثل مهيار فى قوله :

نظن ليالينا عودًا على العهد من برقتى ثهمدا
خليلىّ لى حاجة ما أخف برامة لو حملت مسعدا[3]

(١) المعلقات (٢) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٣ / ١٤٥

(٣) ديوان مهيار الديلمى ١ / ١٦٣

استمداد الخيال من البيئة

لا أشك فى أن الغزل فى العصر الجاهلى أصدق فنون الشعر دلالة على نفسية قائليه ، وارتباطا بالبيئة التى عاشوا فيها

ذلك بأن الصدق الشعورى موفور فيه ، لأنه قيل تسرية عن النفس، وتعبيراً عن المشاعر ، وتصويراً للعواطف ، ولم يكن يقال تزلفاً لكبير ، أو مرضاة لأمير ،أومجلبة لمال . فهو إذن فن خالص ، يصدر عن الشاعر كما يصدر الضوء عن الشمس ، وكما يفوح الشذى من الزهر، وكما يشقشق العصفور، ويغرد الكروان . فليس للشاعر الغزل من أرب إلا أن يبوح بما يجد فى لغة ممتازة أخاذة .

وذلك أيضاً بأن الصدق الفنى موفور فيه ، لأن الشاعر صور عاطفته فأحسن تصويرها ، فى رضا الحبيبة وصدها وقربها وبعدها .

وهذا الغزل ينبىء عن تذوقهم للجمال ، وأنهم ذوو بصيرة وبصر بالجسدى منه والنفسى ، مدركون لما فى بيئتهم من أنواع الجمال الطبيعى والصناعى ، لذا شبهوا به كثيراً واستمدوا منه المعانى .

وإذ كان هذا الغزل متسما بالصدق الشعورى والصدق الفنى ، فإنه وثيق الصلة بالبيئة العربية والطبع العربى ،وأنا أشعر أن هذا التعبير لا يكفى، وأشعر أن خيراً منه أن أقول إنه تصوير دقيق للبيئة وللطبع .

ويتمثل هذا فى عدة نواح :

متح الشعراء من بيئتهم الخيال الذى صوروا به عواطفهم ، فكانوا صادقين فى تجاوبهم مع ما فى البيئة من حيوان ونبات وجماد ، لأنهم أحسوا بجماله ، وتخيروا من صفاته صفة بارزة تمتُّ إليها الحبيبة بصلة ، أو تمتُّ إلى الحبيبة بسبب ، فشبهوا الحبيبة بها ، يريدون أن يصوروا مقدار جمالها ، وأن يزينوها ، لأن هذا الذى يشبهون به متعارف الجمال

بينهم، مسلم بتميزه فى هذه الناحية، لذا يلحقون الحبيبة به ليدلوا على تفوقها فى جمالها.

ولو أن عندهم أجمل مما شبهوا به لألحقوا الحبيبة به أيضاً. ولكن بحسبهم أن التفتوا إلى ما فى البيئة من جمال منوع، وعقدوا بينه وبين المرأة الحسناء صلة أو صلات، مع علمهم أن جمال المحبوبة أقوى فتوناً، وأحلى فنوناً.

يقول الجاحظ فى هذا المعنى: «وقد علم الشاعر وعرف الواصف أن الجارية الفائقة الحسن أحسن من الظبية، وأحسن من البقرة، وأحسن من كل شيء تشبيه، ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون، فيقول بعضهم كأنها القمر، وكأنها الشمس والشمس وإن كانت بهية فإنما هى شيء واحد، وفى وجه الجارية الحسناء وخلقها ضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب. ومن يشك أن عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة، وأن جيدها أحسن من جيد الظبية؟»[1].

١ — فهم استمدوا تصويرهم من الطبيعة الحية المتحركة، فراقهم من البقرة الوحشية سعة عينيها، وشدة سوادهما، ونصاعة بياضهما، فشبهوا عينى المحبوبة بهما، وأعجبهم من القطاة خطوها، فشبهوا مشى المرأة بمشى القطاة.

(أ) قال سلامة بن جندل:

وعندنا قَينَةٌ بيضاء ناعمة … مثلُ المهاةِ من الحور الخراعيب[2]

وقال عمرو بن الأهتم:

كأن على الجمال نعاج قوٍّ … كوانس حُسَّراً عنها الستور[3]

---

(١) رسالة العشق والنساء من مجموعة رسائل للجاحظ ١١٨

(٢) المفضليات ١ / ١١٨ الخراعيب: اللينات

(٣) المفضليات ٢ / ٢٠٩ نعاج: بقر وحشى

وقال ثعلبة صُعير :

ولرب واضحة الجبين غريرة ... مثل المهاة تروق عين الناظر
قد بتُّ ألعبها وأقصر همها ... حتى بدا وضحُ الصباح الجاشر (١)

وقال النابغة :

كأن على الحدوج نعاج رمل ... زهاها الذعر أو سمعت صياحا (٢)

وقال لبيد :

منازل من بيض الخدود كأنها ... نعاج المَلا من مُعْصِرٍ وعَوان (٣)

(ب) ووصف قيس بن الخطيم ظبية حسناء طيبة المرعى ، ثم قال إنها ليست بأحسن منها :

فما ظبيةٌ من ظباء الحِسا ... ءِ عَيطاء تَسمَع منها بُغاما
تُرَشِّح طفـلا وتحنو له ... بِحِقف قد انبتَ بَقلاً تُؤاما
بأحسَنَ منها غداة الرحيـ ... ـل قامت تُريك أثيثاً رُكاما (٤)

وهو يشبه القتال الكلابي في قوله :

وما مُغزلٌ ترعى بأرض تَبالةٍ ... أراكا وسِدراً ناعماً ما ينالها
وترعى بها البَرْدَيْنِ ثمَّ مَقيلها ... عَياطِلُ ملتفٌّ عليها ظلالها

---

(١) المفضليات ١/١٢٩ الجاشر : الواضح (٢) ديوان النابغة ١٦

(٣) ديوان لبيد ٤٧ الملا : الصحراء . معصر : بلغت الشباب أو العشرين . عوان : امرأة متزوجة أو كبيرة .

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ٣٩ والمخطوط ص ٤٨ . والحساء : جمع حسى وهو السهل من الأرض يستنقع فيه الماء ، أو مرتفع من الأرض فوقه رمل يجمع ماء المطر . عيطاء : طويلة العنق . البغام : صوت الظبية الرخيم تنادى به ولدها . ترشح : تلحس ولدها ساعة يولد . حقف : كثيب من الرمل . تؤاما : متشابكا . أثيثا ركاما : شعرا غزيرا كثيفا .

بأحسن من ليلى وليلى بشبهها إذا هُتِكَتْ فى يوم عيد حجالها[1]

وقال بشر بن أبى خازم :

أسائل صاحبى ولقد أرانى بصيراً بالظعائن حيث ساروا

. . . .

كأن ظباء أسْنُمَةٍ عليها كوانسَ قالصاً عنها الْمَغار[2]

وقال المثقب العبدى :

وهن على الرجائز واكنات قواتل كل أشجع مستكين
كغزلان خذلن بذات ضال تنوش الدانيات من الغصون[3]

وقال ربيعة بن مقروم :

كأنها ظبية بكر أطاع لها من حومل تلعات الجو أو أودا[4]

(حـ) ولقد يجمع الشاعر الصورتين فيشبهها بالمهاة وبالغزال .

قال لبيد فى الحدوج :

كأن نِعَاجاً من هجائنِ عازف عليها وأرآم السُّلَىّ الخواذلا[5]

---

(١) معجم البلدان ٢/٣٥٨ البردين : الغداة والعشى . عياطل : غصون طوال . حجالها : جمع حجلة وهى حجرة العروس .
(٢) المفضليات ٢/١٣٨ أسنمة : موضع . المغار : ج مغارة والمراد به الهودج يريد أن هوادجهن ضاقت بهن .
(٣) المفضليات ٢/٨٨ الرجائز : مراكب النساء . واكنات : مطمئنات . أشجع : أسد . خذلن : تخلفن عن صواحبهن . تنوش : تتناول .
(٤) المفضليات ٢/١٣ أطاع لها : كثر المرعى أمامها واتسع . أود : موضع .
(٥) ديوان لبيد ٢١ هجائن : بيض . أرآم : ظباء . السلى : واد . الخواذل : جمع خاذل وهى الظبية التى تقوم على ولدها ترعاه .

وقال زهير :

نازعت المها شبهاً ودُرَّالْ بحور وشاكَهت فيها الظباء

فأما ما فويق العَقد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء

وأما المقلتان فمن مهاةٍ وللدر الملاحة والصفاء[1]

وقال خداش بن زهير :

وإذ هي خودٌ كالوذيلة بادنٌ أسيلة ما يبدو من الجيب والنحر

كَمُغزلة تغذو بحَومَلَ شادنا ضئيل البُغام غير طفلٍ ولا جأر[2]

(ى) وقال النابغة مشبهاً بالقطاة :

تدعو قطا وبه تُدعى إذا انتسبت ياصدقها حين تدعو فتنتسب[3]

٢ — واستمدوا تصويرهم من الطبيعة الحية غير المتحركة ، فشبهوا رشاقة المرأة وانعطافها وتثنيها وليونتها بغصن البان ، وشبهوا ساقيها بالبردى بياضاً واستدارة ونعومة ، وشبهوا ثديها بالرمان حجما واستدارة وشكلا ، وأسنانها بالأقحوان بياضاً واستواءً واتساقا .

(ا) قال قيس بن الخطيم :

حوراء جيداء يُستضاء بها كأنها خوط بانة قصف[4]

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٤ . شاكهت : شابهت . أدماء : ظبية مشربة بياضا

(٢) جمهرة أشعار العرب للقرشي ١٩١ . خود : حسنة الخلق شابة ناعمة . الوذيلة : المرآة أو القطعة من الفضة المجلوة بادن: عظيمة الجسم . مغزلة : ظبية ذات غزال . حومل: موضع . شادن : ظبي . طفل : صغير . جأر : المراد كبير .

(٣) لسان العرب ٢٠ / ٥١

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ١٧ ولسان العرب ١٦/ ٢١٩ خوط : غصن ناعم . قصف : لدن .

(ب) وقال المخبل السعدى :

بَرْدِيَّةٌ سَبَق النعيم بها   أقرانها وغلا بها عظم[١]

وقال امرؤ القيس :

وكشحٍ لطيف كالجديل مُخَصَّرٍ   وساق كأنبوب السَّقى المذَلَّل[٢]

(حـ) وقال الأعشى :

وثديان كالرمانتين ، وجيدها   كجيد غزال غير أن لم يعطَّل[٣]

(ى) وقال أيضا :

ومها يرف غُروبه   يَشْفى المتيَّم ذا الحراره

كذُرَى منوِّرِ أقحوا   ن تسامَقَ فى قراره[٤]

٣ — واستمدوا التصوير أيضا من الطبيعة غير الحية ، فشبهوا بالشمس والبدر والدر .

(ا) شبهوا وجه الحبيبة بالشمس والبدر وضاءة وإشراقا .

قال قيس بن الخطيم :

فرأيت مثل الشمس عند طلوعها   فى الحسن أو كدُنُوِّها لغروب[٥]

وقال الأسود بن يعفر النهشلى :

والبيض تمشى كالبدور وكالدُّمى   ونواعم يمشين بالأَرْفاد[٦]

---

(١) المفضليات ١١٢/١ غلا : ارتفع أى زادها النعيم حتى فاقت أترابها وكبرت قبلهن
(٢) ديوان امرئ القيس ١٣٠   (٣) ديوان الأعشى ٢٢٦
(٤) ديوان الأعشى ١١٢ مها : بلور . غروبه : الغرب الفضة من الخمر .
(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٥
(٦) المفضليات ١٨/٢ الأرفاد : قداح الخمر وهو يصف الساقيات :

وقال عنترة :

قرعوا القباب على وجوه أشرقت ... فيها فغيّبت السُّها فى الفرقد
والشمس بين مضرّج ومولّج ... والغصن بين موشّح ومقلّد (١)

(ب) وشبهوا الوجوه باللؤلؤ لونا وصفاء .

قال الأعشى إنها كدرة نفيسة نادرة صعبة المنال حاول استخراجها الغواص مذ كان شابا :

كأنها درة زهراء أخرجها ... غواص دارِين يخشى دونها الغرقا
قد رامها حججا مذ طرّ شاربه ... حتى تسعسع يرجوها وقد خفقا
لا النفس تؤيسه منها فيتركها ... وقد رأى الرّغب رأى العين فاحترقا
ومارد من غواة الجن يحرسها ... ذو نيقة مستعدّ دونها تَرَقا
ليست له غفلة عنها يطيف بها ... يخشى عليها سُرى السارين والسَّرقا
فى حوم لجة آذى له حَدَبَ ... من رامها فارقتها النفس ، فاعتلقا
من نالها نال خلداً لا انقطاع له ... وما تمنى فأضحى ناعماً أنِقا
تلك التى كلفتك النفس تأملها ... وما تعلقت إلا الحين والحرقا (٢)

ويشبهه المخبل السعدى فى رسم صورة للدرة النفيسة كهذه الصورة ثم تشبيه المحبوبة بها (٣) .

وقال قيس بن الخطيم :

كأنها درة أحاط بها الغوا ... ص يجلو عن وجهها الصَّدف (٤)

---

(١) ديوان عنترة ٦٩

(٢) ديوان الأعشى ٢٣٠ وقد سبق شرحها فى فصل الجمال .

(٣) المفضليات ١/١١٣ ... (٤) ديوان قيس بن الخطيم ١٨

وقال سويد بن أبى كاهل :

كالتُّؤاميّة إن باشرتها قرت العين وبان المضطجع (١)

وقال الأسود بن يعفر النهشلى :

والبيض تمشى كالبدور وكالدمى ونواعم يمشين بالأرفاد (٢)

٤ - وصوروا بما فى البيئة من مصنوعات :

(ا) شبهوا الحسناء بالدمية ، وكان بين العرب فى اليمن والحجاز وغيرهما فيما يظهر مصورون ومثالون ملأوا معابدهم بتماثيل آلهتهم من الحجر والمعدن والخشب ، (٣) ، ولا بد أن الكنائس المسيحية والبيع اليهودية كانت حالية بالتماثيل . ووجه الشبه بين الحسناء والدمية الجمال والانسجام والملاءمة وغيرها .

قال عدى بن زيد :

بناتِ كرام لم يُرَبْنَ بِضرَّةٍ دُمىً شَرِقاتٍ بالعبير روادعا (٤)

وقال :

كدمى العاج فى المحاريب أوكالـ بيض فى الروض زهره مستنير (٥)

وقال امرؤ القيس فى صاحبتيه هر وفرتنا :

هما نعجتان من نعاج تبالة

لدى جؤذرين أو كبعض دمى هَكِر (٦)

---

(١) المفضليات ١/١٩٤ التؤامية : الدرة المنسوبة إلى تؤم قصبة عمان التى تلى الساحل.

(٢) المفضليات ٢/١٨

(٣) موجز تاريخ الحضارة العربية ٢٥٤ لناجى معروف وعبد العزيز الدورى .

(٤) الأغانى ٢/١٥٠ (٥) البيان والتبين ١/٤٥

(٦) ديوان امرىء القيس ٨٤ تبالة : موضع باليمن . هكر : موضع لابد أن كانت به تماثيل حسان .

وقال الأعشى :

وقد أراها وسط أترابها　　في الحي ذي البهجة والسامر
كدمية صُوِّر محرابُها　　بمذهَّب في مرمر مائر[١]

وقال سحيم :

وما دمية من دمى مَيْسَنَا　　نَ معجبةٌ نَظَرًا واتصافا
بأحسن منها غداة الرحيـ　　ل قامت تُرائيك وَحْفًا غُدافا[٢]

(ب) وشبهوا قوامها بالرمح اعتدالا ولينا ، قال مزرد بن ضرار الذبياني يمدح بني الدَّهماء من قيس :

مصاليت كالأسياف، ثم مصيرهم　　إلى خَفِراتٍ كالقنا المتأوِّد[٣]

(حـ) وشبهوا وجهها بالدينار لمعاناً واستدارة .

قال قيس بن الخطيم :

تبدَّتْ لي لتقتلني فأبدت　　معاصم فخمة منها وجيدا
ووجهاً خِلْتُه لما بدا لي　　غداة البين ديناراً نقيدا[٤]

وما من شك في أن التشبيه بالدينار وبالدمية كان نابعا من بيئة حضرية لا بدوية ، ولذا نجده من تخييل الحضريين مثل قيس بن الخطيم والأعشى وعدي بن زيد وامرىء القيس :

(د) وشبهوا الوجوه بمصباح الراهب، لأنه ينير في الفضاء والظلمات

---

(١) ديوان الأعشى ١٠٤ مائر : مستو مصقول .
(٢) ديوان سحيم ٤٣ غداف : شعر طويل أسود . الوحف : الشعر الكثير الأسود .
(٣) المفضليات ١ / ٧٨ المتأود : المتثنى يمنة ويسرة .
(٤) ديوان قيس بن الخطيم ٢٦ نقيد : مختار صحيح .

من حوله ، وذلك أبين لنوره ، ثم لأنه يهدى ويبعث الانشراح والارتياح.

قال امرؤ القيس :

تضيء الظلام بالعِشاء كأنها　　منارة مُمْسَى راهب متبتل[1]

(هـ) وشبهوا الريق بالخمر كقول زهير :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتَبَقتْ　　من خمر عانَةَ لما يَعدُ أن عَتَقا[2]

وقد افتنوا فى ذلك كما سبق فى (جمال المرأة) .

الأخلاق

١ — أثر الحب فى الطباع :

الحب ولاسيما الموسوم بحرارة العاطفة وصدقها روح يسرى فى الروح ، فيصقل النفس ، ويجمل الطبع ، ويهذب الخلق ، ويغرس فى المحب كثيراً من الفضائل التى تحببه إلى المرأة وتستميها ، قيل لسعيد بن سالم : إن ابنك يحب ، فقال : دعوه ، فإنه يلطف وينظف ويظرف[3] . ولو أنه أحسن ما اقتصر على اللطف والنظافة والظرف ، بل لأضاف إليها خلالا أخر كالشجاعة والغيرة والكرم الخ .

وفى الحق أن الحب يرقق الطباع الجاسية ، ويلين النزعات الجافية ، قال أبو عثمان : « قد ترى الأعرابى وظاهره الجفاء فما هو إلا أن يعشق حتى تجده أرق من الماء وألطف من الهواء ، ومع ذلك يلق أحدهم عشيقته

---

(١) الديوان ١٣١

(٢) لسان العرب ١٧ ، ١٧٥ اغتبقت : شربت الخمر بالعشى . عانة : بلد على الفرات تنسب إليها الخمر العانية .

(٣) تزيين الأسواق ١١

فيترشفها ويعانقها دون الثياب ، ويمنعه التكرم ويحجزه الورع عن وطئها وإن أمكنته ، قال ابن هرمة .

ولرب لذة ليـــلة قد نلتها   وحرامها لحلالها مدفوع (١)

٢ — المثل الأعلى للرجل فى نظر المرأة :

وقد كانت المرأة المحبوبة ملهمة للشاعر ، قال عنترة :

عبيلةُ هـذا دُرُّ نَظمٍ نظمته   وأنت له سِلكٌ وحُسنٌ ومَبهج (٢)

وكان حبها باعثاً على المحامد ، فهى تعجب بالشجاع الكريم الغلاب ، وهذا هو مثلها الأعلى فى الرجال ، يدل على ذلك أن ابنة الخس سئلت . أى الرجال أحب إليك ؟

فقالت : السهل النجيب ، السمح الحسيب ، الندب الأريب ، السيد المهيب وأفضل منه الأهيف الهفاف، الأنف العياف ، المفيد المتلاف ، الذى يخيف ولا يخاف (٣) » .

وسئلت أى الرجال أبغض إليك ؟ قالت : « الأورَه النئوم ، الوكل السئوم ، الضعيف الحيزوم، اللئيم الملوم ، وشر منه الأحمق النزاع، الضائع المضاع ، الذى لا يهاب ولا يطاع (٤) » .

وفى حديث بين عمر بن الخطاب وعمرو بن معد يكرب قال عمرو « كنا نغير على بنى مالك فأتينا على قوم سراة ، فجلست فى موضع أسمع كلامهم ، وإذا بجارية خرجت من خيمتها ، وجلست بين صواحب لها ، ثم دعت وليدة من ولائدها ، فقالت : ادعى لى فلانا ، فدعت لها رجلا من الحى ، فقالت له : إن نفسى تحدثنى أن خيلا تغير على الحى فكيف أنت

(١) أخبار النساء لابن القيم ٢٠   (٢) ديوان عنترة ٣٢
(٣) ذيل الأمالى ١١٩
(٤) ذيل الأمالى ١١٩ الأوره : الأحمق . الوكل: العاجز . الحيزوم : ما يشد عليه الحزام

إن زوجتك نفسي ؟ فقال : أفعل وأصنع وجعل يصف نفسه ويفرط ، فقالت له : انصرف حتى أرى رأيي ، وأقبلت على صواحبها فقالت : ما عنده خير . وقالت لوليدتها : ادعي لي فلانا ، فدعت آخر ، فخاطبته فأجابها بمثل جوابه ، فقالت له : انصرف حتى أرى رأيي ، وقالت لصواحبها : وما عند هذا خير أيضاً . ثم قالت للوليدة : ادعي لي ربيعة بن مكدّم ، فدعته فقالت له مثل قولها للرجلين ، فقال لها : إن أعجز العجز وصف الرجل نفسه ، ولكني إن لقيت أعذرت ، وحسب المرء غناء أن يعذر . فقالت له : قد زوجتك نفسي ، فاحضر غداً مجلس الحي ليعلموا ذلك (١) .

فهي لا تريد من الرجل أن يكون قوالا ، بل يكون فعالا ، وهي تعلم بتجاربها أن أكثر الناس قولا أقلهم عملا ، لهذا اختارت ربيعة ابن مكدّم زوجا لها ، لأنها علمت من جوابه أنه شجاع ذو بلاء .

ومما يدل على تطلعها أن يكون زوجها كريماً أن ماوية بنت عفزر كانت ذات حرية تتزوج من أرادت ، وقد أتاها حاتم والنابغة ورجل من الأنصار من النبيت يخطبونها ، فطلبت منهم أن يقول كل منهم شعراً يذكر فيه فعاله ، ثم ينشدونها في الصباح ما قالوا ، وستصطفي أكرمهم زوجاً لها ، وفي الصباح أنشدها النبيتي ، ثم النابغة ، ثم حاتم ، وكان من قوله :

أماوي إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

فقالت إن حاتماً أكرمكم وأشعركم ، ثم قالت له خل سبيل امرأتك فأبى ، ثم ماتت امرأته فرضيت به زوجاً وولدت له عديا(٢) .

وقد أبت حسينة بنت جابر العجلي أن تعود إلى زوجها ابن عمها

---

(١) أغاني ١٥ : ١٣٢

(٢) أغاني ١٦ : ٩٩ — ١٠١ وذيل الأمالي ١٥٤

لأنه فرّ عنها فى الحروب وتركها تُسبى[1] وقد ذكر أبو على القالى حديثاً طويلا بين ثلاث بنات وصفن ما يحببن من أزواجهن ملخصه أنهن جميعاً يتطلبن من الزوج أن يكون كريماً شجاعاً[2]. وكان السمو الخلق مفخرة البنت بأبيها كما كان ميزاناً تزن به رجلها ، قالت إحدى صواحب العجفاء فى حديث بينهن :

« كان أبى يكرم الجار ، ويعظم الخطّار ، ويحمل الكبار ، ويأنف من الصغار » وقالت أخرى : « أبى والله صدوق اللسان ، حديد الجنان ، رَدُوم الجفان ، شديد الطعان[3] » . وفى رثاء ليلى الأخيلية لتوبة مدح بالفروسية والكرم والشجاعة[4] .

هذه لمحة من المثل العالية الخلقية التى تتطلبها المرأة فى الرجل ، فمن الطبيعى إذاً أن يحرص الرجال ولا سيما المحبون على التحلى بهذه الأخلاق ، لهذا كثر فخرهم بمحامدهم ، ووجهوا هذا الفخار إلى المرأة ، وبحسب الفاخر أن تصدقه المرأة فى قوله ، أو أن تشهد بنفسها محامده ليحتل من قلبها المكان الذى يريد .

ومن الطبيعى أن يحرص الرجل على التحلى بالفضائل ، ليتقرب إلى المرأة ، فهو « يبذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ليبدى محاسنه ويرغب فى نفسه ، فكم بخيلٍ جاد ، وقطوب تطلّق ، وجبان شجع ، وغليظ الطبع تظرب ، وجاهل تأدب ، وتفِلٍ تزين ، وفقير تجمل ، وذى سن تَفتّى[5] » .

وهذا هو السر فى أن الشاعر أشاد بمفاخره بعد الغزل ، يقصد إلى استمالتها ونيل إعجابها ، فيثنى الشاعر على نفسه ، ويحب ذلك كما يحب الملك

(١) أشعار النساء للمرزبانى ٥٧ — ٥٩ (٢) الأمالى ٣/١٦
(٣) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١٦٢ (٤) الأغانى ١٠/٧١ — ٧٧
(٥) طوق الحمامة لابن حزم ١١

أو الأمير أن يثنى عليه الشعراء. فالعرب كانوا كالإغريق فى عصر البطولة يحبون أن يسمعوا شعراءهم يشيدون بمفاخرهم[1] ».

٣ — صور من تأثير الحب فى الأخلاق :

وفى الشعر الجاهلى صور كثيرة من هذا . فمثلا مُضرِّس بن قُرط ابن الحارث المزنى يقول لحبيبته : إن كنت لم تخبرى أخلاقى فاسألى الرجال عنى ، وستعلمين أنى لم يقطع صديق صداقتى ، ولم يذم صديق سفرى ، وأن صحابى من الكرام الذى بلونى فى الشدائد ، وأنى كتوم لحبى لا أفشى سره لأحد إذا أفشى سره المازح .

وإن كنت لما تَخْبُرِنى فسائلى ... فبعض الرجال للرجال رَمُوق

سلى هل سلانى من عشير صحبته ... وهل ذمَّ رحلى فى الرحال رفيق؟

وهل يجتوى القومُ الكرام صحابتى ... إذا اغبرَّ مَخْشِىّ الفِجاج عميق

وأكتم أسرار الهوى فأميتها ... إذا باح مَزّاحٌ بهن بَرُوق[2]

ولقد قال عنترة لعبلة إنه ذكرها فى أحرج أوقاته ، وأعظم مفاخره . ذكرها والسيوف تتصافح ، والرماح تشتجر ، وبلغت به شجاعته وحبه معاً أنه وَدّ أن يقبل السيوف لأنها تبرق كما تبرق ثناياها :

ولقد ذكرتُك والرماحُ نواهلٌ ... منى وبيض الهند تَقْطُر من دمى

فوددتُ تقبيلَ السيوف لأ ... نها لمعت كبارق ثغرِكِ المتبسِّم[3]

وطلب منها أن تسأل المحاربين من قومها عن بطولته وخوضه بحر المنايا :

(١) حضارة العرب . جستاف لوبون ٥٣٩

(٢) الأمالى ٢/٢٥٨ رموق : لاحظ لحظاً خفياً أو حاسد . بروق : مهدد .

(٣) ديوان عنترة ١٥٠

سلى يا عبل قومك عن فعالى　　ومن حضر الوقيعة والطِّرادا
وردتُ الحربَ والأبطالُ حولى　　تهز أكفها السُّمرَ الصِّعادا
وخضت بمهجتى بحر المنايا　　ونار الحرب تتَّقد اتِّقادا (١)

وأقسم بعبلة أنه لولا حبها ما كثر أعداؤه ، وقل أصدقاؤه ، لأن الرجال ينفسون عليه هذه الشجاعة ، وإنما يشجع ليرضى عبلة ويخاطر ليكون أهلا لها :

أيا عبل ما كنت لولا هواك　　قليل الصديق كثير الأعادى
وحقِّك لا زال ظهر الجواد　　مَقِيلى ، وسيفى ودرعى وسادى
إلى أن أدوسَ بلاد العراق　　وأُفنى حواضرها والبوادى (٢)

وكثيراً ما تبرم بالذين عيروه سواد لونه ، وأراد ألا يصرف هذا السواد عبلة عنه ، لأن له ما يعوضه من بيض الخصال :

تعيرنى العدا بسواد لونى　　وبيض خصائلى تمحو السوادا
سلى يا عبل قومك عن فعالى　　ومن حضروا الوقيعة والطرادا (٣)

ولقد يفتخر عنترة ببطولته وبطولة قومه ، ويذكر أنهم قتلوا وأسروا من أعدائهم ، وتركوا نساءهم متفجعات يلطمن الخدود ، وهو فى سبيل تقرير الحقيقة الواقعة لم يكتم عن المرأة ما يستثير إشفاقها على بنات حواء :

سلى عنا الفزاريِّينَ لما　　شَفَيْنا من فوارسها الكبودا
وخلَّينا نساءهم حيارى　　قُبَيْل الصبح يلطمن الخدودا (٤)

(١) ديوان عنترة ٥٧
(٢) ديوان عنترة ٥٣
(٣) الديوان ٥٧
(٤) الديوان ٥٦

ويتخذ عامر بن الطفيل شجاعته وسيلة إلى جدارته بوصال حبيبته :

فلو علمت سُلَيمى علم مثلى غداةَ الروعِ واصلت الكراما (١)

ويقول لها إنك لو رأيت قومك فى الحرب لنعمت عينك :

وإنك لو رأيت أميم قومى غداةَ قُراقرٍ لنَعِمت عينا (٢)

ويحضها على أن تسأل عن بلائه يوم انتصروا على عبس وأسروا هند حبيبة عنترة :

هلا سألت بنا وأنتِ حفيّةٌ بالقاع يوم تورَّعت هند (٣)

وإذا ما عاد من حربه تشوق إلى إعجاب زوجته به ، وسؤالها الصناديد عن إقدامه ، قال فى يوم مَشيف الريح يخاطب زوجته إنها طالق إن لم تسأل الشجعان عن بلاء زوجها :

طُلِّقت إن لم تسألى أىُّ فارس حليلك إذ لاقى صُداء وخَثعَما

أكُرُّ عليهم دعلجاً ولبانُه إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحما (٤)

وود سوّار بن المضرب أن تسأل سلمى سراة الحى عنه من موالين وأعداء لتعلم أنه كريم شجاع إذا لم يجن فإنه نصير للجناة :

ولو سألتْ سَراة الحى عنى على أنى تلوّن بى زمانى

لنَبّأها ذوو أحساب قومى وأعدائى فكلٌّ قد بلانى

بدفعى الذمَّ عن حسبى بمالى وزَبُّونات أشوسَ تيَّحان

---

(١) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ٢
(٢) ملحق الديوان ٢٢
(٣) الديوان القصيدة ٣
(٤) ديوان عامر بن الطفيل الملحق ١٩

وإنى لا أزال أخا حفـاظ   إذا لم أجنِ كنت مجنّ جان (١)

ولقد يكون مشهد الحبيبة وهى جازعة مخافة السبي باعثاً أى باعث على بطولة تحقق النصر ، فقد رأى عمرو بن معديكرب حبيبته لميس تجرى كاشفة عن محاسنها هلعاً وذعراً ، ونساء قومه يجرين ، فهجم على رئيس الأعداء فقتله ، وكسب النصر ، وصور ذلك فى قوله :

لمـا رأيت نسـاءنا   يفحَصن بالمَعزاء شدّا

وبدت لَميسُ كأنهـا   بدر السماء إذا تبـدّى

وبدت محاسنهـــا التى   تخفَى وكان الأمر جِـدا

نازلت كبشَهُم ولم   أرَ من نزال الكبش بُدّا (٢)

وقد عير عامر بن الطفيل عنترة أنه فر من الموقعة وترك عبلة سبية ، فهو يفخر بالغلب ويعير بترك المرأة :

ونجا بعنترة الأغرُّ من الردّى   يهوى على عَجل هُوِىّ الأجدل

وتركتَ عبلة فى السواء لِفتْيةٍ   باتوا على كُتُف الخيول الجوّل

راحوا بهنـد والوجيهة عنوة   يوم الوقاع على نجائب ذمّل (٣)

وليس فى حياة عنترة حسرة كهذه الحسرة التى يصور بها ألمه من سبى عبلة :

---

(١) الأصمعيات ١/٧٣ : زبونات : دفات . أشوس : حصان ينظر بمؤخر عينيه غيظاً أو تكبرا تيجان : فرس يعترض فى مشيه ويميل على قطريه.

(٢) ديوان الحماسة لأبى تمام شرح التبريزى ١/٩٢. المعزاء : الأرض الصلبة. يفحصن : يؤثرن من شدة الجرى . لميس : اسم حبيبته ، وقد برزت كاشفة عن وجهها تشبها بالأمة لتأمن السبي أو رعبا .

(٣) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ١٧. الأجدل : الصقر . نجائب ذمل : نوق سريعة

فالقتل لى من بعد عبلة راحةٌ   والعيش بعد فراقها منكود
يا عبل قد دنت المنية فاندبى   إن كان جفنك بالدموع يجود
يا عبل إن تبكى علىّ فقد بكى   صرف الزمان علىّ وهو حسود
لهفى عليك إذا بقيتِ سَبِيَّةً   تَدْعِينَ عنتر وهو عنك بعيد (١)

وهذا خفاف بن ندبة يباهى بأنه زعيم المنسر الجرىء :

يا هند يا أخت بنى الصّادر   ما أنا بالباقى ولا الخالد
إنْ أمسِ لا أملك شيئاً فقد   أملك أمر المِنْسر الحارد

ثم واصل فخره بحصانه (٢) .

ولقد يضطر المحارب الشجاع إلى الفرار ، فلا يأبه بأحد من الناس إلا حبيبته يكشف لها عن عذره ، قال تميم بن أسد الخزاعى :

الله يعلم ما تركت قتالهم   عن طيب نفس فاسألى أصحابى (٣)

وفصل أوس بن حجر عذره ، وإن كان فى تفصيله إشادة بشجاعة أعدائه بنى عبس وحلفائهم، ودافع عن نفسه بأنه مشهور الإقدام فلا معرة من فراره اليوم :

أجاعلة أم الحُصين خَزاية   علىّ فرارى إذ لقيت بنى عبس ؟
وليس الفرار اليوم عارا على الفتى   إذا جربت منه الشجاعةِ بالأمس (٤)

---

(١) ديوان عنترة ٦٤
(٢) الأصمعيات من مجموعة ولیم بن الورد البروسى ١/٣٥
(٣) حماسة البحترى ٦٧
(٤) ديوان أوس بن حجر ٧ وحماسة البحترى ٢ ، وفى العقد الفريد أنها لعمرو بن معديكرب مع بعض تغيير ١/١٧٢

وكما أشهد الشاعر الحبيبة على شجاعته وقوته أشهدها على وفائه بالعهد، وقناعته عند الغنيمة، وكرمه، وبطولته الخ قال الحادرة :

أُسُمَىّ ويحك هل سمعت بِغَدرةٍ رُفِعَ اللواءُ لنا بها فى مجمع ؟
إنا نعفُّ فلا نُريب حليفنا ونكُفُّ شُحَّ نفوسنا فى المطمع
ونقى بآمن مالنـــا أحسابنا ونُجِرُّ فى الهيجا الرماح وندَّعى (١)

. . . .

وأشهدها على كرمه، وشجاعته، قال عروة بن الورد :

وقد علمت سليمى أن رأيى ورأىَ البخل مختلف شتيت
وأنى لا يُرينى البخل رأىٌ سواء إن عَطِشت وإن رَويتُ
وأنى حين تشتجر العوالى حوالِىَ اللبِّ ذو رأى زميتُ (٢)

وإذا لم يشهدها على محامده فإنه يحدثها بهذه المحامد ليجتذبها . وهذا كثير أيضاً فى الشعر الجاهلى .

على أنه يستمد من حبها شجاعة خارقة، ولا سيما إذا شهدته يصارع أو يحارب فيغلِب وهى تراه، وقد يُغلب إن لم تره، من ذلك أن توبة خرج إلى الشام فمر ببنى عذرة فرأته بثينة، فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك على جميل ولم يكن قد أظهر لها حبه — فقال له جميل : من أنت ؟ قال

---

(١) ديوان الحادرة ٧ والمفضليات ١/٣٤ وحماسة البحترى ٢١٦ الحادرة : لقب قطبة ابن محصن . رفع اللواء : كانوا فى الجاهلية إذا غدر الرجل رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليشهروا به . لانريب : لانغدر . آمن المال : خالصة وشريفه . نجر : نطعن العدو ونترك الرمح فيه . ندعى : ننتسب . لأن الطاعن أو الضارب كان يقول : خذها وأنا ابن فلان أو : وانا الفلانى ليعرف .

(٢) ديوان عروة بن الورد . زميت : وقور .

أنا توبة بن الحمير ، قال : هل لك فى الصراع قال : ذلك إليك ، فشدت بثينة على جميل حلة موروسة فاتزر بها ، ثم تصارعا فصرع جميل توبة ، ثم تناضلا فنضل جميل توبة ، ثم تسابقا فسبق جميل توبة ، ثم قال له توبة : يا هذا ، إنما تفعل ذلك بريح هذه الجالسة ، ولكن اهبط بنا الوادى . فهبطا وتصارعا فصرع توبة جميلا ، ونضله ، وسبقه(١) .

كان الحب إذاً خولة ودافعاً إلى المجد ، وهكذا فهمه العرب ، ومن هنا تمجدوا به ، بل إن الحجاج فى العصر الإسلامى وهو المشهور بجده وبطشه كان رقيقاً كل الرقة فى معاملة نسائه قال له عنبسة بن سعيد : يفدّى الأمير أهله ؟ قال : والله إن تعدونى إلا شيطانا ، والله لربما رأيتنى أقبل رجل إحداهن(٢) ولكن لم نجد عربياً محباً اندفع فى حبه إلى ما يقعد به عن المجد أو ما يصمه بين الرجال ، فى حين نجد أن الإمبراطور قسطنطين constantin فى أوائل القرن الرابع الميلادى ينصاع لعشيقته فيقدم على فعلة شنيعة لا يفعلها أب ، فيقتل ابنه كريسبوس خضوعاً لرغبة حظية فاجرة كانت تستفيد من قتله(٣) وقد يقال فى الدفاع عنه إنه كان مسيحياً صورة لا حقيقة ، ولكن هذا لا يبرئه من الجرم الشاذ، ولا يخفف عنه اللوم ، لأن العرب كانوا وثنيين ولكن لم يستخز عربى فى حبه .

قوة حب الرجل

(١) كانت المرأة المحبوبة ذات تأثير عميق فى قلب الرجل ، يحبها ماوسعه الحب ، قال سويد بن أبى كاهل :

---

(١) الأغانى ١٠/٧٦

(٢) رسالة العشق والنساء من مجموعة رسائل للجاحظ ١٦٥

(٣) Histoire des Papes. I · 260

بسَطت رابعـةُ الحبل لنـا   فبسَطْنا الحبل منها ما اتَّسع(١)

وكأنهم لم يرضهم إلا أن يضرب الحب بجذوره فى أعماقهم فاصطنعوا له مايقويه ، فكان من خرافاتهم أن الرجل والمرأة إذا تحابا ولم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما(٢) وقيل إنهم كانوا يفعلون ذلك ليتذكر كل واحد منهما صاحبه ، وقال العيني : كانت عاداتهم فى الجاهلية أن يلبس كل واحد من الزوجين برد الآخر ، ثم يتداولان على تمزيقه حتى لايبقى فيه لُبس طلباً لتأكيد المحبة(٣) . يقول سحيم عبد بنى الحسحاس إنه كان يشق رداءه ، وإن حبيبته كانت تشق برقعها إبقاء على الحب ، ومن شأن المحب أن ينخدع بهذه الوساوس :

فكم قد شققنا من رداءٍ مُحَبَّرٍ   على طَفْلَة ممكورة غير عانس

إذا شُقَّ بُردٌ شق بالبرد برقع   دَوَالَيْكَ حتى كلنا غير لابس

نروم بهـــذا الفعل بُقْياً على الهوى

وإلفُ الهوى يُغْرَى بهذى الوساوس(٤)

وعجب شاعر آخر من فتور الحب وزواله بعد ماشق برقع حبيبته وشقت رداءه :

شققت ردائى يوم بُرْقَةِ عالجٍ   وأمكنْتِنى من شق برقعك السَّحْقا

فما بال هذا الود يفسد بيننا   ويمحَقُ حبلَ الوصل مابيننا مَحْقا(٥)

(ب) أحب الرجل المرأة حباً قوياً جارفاً ، ذهب بعقله ، حتى لقد

---

(١) المفضليات ١/١٩٠   (٢) المستطرف للأبشيهى ٢/٧٢

(٣) خزانة الأدب للبغدادى ١/٣٨١

(٤) خزانة الأدب للبغدادى ١/٣٨٢ وديوان سحيم ١٩ وربيع الأبرار للزمخشرى ورقة ٣١ مخطوط بمكتبة تيمور .

(٥) السحق : الرقيق

آثر الموت على حبه اليائس الذى لا يبرح ، قال طرفة :

وقد ذهبَتْ سلمى بعقلك كله ـــ فهل غيرُ صَيْدٍ أحرزته حبائله

لعمرى لَمَوتٌ لا عقوبة بعده ـــ لِذِى البث أشفى من هوى لا يزائله [1]

وهو نفسه يشكو لصاحبيه همه ، ويرجوهما أن يصفا لخولة سهده :

يا خليلىَّ قفا أخبركما ـــ بأحاديث تَغَشَّتْنِى وهَمّ

وابلغا خولة أنى أرِقٌ ـــ لا أنام الليل من غير سَدَم

كلما نام خلىٌّ باله ـــ بتُّ للهمِّ نَجِيًّا لم أنم

منع التغميضَ جفنى ذكرها ـــ فهى همى وحديثى والسَّقَم [2]

وكذلك صور معن بن أوس حبه بأنه خيال وسقم لا نظير له [3] ومثله لبيد [4] .

واشتد بالمرار بن منقذ حبه حتى حار أحى هو أم ميت ، وصور الناس حائرين فى أمره يتساءلون أمحموم هو أم مسلول؟ثم قال إن حبيبته داؤه ودواؤه ، ولكنها ضنت عليه بالدواء ، وإنه قتيل غرامها ، فلو أن إخوته قتلوها ثأراً له ما أخطئوا واترهم ، على أنه مع ذلك لن ينساها :

تركتنى لست بالحى ولا ـــ ميتٍ لاقى وفاةً فقُبر

يسأل الناسُ أحُمَّى داؤه ـــ أم به كان سُلالٌ مُسْتَسِر

وهى دائى ، وشفائى عندها ـــ مَنَعَتْهُ فهو مَلْوِىٌّ عَسِر

وهى لو يقتلها بى إخوتى ـــ أدرك الطالب منهم وظفِر

(١) ديوان طرفة ١١٨

(٢) ديوان طرفة ١٤٧ سدم : هم أو هم مع ندم أو غيظ مع حزن .

(٣) ديوان معن بن أوس ٣ ـــ (٤) ديوان لبيد ١٧

ما أنا الدهرَ بناسٍ ذكرها ... ما غدت ورقاء تدعو ساق حرُ[1]

وكذلك صور الحب بالحمى عبدة بن الطبيب لأنه يرعده ويعاوده[2].
أما المرقش الأكبر فقد تخيل أنه المحب الوحيد الذى يميته حبه ، يقول لحبيبته : إذا سمعت بأن محباً قد مات أو أشرف على الموت فثقى أنى هذا المحب الشهيد ، وابكى لمن أسره حبك ولم يقبل منه فدية :

وإذا ما سمعت من نحو أرض ... بمحب قد مات أو قيل كادا
فاعلمى غير علم شك بأنى ... ذاك وابكى لمُصْفَدٍ أن يفادى[3]

(حـ) وإذا ما ذكرها دارت به الأرض ، قال المرقش الأصغر :

صحا قلبه عنها على أن ذُكْرةً ... إذا خطرت دارت به الأرض قائما[4]

وقال حسان إن ذكرها يفقده رشاده كأنه مخمور :

وكَلْتُ قلبى بذكرتها ... فالهوى لى قادح غالب
وكأنى حين أذكرها ... من حُمَيَّا قهوة شارب[5]

٤ — والمحب لهذا تواق إلى أن يدوم قربها ، ويتمنى ألا يرحل أهلها، فإذا ما كان رحيل دعا الله أن يرحل قومه مع قومها ، قال قيس بن الخطيم:

والله ذى المسجد الحرام وما ... جُلِّلَ من يُمْنَةٍ لها خُنُفُ
إنى لأهواك غير ذى كذب ... قد شفَّ منى الأحشاء والشَّغَفُ
ياليت أهلى وأهل أثلةَ فى ... دار قريب من حيث تختلف

---

(١) المفضليات ١/٩١ سلاف : سل . مستمر : ماطن . ملوى : معطوف . ساق حر: ذكر الحمام القمارى، سمى بذلك أخذاً من صوته ويسمى صوته أيضاً (ساق حر) اللسان ١٢/٣٦
(٢) المفضليات ١/١٣٣
(٣) المفضليات ٢/٢٣٢ أن يفادى : ألا يفادى . مصفد : مقيد أسير .
(٤) المفضليات ٢/٤٤
(٥) ديوان حسان ١٦

يا رب لا تبعدنَ ديار بنى عذرة حيث انصرفت وانصرفوا [١]

(د) وإذا ما ارتحلت لم يطق صبراً ، وود لو يلحق بها ، قال عنترة :

ألا هل ترى إن شط عنى مزارها وأزعجها عن أهلها الآن مزعج

فهل تبلغنّى دارها شَدَنِيَّةٌ هَمَلَّعَةٌ بين القفار تَهَمَّلج [٢]

ومثل ذلك يتمنى علقمة (٣) .

(هـ) وحب الشاعر لحبيبته حبب إليه أرضها ، لأنها مقرها وموطنها ، فهو يضفى حبه على ماحولها حتى الجماد ، قال القتال الكلابى :

لعمرك إنى لأحب أرضاً بها (خَرْقاءُ) لو كانت تزار [٤]

وقال سَوّار بن المضرّب إنه يحب عمان ، لأنها موطن سليمى ، ويحب ناحية اليمن ، لأن منزلها هناك :

أُحِبُّ عُمانَ من حبى سليمى وما طبى بحب قرى عُمان ؟

علاقةَ عاشق وهوًى متاحا فما أنا والهوى متدانيان

فإنّ هواى ما عَلِمَتْ سليمى يمانٍ إن منزلها يمانى [٥]

(ز) وإذا ما أومض برق من سمائها خفق قلبه وأرق ليله ، وإذا ما شم ريح الخزامى ذكره بنسيم بلادها ، قال عنترة :

إذا خفق البرق من حيّهم أرِقْتُ وبتُّ حليف السهاد

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ خنف : جمع خنيف وهو ثوب من كتان أبيض غليظ

(٢) ديوان عنترة ٣٢ شدنية : ناقة يمنية . هملجة : سريعة . تهملج : تسرع و تنقاد

(٣) شعراء النصرانية ٤٩٩ (٤) معجم البلدان ١٤٠

(٥) الأصمعيات لوليم البروسى ٧٣/١

وريح الخُزَامَى يذكِّر أنفى نسيمَ عَذَارَى وذات الأيادى[1]

(ح) لكن حبه العنيف قد يفقده الرشد، فيقدم على ما يهلكه أو يوقر بالضغن صدر حبيبته، مثل ذلك أن خزيمة بن نهد علق بفاطمة بنت عامر الملقب بيذكر، وتغزل بها، كقوله:

إذا الجوزاءُ أردَفَتِ الثُّريا ظننتُ بآل فاطمة الظنونا
وحالت دون ذلك من همومى هموم تُخرج الشَّجَن الدفينا
أرى ابنةَ يذكُر ظعنَتْ فحلَّتْ جنوب الحَزْنِ يا شحطا مبينا

وخطبها إلى أبيها فرفض أن يزوجه، فقتله غيلة ثم قال:

فتاة كأن رضاب العصير بفيها يُعَلُّ به الزنجبيل
قتلت أباها على حُبها فتبخل إن بُخِّلَتْ أو تنيل[2]

(ط) ويلج الحب بالشاعر، فيهيجه الحمام الذى ينوح على إلفه، ويشاركه الشاعر مشاركة وجدانية، لأن بينهما رابطة الألم والحرمان من الحبيب.

قال عنترة:

وما شاق قلبى فى الدجى غير طائر ينوح على غصن رطيب من الرند
به مثل ما بى فهو يخفى من الجوى كمثل الذى أخفى ويبدى الذى أبدى
فبالله يا ريح الحجاز تنفسى على كبد حرى تذوب من الوجد[3]

وقال الأعشى:

ويوم الخَرجِ من قَرْماء هاجت صباك حمامةٌ تدعو حماما[4]

(١) ديوان عنترة ٥٢ الخزامى: نبت زهره أطيب الأزهار. عذارى وذات الأيادى: موضعان
(٢) الأغانى ١١ / ١٥٤ (٣) ديوان عنترة ٦٥
(٤) ديوان الأعشى ١٣٤

وقال المرار الفقعسي :

تصيح إذا هجعت بدير قوما حمامات يزدن الليل طولا
إذا ما صِحْنَ قلت أحس صبحا وقد غادرن لى ليلا ثقيلا (١)

وعلى هـذا التجاوب بين الشاعر المحب والحمام النائح قال أبو الحسن النوري فيما بعد :

رب ورقاء هتوف فى الضحا ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفا ودهرا سالفا وبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها وبكاها ربما أرقنى
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضا بالجوى تعرفنى
أتراها بالبكا مولعة أم سقاها البين ما جرعنى (٢)

وهو يمتاز من شعراء العصر الجاهلى ببسطة القول وتوليد المعانى وقوة المشاركة الوجدانية بينه وبين الحمامة .

الوشـــاة

يأبى بعض الناس إلا أن يرنقوا على المحب صفوه ، غيرة منه أو حسدا له ، فيجدون فى الوقيعة بينه وبين حبيبته ، وهم أعداء المحب وأعداء المحبوبة . لذا أكثر الشعراء من التبرم بهم ، وإن كان ذو الأصبع العدوانى قد غاظهم هو وحبيبته بتوبيخهم وتكذيبهم ، والثبات على صفاء غير مشوب :

فقد غَنِينا وشملُ الدار يَجْمعنا أطيع ريّا وريّا لا تعاصينى
نرمى الوُشاة فلا نُخطِى مقاتلهم بخالص من صفاء الود مكنون (٣)

---

(١) معجم البلدان ٤/١٢٩ (٢) الكشكول للعاملى ٣٠٩
(٣) الأغانى ٣/١٠٤ والأمالى ١/٢٥٥

ولكن حبيبة قيس بن الحدادية صدقت الواشي لأنه بارع في اختلاقه فبكت ، فدعا عليه قيس أن يبكيه الله حتى يجف دمعه ، وأكد لحبيبته أنه لم يطلع أحداً على ما بينه وبينها :

بكت من حديث بثه وأشاعه ورصّعه واش من القوم راصع
بكت عينُ من أبكاك لا يعرف البكا ولا تتخالجك الأمور النوازع
فلا يسمَعن سِرّي وسِرّك ثالث ألا كلُّ سِرٍّ جاوز اثنين شائع
وكيف يشيع السرُّ مني ودونه
حجاب ومن دون الحجاب الأضالع(١)

وكذلك فعلت قُتيلة محبوبة الأعشى ، فقد أخلفت موعده ولم يكن الخلف من شيمتها ، وهو لا يشك في أن الوشاة هم الذين غيروها :

أخلفتني به قُتَيْلَةُ ميعا دى وكانت للوعد غير كذوب
كنت أوصيتها بألا تطيعى فىّ قولَ الوُشاة والتخبيب(٢)

وقطعت شعثاء محبوبة حسان ما كان بينهما من حب ، لأنها استمعت إلى الوشاة :

قد أدرك الواشون ما حاولوا فالحبلُ من شعثاء رَثٌّ رَهَام(٣)

وكذلك هجرت حاتما حبيبته متأثرة بالوشاة (٤)

لكن الأعشى لم يصدق الوشاة فعصاهم وسعى إلى من يحبها :

ومثلك خَوْدٍ بادن قد طلبتها وساعيتُ مَعصيًّا إليها وشاتِها(٥)

---

(١) الأغاني ١٣/٦ (٢) ديوان الأعشى ٢١٩ وشعراء النصرانية ٣٧٤
(٣) ديوان حسان ١٠٠ رهام : ضعيف .
(٤) ديوان حاتم ١٢ (٥) لسان العرب ١٩/١٠٩

لها حاجب بن حبيب الأسدى فقد صدّهم وهجر (١).

واحترق عروة بن حزام بالوشاية والواشين، فقد وشى به واشيان فأيأسهما من أن ينالا منه أو من عفراء، وغاظهما بأن حبها قد هزله وقرح كبده وأبكى عينيه، فهما يريدان أن يزول حبه، فأكد لهما أنه لن يزول، ثم زادهما غيظا بأن لعن الوشاة وفضولهم، وترنيقهم على المحبين، وعجب من ترصد الوشاة له واهتدائهم إليه من بعيد:

فيا واشيَيْ عفراء ويحكما بِمَن ... وما وإلى من جئتما تَشِيان ؟
بمن لو أراه غائباً لفديْتُه ... ومن لو رآنى غائباً لفدانى
أغرَّكما منى قميصٌ لبسته ... جديداً وبُرْداً يُمْنَةٍ زَهَيَانِ
متى تَكشِفا عنى القميص تَبَيَّنا ... بى الضُّرَّ من عفراء يا فتيان
إذن تريا لحماً قليلا وأعظما ... بَلِينَ وقلباً دائم الرَّجَفان
على كبدى من حب عفراء قُرْحةٌ ... وعيناى من وجدى بها تَكِفان
ألا لعن الله الوشاةَ وقولَهُمْ ... فلانةُ أضحت خُلَّةً لفلان
إذا ما جلسنا مجلساً نستلذه ... تواشَوْا بنا حتى أمَلَّ مكانى
تكنَّفنى الواشون من كل جانب ... ولو كان واشٍ واحدٌ لكفانى
ولو كان واش باليمامة أرضُهُ ... أحاذره من شؤمِهِ لأتانى (٢)

(١) المفضليات ٢ / ١٧٠
(٢) تزيين الأسواق ٧٧ والنوادر ١٦٠

العــذّال

يقول أبو بكر محمد بن داود الظاهرى :

« يبتلى المحب بمن يلوم فى حُبه ، ويريد أن يثنيه عن حبه ، فإن كان حبه مكيناً ارتد عنه العاذل خاسئاً وهو حسير ، ويتوهم بعض المحبين أن العذل زادهم تشبثا بالمحبوب ، والحق أنه لم يزدهم شيئا ، وإنما أثار العذل فى نفوسهم إشفاقا على من عوتبوا فى محبته، فيخافون أن يتأثروا بالعذل فيقاوموا ويتشبثوا بالمحبوب[1] » . لكن العذل لا يثير الإشفاق فحسب ، بل قد يزيد الحب ، لأن النفس مولعة بالعناد ، وهذا العناد يضخم محاسن المحبوب ويجسمها ، ويعظم من قيمة الوفاء فى نظر المحب .

قال المزرد بن مفقد إن عواذله مللن نصحه ، ولكن لم يزايله حب سلمى إلا بعد المشيب :

صحا القلب عن سَلْمَى وملّ العواذل وما كاد لأْياً حُبُّ سلمى يُزايل

فؤادى حتى طار غَيُّ شبيبتى

وحتى علا وَخْطٌ من الشيب شامل[2]

ووجد القتال الكلابى أن السلامة والراحة فى أن يقلل صاحباه من لومه ، فإنه لا يعذل أحداً فلا يحب أن يعذله أحد ، ورجاهما أن يستحييا من عذله :

يا صاحبَيَّ أقِلاّ بعض إملالى لا تعذلانى فإنى غير عَذّال

واستحييا أن تلوما أو ألومكما إن الحياء جميل أيّما حال[3]

---

(١) الزهرة لابن داود الظاهرى ٣٢٥

(٢) المفضليات ١/٩١ لأيا : بعد جهد ومشقة . فؤادى مفعول يزايل وخط الشيب : انتشاره فى الرأس .

(٣) معجم البلدان ٢/١٤٠

أما سوَّار بن المضرب فقد جبه عاذلتيه بأنه لا يطيعهما ، وطلب منهما أن تكفا عن عذله لأنه لاجدوى فيه ، وإنما الجدوى أن تعللاه بذكر حبيبته :

أعاذلَتَيَّ فى سلمى دعانى فإنى لا أطاوع من نهانى
ولو أنى أطيعكما بسلمى لكنت كبعض من لا تُرْشِدان
دعانى من أذاتكما ولكن بذكر المَذْحِجِيَّةِ عللانى[1]

كتمان الحب

١ — لماذا يكتم المحب حبه :

هؤلاء وشاة يسعون بين المحب وحبيبته ، وهؤلاء عذال يلومونه أو يلومونها ، فالخير له ولها أن يكتم حبه عنهم ، ولكن هل يستطيع أن يكتم ؟ إن دلائل الحب لاتخفى ، وإن نظراته وإشاراته تنم عليه .

يقول ابن حزم « وللحب علامات يقفوها الفطن ، أولها إدمان النظر ، والعين باب النفس ، تنقب عن سرائرها ، وتعبر عن ضمائرها ، وتعرب عن بواطنها ، فترى الناظر لايطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب ، وينزوى بانزوائه ، ويميل حيث مال[2] » .

لكنه لا يستطيع أن يكتم حبه عمن أحبها ؛ لأن الكتمان « جبن قد يودى بالحب المكتوم[3] » . بل لأن الحب كما يقول توماس ديكر T . Dekker : مثل السن لا يمكن إخفاؤه[4] .

(١) الأصمعيات . وليم البروسى ١/٧٣
(٢) طوق الحمامة لابن حزم ١٠
(٣) الزهرة لابن داود الظاهرى ٥١
(٤) Benhams New book of Quotations. P 108

٢ — مظاهر كتمان المحبين لحبهم :

لهذا أقسم عروة بن حزام أنه لم يكشف لصديق عن سره ، لكنه قال له يوما — وهما على ناقتيهما — مالى أصبر على زفرات الضحا ولا أصبر على زفرات الليل ؟

فوالله ما حدَّثتُ سرك صاحبا أخاً لى ولا فاهت به الشفتان
سوى أننى قد قلت يوما لصاحبى ضُحًا وقَلُوصَانا بنا تخِدان
تحملت زَفْرات الضحا فأطقتها ومالى بزفرات العشى يدان (١)

وعنترة معجب بتجلده وكتمانه والتلبيس على عذاله وأعدائه :

إذا لعب الغرام بكل حُرٍّ حمدت تجلدى وشكرت صبرى
وفضلت البعاد على التدانى وأخفيت الهوى وكتمت سرى
ولا أبقى لعذالى مجالا ولا أشفى العدو بهتك سترى (٢)

ويكرر ذلك (٣)

ولقد يتسلل الواشى أو العاذل إلى الشاعر بأنه مخلص أمين ، يريده أن يبوح له بسره ، فيرده المسئول حيران لا يدرى شيئاً ، قال جابر ابن الثعلب الطائى :

ومُسْتَخْبِرٍ عن سِرِّ ليلى رددته بعمياء عما سال غير يقين
فقال انتصحنى إنى لك ناصح وما أنا إن نبأته بأمين
وقد علمَتْ ريًا على النأيِ أننى لمُسْتَوْدَعِ الأسرار غير خئون (٤)

وكتم عطارد بن مَرّان حبه وإن دمعت عيناه (٥) .

---

(١) النوادر لأبى على القالى ١٦٠ وتزيين الأسواق . داود الأنطاكى ٧٨
(٢) ديوان عنترة ٨١ (٣) الديوان ٣٩
(٤) حماسة البحترى ٢٢٥ (٥) معجم البلدان ٢ / ١٨٩

٣ — لكن الحب كثيراً ما يعجز عن الكتمان . وكيف يكتم عاطفة غلابة لا طاقة له باحتباسها أو إخفاء مظاهرها ؟

يقول عنترة إنه عاجز عن كتمان حب تنطق آثاره :

وهيهات يخفى ما أكن من الهوى ‏ ‏ ‏ وثوب سقامى كلَّ يوم مُجَدَّد
أقاتل أشواقى بصبرى تجلدا ‏ ‏ ‏ وقلبى فى قيد الغرام مقيد[١]

ويقول مرة أخرى إنه كان يخفى حبها ، ولكنه الآن يبوح به :

وقد كنت تخفى حب سمراء حِقْبَةً ‏ ‏ ‏ فبُح لا نَمنها بالذى أنت بائح[٢]

تبادل الحب

١ — الرجل العربى أهل لأن تحبه المرأة :

تبين مما سبق أن العربى كان يتحلى بصفات نفسية تأخذ بمجامع قلب المرأة ، وكان فيه جمال أيضاً ، حتى لقد كان بعض الرجال يتعمم بمكة كيلا تفتتن النساء بجماله ، منهم على سبيل التمثيل « حنظلة بن عثمان ، وزيد والحضر ، والزبرقان ، وسبيع الطهوى ، وأعفر اليربوعى ، وقيس ابن حسان بن عمر ، وزيد الخيل ، وعمر بن حممة ، وقيس بن سلمة ، وقيس بن الخطيم ، وامرؤ القيس بن حجر » (٣) .

وقصة عمر بن الخطاب مع نصر بن سيار مشهورة (٤) ، وهى دليل على جمال بعض الرجال إلى درجة تخشى معها الفتنة . فإذا كان الرجل قد أحب المرأة فإنها أيضاً قد أحبته ، ومن الطبيعى أن يفى كل منهما لصاحبه ، « لأن وفاء الإنسان لمن يفى له فرض لازم وحق واجب على المحبوب ،

(١) ديوان عنترة ٧٤
(٢) ديوان عنترة ٤٢
(٣) المحبر لابن حبيب ٢٣٢
(٤) الطبقات الكبير ١/٢٠٤

لا يحول عنه إلا خبيث المعتقد لا خلاق له (١) ،

٢ — مبتهجاً بسعده :

ماذا يريد المحب غير الوصال ؟ إنه لا يريد غيره ، فإذا ما وصلته حبيبته انتشى وطرب وسعد ، وصور سعادته فى تصوير جميل ، وإذا ما قلته وصدت عنه ابتسر واكتأب واسودت الحياة فى عينيه ، وضج بشعر باك حزين .

يقول بارنفيلد Barnfild : « إذا ما اقترن السرور بالحب كان نعيما ، وإذا ما اقترن به الألم كان جحيما [٢] » .

يقول الأعشى إنها كانت تواصله وتعصى عواذلها :

إذ هى الهمُّ والحـديث وإذ   تَعْصِى إلىَّ مقالة العُذَّال [٣]

ويقول طرفة إنها كانت تمنيه ، وتحقق ما تُمـنِّى :

ديار سليمى إذ تصيدك بالمنى   وإذ حَبْلُ سلمى منك دانٍ تواصله
وإذ هى مثل الرِّئم صيد غزالُها   لهـا نظرٌ ساجٍ إليك تواغله
غنينا وما نخشى التفرقة حقبة   كلانا غرير ناعم العيش باجله
ليالى أقتاد الصِّبا ويقودنى   يجول بنا ريعانه ونجاوله [٤]

وربما تعد وتفى بوعدها ، قال الأعشى :

أخلفتـنى به قُتَيْلَةُ ميعـا   دى وكانت للوعد غير كذوب

(١) طوق الحمامة لابن حزم ٧٤
(٢) Benhams New Book of Quotations. P. I7
(٣) ديوان الأعشى .
(٤) ديوان طرفة ٣٨ تواغله : تسارقه . باجله : حسن

كنت أوصيتها بألا تطيعى   فىّ قول الوشاة والتَّخْبِيب[1]

وقد تحدث بعض الشعراء عن حب حبيباتهم لهم فى تصوير عابر عجلان، فسلامة بن جندل يقول إن الطلل لأسماء التى تهوى أن يواصلها :

لأسماء إذ تهوى وصـــالك ، إنها
كذى جُدَّة من وحشِ صارةَ مُرْشِقِ[2]

وقيس بن الحدادية اعتزم الرحلة فبكت حبيبته ، واستحلفته أن يبين لها موعد عودته ، فلما لم يستطع غضبت وتلثمت وبكت :

فقالت وعيناها تفيضان عَبْرَةً   بأهلى بَيِّنْ لى متى أنت راجع ؟

فقلت لها تالله يدرى مسافر   إذا أضمرته الأرض ما الله صانع

فشَدَّت على فيهـــا اللثام وأعرضت
وأمعن بالكحل السحيق المدامع[3]

ولما اعتزم أهل الحارثية حبيبة سلامة بن جنـــدل أن يرحلوا ، حزنت لأنها لا تريد فراقه :

هاج المنازلَ رحلة المشتاق   دِمَنٌ وآياتٌ لبثن بواقى
للحارثية قبل أن تنأى النوى   بهمو وإذ هى لا تريد فراقى[4]

وعبلة وعدت عنترة أن يلقاها غداً بمدرج اللوى[5] .

وقد قص بشامة بن عمرو ما حدث إذ ارتحل ، وصور حبيبته تسائله وتألم من رحلته وتبكى :

---

(١) شعراء النصرانية ٣٧٤ ومعجم البلدان ٣/٤٣٦ وديوان الأعشى ٢١٩

(٢) ديوان سلامة بن جندل ١٦ . المرشق : الظبية التى تمد عنقها لتنظر .

(٣) الأغانى ١٣/٧   (٤) ديوان سلامة بن جندل ١٢

(٥) ديوان عنترة ٧٠

هجرتَ أمامة هجراً طويلا ... وحمَّلكَ النأى عبئاً ثقيلا
وحُمِّلتَ منها على نأيها ... خيالاً يوافى ونَيْلاً قليلا
ونظرةَ ذى شَجَنٍ وامقٍ ... إذا ما الركائب جاوزن ميلا
أتتنا تسائل ما بثُّنا ... فقلنا لها : قد عزمنا الرحيلا
فبادرتاها بمستعجلٍ ... من الدمع يَنْضَحُ خداً أسيلا(١)

والمرأة هى المرأة ، تحب فتبتدع الحيلة ، وتخترع الوسيلة، حيلة تخفى، ووسيلة لا تنكشف إلا للحبيب ، فقد تمارضت حبيبة عنترة ابزوروها، فزارها فأسقمته نظراتها الساحرة :

شكت سَقَماً كيما تعاد وما بها ... سوى، فَتْرة العينين سُقْمٌ لعائد(٢)

ولقد يصطبغ حبها بصبغة أخرى فتبين آثاره ولا يبين، كأن تحرص على سلامة الحبيب ، فتخاف عليه من الغارة أن يقتل فتحرم منه ، ولكنه يعصيها ويغامر ، قال عنترة :

بَكَرَتْ تُخَوِّفنى الحتوف كأننى ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنية مَنْهَلٌ ... لا بدّ أن أُسْقَى بكأْس المنهل(٣)

وقد يقال إن هذا تخيل من الشاعر يريد أن يتطرق منه إلى الفخر بشجاعته ، وأنا لا أنكر ذلك ، ولكنه على الحالين تصوير لإشفاق الحبيبة على حبيبها سواء أكان حقيقياً أم متخيلا. وهذه قصة لا تخيل فيها فقد أغار رجل من همدان اسمه حريم على إبل وخيل لعمرو بن براق ،

---

(١) المفضليات ١/٥٤ : وامق : شديد الحب . ما بثنا : ما حالنا . بادرتاها : الضمير عائد على عينيها ولم يسبق ذكرها . ينضح : يبلل . الخد الأسيل : اللين المستوى الرقيق .
(٢) ديوان عنترة ٧٣ فترة العينين : فتور النظرات وسحرها .
(٣) ديوان عنترة ١٢٠

وذهب بها ، فأتى عمرو امرأة كان يهواها فأخبرها بما حدث ، وأعلمها أنه يريد الغارة على حريم ، فقالت له : ويحك لا تتعرض لتلفاته فإني أخافه عليك ، فخالفها ، وأغار عليه فاستاق كل شيء له . فأتاه حريم يطالب أن يرد عليه ما أخذه منه فقال : لا أفعل ، وأبى عليه فانصرف . وفي ذلك يقول عمرو بن براق :

تقول سليمى لا تَعَرَّضْ لتَلْفَةٍ ... وليلك من ليل الصعاليك نائم

ثم افتخر بسيفه وشجاعته وقلة نومه (١) .

لكن تبادل الحب ليس قاعدة ، فقد يحب الرجل من لا تحبه ، وقد حاول أن يعلل ذلك ابن حزم في قوله إن المحبة ربما لا تتساوى عند المتحابين ، لأن بعض النفوس قد تكتنفها أعراض ساترة وحجب محيطة فلا تحس بالجزء الذى كان متصلا بها قبل حلولها فى هذا الجسم ، ولو تخلصت لتساويا فى الاتصال والحب ، ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها فى المجاورة ، طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشتهية لملاقاته جاذبة له(٢) ، وهذا التعليل مشتق من نظريته التى تحدثنا عنها . ولكن الواقع أن المرأة ربما لا تجاوب الرجل حبه ، لأنه لا يحقق مثلها الأعلى أو لأنها مشغوفة بغيره ، أو لغير هذين من الأسباب ، والأعشى يصور هذه الحالة تصويراً لطيفاً فى قوله :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وعُلِّقَتْ رجلا ... غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل

وعُلِّقَتْهُ فتاةٌ ما يحاولها ... ومن بنى عمها مَيْتٌ بها وَهِل

وعلقتنى أُخَيْرَى ما تلائمنى ... فاجتمع الحب حباً كله تَبِل

فكلنا مُغْرَم يَهْذِى بصاحبه ... ناءٍ ودان ومخبولٌ ومختبل(٣)

(١) الأغانى ٢١/١١٣ — (٢) طوق الحمامة ٧

(٣) ديوان الأعشى ٤٣

وليس أقتل فى نظر المحبين من حب لا مبادلة فيه ، قال طرفة إن الموت — وهو أقسى عقوبة — أهون منه :

لعمرى لموت لا عقوبة بعده ... لذى البثِّ أشفى من هوًى لا يزائله

فوجدى بسلمى مثل وجد مرقش ... بأسماء إذ لا تستفيق عواذله

قضى نحبه وَجداً عليها مرقش ... وعُلِّقتُ من سلمى خَبَالا أماطله[1]

ولكن الشعراء الجاهليين ، أقلوا من تصوير الحبيبات مبادلات لهم حباً بحب ، وأعتقد أن الذوق العربى كان ينفر من ذلك ، لأن العرب حراص على إظهار المرأة بمظهر البخيلة الممتَّعة البعيدة المنال ، وهم يجدون فى تصويرها طالبة للرجل أو متهالكة عليه غضـًا من حيائها وأنوثتها ، وإعجاباً من الرجل بنفسه ، لأنه يتغزل فى شخصه لا فى حبيبته .

وإذا كان عمر بن أبى ربيعة قد أكثر من هذا نحو قوله :

قالت لِتِربٍ لها تحدثها ... لَنُفْسِدَنَّ الطواف فى عمر

قومى تصدَّىْ له ليعرفنا ... ثم اغمزيه يا أخت فى خَفَر

قالت لها قد غمزته فأبى ... ثم اسبَطَرَّتْ تَسْعَى على أثرى[2]

وكرر مثل ذلك[3] ، فقد كان خارجاً على الذوق العربى حتى فى العصر الإسلامى ولذا استهجن كُثَيِّر قوله : « ثم اسبطرَّت تسعى على أثرى » ، وفى رواية أخرى : « ثم اسبطرت تشتد فى أثرى » . وقال : « لقد أسأت

(١) ديوان طرفة ١٠٠ خبال : فساد عقل .

(٢) الأغانى ١/١٠٣

(٣) الأغانى ١/١١٩ ، ٩٤ ، ٨٥

وقلت الهجر ، ولو أنك وصفت بهذا هرة أهلك لكنت قد أسأت إليها ، وإنما توصف الحرة بالحياء والإباء والالتواء والبخل والامتناع[1] .

وقال ابن عتيق لما أنشده أبياتاً منها

قالت الصغرى وقد تيمتها   قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟

أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك ، وكان ينبغي أن تقول : قلت لها فقالت لي ، فوضعت خدي فوطئت عليه[2] .

(١) الأغاني ١/١١   (٢) الأغاني ١/١١٩

الفصل السابع

الأسلوب والمعنى

خصائص الأسلوب

١ — يتميز أسلوب الغزل بالرقة والعذوبة والطلاوة ، وتخير الكلمات الفنية بالعاطفة المثيرة للذكريات ، لأن الغزل ترجمان عن عاطفة الحب ونابع منها ، وهي لا يلائمها إلا هذا الضرب من المقال .

لذا نجد أسلوب الشاعر الواحد يتباين في القصيدة الواحدة ، فيرق ويعذب في الغزل ، ويضخم ويفخم في الفخر أو المدح أو الهجاء أو وصف الصيد مثلا .

ومن أمثلة ذلك :

تغزل امرؤ القيس ووصف الوحش في قصيدة واحدة ، فكان سهلا ليناً وادعاً في غزله ، وكان ضخماً متعالياً في وصفه :

غَشيت ديار الحى بالبكرات ... فعارمةٍ فبُرقة العِيَرات

. . . .

ظللت ردائى فوق رأسى قاعداً ... أعد الحصى ما تنقضى عبراتى

أعِنى على التّهمام والذِّكَرات ... يبِتْن على ذى الهم معتكرات

ثم ينتقل إلى وصف الوحش وصيده :

أرنّ على حُقْبٍ حيال طَروقة ... كذَود الأجير الأربَعَ الأشرات

ضنيفٍ بتجميع الضرائر فاحش ... شتيم كذَلْق الزُّج ذى ذَمَرات
ويأكلن بُهْمَى جَعْدةً حبشية ... ويشربن بَرْد الماء فى السَّبرات[1]

ويستمر فى أسلوبه هذا .

ونجد مثل هذا عند طرفة ، فهو يتغزل بقوله :

وفى الحى أحوى ينفض المَرْدشادن ... مُظاهر سِمْطَى لؤلؤ وزبرجد
وتبسم عن ألمى كأن منورا ... تخلل حر الرمل دِعص له ند
ووجه كأن الشمس حلت رداءها ... عليه نقى اللون لم يتخدد

وفى القصيدة نفسها يصف الناقة بمثل قوله :

وإنى لأمضى الهم حين احتضاره ... بعوجاء مرقال تروح وتغتدى
أمون كألواح الإران نسأتُها ... على لاحب كأنه ظهر بُرْجد
صُهابية العثنون مُؤْجَدَة القَرا ... بعيدة وخد الرجل موّارة اليد[2]

ويطول القول لو أكثرنا من النصوص الدالة على هذا ، وفى الإشارة غنية .

ومن البديهى أن الغزلين الذين لم يصلنا من شعرهم غير الغزل مثل عروة بن حزام يتميز أسلوبهم بالرقة والسهولة

٢ — وكثيراً ما يجنح الشعراء الغزلون إلى أسلوب قصصى يصورون

---

(١) ديوان امرىء القيس ٥٧ أرن : صوت يريد حمار الوحش . الحقب : الأتن الوحشية البيض الأعجاز . حيال : ج حائل لم تحمل فى سنتها . طروقة : مستعد للضراب . الأشرات : القويات . زلق الزج : حد الزج الأسفل . ذو ذمرات : صاحب زجر ودفع .

(٢) ديوان طرفة ٧ — ١٦ عوجاء : ناقة ضامرة . مرقال : شديدة الإسراع . الإران : تابوت كانوا يحملون فيه الموتى شبه الناقة فى سعة جنبيها وشدة خلقها به . نسأتها : زجرتها . البرجد : كساء مخطط . صهابية العثنون : الوبر الذى تحت لحييها تخالط بياضه حمرة . مؤجدة : موثقة . القرا : الظهر .

به عواطفهم ، ويصفون لقاءهم لحبيباتهم ، ويذكرون ما دار فى اللقاء ، كما نجد فى غزل امرئ القيس والأعشى وسحيم وغزل عروة بن حزام .

٣ — وأسلوبهم موجز ، إذلم يعنوا إلا بالخطوط البارزة ، ولم يحفلوا بالتفاصيل ، ولو أنهم عنوا بها فذكروا كثيراً مما أهملوا أو بسطوا القول فيما أغفلوا كما يفعل القُصَّاص الغربيون ، ولو أنهم عددوا الشخصيات وأداروا على ألسنتها أنواعاً من الحديث ، وأجروا أحاديث على لسان صواحب الحبيبة مثلا ، لو أنهم فعلوا ذلك لخلفوا شعراً قصصياً رائعاً .

ولست أقصد بالإيجاز هذه النواحى البلاغية من حذف وقصر وغيرهما ، إنما أريد الإيجاز الذى يدمج المعانى ويركزها ، ويكتفى باللمحة ويدع التفصيل ، ويعبر فى صور متلاحقة ليس بينها فترة أو سكون أو فاصل .

مثل قول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجل

ففى هذين البيتين صور عدة متلاحقة ، والتعبير عنها موجز ذلك أن الأعشى لم يلبث أن دعا نفسه إلى توديع هريرة على مافى التوديع من مرارة وألم، حتى ألحق بهذه الصورة صورة أخرى هى أن الركب وشيك الرحلة ، ثم ألحقها بصورة ثالثة هى أنه استبعد أن يطيق موقف الرحيل، ثم وصفها بأنها غراء ، وألحق الصفة بثانية أنها فرعاء ، وبثالثة أنها صقيلة ، وبرابعة أضافت إلى هذه الصور حركة وحياة أنها تمشى متمهلة مترفقة الخطا كما يمشى الوجى فى طريق موحل أو كما يمشى الوجى وهو خائف يترقب (الوجِل أو الوحِل) .

٤ — ولقد يحاكى بعضهم بعضا فى طريقة الأداء ، إعجاباً بها .

ومما يكشف عن المحاكاة أن يتشابه الأسلوبان كما مر فى أسلوب

المسيب والأعشى ، وفى أسلوب المرقش والأسود بن يعفر ، وما أشك فى أن هذا الأسلوب الذى ذكر فيه أداة نفى ويذكر بعدها شىء ، ثم يوصف هذا الشىء ، ثم يجىء الخبر اسم تفضيل مسبوق بالباء ، ما أشك فى أن هـذا الأسلوب نادر فى اللغة العربية ندرة تخولنى أن أحكم بأن الشاعر اللاحق قد حاكى فيه السابق .

وذلك كقول قيس بن الحدادية :

وما إن خذول نازعت حبل حابل ... لتنجو إلا استسلمت وهى ظالع
بأحسن منها ذات يوم لقيتها ... لها نظر نحوى كذى البث خاشع
فما نُطفة بالطود أو بصَرية ... بَقيـة سيل أحرزتها الوقائع
يطيف بها حرانُ صادٍ ولا يرى ... إليها سبيلا غير أن سيطالع
بأطيب من فيهـــا إذا جئت طارقاً
من الليل واخضلت عليك المضاجع(١)

ثم قول الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مُسبِل هطِل
يضاحك الشمسَ منها كوكب شرق ... مؤزّر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ... ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل(٢)

ثم اقتفى سحيم أثرهما أو أثر أحدهما فى قوله :

فما بيضة بات الظليم يَحُفُّها ... ويرفع عنها جُؤجؤاً متجافيا
ويجعلها بين الجناح ودَفّه ... ويُفرشها وَحفاً من الزِّفِّ وافيا
فيرفع عنها وهى بيضاء طلّةٌ ... وقد واجهت قرناً من الشمس ضاحيا
بأحسن منها يوم قالت :أراحلٌ ... مع الركب أم ثاوٍ لدينا لياليا ؟(٣)

(١) الأغانى ١٣ / ٦ خذول : ظبية تعطف على ابنها . اخضلت : نعمت .
(٢) شعراء النصرانية ٣٦٧ كوكب شرق : زهر أبيض .
(٣) ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس ١٨ . الزف : الريش . وحفا : أسود .

وفى قوله :

وما دميـة من دُمَى مَيْسَنَـا ن مُعْجِبة نَظَراً واتصـافا
بأحسن منهـا غداة الرحيـ ل قامت تُرايك وَحْفاً غُدافا[1]

وكذلك صنعت الخنساء وإن كان أسلوبها فى الرثاء :

فما عَجُول على بَوٍّ تطيفُ به قد ساعدتها على التحنان أظآر
ترتع مارتعت حتى إذا ادَّكرت فإنما هى إقبـال وإدبار
لاتسمن الدهرَ فى أرض وإن رُبعت فإنما هى تحنـان وتجسار
يوماً بأوجد منى يوم فارقنى صخر وللدهر إحلاء وإمرار[2]

ولقد يكون الاتفاق فى بعض التعابير دالا على المحاكاة أيضاً مثل قول النابغة .

لو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الإله صرورة متعبد
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ولخاله رشداً وإن لم يرشد

وقول ربيعة بن مقروم :

لو أنها عرضت لأشمط راهب فى رأس مشرفة الذرى متبتل
جأر ساعات النهار لربه حتى تخدد لحمه مستعمل
لصبا لبهجتها وحسن حديثها ولهمَّ من ناموسه بتنزل

فالشطر الأول من البيت الأول واحد فى قول النابغة وقول ربيعة ، وفى البيت الثالث اتفاق فى (حسن حديثها) وتشابه بين (لرنا لرؤيتها) و (لصبا

(١) ديوان سحيم ٣٤ ميسنان : موضع بالشام . وحف : شديد السواد كثيف لين . غداف : أسود طويل .

(٢) ديوان الخنساء ٧٦ وخزانة الأدب للبغدادى ١/ ٢٩٢ طبعة دار العصور . عجول : ثكلى تجسار : حنين . بو : ولد الناقة .

ابهجتها) والفكرة واحدة فى القولين ، وهذا يرجح أو يؤكد أن ربيعة جرى على أثر النابغة وحاكاه .

كذلك تتبين المحاكاة فى الانتقال من الغزل إلى غيره ، فمثلا تغزل المسيب بن علس ، ثم انتقل إلى وصف ناقته بقوله :

فتسل حاجتها إذا هى أعرضت — بخميصة سُرُح اليدين وَساع[1]

وأخذ يفتنُّ فى وصف الناقة .

وصنع سحيم مثل ذلك فقد تغزل ، ثم انتقل إلى وصف الناقة ، وذكر أنها وسيلته فى التسلى كما ذكر المسيب .

فلولا تَسَلِّى النفسُ عنك بِجَسْرَةَ — لها حين تكبو الناجيات رسيم[2]

وتغزل امرؤ القيس ثم انتقل إلى وصف ناقته التى تسليه همه بقوله دع هذا الغزل وسر عن نفسك الهم بناقتك :

فدَعْ ذا وسلِّ الهمَّ عنك بجَسْرة — ذَمُولٍ إذا صام النهار وهَجَّرا[3]

فحاكاه سحيم إذ انتقل إلى وصف ناقته بقوله :

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة — جُمالِيَّة تُنْبِي القُتودَ ضلوعُها[4]

فهو لم يحاكه فى طريقة الانتقال فحسب ، بل اقتبس الشطر الأول من البيت .

---

(١) ديوان المسيب بن علس (ملحق بديوان الأعشى)

(٢) ديوان سحيم ٣٧

(٣) ديوان امرئ القيس ٧٠

(٤) ديوان سحيم ٥٣

خصائص المعانى

١ — كان الشعراء صادقين فى شعورهم ، فصدقوا فى تعبيرهم عن عواطفهم ومشاعرهم . ومن هنـــا اتسمت المعانى بالأصالة وبالصدق ، وصار الغزل الجاهلى يمثل الطبع العربى والبيئة العربية، حتى الغزل الحسى الذى نشأ دخيلا لم يغرق فى حسيته وتكشفه كما أغرق من بعد فى شعر أبى نواس وبشار والحسين الضحاك وكثير من شعراء اليتيمة كابن سكرة، لأن الخلق العربى كان فى العصر الجاهلى فتيا غلابا ، أما بعد ذلك فقد انحل وخضع لمؤثرات أجنبية شتى ، ففحش تعبيره ، وتناول الذكور كما تناول الإناث .

وقد سبقت أمثلة شتى دلت على أصالته، كوصف الغزلين لجمال المحبوبة وتجملها ونفسيتها وأخلاقها ، وكوقوفهم بالأطلال ، وحرصهم على ذكر الأماكن وترديد أسمائها ، واستمدادهم الصور من البيئة فى ذلك كله .

وتبين أن الغزل العذرى وليد عاطفة حادة تغلب فيها الروحانية نزوات الجسد ، وأن شعراءه أحسنوا تصوير مشاعرهم فى صدق وقلة مغالاة .

كما تبين أن الغزل الحسى وليد شهوة ولذة ، وأن شعراءه صدقوا أيضا فى التعبير عن أحاسيسهم ، فلم يجبسوها ، ولم يغالوا فى الترجمة عنها .

ولكننا نجد الشعراء بعد ذلك يغالون فى تصوير مشاعرهم، مثل قول أبى الطمحان القينى :

هـل الوجـد إلا أن قلبى لو دنا
من الجَمْر قِيدَ الرمح لاحترق الجمر[1]

(١) محاضرات الأدباء ٢ / ٤٨

وقول العباس بن الأحنف :

يا قابس النار قد أعيت قوادحه اقبس إذا شئت من قلبي بمقباس (١)

ويقول المتنبي :

جربت من حر الهوى ما تنطفي نار الغضا وتكل عما يحرق (٢)

ويقول :

بجسمي من برته فلو أصارت وشاحي ثقب لؤلؤة لجالا
ولولا أنني في غير نوم لكنت أظنني مني خيالا (٣)

ويقول مجنون ليلى :

ألا إنما غادرت يا أم مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب (٤)

ويقول ديك الجن .

ولولا أن أحداث الزمان أردنني بخير وشر ما عرفن مكاني (٥)

وقد يبالغون في وصف دموعهم مبالغة ممجوجة تدل على خلاء من العاطفة ، وعلى أنهم متصنعون متكلفون ، مثل قول أحدهم :

لا أبتغي سقيا السحاب لها في مقلتي خلف من السقيا (٦)

وقول ابن المعتمر :

مررت على الفرات وليس تجري سفائنه لنقصان الفرات
فلما أن ذكرتك فاض دمعي فأجراهن جري العاصفات (٧)

---

(١) المرجع نفسه ٢ / ٤٨
(٢) ديوان المتنبي
(٣) ديوان المتنبي
(٤) محاضرات الأدباء ٢ / ٥٢
(٥) محاضرات الأدباء ٢ / ٥٢
(٦) محاضرات الأدباء ٢ / ٤٥
(٧) محاضرات الأدباء ٢ / ٤٥

وقول ابن طباطبا :

فما مد واديكم ولان أديمه ولكننى أمددته بدموعى[1]

على أنهم إذا كانوا يبالغون متأثرين بالعقل لا بالعاطفة فإنهم لجئوا أحياناً إلى معانى عقلية صرف لا تمت إلى العاطفة بسبب ، مثل قول أبى الشيص إنه يستلذ اللوم فى حبها ، وإنه صار يحب أعداءه لأنهم يشبهونها فى الصد والبخل بما ينفعه ، وإنه صار يهين نفسه لأنها مهينة عندها :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمنى اللوم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم إذ كان حظى منك حظى منهم
وأهنتنى فأهنت نفسى عامداً ما مَنْ يهون عليك ممن يكرم[2]

٢ — وهى معان تزخر بالحيوية وبالقوة .

وربما يسبق إلى الخاطر أن الحيوية والقوة مظهر من مظاهر الصدق والأصالة ، فلا حاجة إذاً إلى تكرار ، لكنه الحق غير ذلك ، لأن المعنى قد يكون صادقاً فى تعبيره عن شعور القائل، ولكنه غير قوى ، إما لضعف المعبر نفسه عما يحس ، وإما لأنه عبر تعبيراً صادقاً عما يحس غير أن تعبيره لا يزخر بالقوة ، لأن شعوره لم يكن يموج بالقوة ، فجاء التعبير على قدر الشعور .

أما الغزل الجاهلى فإنه صادق ، وفياض بالحيوية والقوة والحرارة . وهذه الصفات هى التى كفلت له أن يتخطى الأحقاب ، ويغالب عوادى الإغفال والنسيان ، فبقى خالداً يُرْوَى ويدرس ويحاكى ويبعث الإعجاب . وهل أدل على حيويته وقوته من بقائه قوى التأثير فى الشعر الإسلامى والعباسى والمعاصر ؟

(١) محاضرات الأدباء ٢ / ٤٥

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٣ / ١٧٤ ومحاضرات الأدباء ٢ / ٥٧

وقد أسلفت فى الفصول الماضية كثيراً من ضروب هذا التأثير .

وإذا كان اللاحقون يحاكون السابقين فى بعض مناحى غزلهم كالوقوف بالأطلال ووصف جمال الحسان الخ فإن هذا أمر طبيعى ، لأن المحاكاة غريزة ذات آثار شتى فى الحيـــاة ، تضرب جذورها فى أعماق الإنسان والحيوان ، والحب عاطفة شائعة فى الأحياء ، ومظاهره وآثاره قوية التشابه فى الناس ، فليس من البعيد أن يتشابه تصوير الناس لجوهره فى البيئات المتباينة والأجيال المتعاقبة وإن اختلفوا فى وسائل التصوير .

لكن شعراء العصر الإسلامى والعباسى شابهوا شعراء العصر الجاهلى فى التعبير عن الحب ، وشابهوهم أيضاً فى وسائل هذا التعبير ، وفى كثير من حواشيه وفروعه ، مما يدل على حيوية الشعر الجاهلى وقوة نفاذه إلى القلوب وقدرته على تمثيل عواطف قائليه ، لأنه ليس تعبيراً عن عاطفة فردية ، بل هو تعبير عن النفس الإنسانية ، تعبير عن عاطفة خالدة يتساوى فى رحابها الناس جميعا .

ومن الإنصاف أن أقرر أن هذه الحيوية لم تكن وحدها السبب فى محاكاة الشعر الجاهلى ، لأن هناك عوامل أخرى ساهمت معها ، لعل أهمها سلطان الاعتزاز الذى كان ينحو بكثير من الشعراء المنحدرين من أصل عربى إلى محاكاة أسلافهم ، ومشابهتهم فى شعورهم وتعبيرهم ، وسلطان اللغة والأدب الذى كان يجنح بالشعراء المستعربين إلى محاكاة القوالب التى درسوها .

ولست أزعم أن الجمود وحده كان ذا سلطان على نفوس الشعراء ربطهم بآثار القدماء ، لأن الجمود لم يكن من سمات العلماء والفقهاء وغيرهم ، سواء انحدروا من أصل عربى أو غير عربى ، فلماذا يختص بالشعراء وحدهم ؟ ولو أن الجمود من طبيعة العربى لكان أولى به أن يقيد رجال الفكر قبل أن يغل رجال العواطف والمشاعر .

٣ — يكثر أن تتشابه المعانى التى يعبر عنها الشعراء ، وقليلا ما يكون ذلك فى المعانى غير الشائعة عن طريق المصادفة وتوافق الخواطر ، وكثيراً ما يكون مرده إلى المحاكاة والاحتذاء ، فللشاعر راوية أو رواة يتأثرونه ويحاكونه إذا كانوا شعراء ، كما حاكى الأعشى خاله وأستاذه المسيّب ابن علس ، ولقد يحاكى الشاعر غيره وإن لم يكن أستاذه ، لأن اللغة تقليد ومحاكاة .

وقد يكون مرد ذلك إلى أن أكثر هذه المعانى ، وأكثر هذا التصوير تعبير عن عاطفة الحب ، وهى تتشابه فى الناس وتتقارب فى البيئة الواحدة. وقد صور الشعراء عواطفهم مستمدين من بيئتهم وحياتهم ومن الطبيعة التى يرون ، فمن الطبيعى أن تتحد معانيهم أحياناً ، وأن تتقارب وتتماثل أحياناً ، وليس فى اتحادها أو تقاربها ما يقطع بأن فيها سرقة أو محاكاة ، ما دامت من المعانى العامة الشائعة .

وقد ذهب أبو هلال العسكرى إلى أن المعانى كلها مشاعة بين الأدباء لا تفاوت فيها بين عربى وعجمى وقروى وبدوى (١) ، ولكنى أخالفه ؛ لأن المعانى تختلف باختلاف البيئة والثقافة والتجربة ، ولأن بعض المعانى ليس مما تتوافى عنده الخواطر ، إذ هو نتاج عبقرية وفيض إلهام .

فمن المعانى العامة أنهم شبهوا جمال عيون النساء بعيون المها ، وشبهوا خفة النساء ورشاقتهن ولفتاتهن وأعناقهن بالغزلان ، وشبهوا قوامهن بغصن البان وبالرمح ، وقالوا إن نظراتهن ساحرة الخ الخ .

ومن المعانى العامة أنهم وقفوا على الأطلال وتحسروا على انقضاء عهد سعيد ، وشكوا من العذال والوشاة ، ولست أستطيع اليقين بأن هذه المعانى المتشابهة ناشئة عن المحاكاة وحدها أو من اتحاد العاطفة والبيئة ، وإن كنت أرجح أن المعانى العامة ليست مجالا لكثير من المحاكاة ، لأنها فى مقدور كل شاعر ، ولأنها ليست من ابتكار شاعر .

---

(١) الصناعتين ٥٥

ولكنى أحكم بالمحاكاة إذا كان المعنى مما لا يتوافق عليه شاعران ، لأنه من اختراع شاعر ، أو كانت طريقة التعبير عن هـذا المعنى جديدة لم يسبق إليها الشاعر ، ثم جاء شاعر آخر بعده فكرر هذا المعنى نفسه، أو أضاف إليه شيئاً ليس بذى بال ، أو سلك مسلك الشاعر الذى سبقه فى تعبيره وأسلوبه وطريقة تصويره المعنى وإبرازه له .

ولأضرب أمثلة على ذلك .

(ا) صور المسيب بن علس[1] جمال حبيبته بأن وصف درة فى بحر مائج ، بذل الغواصون جهوداً مضنية فى اصطيادها ، حتى لقد ترصدوها شهوراً فعجزوا ، ولم يظفر بهـا إلا صياد صبور طويل خفيف طلى جسمه بالزيت ،وعزم على الظفر بها لأنه تماق يريد أن يستغنى بها ، ولأن أباه حاولها من قبل فغرق ، فهو يريد أن يثأر منها، فأخرجها لماعة كالجمر، وأغلى ثمنها ، ولما رآها الملاحون ملكت مشاعرهم فسجدوا لها ، وصار الغواص يضمها إلى صدره إعزازاً لها ، ثم قال إن هذه الدرة اليتيمة تشبه الحبيبة وقد أشرقت من خدرها .

ثم جاء الأعشى — وكان راويته وتلميذه وابن أخته — فترسم خطاه فى تخيله وتخييله ، وتصرف فى تصويره بعض التصرف ، فقال إن هذه الدرة كان يحرسها مارد من الجن ، يراقبها ليله ونهاره ليحميها من يد الغواصين ، وقال إن الغواص الذى ظفر بها كان يترقبها منذ كان شاباً .

قال المسيَّب :

كجُمانة البحرى جاء بهـا　　غواصها من لجـة البحر

صلبَ الفؤاد رئيس أربعة　　متخالفى الألوان والنّجْر

فتنازعوا حتى اذا اجتمعوا　　ألقوا إليـه مقالد الأمر

وعلت بهم سَجْحاءُ خارمة　　تهوِى بهم فى لجـة البحر

---

(١) المسيب مات ٥٨٠ م (شعراء النصرانية ٣٥٠)

حتّى إذا ما ساء ظنهم ومضى بهم شهر إلى شهر
ألقى مراسيَه بتهلكة ثبتت مراسيها فما تجرى
فانصبّ أسقفُ رأسه لَبِد نزعت رباعيتاه للصبر
أشفى يمجّ الزيتَ ملتمسٌ ظمآن ملتهب من الفقر
قتلتْ أباه فقال أتبعها أو أستفيد رغيبة الدهر
نصفَ النهار ، الماء غامره ورفيقه بالغيب لا يدرى
فأصاب مُنْيَتَهُ فجاء بها صدَفية كمضيئة الفجر
يُعطَى بها ثمناً ويمنعها ويقول صاحبه ألا تشرى ؟
وترى الصرارى يسجدون لها ويضمها بيديه للنحر
فلتلك شبه المالكية إذ طلعت ببهجتها من الخدر [1]

وقال الأعشى [2] :

كأنها درة زهراء أخرجها غواص دارين يخشى دونها الغرقا
قد رامها حججاً مُذْ طرَّ شاربه حتى تسعسع يرجوها وقد خفقا
لا النفس توئسه منها فيتركها وقد رأى الرَّغْب رأى العين فاحترقا
ومارد من غواة الجن يحرسها ذو نِيقَةٍ مُستعدّ دونها تَرَقا
ليست له غفلة عنها يطيف بها يخشى عليها سُرَى السارين والسرقا

(١) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٢ وقد سبق شرحها فى فصل الجمال
(٢) مات الأعشى ٦٢٩ م (شعراء النصرانية ٣٥٧)

فى حوم لجـة آذىٍّ له حَدَب   من رامها فارقته النفس فاعتلقا
من نالها نال خلداً لا انقطاع له   وما تمنى فأضحى ناعماً أنِقا
تلك التى كلفتك النفسُ تأملها   وما تعلقت إلا الحين والحرقا[1]

(ب) كذلك يتشابه ربيعة بن مقروم[2] والنابغة الذبيانى فى تصوير سحر الحبيبة وفى طريقة التصوير وأسلوبه .

يقول النابغة إنها لو تصدت لراهب أشيب أعزب متبتل لاجتذبته فأطال النظر إليها ، وأرهف أذنيه لسماع حديثها ، وأحس أن حديثها رشاد وهداية وإن خلا من رشاد ومن هداية :

لو أنها عرضت لأشمَط راهبٍ   عبد الإله صرورة متعبـد
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها   ولخاله رَشَداً وإن لم يَرْشُدِ[3]

وقال ربيعة بن مقروم إنها قديرة على أن تصبى الراهب الأشيب الذى أشرب الرهبانية ، وباعد الشيب بينه وبين اللذات ، فهو فى ديره دائم الضراعة والعبادة حتى ضنى واغضوضن وجهه واخدودد لحمه ، ولكنه لو عرضت له هذه الحبيبة وتصدت لتسحره لبلغت منه ما تريد ، فصبا ، وهم أن يهجر ديره ويخلع رهبانيته :

لو أنها عرضت لأشمط راهب   فى رأس مشرفة الذرى متبتل
جأر ساعات النهار لربه   حتى تخدّد لحمه مستعمل
لصبا لبهجتها وحسن حديثها   ولهَمَّ من ناموسه بتنزل[4]

---

(١) ديوان الأعشى ٢٣٠ وقد سبق شرحها فى فصل الجمال

(٢) شاعر مخضرم (شرح المفضليات ١ / ١٧٨) والنابغة مات ٦٠٤ م (شعراء النصرانية ص ٦٤٠)

(٣) ديوان النابغة ٣٠

(٤) الأغانى ٢٠ / ٩٢ . مستعمل : جاد فى عبادته حتى تعب .

(حـ) وصور سويد بن أبي كاهل اليشكري[1] حلاوة حديثها وجاذبيتها بالقدرة على اجتذاب الوعول من أعالي الجبال :

ودعتنى برقاها إنها تنزل الأعصم من رأس اليفع[2]

فأشبه النابغة في هذا التصوير أو أشبه النابغة لأنهما متعاصران :

وإن ضحكت للعصم ظلت روانيا إليها وإن تبسم إلى المزن يبرق[3]

(د) وقال المرقش الأصغر : ليست الخمر الطيبة الريح المعتقة التي ثوت في دنها عشرين عاماً بنجوة من الهواء ، ثم وفد بها على جيلان تجار من اليهود يبالغون في ثمنها ، ليست بأطيب من فم المحبوبة ليلا ، بل إن فاها ألذ وأطيب :

وما قهوة صهباء كالمسك ريحها تُعَلّى على الناجود طوراً وتُقْدَح

ثوت في سِباء الدن عشرين حجة يُطان عليها قَرْمَدٌ وتُرَوَّح

سباها رجال من يهود تواعدوا لجيلانَ يُدنيها إلى السوق مُرْبح

بأطيب من فيها إذا جئت طارقاً من الليل بل فوها ألذ وأنصح[4]

فحاكاه الأسود بن يعفر[5] في قوله إن ريقتها كأنها بعد النوم ممزوجة بخمر صرف تخيرها الخمارون ، قد ثوت في دن نصب على نصائب لتعرضه للريح والشمس ، وكأنه من طيب رائحته قد وضعت عليه قلادة من فغو وريحان ، وقد أحكم غطاؤه إحكاماً ، ولقد ثوى هذا الدن نصف حول بموضع يقال له أفان يختبر ويمتحن ، ويصعد سلماً بعد سلم ، لأنه قد وضع

(١) مات ٦٠٠ م (شعراء النصرانية ٤٢٥)

(٢) المفضليات ١ / ١٩٠   (٣) ديوان النابغة ٣٩

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشي ٢١١ والمفضليات ٢ ٤٢

(٥) المرقش الأصغر ٥٧٠ م (شعراء النصرانية ٣٢٨) والأسود بن يعفر ٦٠٠ م (شعراء النصرانية ٤٧٥)

على السطح ليضحى للشمس ويبرز للريح ، ثم نضجت خمره وبلغت الغاية ، فتعاطتها هذه الحبيبة أو تعاطاها ريقها صهباء من عنب أبيض ، يغلى صاحبها ثمنها لتجارها ونُدُلها أو لتجارها وباعتها من العجم :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت ... صِرْفاً تخيرها الحانونَ خُرْطوما
سلافةَ الدنِّ مرفوعاً نصائبه ... مُقَلَّدَ الفَغْوِ والريحان ملثوما
وقد ثوى نصف حول أشهراً جُدُدا ... بباب آفانَ يَبْتار السلاليما
حتى تناولهـا صهباءَ صافية ... يرشو التِّجارَ عليها والتراجيما[1]

ثم أشبههما سحيم فى قوله :

كأن على أنيابها بعد هجعة ... من الليل نامتها سُلافاً مبرَّدا
سلافة دنٍّ أو سلافة ذارع ... إذا صب منه فى الزجاجة أزبدا[2]

المحاكاة والعاطفة :

لكن هذه المحاكاة لا تجرد الشاعر من عاطفته ، لأن المحبين يتفاوتون كثيراً فى مقدرتهم على التعبير ، وحتى القادرون على التعبير تختلف قدرهم باختلاف مواهبهم ، لذا قد يجد الشاعر المحب فى تصوير غيره لعاطفته إفصاحاً عن عاطفته هو أيضاً ، فيعجبه هـذا التصوير فيتأثر به . يقول الدس هكسلى Albous Huxley فى قريب من ذلك : « كما يحاول غير المتمدين أن يحاكى المتمدين وإن لم يكن هذا المتمدين جديراً بالمحاكاة

(١) المفضليات ٢ : ٨١٢ التراجيم : خدم الخمارين وليس هذا المعنى فى المعاجم وكذلك زيادة الياء فى الجمع . ويصح أنه يريد التراجمة لأن باعة الخمر عجم يحتاجون إلى من يفهم الناس كلامهم . الحانون : ج حان وهو الخمار . الخرطوم : أول ما ينزل من الدن . ملثوم : عليه اللثام. جدد : ج جديد . باب آفان : موضع .

(٢) ديوان سحيم ٤٠ ذارع : زق طويل .

فكذلك الحياة تحاول جادة أن تحاكى الفن حتى ولو لم يكن فيه ما هو جدير بالتقليد ، ومن هنا نشأت الضرورة لوجود فن جميل . وقد ورد فى إحدى قصائد دانتى لمحة عن هذا المعنى ، فقد وصف قبلة ، ثم رأى عاشقين يتبادلان قبلة ، فقال : « قبلتها ، لقد قبلتها كما وصفت »[1] .

ويقول هكسلى أيضاً : « ليس معنى ضعف الشخص عن التعبير أنه ضعيف المشاعر فاتر العاطفة ، لأن القدرة على التعبير الرائع هبة لم يمنحها الخالق إلا لفئة نادرة من الناس ، ومن المؤكد أن عدد المعبرين أقل من عدد المحبين »[2] .

أثر الجاهلى فيما بعده

لست أشك فى أن الفصول السابقة كشفت عن تأثير الغزل الجاهلى فى العصور التى وقفت على آثاره .

فهناك تأثر بالغزل الجاهلى فى وصف جمال المرأة وتجملها ، وفى وصف حليها وملابسها ورواحلها ، وهناك تأثر به فى وصف الدبيب وتغفل الرقباء ، وتأثر به فى الحديث عن ألم الفراق ولذع الهجر والضيق بالعذال والوشاة الخ الخ وهناك محاكاة للجاهلى فى بكاء الأطلال ، وفى استمداد الخيـــال من البادية ، وترديد أسماء الأماكن وإن لم يعرفها الشاعر . . .

وحسبنا بعد ذلك كله أن نعرض لونين اثنين من تأثير الغزل الجاهلى فى أسلوب ما بعده وفى معانيه .

١ — أما تأثير الأسلوب الجاهلى فيكفى أن أضرب له مثالا من المحاكاة فى طريقة العرض وإبراز المعنى ، هى أن بعض شعراء الجاهلية

---

(١) Aldous Huxley. Text nd pretexts. P. 1

(٢) P. 139

كانوا يصفون شيئاً ، ويسبقون وصفهم بنفى ، ويتسابون فى وصف هذا الشىء وتزيينه ، حتى إذا ما بلغوا الكمال الذى يريدن ، جاءوا باسم التفضيل بعد النفى السابق ، ليدلوا به على أن هذا الشىء ليس بأحسن من المحبوبة ، مثل قول قيس بن الخطيم :

فما ظبية من ظباء الحسا ... ء عَيْطاء تَسمَعُ منها بُغاما
تُرَشِّحُ طفلا وتحنو له ... بِحِقفٍ قد انبتَ بَقْلا تُؤاما
بأحسَنَ منها غداة الرحيل ... قامت تُريك أثيثاً ركاما

وقول الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شرِقٌ ... مُؤَزَّرٌ بعميم النبت مكتمل
. . . .
يوما بأطيبَ منها نَشْرَ رائحة ... ولا بأحسنَ منها إذا دنا الأُصُلُ

ولقد يستعملون هذا الأسلوب للإبداع فى تصوير ألمهم من الفراق أو الهجر والدلالة على أنه أعظم الألم ، كقول عمرو بن معديكرب[1]

لعمرك ما ثلاثٌ حائمات ... على رُبَع يَرِعْنَ وما يَرِيع[2]
ونابٌ ما يعيش لها حُوارٌ ... شديدُ الطعن مثكال جَزوع[3]
. . . .

---

(١) الأصمعيات ٢٠٢

(٢) ثلاث : ثلاث نوق . حائمات : طائفات . ربع : فصيل ولد فى الربيع . يرعن : يرجعن وما يرجع لأنه هالك .

(٣) ناب : ناقة مسنة . حوار : ولد الناقة من وضعه إلى أن يصير فصيلا . مثكال : فقدت ولدها .

بأوجعَ لوعةً منى ووَجْدا غداة تحمل الأنسُ الجميع

ثم حاكاه مَنْ بعدهم فى هذا الأسلوب ، مثل جميل بن معمر فى قوله[1] :

وما صائبٌ من نابل قذفتْ به يدٌ وممرُّ العقدتين وثيق

له من خوافى النسر حُمٌّ نظائر ونَصْلٌ كنصل الزاغِيِّ فتيق

على نبعة زوراء أما خِطامُها فمتْنٌ وأما عودها فعتيق

بأوشك قتلا منك يوم رميتنى نوافذَ لم تظهر لهن خُروق

ومثل كُثَيِّر عزة فى قوله[2] :

فما روضة بالحَزْن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثُها وعَرارُها

بمنخرِقٍ من بطن واد كأنما تلاقت به عطارة وتِجارها

بأطيبَ من أردان عَزَّةَ مَوْهِنًا وقد أوقدت بالمَنْدِل الرطب نارها

وكقول ابن الدمينة :

وما نُطْفَةٌ صَهْباء صافية القَذَى بجَلْاء تجرى تحت نِيقٍ حَبابُها

سقاها من الأشراط ساقٍ فأصبحت تسيل مجارى سهلها وشعابُها

يحومُ بها صاديرى دونها الردى محيطاً فيهوى وردها ويهابها

بأطيب من فيها ، ولا قَرْقَفِيَّةٌ يُشاب بماء الزنجبيل رُضابها

---

(١) الأغانى ٨ / ١٢٣ حم نظائر : المراد ريشات سود متشابهة . زغبى : رمح شديد الاهتزاز كله فتيق : حاد دقيق . نبعة : شجرة تتخذ منها أجود القسى زوراء : معوجة ليكون سهمها أمضى . خطام : وتر . متن : قوى

(٢) تهذيب الكامل ٢ / ٢٣

ومثل حافظ إبراهيم[1] :

ما البابلية في صفاء مزاجها والشَّربُ بين تنافس وسباق
والشمس تبدو في الكئوس وتختفي والبدر يشرق من جبين الساق
بألذَّ من خُلُق كريم طاهر قد مازجته سلامة الأذواق

٢ ـ وأما تأثير معانيه ، فقد عرفنا أن شعراء الجاهلية استمدوا معانيهم وأخيلتهم من بيئتهم ، سواء أكانت مادة الخيال مطبوعة أم مصنوعة ، فمعانيهم أصيلة صادقة ، وخيالهم نابع من نفوسهم ، ومستوحى من مشاهداتهم .

فهم حين يشبهون المحبوبة مثلا بالشمس أو البدر أو الدرة أو المهاة يستمدون من البيئة أجمل ما فيها ويلحقون جمال المحبوبة به .

لكن الذين بعدهم حاكوهم ، أحياناً لأن البيئة واحدة ، وأحيانا لأنهم مأخوذون بحيوية هذا الشعر الجاهلي وصدقه وقوته .

فمثلا عمر بن أبي ربيعة يشبه محبوبته كما شبهها الجاهليون ، يشبهها بالدرة في قوله :

درةٌ من عقائل البحر بِكرٌ لم تنلها مثاقب اللآل[2]

وبالقمر في قوله :

كم قد ذكرتك لو أجدى تذكركم يا أشبه الناس كل الناس بالقمر[3]

وبالشمس في قوله :

لم أحسب الشمس بليلٍ بدت قبلُ لذي لحم ولا ذي دم[4]

وبالمهاة في قوله :

---

(١) ديوان حافظ ١ / ٢٨٠
(٢) الاغانى ١ / ٢١٣
(٣) الأغانى ١ / ١٠٧
(٤) الأغانى ١ / ١٨٨

مهـــاتان شـيعتا جؤذرا   أسـيلا مُقَلَّدُه أحـورا[1]

وقد مر بنا أنه حاكى امرأ القيس فى كثير من تصويره للدبيب والاتصال .

فمثلا قال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصل

فقال عمر :

فلما تقضى الليـل إلا أقله   وكادت أوالى نجمه تَتَغَوَّر

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه   ورَوَّح رعيـان ونَوَّم سمر

. . . .

وقال امرؤ القيس :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا   علىَّ حِراصاً لو يسرون مقتلى

فقال عمر :

أريتَكَ إذ هُنَّا عليك ألم تخف   رقيباً وحولى من عدوك حُضَّر

وقال امرؤ القيس :

فقالت يمين الله ما لك حيلة   وما إن أرى عنك الغواية تنجلى

فقال عمر :

وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً   أماتستحى أوترعوى أوتفكر ؟

وشبه المرار بن منقذ حبيبته بالشمس، وبالدمية كما شبه الجاهليون ، قال :

أملح الخلق إذا جردتها   غير سِمْطين عليها وسُؤُرُ

---

(١) الأغانى ١ / ١٥١

لحسبت الشمس في جلبابها قد تبدت من غمام مُنْسَفِرٍ
صورة الشمس على صورتها كلما تغرب شمس أو تذر (١)

وقال :

قد نرى البيض بها مثل الدمى لم يخنهن زمان مقشعر (٢)

وصور كُثَيِّر جاذبيتها بأنها قديرة على أن تنزل الوعول من أعالى الجبال إلى السهل الذى فيه الحبيبة ، كما صور سويد بن أبى كاهل وغيره :

وأدنيتنى حتى إذا ما ملكتنى بقول يُحِل العصمَ سهلَ الأباطح
تناهيت عنى حين لا لى حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح (٣)

وتأثر جران العود النميرى بالنابغة وربيعة بن مقروم فى تصويرهما الجاذبية المحبوبة بأنها تفتن الراهب كما سبق فقال :

ينازعننا اللذّ رخيا كأنه عوائر من قطر حداهن صَيِّف
رقيق الحواشى لو تسمّع راهب بِبُطْنانَ قولا مثله ظل يرجف (٤)

وفى غزل البارودى كثير من التصوير البدوى ، لأنه كان كلفا بمحاكاة الشعر القديم . فمثلا يقول إن قوامها ألين من الرمح ، ولحظها أمضى من السيف ، وقوامها غصن بان ، وخدها ورد وجلنار :

ذو قوام أعدى من الرمح لينا ولحاظ أمضى من السيف حدا

(١) المفضليات ١ / ٩٠ سؤر : أساور . منسفر : منقشع
(٢) المفضليات ١ / ٨٧
(٣) حماسة أبى تمام ٢ / ٩٨ .
(٤) ديوان جران العود ٢١ عوائر : قطرات

ويقول :

غصنُ بان قد أطلَعَ الحسنُ فيه ... بيد السحر جُلَّنارا ووردا[١]

ويقول :

ألفته فى شرك المحبة غادة ... هيهات ليس بصاحبى إن أفلتا

كالورد خداً والبنفسج طرَّة ... والغصن قدًّا والغزالة ملفتا[٢]

---

(١) ديوان البارودى ١ / ٢٣٩ شرح الجارم ومعروف

(٢) المرجع السابق ١ / ٩٤

خاتمة المطاف

أما بعد

فمن حق هـــذه الدراسة أن تختم بفقرات قصار ، يتبين فيها الجديد الذى وصلت إليه ، وشبه الجديد الذى كان خفياً فأمطت عنه اللثام ، والرجاء الذى أرتجيه ممن يأتنف دراسة ذات صلة بدراستى هذه .

(١)

لقد هدتنى دراستى للشعر الجاهلى إلى أنه الصدى القوى الصحيح للحياة العربية ، تنفَّس به الشعراء عن عواطف صادقة حية ، وتغنوا به ما اختلج بنفوسهم من آمال وآلام ، وأودعوه قُدَرهم على التخييل والتعبير ، وهدروا به مصورا ميولهم ونزعاتهم وأخلاقهم وعاداتهم ودخائل نفوسهم .

فمن أراد أن يتصور الحياة الجاهلية ويصورها للناس واضحة المعالم بارزة القسمات ، فليعمد إلى الشعر الجاهلى ليستنطقه ويستخبره[1] .

(٢)

انتهيت إلى أن الغزل العذرى وليد العصر الجاهلى لا الأموى ، كما ذهب إلى ذلك الباحثون المحدثون ، إذ كانت البيئة ومكانة المرأة ونظم الاجتماع مساعدة على الحب العفيف والغزل العذرى .

وإذا فإن هذه القصص — التى رويت عن العشاق فى العصر الأموى ، وكان لها أثر عظيم فى الغزل وفى قصص الغرام بأوروبا فى العصور الوسطى — امتداد لقصص العشاق العذريين فى العصر الجاهلى ، ومتأثرة بها ، وملونة بألوانها .

---

(١) درست فى كتابى (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) وفى كتابى (المرأة فى الشعر الجاهلى) وفى كتابى (أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى) ألوانا من الحياة مستمدة من الشعر .

(٣)

ورأيت أن الغزل الحسى يجافى الأخلاق العربية ، ونظام الاجتماع العربى ، ورجحت أنه فسائل صغار نقلت من الحبشة إلى بلاد العرب ، ولكنها ما لبثت أن امتدت فى أعماق الثرى جذورها ، واستغلظت سوقها ، وبسقت فروعها ، وأثمرت ، وكان الغزل الحسى ثمرها ، وإذاً فلم يكن الشعر الجاهلى بنجوة من تأثير الأمم الأخرى .

(٤)

واهتديت إلى أن الغزل الجاهلى أصدق فنون الشعر وأجدرها بالدراسة وأقواها أثرا فيما بعده من أعصار ، تعبيرا وتصويرا وطريقة عرض . وليس مرد هذا إلى حيويته وحدها . وإنما مرده إلى هذه الحيوية التى لا ريب فيها ، وإلى بواعث أخر كانت تجنح بالشعراء إلى محاكاة القدماء ، منها جلال القديم وروعته ، ومنها التعصب له والإعجاب به ، ومنها باعث آخر يكاد يكون ضربا من الجمود هو الدعة إلى المألوف ، والاطمئنان إليه ، والجولان فى نطاقه ، بحيث لا يُعنى الشاعر نفسه كثيرا فى الابتكار والتميز بضرب من فن القول ينصب لصاحبه تمثالا فريداً فذاً فى معرض البلغاء .

وقد جنى هذا التقليد على الشعر وعلى الشعراء . لأنهم حبسوا عواطفهم فى مجال السابقين ، فمرت على الشعر أحقاب تلو أحقاب ، وتغيرت عليه بيئة بعد بيئة ، ونطق به جيل من الشعراء بعد جيل ، ولكنه فى عصوره المختلفة ، وبيئاته المتباينة ، وعلى ألسنة قائليه من شتى الأمم التى نطقت بالضاد — غلب عليه أن كان صدى للشعر الجاهلى فى أغراضه ومعانيه . ولولا هذا التقليد لتفجرت عواطف بعض الشعراء الغزلين بقصص غزلية ، وبأفانين من الغزل تستوحى البيئة والزمن .

وما أشك فى أن أصدق الغزل وأشده حرارة وأبعده عن التكلف

والزخرف هو ذلك الذى تغنى به الشعراء عواطفهم فى العصر الجاهلى وفى الأموى . فإلى أى شيء نرد ذلك ؟ أنرده إلى أن الشعر العاطفى لون من القول لا تجيده الأمم إلا فى بداوتها وسذاجتها ، وأن الحضارة تباعد بين الشعراء والعواطف الفردية الخالصة ، وتطبع شعرهم بطابع التكلف والهرج والزينة ؟ أحسب ذلك حقا ، لأن وسائل الحضارة أقل إيحاء بالشعر ، فالقصور الأعمة العالية بقطانها لا تثير من الشاعر ما تثيره الأطلال ، والسفن والقطر لا تهيج منه ما تهيج النوق ، لأن الأطلال تناجى بما لا تناجى به القصور ، ولأن النوق كائنات حية صالحة لأن يشعر نحوها شعورا وجدانيا لا تشعره بمثله الوسائل المادية .

فإذا ما وثبنا إلى العصر الحاضر هالنا أن الغزل قليل ، وأن أقله وحى العاطفة الصادقة الحارة العالية ، ولقد يكون مرجع ذلك إلى أن سفور المرأة وتبذلها قد كشف للرجال عن حقيقتها ، وذهب بكثير من وسائل فتونها وإغرائها . فلم تلهم كما كانت تلهم المرأة المتصونة المحجبة ، ولقد يكون مرجعه أيضا إلى أن المرأة المعاصرة تزاحم الرجال ، وتطالب بالمساواة ، وتزاول من الأعمال ما يزحزح عنها هالة الأنوثة الجذابة ، وبذلك تبدو للرجال كالتمثال الجميل الأنيق من الشمع ، لا ينبض بالحياة ، ولا تترقرق فيه الروح ولقد تحسب المرأة أنها قد انتصرت ، ولكنها واهمة ، لأنها كسبت قليلا يرضى غرورها ونزقها ، وخسرت كثيرا كان خيرا لها ، خسرت سلطان الجمال الذى كانت تغزو به قلوب الرجال .

ولقد يكون مرد ذلك أيضا إلى أن الناس قد عكفوا على المادة عكوفا طمر معين الشاعرية ، فلم يعودوا يحفلون بغير المتع الحسية ، ومغانم المال والجاه ، حتى ليسمون من يتعلق بالمتع الروحية (خياليا) .

(٥)

الضح لى أن العرب لم يكونوا — كما قيل — شعبا ماديا عميا عن

الجمال المعنوى والنفسى ، وإنما كانوا ذوى بصيرة بالجمال المعنوى والمتعة النفسية ، لذلك قدروا جمال المرأة جسديا ونفسيا ، وصوروا حبهم لها وحنينهم إليها واستئسارهم لجمالها ، تصويرا شائقا صادقا جذابا .

(٦)

واتضح لى من دراسة التجمل والملابس والحلى والزينة والحدوج وغيرها أن الشعراء كانوا على صلة بالحضارة ، تجلت فى هذه المظاهر . كما تبين لى من دراسة الأطلال أن الكتابة لم تكن مجهولة للعرب تلك الجهالة التى رددها كثير من الدارسين .

(٧)

زادتنى هذه الدراسة يقينا بأن الأدب العربى فى حاجة إلى أن يُدرس بأسلوب جديد ، يكشف عن ينابيعه ، ويسايره فى جداول تروى ما حولها ، وتحمل مما فى مجراها وحول ضفافها ، حتى ينتهى بها المطاف إلى أن تصب فى ينابيع جديدة ، فى بيئات أخر ، وفى عصور لاحقة ، فندرسه على أنه مصدر لفهم الحياة العربية وتصويرها فى شتى مناحيها ، كما بينت فى المقدمة ، وندرس الغزل لأنه ذو قيمة عظيمة كما بينت فى الفصل الأول .

(٨)

وتبين لى من هذه الدراسة أن المرأة التى تنسل للأمة الأطفال ، قديرة على أن تلهم الرجال ، وتهذب الخلال ، وتحبب البطولة إلى الأبطال .

لذلك أطمح إلى أن تكون المرأة العربية ملهمة ومهذبة ، وذات خلق عظيم ، ومعتزة بكرامتها وشخصيتها ، ومشاركة للرجال فى الحياة العامة بالقدر الذى لا يطغى على أنوثتها ، ولا ينسيها أنها أم وربة بيت ، ترأم أبناءها ، ويسكن إليها زوجها .

(٩)

وآمل أن يكون هذا الكتاب قد شع على الحيـــاة العربية نوراً يكشف عن مجهول أو مستور ، ولعلى على حق فى أن أطرب لهذا الشعور ، وأن أغتبط بالنتائج التى وصلت إليها غبطة تنسينى ما كابدت

وما عانيت، كالزارع الذى كد وكدح ، وتفصد جبينه بالعرق ، فإذا ما رأى غرسه قد استحصد وأينع ثمرته المشاشة والطرب ، ونسى ما احتمل من جهد ومن نصب .

(١٠)

أتوق — إذا ما كان بين فتى وفتاة حب — أن تكون الفتاة ملهمة لغزل روحى عفّ ، وأن يكون هذا الحب حافزاً إلى المجد والوطنية والإبداع والتفوق فى شتى مناحى الحياة .

(١١)

وأدعو الشباب العربى إلى أن يعكف على دراسة الأدب العربى ، ويتذوق الأدب العربى ، ليستمد منه غذاء لروحه ، وريًّا لعواطفه ، وحياة لقلبه .

فإذا ما عبر عن حبه جلاه فى أدب مستور عفيف ، ينبىء عن سمو العاطفة التى أزجته ، وصفاء النفس التى أملته ، ويهذب من عواطف القراء ، ويحلق بهم فى سماء الخيال الرفيع والوجدان الحى ، فليس الأدب تزجية للفراغ ، وتلهية للبطالة ، وتغذية الميول المنحرفة ، وإنما الأدب رسالة الحق والخير والجمال .

المراجـــع

١ - المراجع العربية (مرتبة ترتيباً هجائياً)

١ — إحياء علوم الدين ، الغزالى . المطبعة العثمانية المصرية ١٣٤٠ هـ .

٢ — أخبار المراقسة وأشعارهم فى الجاهلية وصدر الإسلام . شرح الأستاذ حسن السندوبى . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م .

٣ — أخبار النساء لابن قيم الجوزية ، الطبعة الأولى . مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣١٩ هـ .

٤ — إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى ، القسطلانى طبعة بولاق .

٥ — الأسرة والمجتمع ، الدكتور على عبد الواحد وافى .

٦ — أشعار النساء المرزبانى [جـ ٣ مخطوط بدار الكتب ٤٢٨٩٨ (٨ ش أدب)] .

٧ — الإصابة فى تمييز الصحابة ، ابن حجر . المطبعة الشرفية بمصر ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م .

٨ — الأصمعيات من مجموع أشعار العرب ، نشره وليم بن الورد البروسى . طبعة ليبسغ .

٩ — الأصنام ، هشام بن محمد الكلبى ، نشره أحمد زكى باشا . المطبعة الأميرية ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .

١٠ — الأصول الفنية للأدب ، الأستاذ عبد الحميد حسن ، نشرته مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٤٩ م .

١١ — الاضطرابات الجنسية عند الرجل والمرأة ، الدكتور موريس الديك . مطبعة الاعتماد بمصر .

١٢ — أعلام النساء ، الأستاذ عمر رضا كحالة . المطبعة الهاشمية بدمشق .

١٣ — الأغانى ، أبو الفرج الأصفهانى ، الأجزاء الخمسة الأولى طبعة دار الكتب والأجزاء الباقية طبعة ساسى .

١٤ — ألف باء للبلوى . مطبعة بولاق ١٢٨٧ هـ .
١٥ — الإلياذة ، هوميروس ، ترجمة البستانى . مطبعة الهلال بمصر .
١٦ — الأمالى أبو على القالى ، طبعة دار الكتب
١٧ — إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية . على بن برهان الدين الحلبى ، الطبعة الثانية . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩ هـ
١٨ — أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء . الأب لويس شيخو اليسوعى المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٨٩٦ م .
١٩ — أيام العرب ، الأساتذة محمد أحمد جاد المولى وعلى البجاوى وأبو الفضل إبراهيم .
٢٠ — بكر وتغلب مطبعة نخبة الأخبار بومبى ١٣٠٥ هـ
٢١ — بلاغات النساء ، ابن طيفور . مطبعة والدة عباس الأول ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م
٢٢ — بلال داعى السماء ، الأستاذ عباس محمود العقاد
٢٣ — بلوغ الأرب فى أحوال العرب ، السيد محمود شكرى الألوسى ، الطبعة الأولى مطبعة دار السلام بغداد ١٣١٤ هـ
٢٤ — البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق الأستاذ حسن السندوبى ، الطبعة الثانية . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٢ م .
٢٥ — بين الحبشة والعرب ، الدكتور عبد الحميد عابدين . مطبعة الاعتماد بمصر
٢٦ — تاريخ العرب ، الدكتور فيليب حتى .
٢٧ — تاج العروس من جواهر القاموس ، السيد محمد مرتضى الزبيدى ، طبع مصر ١٣٠٧ هـ .
٢٨ — تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى ، الأستاذ السباعى بيومى ، مكتبة النهضة ١٩٤٨ .
٢٩ — تاريخ الأمم والملوك ، الطبرى . المطبعة الحسينية .

٣٠ — تاريخ التمدن الإسلامى ، جرجى زيدان مطبعة الهلال .
٣١ — تاريخ اليعقوبى ، نشره هوتسما ، M. Th. Houtsma
٣٢ — التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ، الحسين بن المبارك الزبيدى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .
٣٣ — تزيين الأسواق بتفصيل أحوال العشاق ، داود الأنطاكى . المطبعة البهية المصرية .
٣٤ — تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)
٣٥ — تفسير الزمخشرى (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ ﻫ .
٣٦ — تفسير الطبرى (جامع البيـــان فى تفسير القرآن) مطبعة بولاق ١٣٢٣ ﻫ .
٣٧ — تفسير الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) .
٣٨ — تفسير النيسابورى (تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان) ، على هامش الطبرى .
٣٩ — تهذيب الكامل للمبرد . الأستاذ السباعى بيومى
٤٠ — جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى طالب القرشى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ ﻫ ١٩٢٦ م .
٤١ — جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى . طبعة بومبى بالهند
٤٢ — جمهورية أفلاطون ، ترجمة الأستاذ حنا خباز . مطبعة المقتطف ١٩٢٩
٤٣ — الحب العذرى ، الدكتور أحمد عبد السلام الجوارى . مطبعة دار الكتاب العربى .
٤٤ — حديث الأربعاء ، الدكتور طه حسين . مطبعة دار المعارف
٤٥ — حضارة العرب ، الدكتور جستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر . الطبعة الثانية ١٣٦٧ ﻫ ١٩٤٨ م .

٤٦ — الحضارة المصرية القديمة ، الدكتور جستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم . المطبعة العصرية بالقاهرة .

٤٧ — الحماسة ، للبحترى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ م .

٤٨ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، الدكتور أحمد محمد الحوفى . الطبعة الثالثة مطبعة نهضة مصر ١٩٥٦ .

٤٩ — الحياة والحب ، إميل لودفيج ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر . مطبعة دار المعارف بمصر .

٥٠ — الحيوان ، للجاحظ . طبعة ساسى .

٥١ — خزانة الأدب ، البغدادى . مطبعة دار العصور .

٥٢ — الخصائص ، ابن جنى ، مطبعة دار الكتب .

٥٣ — الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ، الأستاذة زينب على فواز . المطبعة الأميرية ببولاق .

٥٤ — دراسات فى علم النفس الأدبى . الأستاذ حامد عبد القادر . نشرته لجنة البيان العربى بالقاهرة .

٥٥ — ديوان ابن الرومى . نشره الأستاذ كامل كيلانى .

٥٦ — ديوان أبى تمام ، أخرجه الأستاذ محمد محى الدين .

٥٧ — ديوان أبى نواس . مطبعة التقدم بمصر .

٥٨ — ديوان الأعشى (الصبح المنير فى شعر أبى بصير ميمون بن قيس ابن جندل) مع شرح أبى العباس ثعلب ، نشره رودلف جيير Rudolf Geyer ، مطبعة آداف هلزهوسن ١٩٢٧ .

٥٩ — ديوان امرىء القيس ، شرح الأستاذ السندوبى . مطبعة الاستقامة بالقاهرة . الطبعة الثانية .

٦٠ — ديوان أوس بن حجر ، نشره رودلف جيير . طبعة فينا ١٨٩٢

٦١ — ديوان البارودى ، شرح الأستاذين على الجارم وشفيق معروف

طبعة دار الكتب ١٩٤٢ ، ونسخة أخرى شرح محمود الإمام المنصورى
٦٢ — ديوان البحترى مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ ه .
٦٣ — ديوان جران العود النميرى ، رواية أبى سعيد السكرى . طبعة دار الكتب ١٣٥٠ ه ١٩٣١ م .
٦٤ — ديوان جرير . المطبعة العلمية بمصر ١٣١٣ ه
٦٥ — ديوان حاتم طى طبعة بيروت
٦٦ — ديوان الحادرة (قطب أو قطبة بن أوس بن محصن) إملاء أبى عبد الله اليزيدى ، نشره دكتور أنجلمان Dr. G. Engelmann طبعة برل .
٦٧ — ديوان حافظ إبراهيم . طبعة دار الكتب .
٦٨ — ديوان حسان بن ثابت ، نشره الأستاذ محمد شكرى المكى . مطبعة الإمام بمصر ١٣٢١ ه .
٦٩ — ديوان الحطيئة بشرح أبى الحسن السكرى . مطبعة التقدم بمصر .
٧٠ — ديوان ذو الرمة ، نشره كارليل هنرى هيس مكارتنى Carlile Henry Hayes. Macartney. مطبعة كلية كمبرج ١٣٣٧ ه ١٩١٩ م .
٧١ — ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس ، بتحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى طبعة دار الكتب ١٣٦٩ ه ١٩٥٠ م
٧٢ — ديوان سلامة بن جندل رواية أبى سعيد الأصمعى وأبى عمرو الشيبانى وأبى العباس محمد بن الحسن بن دينار الأحول ، نشره الأب لويس شيخو اليسوعى المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٠ م
٧٣ — ديوان شوقى (الشوقيات) .
٧٤ — ديوان الصبابة ، تأليف شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة . على هامش تزيين الأسواق . المطبعة البهية المصرية .

٧٥ — ديوان طرفة بن العبد مع شرح الأعلم الشنتمرى . مطبعة برطرند بمدينة شالون ١٩٠٠ م .

٧٦ — ديوان طفيل الغنوى نشره F. Krenkow لندن ١٩٢٧

٧٧ — ديوان عامر بن الطفيل العامرى ، رواية أبى بكر محمد بن القاسم الأنبارعم ، نشره المستشرق السير تشارلس ليال Lyall .

٧٨ — ديوان عبيد بن الأبرص ، نشره السير تشارلس ليال

٧٩ — ديوان عروة بن الورد وعليه شرح ابن السكيت . طبعة بيروت

٨٠ — ديوان علقمة الفحل ، طبعة بيروت .

٨١ — ديوان عمر بن أبى ربيعة . مطبعة اللبابيدى ببيروت .

٨٢ — ديوان عنترة بن شداد ، نشره الأستاذ عبد المنعم عبد الرءوف شلبى . مطبعة شركة فن الطباعة بمصر .

٨٣ — ديوان الفرزدق . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٤ هـ ١٩٣٦ م .

٨٤ — ديوان قيس بن الخطيم ، نشره رودلف جيير ١٩١٤ طبعة ڤينا . وديوانه المخطوط مكتبة تيمور . شعر ١٩٦ .

٨٥ — ديوان لبيد نشره دكتور هابر Dr. A. Huber طبعة ليدن ١٨٩١ م

٨٦ — ديوان المتنبى ، شرح الأستاذ البرقوقى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م

٨٧ — ديوان المسيب بن علس (ملحق بديوان الأعشى) نشره رودلف جيير ١٩٢٧ م .

٨٨ — ديوان معن بن أوس المزنى رواية أبى على إسماعيل بن القاسم البغدادى ، نشره باول سكوارز Paul Schwarz ليبزج ١٩٠٣ م

٨٩ — ديوان مهيار الديلمى ، طبعة دار الكتب ١٣٤٥ هـ ١٩٢٥ .

٩٠ — ديوان النابغة الذبيانى وعليه شرح البطليوسى ، طبعة بيروت

٩١ — ديوان نابغة بنى شيبان ، طبعة دار الكتب ١٣٠١ هـ ١٩٢٢ م .

٩٢ — ذيل الأمالى ، أبو على القالى . مطبعة دار الكتب .
٩٣ — ربيع الأبرار للزمخشرى . مخطوط بمكتبة تيمور أدب ٥٩٢
٩٤ — رسائل إخوان الصفا ، طبعة بومبى .
٩٥ — رسائل العشق لابن سينا ، من جامع البدائع . مطبعة السعادة بمصر ١٩١٧ .
٩٦ — رسالة العشق والنساء ، من مجموعة رسائل الجاحظ ، طبعة ساسى .
٩٧ — رسالة فخر السودان ، من مجموعة رسائل الجاحظ ، طبعة ساسى .
٩٨ — رسالة القيان ، من مجموعة رسائل الجاحظ ، طبعة ساسى
٩٩ — الرق فى الإسلام ، أحمد شفيق بك مطبعة بولاق ١٨٩٢ م .
١٠٠ — الروض الأنف فى شرح سيرة ابن هشام ، السهيلى . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .
١٠١ — الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الظاهرى ، نشره المستشرق ا . ر . نيكل .
١٠٢ — سحر العطور ، الدكتور أحمد على الشحات . نشرته لجنة البيان العربى بالقاهرة .
١٠٣ — سفر أشعيا .
١٠٤ — سيرة ابن هشام ، نشره الأستاذ محمد محى الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة
١٠٥ — شاعر الغزل . الأستاذ عباس محمود العقاد . مطبعة المعارف بمصر
١٠٦ — شرح ديوان الحماسة . التبريزى . مطبعة بولاق .
١٠٧ — شرح المفضليات . ابن الأنبارى .
١٠٨ — شرح نهج البلاغة . ابن أبى الحديد . مطبعة البابى الحلبى .
١٠٩ — الشعر والشعراء . ابن قتيبة . تصحيح الأستاذ مصطفى السقا . الطبعة الثانية .

١١٠ — شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعي . مطبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩١ م .
١١١ — الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية ، الدكتور شوقي ضيف .
١١٢ — الصناعتين لأبي هلال العسكري ، الطبعة الثانية . مطبعة صبيح .
١١٣ — طبقات الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي مطبعة السعادة بمصر .
١١٤ الطبقات الكبرى . ابن سعد
١١٥ — طهارة العرب ، أحمد الشنقيطي .
١١٦ — طوق الحمـــامة في الألفة والآلاف ، ابن حزم الأندلسي . مكتبة عرفة بدمشق
١١٧ — العقد الفريد ، ابن عبد ربه . الجزء الأول والثاني طبعة لجنة التأليف والترجمـــة ، الجزء الثالث طبعة المطبعة العامرية الشرفية بمصر .
١١٨ — العقل الباطن ، سادلر . ترجمة الأستاذ عباس حافظ .
١١٩ — علم النفس الفردي ، الدكتور إسحاق رمزي ، مطبعة دار المعارف بمصر .
١٢٠ — العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، مطبعة أمين هندية .
١٢١ — عيون الأخبار ، ابن قتيبه ، مطبعة دار الكتب .
١٢٢ — فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي ، عبد الله الشرقاوي ، مطبعة البابي الحلبي بمصر .
١٢٣ — فتوح البلدان للبلاذري . مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩-١٩٠١
١٢٤ — فجر الإسلام ، الأستاذ أحمد أمين ، الطبعة الثانية .
١٢٥ — فقه اللغة وسر العربية . الثعالبي ، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م .
١٢٦ — فلسفة الجمال ، جاريت ، ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس وزميليه

١٢٧ — فوات الوفيات ، ابن شاكر ، مطبعة بولاق .
١٢٨ — فى الأدب المقارن . الدكتور عبد الرزاق حميدة ، مطبعة العلوم بمصر .
١٢٩ — فى الأدب والنقد . الدكتور محمد مندور ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٩
١٣٠ — فى علم النفس . الأستاذين محمد عطية الإبراشى وحامد عبد القادر ، المطبعة المصرية
١٣١ — القاموس المحيط ، الفيروزابادى .
١٣٢ — الكامل ، المبرد ، طبعة المستشرق ريت ليبزج .
١٣٣ — الكامل فى التاريخ . ابن الأثير ، المطبعة الأميرية .
١٣٤ — كتاب الخطابة لأرسطو طاليس ، ترجمه وقدم له الدكتور إبراهيم سلامة ، مطبعة مخيمر بمصر ١٩٥٠
١٣٥ — الكشكول للعاملى . المطبعة الكبرى الإبراهيمية بمصر ١٢٨٨ ﻫ
١٣٦ — كيف تفهم الناس ، الدكتور إبراهيم ناجى .
١٣٧ — كيف يعمل العقل . سرل برت . ترجمة الأستاذين محمد خلف الله وفؤاد جلال .
١٣٧ — لسان العرب . ابن منظور . مطبعة بولاق .
١٤٩ — المؤتلف والمختلف . الآمدى . نشره الدكتور فريتس كرنكو . مكتبة القدسى بالقاهرة ١٣٥٤ ﻫ .
١٤٠ — مجالس ثعلب . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٩ م
١٤١ — مجمع الأمثال . الميدانى . المطبعة البهية المصرية .
١٤٢ — المجمل فى فلسفة الفن . كروتشة . ترجمة الأستاذ سامى الدروبى مطبعة الاعتماد بمصر .
١٤٣ — المحاسن والأضداد . الجاحظ . مطبعة السعادة بالقاهرة .

١٤٤ — محاضرات الأدباء . الراغب الأصفهانى . مطبعة المويلحى بمصر
١٣٥ — المحبر . أبو جعفر محمد بن حبيب . رواية أبى سعيد السكرى . نشرته الدكتورة إيلزه ليحتن شتيتر الأمريكية . مطبعة جمعية المعارف العثمانية بحيدر أباد ١٣٦١ ه‍ ١٩٤٢ م .
١٤٦ — المخصص لابن سيده . مطبعة بولاق .
١٤٧ — المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها . الأستاذ عبد الله عفيفى . الطبعة الثانية . مطبعة المعارف ١٣٥٢ ه‍ ١٩٣٣ م .
١٤٨ — المرأة فى التاريخ والشرائع . الأستاذ جميل بيهم . بيروت ١٣٣٩ ه‍ ١٩٢١ م .
١٤٩ — المرأة فى مختلف العصور . الأستاذ أحمد خاكى . مطبعة دار الكتب ١٩٤٧ م .
١٥٠ — مراجعات فى الأدب والفنون . الأستاذ عباس محمود العقاد .
١٥١ — مركز المرأة فى الإسلام . السيد الأمير الهندى . ترجمة الأستاذ على فهمى محمد . مطبعة إلياس زخورا بالقاهرة
١٥٢ — مروج الذهب ومعادن الجوهر . المسعودى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ ه‍ .
١٥٣ — مسالك الأبصار . ابن فضل الله العمرى . مطبعة دار الكتب ١٣٤٢ ه‍ - ١٩٢٤ م
١٥٤ — المستطرف من كل فن مستظرف . الإبشيهى . المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٨ ه‍ .
١٥٥ — مصارع العشاق . أبو جعفر السراج مطبعة الجوائب بالآستانة .
١٥٦ — مطالعات فى الأدب والحياة . الأستاذ عباس محمود العقاد .
١٥٧ — المعارف . ابن قتيبة . المطبعة الإسلامية بمصر ١٣٥٣ ه‍ ١٩٣٤ م .
١٥٨ — معجم البلدان ياقوت الحموى . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .

١٥٩ — معجم ما استعجم للبكرى . تحقيق الأستاذ مصطفى السقا .
مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٤ — ١٩٤٥
١٦٠ — المعلقات العشر . الشنقيطى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ .
١٦١ — المفضليات . الضبى . شرح الأستاذين شاكر وهارون مطبعة
المعارف بمصر .
١٦٢ — موجز تاريخ الحضارة العربية . الأستاذين ناجى معروف
وعبد العزيز الدروى . مطبعة النجاح ببغداد ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م .
١٦٣ — النابغة الذبيانى الأستاذ عمر الدسوقى . مطبعة نهضة مصر .
١٦٤ — النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية .
الأستاذ محمود جمعة مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٤٩ .
١٦٥ — النوادر ، أبو على القالى ، مطبعة دار الكتب .
١٦٦ — النهاية فى غريب الحديث ، ابن الأثير ، طبعة مصر ١٣١١ هـ .
١٦٧ — نهاية الارب ، النويرى ، مطبعة دار الكتب .
١٦٨ — هذه الشجرة ، الأستاذ عباس محمود العقاد .
١٦٩ — هلال نوفمبر ١٩٣٤ م .
١٧٠ — الوساطة بين المتنبى وخصومه . الجرجانى
١٧١ — اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، الدكتور جستاف لوبون ،
ترجمة الأستاذ عادل زعيتر مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٠ م .

٢ — المراجع الإفرنجية

1) On love. Standhall. Translated by Holland.
2) Texts and Pretexts. by Aldous Huxley. Phoenex. 1950.
3) Benham's. New Book of Qutations. London.
4) Plato's. Lysis Sumposium Gorgias, Edited by Lamb.
5) Platon : le Ban Quet tredad. Meunier.
6) Greek Love. in The Encyclopaedia of Religion and Ethics.
7) Muslem Law. An Historical Introduction to The Law of Inheritance. by Alexander David. Russell and Abdullah Al Mamun Suhrawardy. London.
8) A Literary History of The Arabs. by Nicholson. London. 1907.
9) A History of Arabian Music. by Farmer. London. 1929.
10) Arabic Literature. by Gibb.
11) Psychology of Sex by Havelock Ellis.
12) General and Social Psychology. by Thouless. London. 1945, Univ.
13) The Back Cround of Islam. by Glaser.
14) Histoire Des Papes. Paris 1842.
15) La Question Feministe. Rosler.

فهرس

الفصل السادس

أثر البيئة والطبع في الغزل

الفصل السابع
الأسلوب والمعنى

كتب مطبوعة للمؤلف

١ — وحى النسيب فى شعر شوقى :

دراسة لغزل شوقى من حيث بواعثه وخصائصه .

٢ — فن الخطابة : (الطبعة الثانية)

دراسة فنية للخطيب وعدته وصفاته وعوامل نجاحه ، وللخطابة وأنواعها وأصولها وأسلوبها الخ .

٣ — الغزل فى العصر الجاهلى : (الطبعة الثانية)

دراسة مبتكرة للغزل فى الجاهلية ، من حيث أصوله وبواعثه وأنواعه وعلاقته بالبيئة الخ ، مع موازنات بين الجاهلية والإسلام .

نال به المؤلف درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

٤ — مع ابن خلدون :

عرض لآرائه فى التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع ، التى لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه نثراً وشعراً لم تسبق .

٥ — المرأة فى الشعر الجاهلى :

دراسة مفصلة للمرأة فى العصر الجاهلى من الشعر ، من حيث مكانتها فى الأسرة وفى القبيلة وفى المجتمع أمّاً وزوجة وبنتاً وأختاً وقريبة .

ودراسة المرأة فى الحياة الفنية ، من حيث روايتها الشعر ، ونقدها له ، وأثرها فى الغناء ، وشاعريتها ، وألوان شعرها ، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لها الخ .

نال به المؤلف درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز .

٦ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى : (الطبعة الثالثة)

دراسة للشعر الجاهلى من حيث تصويره لألوان من الحياة الاجتماعية والخلقية والدينية والعادات والمعتقدات ، تدل على أصالته وصحته .

٧ — أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى :

عرض وتحليل لصور الطبيعة فى الشعر الجاهلى ، من حيوان ونبات وجماد وظواهر فى الأرض أو فى الجو ، واستنباط الخصائص العامة فى تناول الشعراء للطبيعة ، وصدى البيئة فى موضوعاتهم وخيالهم وفنهم .

٨ — وطنية شوقى : (الطبعة الثانية)

دراسة أدبية تاريخية مقارنة ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقى ، وموازنات بينه وبين غيره من الأدباء .

٩ — سوسن :

قصة عربية سامية الغرض ، نبيلة الهدف ، رائعة الأسلوب .

١٠ — الفكاهة فى الأدب (جزآن) :

دراسة مبتكرة للفكاهة العربية وأصولها ، وتقسيمها إلى أنواع طبقاً للبواعث النفسية ، وعرض مفصل لدلالة الفكاهة الاجتماعية والسياسية واللغوية .

١١ — أبو حيان التوحيدى :

دراسة لعصره السياسى والعلمى والأدبى ، وعرض لحياته وثقافته ، وتحليل لأخلاقه ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنات بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ .

١٢ — سماحة الإسلام :

تحليل منصف لسماحة الإســـلام فى نواح شتى ، معتمد على النصوص والتشريع والتطبيق والموازنة بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع .

١٣ — البطولة والأبطال :

دراسة للبطولة وأسسها وأنواعها ، وعرض صور من بطولات العرب فى الجاهلية والإســـلام ، وتحليل لبعض أبطال مصر الحديثة .

١٤ — المثل السائر لابن الأثير الموصلى :

تحقيق وتعليق وإحياء لمرجع من أمهات المراجع القديمة فى البلاغة والنقد (بالاشتراك) .

١٥ — أدب السياسة فى العصر الأموى :

دراسة للأحزاب السياسية ، وعرض نمـاذج من أدبها شعراً وخطابة وحواراً وكتابة ، وتحليل هذا الأدب ، وموازنات بين بعضه وبعض ، ودراسة للعصبية القبلية والجنسية وأثرها فى الشعر والسياسة ، وترجمة موجزة لبعض أدباء السياسة .

تحت الطبع

١٦ — فرسان الشعراء .

١٧ — أمهات المراجع .

١٨ — الإسلام فى شعر شوقى

١٩ — بين العرب والفرس فى الجاهلية والإسلام

(الناشر : مكتبة نهضة مصر بالفجالة — القاهرة)

مطبعة النهضة العربية
١٣ شارع كامل صدقي (القاهرة)

الثمن ٥٠ صـ